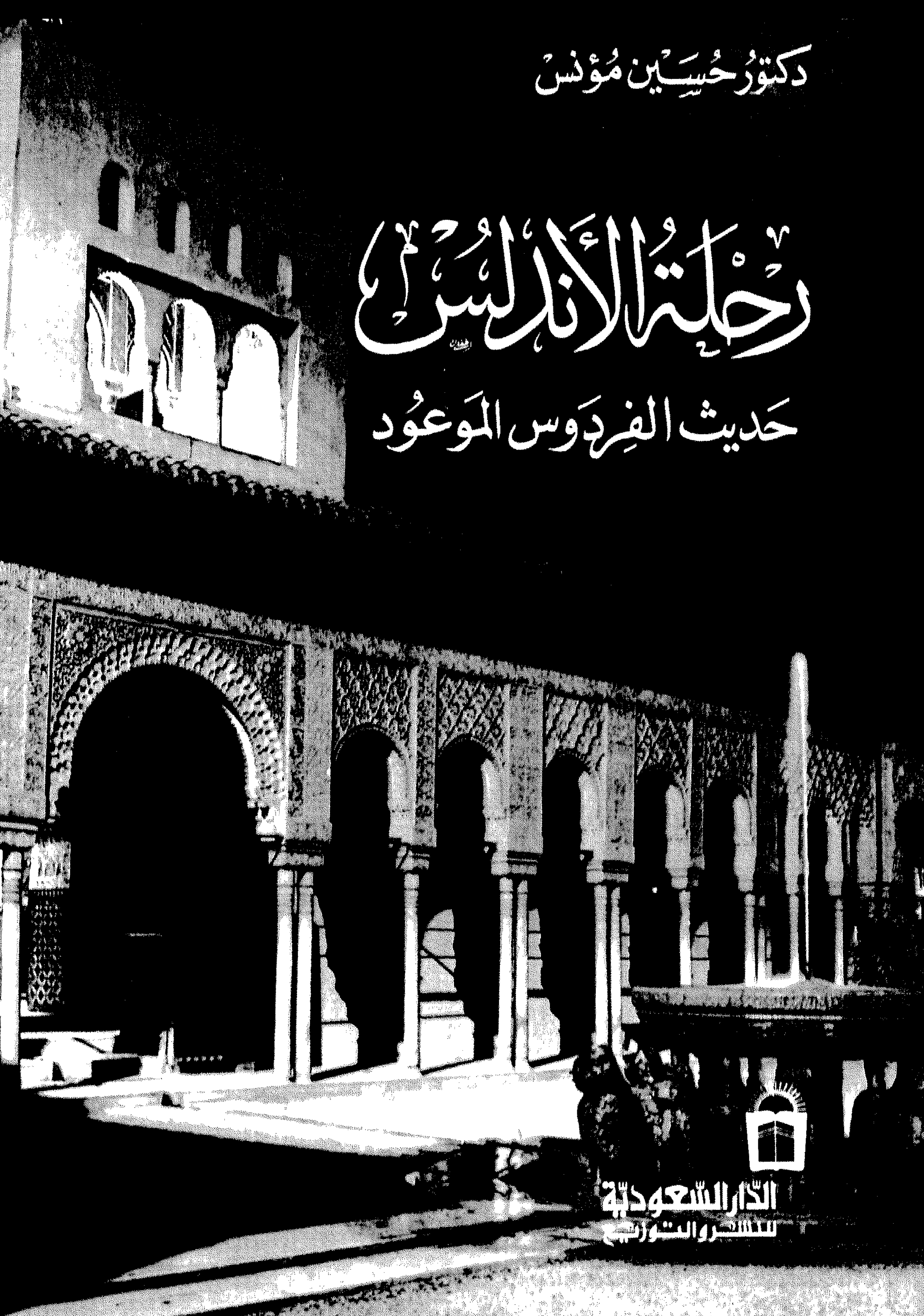
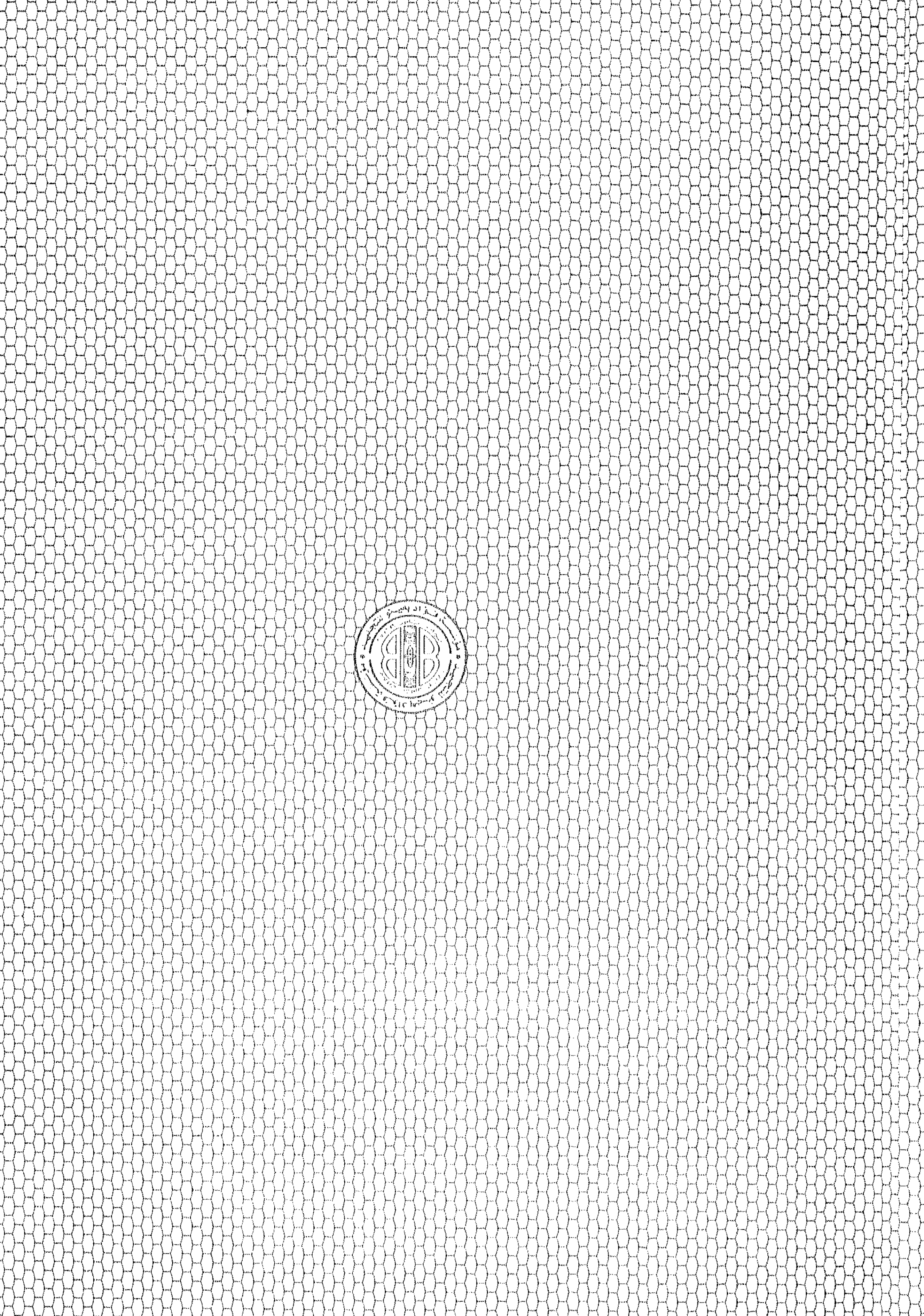


دكتور حسين مؤنس

رحلة الأندلس

حديث الفردوس الموعود

الدار السعودية
للنشر والتوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

رحلة الأندلس

حديث الفردوس الموعود

الطبعة الأولى
١٩٦٣م

الطبعة الثانية
مُنقحة مُصحّحة ومَزيدة
١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م

الدار السعودية
للنشر والتوزيع

جدّة
الإدارة : البغدادية - عمارة الجوهرة
تليفون : ٦٤٣٢٨٢١ ٦٤٢٤٠٤٣/ ٦٤٢٤٢٥٥
تلكس : ٤٠٤٣٥١ نشرا
ص ب ٢٠٤٣ ٢١٤٥١ . برقيا نشردار
المستودعات : طريق مكة المكرمة . شرق المطار القديم
المكتبات : ١ - شارع الملك عبد العزيز ، تلفون ٦٤٧٨٧٢٣
٢ - شارع فلسطين . مركز الزومان ، تلفون ٦٦٠٨٩٦٤

الدمّام : الشارع العام ، ص . ب ٨٩٩
تليفون : ٨٣٢٣٥١٥ ٨٣٣٥٥٢٠

دكتور حسين مؤنس

رحلة الأندلس

حديث الفردوس الموعود

الدار السعودية
للنشر والتوزيع

الإهداء

هذه الأحاديث الأندلسيّة ...
مُهداة الى الصديق الكريم : أحمد نجيب هاشم ؛
وَمُهداة الى كل مَن أسعدني الحظ بصُحبته في ذلك الطّريق ؛
وَمُهداة الى كلّ مَن سيَسير بعدنا على ذلكَ الدّربِ الطّويل .

هذه الطبعة الثانية

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فإن الكتب كالناس : لها حياة وحظوظ ومقادير

وهذا الكتاب صادف محبة وحسن قبول من قارئه لأول ظهوره، ربما لأن موضوعه يمس عاطفة المسلم ووجدان العربي، فهناك في قرطبة تلاقت أشعار أحمد شوقي ومحمد إقبال عبدالله أبي الخير وشعراء عرب كثيرين مجيدين، ولا عجب في ذلك فان الأندلس من أحب أرض الله إلى عباد الله ما بين عرب ومسلمين حتى لقد درجوا على أن يسمّوه: الفردوس **المفقود** .

وقد سميته الفردوس الموعود لأخفف بكلامي من شجن المسلم ولوعة العربي، ولم يُخفف من أشجان صحبي ما قلت من أن الأندلس غرق في ليل التاريخ لأن كل ما في هذا الكون مصيره إلى الزوال ـ أندلس وغير أندلس ـ ولا يبقى في النهاية إلا وجه ربك ذي الجلال والاكرام.

وقلت لهم إن الأندلس لا يكون قد ضاع إذا كنا قد انتفعنا بعبرته أو تعلّمنا مما جرى عليه كيف نحصن بقية أوطاننا ـ وهي كثيرة والحمد لله ـ من أن تكون أندلسات

لا فائدة

قرأوا ما كتبت وزاد فيض الدموع .

بل بلغ من محبة بعض صناع الكتب في بلد عربي بعينه أن أقبلوا على الكتاب يطبعونه مرة بعد أخرى بالتصوير حتى بهتت صوره ولم تعد ترى، ثم رقت أفئدتهم من سنوات فأعفوا عن الكتاب، ولعل ما نزل ببلادهم شغلهم عنّا، أقال الله عثرة هذه البلاد وغفر لأصحابنا عفاة الكتب وأعانهم على العمل وطنهم العزيز.

* * *

وعدت إلى الكتاب أضمّد جراحه وآسوا أسقامه فراجعت وقومت وصوبت، ورأيت أن أستبدل بكل الصور القديمة صوراً ملوّنة، فلعل بهجة اللون أن تخفف أوصاب الأحزان.

وأعانني على ذلك أخي الأستاذ محمد بن علي الوزير فضم الكتاب إلى سلسلة منشورات داره الزاهرة، فأفاض الألوان على الكتاب فيضاً، فأضاف بذلك إلى الكتاب كتاباً آخر من الأشكال والألوان.

وقد أجريت هذه الطبعة على أنها الثانية وربّما كانت العاشرة.

والحمد لله سبحانه صاحب الفضل والمنّة، وهو من وراء القصد والنية .

الدكتور حسين مؤنس

القاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

مقدمة الطبعة الأولى

موعود لا مفقود..

زرت إسبانيا أول مرة فى صيف سنة ١٩٤٠ فى غمار الحرب والضرب ، والدنيا قائمة قاعدة . .

ذهبت إليها لأطوف بآثارنا فيها ، ولكن ظروف الحرب وقلة المال وضيق الوقت وتعطل الطرق حالت دون الأمل المنشود ، فغادرت إسبانيا وكلى أمل فى أن أعود . . .

ومن ذلك الحين لم يخرج الأندلس من خاطرى أبداً : إذا كنت فيه فأنا بين آثاره ومغانيه ، وإذا كنت بعيداً عنه فأنا مع تاريخه أتأمله وأستوحيه . .

ولا أدرى كم مرة طوفت فيه ، ولكنى ما زرته مرة إلا وشعرت كأننى أزوره أول مرة : ألقاه لقاء مشتاق وأودعه وداع مشتاق . .

وحيثما حللت فى أوطان العرب وجدت الأندلس على كل لسان : من رآه يحلم بما رأى ؛ ومن لم يره يحلم بما يمنى النفس برؤيته . والأندلس عندهم جميعاً بلد عربى قائم بأهله ومدائنه وعلمائه وشعرائه ومجده الذى كان . .

فكيف يكون مفقوداً وله كل هذا الوجود ؟

إنه موعود لا مفقود . .

موعود عند من يعلمون أن الماضى لا يموت إلا بالنسبة إلى الأموات . .

وموعود عند كل من يدركون أن التاريخ لا يعرف الأمس أو اليوم او الغد ، وإنما هو نهر الحياة يمضي إلى الأجل المضروب الذى قدره علام الغيوب . .

وموعود عند كل من يؤمنون بأصالة هذه الحضارة العربية الزاهرة ، التى عبرت القفار والبحار وثبتت أقدامها بين فكى الأسد ، وبنت صرحها فأعلت والعدو والقدر لها بالمرصاد . .

نعم ، وما قرطبة الخلفاء بشيء من أشياء الماضى ، وإنما هى حاضر ومستقبل ، ما دامت لنا قلوب تعى وتذكر . .

ولا غرناطة بنى نصر بذكرى غبرت ومضت ، وإنما هى علَم حى متجدد الرواء ، يعرفه كل من على وجه الغبراء : يزورها الناس جميعاً للفرجة والإعجاب ، ونزورها نحن للذكرى وإعادة الحساب . .

والأندلس كله — من جبال البرت (البرانس) إلى الزقاق — كتاب مجد خالد ، يقرأه من هو جدير بالمجد الخالد ، ويستشعر الحياة فيه من يشعر بأنه ينتسب إلى شعب لا يموت . .

موعود لا مفقود . .

بهذه الفكرة نزور الأندلس معاً، ولا علينا ممن يحسبون أن الحسرات فلسفة، والعبرات حكمة، وتَذَكّرُ الآلام تكفير وتطهير . .

والرجال لا يبكون ولا يتوجعون ، إنهم يتأملون ويعتبرون ، وقد جرى الزمان علينا كما جرى على غيرنا . ولم ينشئ البشر على طول الأعصر شيئاً يبقى بقاء الجبال ، إنما هى أجيال تقبل وتمضى ، وتنشئ وتعلى ، ثم تمضى وما بنت إلى حيث يمضى كل مخلوق . .

وسبحانه ، خلق فقدَّر ، وهو يرث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

مدريد ، مايو ١٩٦٣ — حسين مؤنس

الطَّريق إلىَ الأندَلُس

الطريق إلى الأندلس طويل . .

طويل فى حكم الزمان ، لأن بيننا وبين عصره الأخير ما يزيد على خمسة قرون ، وبيننا وبين عصره الزاهر نحو عشرة قرون . .

وطويل فى حكم المكان ، لأن الأندلس قابع هناك خلف بحار وجبال ووديان . .

وليس فى الدنيا أرض عنيفة قاسية تتحدى الصبر وقوة الاحتمال ، كهذه الأرض التى أقام عليها أجدادنا مجداً خالداً كالجبال والبحار والوديان . .

أرض صخرية قاسية ، تصلبت بتوالى البرد القارس والحر اللافح ملايين السنين ، حتّى تغضنت وبدت للرائى كأنها وجه عجوز . .

الطرق فيها أخاديد بين جبال ، أو خطوط تسترسل حتّى تتلاشى فى الأفق البعيد وسط البرارى والسهول . .

الأنهار شقوق فى الأرض ، شحيحة ، تحمل من الحصى أكثر مما تحمل من المـــاء . .

فى الشمال تجد الأرض صلبة سوداء ، يغسلها ماء المطر معظم العام . .

وفى الوسط تجدها رمادية ، أو بنية جافية كالجرانيت ، تتخللها كتل من الشيست الأسود كأنها رؤوس شياطين . .

وفى الجنوب رملية حمراء تتسلقها أشجار الزيتون فى صبر وسكون . .

ومن قلب هذه الأرض العاتية تطفر هنا وهناك واحات خضراء كأنها قطع من الجنة ، بالضبط كما يطفر الحنان والخير من قلب العجوز الطيب الأصيـــل . .

واحات تلقاك على غير ميعاد . تكون وسط جبال موحشة يخيل إليك أنها لا تنتهى ، ثم تنعطف انعطافة يسيرة فإذا أنت أمام الشجر الباسق والغاب الملتف ، وأشجار البرتقال والكافور تملأ الجو عطراً وعبيراً . .

وعلى ضفاف الأنهار الكثيرة التى تنحت وديانها وسط الصخر ، تجد الرياض والمروج والزهور وأشجار الحور والصنوبر والسنديان . .

وما أسرع ما تنسى الصخور والأخاديد . .

بالضبط كما تشرق الابتسامة فى وجه العجوز الطيب الأصيل ، تنسيك رقة قلبه أخاديد وجهه ، ويتحدث فتسمع منه أرق الأحاديث . .

ولكن الطريق بين الواحة والواحة طويل . .

والمسافة بين النهر والنهر بيداء لا تقطعها إلا إذا كنت صبوراً كشجر الزيتون ، عفياً كالشيست والجرانيت . .

والطريق إلى الأندلس – لهذا ، كما قلت – طويل . .

* * *

على هذه الصخور . وفى الطريق إلى تلك الوديان ، هلك الألوف من أجدادنا العرب بعد الألوف . .

وكل شبر من أرض شبه الجزيرة هذه يقص قصة طويلة تنبع من أعماق قلب الإنسان وتتردد فى قلب أى إنسان . .

والتاريخ الذى تحدثك به صخور الجزيرة ووديانها لا يقارن إلا بالتاريخ الطويل الذي تحدثك به ضفاف النيل أو بوادي الشام أو عوالي نجد أو تهائم الحجاز

ولأمر ما ، تحس دائماً أن العصور هناك لا تموت . .
شيء من الخلود يتخلل كل شيء . .

تقف فى وسط الفضاء الهائل الذى يحيط بك معظم الطريق ، وتصغى إلى الصمت الرهيب الذى يشمل كل شيء ، فيخيل إليك أن صوتاً من وراء المجهول يناجيك ، وأن أرواح الألوف من أجدادك الذين عبروا بهذا المكان تخاطبك عبر القرون، ولو قبضت قبضة من تراب الأرض لأحسست أنها تردِّد فى روعك نداء أبى العلاء أن تخفف الوطء ، فهذا الأديم ليس إلا أجساد الذاهبين ، أعياهم السير وهم صادرون من قرطبة إلى أرض الجهاد ، أو غالهم العدو الرابض وسط هذا السكون ، فتوسدوا الأرض وأكلهم التراب ، وظلت أرواحهم تحوم على أرض الشهداء . .

وإذا أنت وقفت فى صحن المسجد الجامع فى قرطبة ذات صباح باكر ، أحسست وكأن المصلين قد أقاموا الصلاة وبارحوا الصحن لتوهم ، وأن الشيوخ والأساتذة والطلاب لا يلبثون أن يجيئوا ليأخذوا أماكنهم إلى جانب الأعمدة حلقات حلقات . .

وفى القاعة الأولى من قاعات قصر الحمراء ، تتوقع وأنت تتأمل ما حولك أن الباب لا يلبث أن يفتح ، وأن السلطان أبا الحجاج يوسف بن الأحمر سيقبل عليك بعد لحظات ومن خلفه حاشيته ورجاله ، ليعقدوا مجلس المشاورة أو ندوة الشعراء . .

وفى قرطبة ، عندما وقفت فى شارع ابن رشد ، أحسست أننى لو سألت أول عابر عن بيت أبى الوليد لدلنى عليه . .

وفى لُوشة — تسمى اليوم لُوخا ، وهى بلد صغير فى الطريق من غرناطة إلى مالَقَة — وهى بلد لسان الدين بن الخطيب ، وقفت ذات صباح أمام دار عربية الطابع فى وسطها نافورة ينساب منها الماء فى رفق موسيقى . خيل إلىّ أن لسان الدين هناك ، مسنداً ظهره إلى الناحية الأخرى من النافورة مقبلا على تأليف كتاب جديد . .

وفى جيّان – تسمى اليوم خاينّ ، غير بعيد عن قرطبة – خيل إلى أننى لو فتحت دفتر التليفون لوجدت اسم جمال الدين بن مالك صاحب الألفية وعنوانه ، ولاستطعت الحديث إليه . .

وفى سَلَمَنْقة ، فى الميدان الصغير أمام الجامعة ، جلست على مقعد خشبى أتأمل تمثال ميجيل أونامونو ، وما كنت لأتعجب لو أنه هبط عن قاعدته وأقبل فجلس إلى جانبى وأخذنا بأطراف الحديث . .

وفى بَطَلْيَوْس ، وأنت تتطلع إلى الملعب الرومانى الهائل ، تشعر كأنك فى فترة استراحة طويلة بعض الشيء ، وأن الممثلين يستريحون من الفصل الأول من مسرحية لسوفوكليس ، وأنهم سيعودون ليمثلوا الفصل الثانى بعد قليل . .

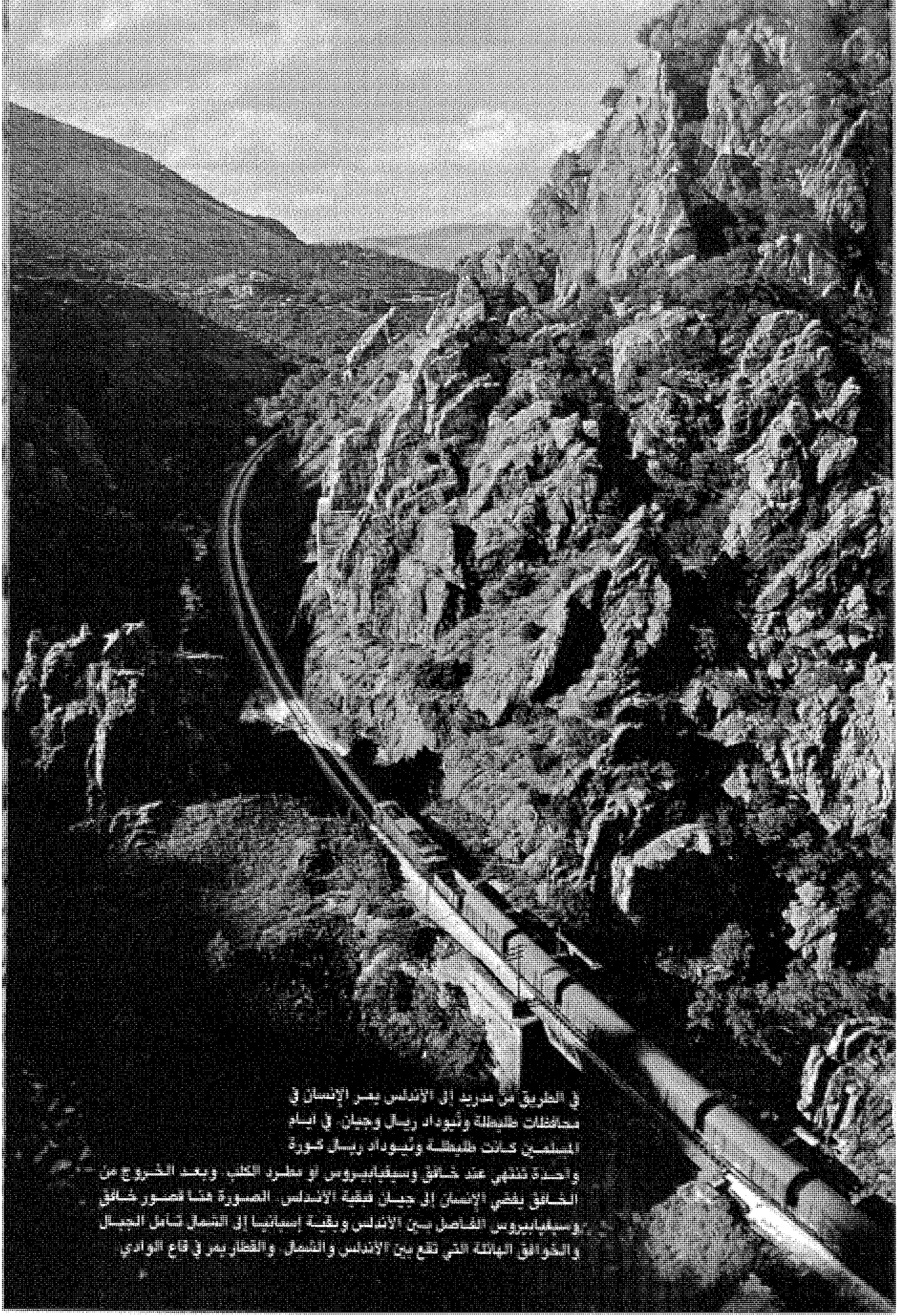
شعور غريب لا أشعر به خارج إسبانيا إلا فى موضعين : معبد الكرنك فى مصر وقلعة الحصن – أو حصن الأكراد – فى الشام . . ففى معبد الكرنك وأنت على ضفة بحيرة الآلهة ، تتراءى فى مياهها الصافية صور الأعمدة الباسقة والجدران العالية ، تحس وكأن الفرعون وأهل بيته لا يلبثون أن يقبلوا فى قارب يقطع سكون البحيرة الأبدى . .

وفى حصن الأكراد ، تحس وأنت ترسل البصر فى ساحته الرحيبة وكأنك تسمع وقع حوافر الخيل وصليل السيوف ، وأن الفرسان الذين توجوا هاماتهم بأكاليل النصر فى ميادين الجهاد ، لا يلبثون أن يدخلوا جماعات جماعات ، والخيل تعدو وتصهل والفرسان يتصايحون ويتنادون ورايات الأمجاد تخفق فى الهواء . .

هنا أيضاً أشعر ألا شيء يموت . .

ويدهشك هذا الشعور ، لأنك وأنت تقطع شبه الجزيرة تمر بالأميال بعد الأميال لا يلقاك فيها إنسان أو عصفور ، بل ولا جرادة . .

وفى وسط هذه الوحشة الشاملة ، تشعر – مع ذلك – أن الجو من حولك نابض بالحياة والأحياء . .



في الطريق من مدريد إلى الأندلس يمر الإنسان في
محافظات طليطلة وثيوداد ريال وجيان. في أيام
المسلمين كانت طليطلة وثيوداد ريال كورة
واحدة تنتهي عند خانق دسبينابيروس أو مطرد الكلب. وبعد الخروج من
الخانق يفضي الإنسان إلى جيان فبقية الأندلس. الصورة هنا تصور خانق
دسبينابيروس الفاصل بين الأندلس وبقية إسبانيا إلى الشمال تأمل الجبال
والخوانق الهائلة التي تقع بين الأندلس والشمال. والقطار يمر في قاع الوادي



قرية توري بيروخيل واحدة من مئات القرى التي تمر بها في سد خلك
ليمان قادماً من مدريد. القرية جميلة، بيضاء الجدران يزينها برج قلعة
بيروخيل، مبنية في القرن الثالث عشر على طراز قوطي متأثر من الأجر
هنا أيضاً كان مسرحاً من مسارح شاعر من أرق شعراء إسبانيا، أنطونيو ماتشادو



شارع تقليدي في قرية من قرى شمال
جيان وهي سان بابلو .. لا تزال
تتنفس الجو العربي



على طول طريقك إلى الأندلس ترى هذا الطراز من القرى البيضاء التي تتلألأ كالدرر على سفح التل الأحمر وأشجار الزيتون الخضراء تتسلق التلال في صبر

وهذا هو الشعور الذى كان يملأ نفس الدون كيخوتيه وهو يقطع البرارى والفلوات باحثاً عن الطغاة والشياطين ليحاربهم ويستأصلهم . .

تصوَّرَ أجنحة الطواحين شياطين بأيديها السيوف . .
وتصور الأشجار عفاريت تسعى إليه فشد عليها بالسلاح . .
وتصور قطيع الغنم جيشاً من الأعداء . .

أوهام أقرب إلى الواقع من حقائق الحياة ، من هذه الأوهام تتألف أخلد قصة كتبها إنسان . .

والذى كتبها أعجب قصصى ظهر فى الوجود : ميجيل ثرڤانتس ساڤدرا، محارب مسكين وأسير تعيس ، شات ذراعه اليسرى فى موقعة لِيبانْتُو ، وبقيت يده اليمنى لتكتب فى ظلامات السجن قصة أضحكت – ولا زالت تضحك – الأجيال . .

من الدموع صاغ ضحكات . .
ومن خلف قضبان السجن فرج عن الآلاف . .
بالضبط كما تطفر الواحة الوارفة عند منعطف الطريق . .

* * *

وكذلك فى الطريق الطويل من قرطبة إلى سَرَقُسْطة – نحو سبعمائة كيلو متر – تستطيع أن تحفن بيدك أية قبضة من التراب وتقسم أنها ليست إلا من عظام جيوش الخلفاء ، فقد ظلت تقطعه ثلاثمائة سنة أربع مرات فى العام : مرتين فى الذهاب وأخرين فى الإياب . .

كم ألوف منهم أنهكها السير الطويل وأكلها تراب الطريق ! منها – من عظام الألوف بعد الألوف من جنود العرب المجهولين – يغتذى شجر الزيتون الذى يطل عليك من جوانب الطريق ، وإلا فمن أين تغتذى الزيتونة المباركة إلا من روح طيبة مباركة والأرض من حولك لا ماء فيها ولا حياة؟

وعند مدينة سالم (ميديناثيلى) – فى طريقك من مدريد إلى سرقسطة فى طرف قصىّ من البلد الحديث – تجد بوابة متهدمة تقوم وحدها وسط فراغ وخراب ؛ إنها الأثر الباقى من ضريح أعظم قائد أندلسى فى التاريخ : المنصور محمد بن أبى عامر ، ثانى اثنين دانت لهما هذه الجزيرة من أول التاريخ إلى مطالع العصر الحديث ، أولهما عبد الرحمن الناصر . .

وإلى شمال شبه الجزيرة – حتى جبال البُرت المعروفة بالبرانس – كان يمتد الأندلس . والمدائن اللطيفة التى تلقاك هناك نحن أهلها ، وأجدادنا بُناتها : لارِدَة ، وَشْقَة ، تُطيلة وبَنْبَلُونة . . وغيرها كثير . كلها كانت بلاداً عربية ، ولا زالت إلى اليوم تحتفظ بروحها العربى ، وما بقى فيها من آثارنا يبدو لك وكأنه حطام طافية على الماء من سفينة ضخمة غالتها الأمواج . .

والأندلس – الذى يسمونه اليوم أندالوثيا ، تلك المديريات السبع الواقعة فى الجنوب – ليس إلا جزءاً يسيراً من أندلسنا الحبيب . .

أين الباقى ؟ . . أين أهله؟ . . كيف اختفت أيامهم فى طيات الزمان؟ . .

تلك قصة طويلة ستلم بأطراف منها أثناء ما يتصل من الأحاديث . .

والطريق إلى الأندلس – كما قلت لك – عَبْر الزمان طريق طويل . .

* * *

ومع هذا فالأندلس ، هذا البعيد العزيز ، قريب منك . . يعيش معك وفيــك . .

فإن التاريخ خالد ، وأهل التاريخ لا يموتون . .

وما سطره الأندلسيون فى سجل حضارة الدنيا يضمن لهم الخلود ويفرضهم على الأجيال . .

ودعنا من آثارهم فى الفكر والعلم ، فذلك كتاب معروف ، ولدينا من الشواهد على ذلك ما يغنينا عن البحث فى دواوين الأدب وسجلات العلم والنور

بل إن حضارة الأندلس لم تقف عند حدود شبه الجزيرة الإيبيرية ، فقد امتدت وفاضت حتى شملت المغرب العربى إلى حدود تونس ، والكثير جداً من ثغور المغرب أنشأها الأندلسيون : تِطْوان وتِلِمْسان ووَهْران وتِنِس وجزائر بنى مَزْغَنّا – التى تعرف اليوم بمدينة الجزائر – وغيرها كثير . وفى داخل المغرب تحدثك فاس عن نصيب الأندلسيين فى إنشائها ، وتنبئك مِكْناس بأثر العمارة الأندلسية ، وفى شاوِن – أو شفشاون – إلى جنوبى تِطوان تجد مدينة أندلسية الهيئة والروح ، كأنها حى من أحياء غرناطة أو رُنْدة عبر البحر واطمأن بين جبال الشمال الغربى ووديانه . .

ومن شبه الجزيرة عبرت هذه الحضارة المحيط الأطلسى كله . .

فعلى آلاف الأميال ، وعبر المحيط الأطلسى الشاسع ، بل على ضفاف المحيط الهادى ، وجدت الأندلس حياً يطاول الأزمان . .

وفى سان خُوسيه عاصمة كوستاريكا فى أمريكا الوسطى وجدت نفسى فجأة فى قاعة أندلسية خالصة ، كأنما نفس المعمارى الذى بنى الحمراء حمل أدواته وخف إلى هناك ليوقع بإمضائه على ساحل المحيط الهادى . .

ومن هناك عبر المحيط الهائل ، ونزل بلدة وادى القناة (جوَادَالْكانال) فى الفيليبين وأنشأ داراً عربية أخرى ووضع إمضاءه الحبيب . .

فن خالد يطوى الأرض بين جناحيه . .

وهنا ، فى بلادنا ، يعيش الأندلس فى وجداننا ينبض بالحيوية والشباب كأنه بلد عربى معاصر ، ولو أننا اقترحنا اليوم ضمه للجامعة العربية لما شعر الناس بغرابة فى ذلك الاقتراح ، لأن الأندلس – بالفعل – عضو فى الجامعة العربية الكبرى ، عضو له صوت كبير يتخطى القرون . .

وهذا الصوت الجهير صاحب فضل كبير فى المكان الرفيع الذى تحتله حضارة العرب بين حضارات العالمين . .

والأوروبي الذى يفكر فى أن يفخر علينا بما تعلمناه منه فى العصر الحديث يخفض من صوته عندما يذكر أن أساتذتنا الأندلسيين علموا أجداده فى جامعات أوروبا كلها ، حتى الڤاتيكان لا ينسى أن أحد باباواته من تلاميذ قرطبة وشيوخها الأجلاء . .

وإذا كانت قمم الأدب الأوروبي العليا أربعاً : دانتى وثيرڤانتس وشيكسپير وجيته ، فان اثنين منهم تلميذان للأندلس العربى ، أخذ الأول منه أصل الكوميديا الإلهية ، وروى الثانى فصولا من الدون كيخوته على لسان عربي يسمى حامد بن النجيلى ، والرابع — جيته — تلميذنا من ناحية أخرى ، وديوانه الشرقى شاهد صريح على استلهامه شعراءنا المشرقيين .

وهذا الأندلس الخالد لا يحيا عندنا فى قلوب العلماء فحسب ، بل فى قلوب عامة الناس أيضاً . . ولافتات مثل « قهوة الأندلس » و « كازينو الأندلس » و « عصير فواكه الأندلس » عادية مألوفة فى كل بلد عربي ؛ بل هنالك « أوتوبيس الأندلس » وهو أغرب اسم لشركة نقل رأيته . . وكلنا ، فى الحقيقة ، نود أن نأخذ مكاننا فى « أوتوكار » يحملنا إلى ذلك الفردوس البعيـــد . .

وفى المغرب يعزفون — إلى اليوم — موسيقى الأندلس وينشدون موشحات ولدت فى قرطبة وغرناطة .

* * *

وكم من بلد عربي يؤكد اليوم أن أرضه — لا غيرها — هى نقطة اتصال الشرق والغرب . .

ولا أنسى مناقشة طريفة بين صديقين : لبنانى وتونسى ، كل منهما يريد أن يثبت أن بلده هو الموضع الوحيد لهذا الالتقاء . . واشتدت المناقشة بينهما حتى خشيت أن يبلغ الحماس بأحدهما أن يطلب إلى حكومته أن تصدر قراراً بألا يلتقى الشرق والغرب إلا فى بلاده . .

والحق أن الموضع الوحيد فى الدنيا الذى التقى فيه الشرق والغرب التقاء حقيقياً كان الأندلس . .

هناك ضربت أشجار عربية جذورها فى تربة أوروبية ، فأخرجت ثمراً لونه غربى وطعمه شرقى . .

هناك كان الناس جميعاً ، من الخليفة والوزير والقاضى إلى البائع والمغنى ، يتحدثون فى البيت والطريق لغة أوروبية ، فإذا قرأوا أو كتبوا فبالعربية . .

هناك كان ملوك إسبانيا النصرانية فى الشمال يوقعون على كتبهم بالعربية ، وخلفاء المسلمين فى قرطبة يستمعون إلى دعابات ندماهم ويشتركون فيها بالإسبانية . .

هناك عكف ابن رشد على شرح أرسطو ، وترجم الناس شروحه إلى اللاتينية وقرأوها فى هذه اللغة أكثر مما قرأناها نحن فى العربية . .

هناك كان الشاعر العربى يأخذ قطعة من أنشودة عجمية — أى إسبانية — وينشئ عليها موشحاً عربياً تغنيه مغنيات بعضهن عربيات وبعضهن أوروبيات ، ولكنهن كن يعشن معاً أندلسيات . .

هناك لم يكتف الشرق والغرب بالالتقاء ، بل أصبحا شيئاً واحداً فريداً فى بابه فى التاريخ . .

ولا زال هذا الشيء الفريد فى بابه فى التاريخ قائماً إلى اليوم ، فإن وجوه الناس الذين نلقاهم هناك إن هى إلا صور مما ترى حولك في بلدك العربي . .

ولا أنسى مشهداً فى الطريق من وادي آش إلى غرناطة ، وهو طريق زراعى يشبه طرق الأرياف عندنا . .

كان الوقت عصراً ، وكنت عائداً متعباً من « حصن اللوز » فجلست أستريح على الطريق . .

ومن بعيد أقبل فلاح على حماره ، فلاح مصرى فى كل شىء : يلبس برنساً يشبه الجلباب ، ووجهه أسمر متغضن لا يحمله إلا من اسمه بسطويسى أو عوضين ، حتى رأسه لفه بشىء يشبه العمامة .

حتى الحمار . . بدا لى مألوفاً جداً حتى خيل إلى أننا لو تركناه لسار توآ حتى يصل إلى بلدنا . .

ووصل الرجل أمامى ، ونظر إلى ، ثم أومأ إلى ، فنهضت ، وأوسع لى مكاناً خلفه ، وأردفنى . .

لم أتكلم ، ولم يتكلم . . وسار بنا الحمار . .

شعرت أن الرجل قريبى ، قريبى من بعيد . .

وعندما وصلنا المكان الذى أريد أنزلنى ومضى فى سبيله ، واختفى فى منعرج الطريق . .

من أين ظهر ؟ . . إلى أين مضى ؟ . . لا أدرى . .

جمعنى وإياه الطريق . .

طريق الأندلس الطويل . .

* * *

قطعت طريق الأندلس – من شمال شبه الجزيرة إلى جنوبه ، ومن شرقه إلى غربه حيث تقوم اليوم البرتغال – عشرات المرات . .

قطعته وحدى ولا رفيق لى إلا خريطة وكتاب وذكريات . .

وقطعته فى رفقة إخوان من العرب أعزاء ، تحملنا الأحاديث عبر السهول ومخارم الجبال . .

وكلما طال بنا الطريق نزلنا لنصيب شيئاً من قهوة أو طعام فى واحد من تلك النزل اللطيفة التى تعمر الطريق ، ولنواصل حديث الأندلس الذى لا تمله النفس مهما طال . .

وفى أثناء الحديث مع عالم أريب ، أو صحفى لبيب موهوب ، تبدو الأشياء فى ضوء جديد . .

وفى بعض هذه الرحلات كنت أحس أن رفيقى هذا يتحدث كما لو كان الجغرافى أبا عبيد البكرى أو الرحالة الأديب إبراهيم الحجارى أو الشريف الإدريسى ، وأن صاحبى ذاك يتحدث كأنه الشاعر الأمير المعتمد ابن عباد أو صاحبه المسكين محمد بن عمار . .

وما مضيت فى هذا الطريق مع صديق إلا أحسست وكأننا أندلسيان ممن مضوا مع أمس الدابر ، قد غادرْنا أهلنا فى قرطبة أو طليطلة ومضينا مع الدرب الطويل لبعض شأننا ، وأننا لن نلبث أن نلم بقرية من هذه القرى الكثيرة التى كان يعمر بها أندلسنا فنقصد جامعها ونصلى ما وجب من الفريضة ثم نسأل عن الشيوخ وأهل العلم فنقصدهم حيث كانوا . .

ما تصورت أبداً على هذا الدرب أنه قد مضى زمان وأقبل زمان ، وما وقعت عينى على كنيسة فى قرية إلا رأيتها مسجداً ؛ وما أكثر ما تتشابه كنائس اليوم بمساجد الأمس فى هذا البلد ! إنها تقوم فى نفس المواضع التى تعودنا أن نجد فيها مساجد القرى والبلاد الصغيرة عندنا ، حتى أبراجها لا تختلف أبداً عن مآذن مساجد أريافنا . وفى قرطبة بالذات ، فى نهاية شارع الجران كاپيتان ، تجد كنيسة صغيرة لا تشك عندما تراها من بعيد فى أنها مسجد فى بنها أو الزقازيق أو أى حى من أحياء القاهرة . إنها كنيسة سان نيكولاس ، القديس نيقولا ، لم يغير الزمان من هيئتها المسجدية شيئاً . .

حتى الحديث الذى يجرى بيننا هناك لا يلبث – أيا كان موضوعه – أن يتطرق إلى الفلسفة والعبرة وما يجرى مجراهما ، وما أكثر ما يهز الزائر العربى رأسه ويتأسف ويترحم ! كأن الماضى هنا أقوى من الحاضر وأغلب عليه ، أو كأن المسير فى هذه الدروب إنما هو رجوع مع القرون القهقرى ، أو ارتفاع بالنفس من واقع الحياة و « تلاهيها » إلى عالم التفكر والتأمل فى قيمة هذه الحياة وما تساوى عند الله . .

وعندما أغمض عيني قبل النوم يختلط الماضى والحاضر ، وأحاديث الأمس واليوم بعضها ببعض ، وأحس أنني أعيش زمناً آبداً لا ينتهى ، حتى ما أدرى إن كان الماضون ماضين حقاً أو الحاضرون حاضرين حقاً . .

لأن الزمن هنا خالد لا يموت . .

ولأن الأندلس حى تنحدر عليه السنون كما تنحدر على شجرةالزيتون . .

شجرة طيبة مباركة ، لا شرقية ولا غربية ، حملها العربى وزرعها فى ثرى الأندلس ، فأصبحت هناك اليوم عماداً من أعمدة الاقتصاد . .

هدية من هدايانا الكثيرة إلى الفردوس الموعود . .

المَكَان وَالزّمَــان

الزائر المتعجل الذى تضعه الطائرة فى مطار مدريد ، وأمامه ثلاثة أيام يزور خلالها الأندلس ثم يعود إلى الطائرة لتمضى به إلى بلد آخر ، يستطيع — مطمئناً — أن يريح نفسه والأندلس من هذا العناء . .

يستطيع أن يأخذ كتاباً مصوراً يتصفحه وهو مطمئن فى كرسيه ويقول : لقد رأيت الأندلس ! وهو صادق ، فإنه لو خطف رجله ومضى كالطائر من بلد لبلد فلن يرى أكثر مما يراه فى الصور . .

والزائر المتمهل بعض الشىء ، الذى يستقل السيارة من مدريد ، ثم يغلق عينيه فلا يفتحهما إلا تحت سقف جامع قرطبة ، ثم يمضى يتعجب ويتأسف ، ثم يغلقهما ليفتحهما ثانية أمام الحمراء فيعيد التعجب والتأسف . . يستطيع أيضاً أن يوفر على نفسه هذا العناء ، دون أن يحرم نفسه متعة التعجب والتأسف ، وهو مقيم مكانه لا يبرحه . .

لأن الأندلس ليس آثاراً ماضية. إنه ليس جامع قرطبة وقصر إشبيلية ومنارة الخيرَالْدا وحمراء غرناطة. إنه كائن لا يزال حياً، لا زال يتنفس. إنه أرض الأندلس، وشجره، وجباله، وصخوره، ووديانه، وبلدانه. .

إنه كائن حى كامل ، لا بد أن تراه كاملا لتعرف من هو . .

وهذه الآثار الباقية هى شىء من الزينة التى كان يتحلى بها ، أو بعض

الملابس التي كان يرتديها . . والزينة والملابس قد تدل على جانب من الرجل ، ولكنها ليست الرجل . . وهل تستطيع — مثلا — أن تقول إنك تعرف مصطفى كامل إذا زرت غرفة تضم المكتب الذى كان يكتب عليه ، والقلم الذى كتب به ، والساعة التى كان ينظر فيها ؟ . .

لكى تعرف الرجل ينبغى أن تقرأ حياته وكتاباته ، ينبغى أن تعيش معه . .

والإسبان أنفسهم يقولون : a todo señor todo honor (لكل سيد حقه من التكريم) . .

والأندلس سيد عظيم ، وحقه علينا عظيم . وأقل حقوق هذا السيد علينا أن نمنحه من وقتنا — إذا شئنا زيارته — ما هو جدير به ، وألا ننصرف عنه إلا إذا أذن لنا ، أو أذنت لنا قلوبنا . وما أظن أنها تأذن إلا على رغمها ، فإن الأندلس حبيب ، حبيب غادرناه من زمن طويل ، واللقاء بيننا وبينه لقاء مسعد تستريح إليه القلوب . .

° ° °

وقبل أن يمضى بنا الحديث ، نحب أن نحدد المراد بـ « الأندلس » . .

يطلق لفظ « الأندلس » اليوم على الجزء الجنوبى من إسبانيا ، ويقع جنوبى نهر الوادى الكبير ، وهو يضم سبع مديريات ، هى : قرطبة وإشبيلية وقادش وجَيَّان (خاين) وغرناطة ومالَقَة ووَلْبَة (أويلْبا) .

هذه المديريات السبع تسمى اليوم « أندالوثيا » ، فإذا قيل اليوم إن فلاناً أندلسى كان المراد أنه من إحدى هذه المديريات ، وإذا قيل إن هذه القطعة الموسيقية أندلسية كان المقصود أنها من الجنوب ، تحمل روحه وطابعه فى اللحن والأداء . .

أما العرب فكانوا يطلقون لفظ الأندلس على ما شمله سلطانهم من شبه الجزيرة ، ولم يشمل هذا السلطان شبه الجزيرة كله دائماً ، وإنما مر بموجات متعاقبة من المد والانحسار . .

ففى وثبة الفتح الأولى (٧١٠ - ٧١٥م) شمل الأندلس شبه الجزيرة كله ، من جبل طارق فى الجنوب إلى جبال البرت الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا (وهى التى تعرف اليوم باسم البرانس) وإلى الساحل الشمالى لشبه الجزيرة المطل على خليج بسكايه ، وهو المعروف بساحل كَنْتَبْرِيّة ، وكان العرب يسمونه بحائط إفرنجة . .

وقد قام بهذا الفتح ثلاثة من أبطال الفتوح الإسلامية الكبرى ، هم : طارق بن زياد وموسى بن نصير وابنه عبد العزيز بن موسى . .

وأعقب هذه الاندفاعة الأولى عصر قصير امتد أربعين سنة (٧١٥ - ٧٥٥) يسمى عصر الولاة كان الأندلس خلاله ولاية تابعة لمركز الخلافة الأموية في دمشق، وقد انحسر مُلك العرب خلاله بعض الشيء، فخرج عنه الركن الشمالي الغربي المعروف بِجِلِّيقِيَّة (جاليثْيا) وكل الأراضي الواقعة بين ساحل كنتبرية ونهر دُوِيرُه حتى الطرف الغربي من جبال البُرت . .

وفى هذا الجزء الذى ضاع نشأت إمارات نصرانية هى : أَشْتُرِيس (أشتَرياس) التى عرفت فيما بعد بمملكة ليون ، وإمارة نَبَرَّة (ناڤار) وإمارات أخرى صغيرة كثيرة فى منطقة جبال البُرت .

أى أن حدود الأندلس امتدت من الجنوب إلى نهر دُوَيْرُه ، وظلت فى ناحية الشرق شاملة لحوض نهر إبْرُه كله حتى جبال البرت ، وهذه الناحية الشمالية الشرقية عرفت فى مجموعها بإقليم الثغر الأعلى ، وكان يضم أربع كور (أى مديريات) هى : سرقسطة (ثاراجوثا) ولاردة (ليريدا) ووشقة (أويسكا) وطرطوشة (ترتوزا) .

ويستثنى من ذلك الطرف الشمالى الشرقى من إقليم برشلونة ، ويسمى قطلونية (كاتالونيا) فقد شمله سلطان مملكة الفرنجة فى فرنسا . هنالك أنشأ ملوكها ولاية ثغرية (ولاية حدود) عرفت باسم الثغر الإسبانى (ماركا هيسپانيكا) .

ولم يخضع إقليم قطلونية للعرب إلا خلال فترات قصيرة .

ثم أقبل إلى الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان المعروف بالداخل (أي الذي دخل الأندلس) . وأنشأ الإمارة الأموية القرطبية سنة ٧٥٦ ، وثبت دعائم السلطان العربي في هذه الحدود التي ذكرناها .

وخلف عبد الرحمن سبعة أمراء من خيرة من عرف العرب والمسلمون من حكام كفايةً وحزماً وعدلا وإحساساً بمسئولية الحكم ومطالب العمران ، وإليك أسماءهم وسنوات حكمهم بما فيهم عبد الرحمن :

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (الداخل)	٧٥٥ — ٧٨٨ م
هشام بن عبد الرحمن المعروف بهشام الرِّضى	٧٨٨ — ٧٩٦
الحكم بن هشام المعروف بالرَّبَضى	٧٩٦ — ٨٢١
عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط	٨٢١ — ٨٥٢
محمد بن عبد الرحمن	٨٥٢ — ٨٨٦
المنذر بن محمد	٨٨٦ — ٨٨٨
عبدالله بن محمد	٨٨٨ — ٩١٢

ثم تولى عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله المعروف بالناصر ، وهو حفيد عبدالله ، وهو دون شك أعظم من عرف الجناح الغربي للعالم الإسلامي من حكام ، وهو الذي ثبت أركان الأندلس الإسلامي ورفع مناره في الدنيا ، حتى أصبحت قرطبة على أيامه درة العالم المتمدن حضارة وقوة ونظاماً .

حكم عبد الرحمن الناصر خمسين سنة هجرية (تسعاً وأربعين ميلادية) ، أنفق نصفها الأول فى تمهيد وتدعيم قواعد السلطان وإعلاء شأن العروبة والإسلام فى الأندلس . حتى إذا بلغ من ذلك ما يريد رأى أن اسم الإمارة لم يعد يناسب ما بلغته دولته من عظمة وجلال . فاتخذ لقب « الخليفة » فى سنة ٩٢٩ وتسمى بـ «الناصر لدين الله» ، ومن ذلك الحين أصبح الأندلس دار

خلافة إسلامية لا مجرد إمارة، وأصبح العالم الإسلامي مقسماً بين ثلاث خلافات: العباسية، والفاطمية، والأموية الأندلسية.

وتعتبر الفترة من ٩٢٩ إلى مارس ١٠٠٩ العصر الذهبي للأندلس: بلغت حضارته أثناءها أوجها، واستقرت قواعد الحكم فى ما دان للخلافة الأموية من أرض شبه الجزيرة استقراراً كاملا، ودانت الممالك والإمارات النصرانية فى الشمال بالطاعة لخليفة قرطبة، ووفد ملوكها وأمراؤها على قرطبة يخطبون ود الخليفة العظيم، وطار ذكر قرطبة وحضارتها فى نواحى أوروبا كلها . .

وخلفاء هذا العصر الذهبى هم:

عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله، الناصر لدين الله	٩١٢ — ٩٦١ م
الحكم بن عبد الرحمن المعروف بالمستنصر	٩٦١ — ٩٧٦
هشام بن الحكم المعروف بالمؤيد	٩٧٦ — ١٠٠٨

وكان هشام هذا عندما تولى الأمر غلاماً صغيراً، فتولى الأمر باسمه ومن دونه رجال الدولة، واستطاع واحد منهم هو محمد بن أبى عامر أن يقبض على زمام الملك بيد من حديد، وأن يجعل من نفسه الحاكم الفعلى فى بلاد الخلافة. وقد تلقب بالمنصور، وكان عبقرياً من عباقرة السياسة والحرب، وشعلة من النشاط والعمل، وقد استطاع أن يوسع رقعة الإسلام فى الأندلس فتخطت نهر دويره وارتفعت حتى نهر آخر صغير إلى شماله يسمى نهر المِنْيُو، وضمت جزءاً كبيراً من إمارة نَبَرَّة (ناڤار).

وخلف المنصور فى مركزه وعمله اثنان من أبنائه، ظلت حدود الأندلس فى عهدهما كما كانت فى عهد أبيهما، وهما المظفر عبد الملك بن محمد بن أبى عامر ثم أخوه عبد الرحمن.

وقد ثار الأندلسيون على هذا الأخير، وبدأت فتنة أهلية مخربة، تعاقب على عرش الخلافة فى أثنائها عدد من الخلفاء: من بنى أمية أولا ثم من أسرة

تعرف ببنى حَمُّود وهم فرع من أدارسة المغرب الاشراف، ثم عادت إلى بني أمية مرة أخرى، ولم يستقر لها قرار بعد ذلك. حتى إذا تولى آخر بنى أمية الأندلسيين - ويسمى هشاماً المعتد - كان أهل قرطبة قد سئموا هذه الفوضى، فاجتمع رؤساؤها وقرروا إلغاء الخلافة الأموية سنة ١٠٣١م.

وهذه هى نهاية الخلافة الأموية فى الأندلس .

وتقسمت بلادها إمارات ، تولى الأمر فى كل منها مستبد بالأمر ، حتى أصبحت كأنها ممالك متعادية ، وبدأ فى تاريخ الأندلس ما يعرف بعصر ملوك الطوائف .

وفى أثناء النزاع على كرسى الخلافة انتهز ملوك النصارى فى الشمال الفرصة ، ووسع كل منهم سلطانه قدر ما استطاع على حساب المسلمين ، فانحدرت حدود الأندلس إلى نهر تاجُه ، فيما عدا الناحية الشرقية إذ ظلت حدود الأندلس هناك فى حوض نهر إبْرُه .

أى أن الأندلس لم يعد يشمل إلا نصف شبه الجزيرة .

وفى سنة ١٠٨٥ تمكن ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون من الاستيلاء على واحدة من أكبر ممالك الطوائف وهى طُلَيْطِلَة ، وامتدت حدود مملكته بهذه الضربة حتى وصلت نهر آنة أو وادى آنة .

ومن ذلك التاريخ لم يعد الأندلس يشمل إلا ثلث الجزيرة ، وأقبل ألفونسو السادس وغيره من ملوك إسبانيا النصرانية يهددون هذا الثلث .

وأمام الخطر المحيق استنصر الأندلسيون بأبناء عمومتهم أهل المغرب ، وكانت دولة المرابطين قد قامت وامتد سلطانها حتى شمل ما يعرف اليوم بالمملكة المغربية وجزءاً من غربى الجزائر ، وما يعرف بموريتانيا (مترْطانية) .

وخف يوسف بن تاشفين رأس الدولة المرابطية لغوث الأندلس ، وهزم ألفونسو السادس فى معركة كبرى هى « الزَّلاَّقة » سنة ١٠٨٦ ، وبهذا أنقذ

بقية الأندلس من الضياع ، ثم أزال دول الطوائف ووحد بقية الأندلس تحت رايته .

والأندلس هنا لا تمتد حدوده إلا إلى نهر وادى آنه ، مع بقاء حوض نهر إبره داخلا فى نطاقه .

وعندما ضعف أمر المرابطين وقام عليهم الموحدون فى المغرب ، ثار بهم نفر من الأندلسيين ، وعادت الفتنة ، وفى أثنائها استولى ملك أرَغون على حوض الإبرُه ، أى على الثغر الأعلى وعاصمته سَرَقُسطة ، وكان ذلك سنة ١١١٨ .

وبهذا أصبح الأندلس لا يشمل إلا ربع شبه الجزيرة .

وبعد أن تم النصر للموحدين عبروا إلى الأندلس سنة ١١٥٠ ليحافظوا على ما بقى منه .

وقد تمكن الموحدون من ضبط أمور هذا الأندلس الصغير لفترة قصيرة من الزمان ، ولكن أعباء إمبراطوريتهم — التى شملت المغرب العربى إلى حدود ليبيا — ثقلت عليهم ، وعلى الرغم من انتصارهم العظيم فى معركة الأرْك (يوليو ١١٩٥) لم يلبثوا أن انهزموا فى معركة العِقاب (لاس ناڤاس دى تولوزا ، يوليو ١٢١٢) التى تعتبر نهاية حكمهم الفعلى فى الأندلس ورمز انهيار حدود مُلك الإسلام فيه ، ففى أثناء الصراع المرير بين المرابطين والموحدين سقطت بلاد إسلامية كبرى فى أيدى ملوك النصارى .

وإليك بعض التواريخ الهامة لمراحل هذا الانحسار :

سقطت طَرْطوشة سنة ١١٤٨ ، ولارِدَة ١١٤٩ ، وقلعة رَبَاح (كالاتراڤا) ١١٥٧ ، وكل ما يعرف اليوم بالبرتغال بين ١١٥٧ و ١١٧٧ ، وجيَّان ١٢٣٢ .

وفى سنة ١٢٣٦ سقطت قرطبة عاصمة الأندلس العربى الإسلامى ، ثم بلَنْسِيَة ١٢٣٨ ، ثم مُرْسِيَة وكل شرق الأندلس حتى مالَقَة ١٢٤١ .

ثم سقطت إشبيلية ١٢٤٨ ، وتبعتها شذونة وأركش وقادش وما يتصل بهـا . .

ووسط هذا الطوفان استطاع فارس عربى أندلسى هو محمد بن الأحمر أن يعتصم فى غرناطة وما حولها حتى وادى آش فى الغرب ومالقة فى الشرق ، وأنشأ إمارة عربية تجمعت فيها أعداد عظيمة ممن هاجر من المسلمين من البلاد التى سقطت ، وحصّن هذه النواحى تحصيناً قوياً ، واستطاع أن يصمد فيها لهجمات الممالك النصرانية ابتداء من سنة ١٢٣١ .

وفى هذا الركن الجنوبى الصغير عاش الأندلس العربى الإسلامى وانحصر فيه قرنين ونصف قرن من الزمان .

ورغم ما بذله خلفاء ابن الأحمر من جهود لم يستطيعوا الثبات أمام الضغط المتصل والهجوم العنيف ، فما زالت حواضر سلطنتهم تسقط الواحدة بعد الأخرى ، حتى استسلمت غرناطة فى ٢ يناير ١٤٩٢ على يد فرناندو وإيزابيلا ملكى ارغون قشتالة وليون ، وهما المعروفان بالملكين الكاثوليكيين .

هذا هو تاريخ أندلسنا بين المد والانحسار ، تستطيع أن تتتبع حدوده مع مجارى أنهار شبه الجزيرة ، فمعظمها يسير من الغرب إلى الشرق بين سلاسل جبال ، كأنها حدود طبيعية .

ففى عهد الفتح الأول كان الأندلس يعنى شبه الجزيرة كله ، أى ما يعرف اليوم بإسبانيا والبرتغال .

وفى عصرى الإمارة والخلافة كانت الحدود مجرى نهر دُويرُه ثم تتصل مع حوض نهر إبرُه .

وفى عصر ملوك الطوائف انحدرت إلى مجرى نهر آنة . .

وفى عصرى المرابطين والموحدين لم تتعد نهر الوادى الكبير ، فيما عدا الناحية الشرقية التى ظلت كاملة تقريباً فى يد المسلمين حتى سنة ١١١٨ ، أى إلى سقوط سرَقُسطة . .

وفى عصر بنى الأحمر انحصر الأندلس جنوبى نهر من نهيرات الوادى الكبير يسمى نهر شنيل ، وعلى نهير من نهيرات هذا الأخير يسمى حدارُه (دارو) تقوم غرناطة .

وتدخل فى الأندلس الإسلامى الجزائر الشرقية ، وهى المعروفة بالبليار ، أكبرها ثلاث : ميُورْقة ومَنورقة ويابسة .

وقد خرجت هذه عن الأندلس بعد سقوط بَلَنْسية سنة ١٢٣٨ ،سقطت فى أيدى ملوك أرَغون واحدة بعد أخرى . .

* * *

ربما كانت أمثل طريقة نزور بها الأندلس أن نبدأ من الجنوب ، لكى نسير فى آثار العرب الذين أنشأوه . .

نبدأ من جزيرة طريف إلى جبل طارق إلى الجزيرة الخضراء إلى مَوْرُور . .
أو من مالَقَة إلى أنطَكيرة إلى شَذُونة إلى إستِجَّة . .
أو من المَرِيَّة إلى بَجّانة إلى فِنْيانة إلى وادى آش . .
فهذه وأمثالها كانت طرق أجدادنا إلى الأندلس . .

وإذا رأيت مثلا خريطة العالم كما رسمها ابن حَوْقَل أو الإدريسى لرأيت البحر مقلوباً : مصر والشمال الإفريقى وبلاد العرب فى أعلى ، وأوروبا فى أسفل . .

وربما كان هذا هو الوضع الصحيح للدنيا وللناس . .
ولكن الدنيا قد انقلبت : أصبح الأعلى أسفل وبالعكس . .
وما دمنا نعيش فى دنيا مقلوبة فلا حيلة لنا . .
ولنبدأ من الأسفل على أنه أعلى ، ومن النهاية على أنها بداية . .
نبدأ الطريق من مدريد . .

أنت تعرف ــ طبعاً ــ أن العرب كانوا يسمونها مجريط ، وسنفردها

بفصل من هذا الكتاب ، ولكن سياق الكلام هنا يقتضى أن نتعرف أصل هذا الاسم . .

كلمتان يسيرتان فيهما كفاية . هذا الاسم يأتى من اللفظ العربى « مجرى » مضافاً إليه أداة من اللغة الإيبيرية القديمة هى « إيت » أو « إيط » ويراد بها التكثير . . فيقال : البِطْرِيط ، من « بترا » أو « بطرا » — وهى الحجارة — مضافاً إليها « إيت » أو « إيط » ، والمعنى : الموضع الكثير الحجارة .

وإذن فمجريط معناه الموضع الكثير المجارى ، أو الكثير المياه . وهذا يطابق الحقيقة التاريخية ، فإن مدريد القديمة كانت تقوم إلى جنوب مدريد الحالية على مقربة من النهير الصغير الذى يسمى بالمَنْثَنارِيس ، وعندما عمرها العرب ساقوا إليها المياه ونظموا جريها بواسطة مجار تحت الأرض وقناطر وحنايا آثارها باقية إلى اليوم .

إلى هنا كفاية ، ونخرج من مدريد . .

طريقنا يجرى إلى الجنوب فى اتجاه ضاحية جميلة أشبه بالروضة تقع على ضفاف نهر تاجُه هى أرانخويث . قبل أن نصل إلى هذه الضاحية نمر فى فسيح من الأرض قاحل ماحل يندر أن يرى الإنسان فيه شجرة . أرض صخرية جافية تصور لك طبيعة الإقليم الذى تقع فيه عاصمة إسبانيا . لقد أكل الجفاف والرياح لحم الأرض — أى الطبقة الرقيقة التى تنمو فيها النباتات — منذ ألوف السنين . لم يبق من الأرض إلا هيكلها العظمى . إن كنت تريد أن ترى عظم الأرض فى مكان ما فدونك وهذا . .

وسط هذا المحيط الماحل تطفر أمام عينيك فجأة أرانخويث ، جنة وارفة الظلال مشرقة الخضرة على ضفة نهر تاجه . إنها تذكرك بفرساى ، وبالفعل فإن الذين أنشأوها هم ملوك أسرة البوربون الذين استقر لهم الحكم فى إسبانيا بعد حرب أهلية وأخرى أوروبية طالت ثلاث عشرة سنة . وهم من أبناء هنرى الرابع ولويس الرابع عشر ملكى فرنسا . صار لهم عرش إسبانيا نتيجة

لزيجات ومصاهرات . أول من حكم إسبانيا منهم فيليب الخامس (١٧٠٠ — ١٧٢٤) ، وفى أثناء الصراع الذى أوصله إلى العرش كانت فرنسا تؤيده ، ووقفت إنجلترا تؤيد خصمه الأرشيدوق كارلوس ، ولكى تشد أزره احتلت صخرة جبل طارق (٤ أغسطس ١٧٠٤) ، ولما انتهت الحرب رفضت الخروج منها ، ولا زالت ترفض ، بل جعلت جبل طارق جزءاً من ممتلكاتها . هكذا بدأت مأساة هذا الجبل الذى يحمل اسم الفاتح العربى طارق بن زياد . إنها نموذج صغير من أعمال الغصب التى بنت بها إنجلترا إمبراطوريتها . .

أرانخويث تستحق وقفة يسيرة . . إلى جانب الأشجار وغابات الحور والصنوبر والسنديان ، هناك النهر الجميل « تاجُه » والقصور البديعة ، وهناك ثلاثة أشياء تشتهر بها : البلابل الطلقة على الأشجار ، والفراولة ، والاسفراج المعروف بالأسبرج ؛ والعرب هم الذين أدخلوه إسبانيا . .

* * *

بعد الخروج من أرانخويث يخيل إليك أن الحياة قد ماتت فجأة . مرة أخرى نعود إلى صحراء الصخور . هنا وهناك تلقانا بلدة صغيرة صخرية كالبيئة المحيطة بها : أوكانيا ، دوس باريوس ، لاجوارديا ، مدريديخوس ، حتى نصل إلى ڤالديبينياس . تدهشك قلة المواضع التى تحمل أسماء عربية على هذا الطريق . السبب أن العرب لم يستقروا كثيراً فى هذه النواحى ، ولم يكن هذا طريقهم إلى الشمال . كانت جماعاتهم تفضل البطاح الخصبة إلى الشرق ، وكان طريقهم — لهذا — يسير بعيداً إلى الشرق . المنطقة كلها تسمى قَشْتالة الجديدة (كاستيليا لانويڤا) . قشتالة القديمة تبدأ من الشمال عند سانْتانْدر وتنتهى عند أرانخويث .

نحن الآن بين نهرى تاجُه ووادى آنَة . هذا النهر كان يسميه العرب هكذا ، أما تعريبه إلى « الوادى اليانع » فتكلف لا معنى له . .

على يسارك يمتد إقليم المانْشا ، وعلى يمينك إقليم إستريمادورا .

المانْشا لفظ عربى محرف . صحته المنجَى وهى الأرض المرتفعة ، وهى بالفعل أرض عالية واسعة على حافاتها من كل ناحية جبال عالية فكأنها حصن منيع . لم يطمئن العرب إلى سكناها ولم يكن لهم فيها غير بلاد صغيرة مثل وَبْذَة (أوبِثى) وشَنْتَمِرِيَّة الشرق (سانتا ماريا دى ألباراثين) ، بل كانوا يسخرون من أولئك الذين يسكنونها ، إذ كانوا مشهورين بالإفراط فى البداوة وجفاء الطبع . أشهر نواحى هذا الإقليم تقع فى الجنوب ، وكانت تسمى « فَحْص البَلُّوط » .

الإسبان أيضاً يسخرون من المانشا لأنها الميدان الذى اختاره ثرڤانتس ليكون مسرحاً لمغامرات بطله الدون كيخوتِه دى لامانْشا ، تستطيع أن تترجمه : السيد كيخوته المنشاوى أو المنجاوى ، والتسميتان لها طعم مصرى . .

ليس فى الدنيا جهة أصلح لمغامرات الدون كيخوته من المانشا : أراض فسيحة مترامية لا يكاد يعمرها أحد . كان الناس يظنون أن الشياطين والمردة تسكن الفلوات ، ومن أراد أن يحارب الشياطين فليخرج إلى القفار . الأديرة الكثيرة المنتشرة فى صحارى مصر بناها رهبان كانوا يريدون أن يقضوا حياتهم فى حرب الشياطين والتغلب عليها ، هذا أيضاً كان هدف الدون كيخوته : أراد أن يهب حياته لحرب الشياطين من الإنس والجن ، لهذا أرسله ثرڤانتس إلى هناك . .

وليس فى الدنيا قصة طبعت الإقليم الذى جرت فيه بطابعها كما فعلت قصة الدون كيخوته بإقليم المانشا ، حتى أصبحت المواضع وأسماء الأعلام الخيالية الصرفة حقائق لا تقبل الشك عند الكثيرين . .

وما أكثر السائحين الذين يتحملون عناء الرحلة من بلد بعيد حتى يصلوا إلى بلدة مانثاناريس ، وهناك يحطون رحالهم ، ويمضون فى طريق متعبة باحثين عن المواضع التى ذكرها ثرڤانتس فى قصته الخالدة : عن الطاحونة التى حارب أجنحتها ، عن القرية التى صارع فيها الدمى ، عن الكهف الذى

قضى فيه أسبوع التوبة راكعاً يصلى ليتطهر ويخرج فارساً نبيلا يحارب المردة والظالمــين !

وليس فى هذه المواضع كلها إلا واحد يحتمل أن يكون صحيحاً ، هو قرية التوبوزو ، تصل إليها فى طريق مترب متعب ، وهم يقولون إنها قرية الفتاة التى عشقها ثرڤانتس نفسه ، وصورها فى القصة فى شخصية دولثينيا حبيبة الدون كيخوته . يقولون إن اسمها الحقيقى أنّا داركو دى موراليس .

وعلى أى حال فأهل القرية يعتبرون ذلك حقيقة ، ولا يشكون فى أن التوبوزو أهم بلد فى الدنيا ، وكيف يشكون فى ذلك ولديهم مكتبة فى دار العمدة تضم نسخاً من الدون كيخوتيه بكل لغة — من الإنجليزية إلى الأردية واليابانية — تحمل إهداءات موقعة من أسماء عظيمة مثل هندنبورج وموسولينى ودى ڤاليرا ؟

إلى هذه المجموعة أضفت فى يوم من أيام أغسطس ١٩٥٨ النسخة العربية.

وعندما تترك بلدة مانثاناريس تستطيع أن تمر بميدان من ميادين الخلود فى تاريخنا . فعلى خمسين كيلومتراً إلى غرب هذا البلد تقع مدينة ثيوداد ريال، أى المدينة الملكية ، وهى مدينة محدثة أنشأها ملوك إسبانيا فى القرن السابع عشر ، وهى اليوم عاصمة المديرية التى تقطع أراضيها . على سبعة كيلومترات غربى ثيوداد ريال تجد بلداً صغيراً يسمى سانتا ماريا دى ألاركوس ، وهى التى أرجو أن تزورها .

فالبطاح المحيطة بالتل الذى تقوم عليه هذه القرية تسمى كامپو دى كالاتراڤا ، بطاح قلعة رباح . وكانت قلعة رباح بلداً إسلامياً عظيما له صدى بعيد فى تاريخنا الأندلسى ، وهو اليوم قرية صغيرة تسمى كاستيُّو دى كالاتراڤا لاڤييخا (حصن قلعة رباح القديمة) وقد نشأت إلى جواره قرية جديدة تسمى كالاتراڤا لانويڤا (قلعة رباح الجديدة) .

فى هذه المساحة الواسعة دارت رحى معركة الأرْك الخالدة يوم الأربعاء

١٥ جمادى الثانية ٥٩١ / ٢٧ مايو ١١٩٥ وانجلت عن نصر عظيم لجيوش العرب والإسلام يقودها أبو يوسف يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين على جحافل كبرى كان يقودها ألفونسو الثامن ملك قشتالة .

* * *

على يمينك يمتد إقليم إستريمادورا أشد أقاليم إسبانيا جفافاً وقحلا . اسمه يحمل وصفه : إكستريما (الأقصى) + دورا (الجفاف) = الجفاف الأقصى .

إنه صحراء ، أو ينبغي أن يكون صحراء ، لولا جهد الإنسان . الجبال فى أقصى شمالها (جبال طُلَيْطِلَة التى يسميها العرب جبال البرانس) وفى أقصى جنوبها (سْيِرّامورينا ، وسنمر بها بعد قليل) تجتذب السحب فتعتصر ماءها ، ثم تدع الهواء يمضى صافياً جافاً كهذا الهواء النقى الذى يصنع الصحراء .

هنا تستطيع أن تمضى ساعة كاملة بالسيارة دون أن ترى مخلوقاً . يحذرونك أن تنطلق وحدك فى هذه المتاهة ، وخاصة فى الطريق من كاثيريس (قَصِرِشْ) إلى ألْبُوكيرك (تحريف شنيع ، أصله : أبو بكر) . . لقد شبهها الرحالة لاَبْلاَىْ بصحراء العرب . الجغرافيون الإسبان ينكرون ذلك فى عنف ، ولكن الحقيقة التاريخية تؤيده . فقد أحب العرب هذه الناحية وسكنوها وعمروها كما كانوا يعمرون الحوف الشرقى فى مصر ، لا يدرى أحد كيف ، ولكنهم بطبيعتهم كالجمال ، يعرفون كيف يعيشون فى الرمال . .

ليس بعجيب أن تكون فى هذه الناحية مدينة تسمى « صفراء » لأن أصل الاسم عربى : صحراء ، وتلك هى الناحية التى سمى العرب جنوبها « الجوف » وأنشأوا فيها مدناً عامرة أهلها رعاة محاربون : تُرْجالة (تْرُوخيُّو) ، شنت أكرج وقنطرة السيف وأم غزالة وغيرها كثير . وفى هذه الناحية بالذات كسب العرب نصراً من أكبر الانتصارات التى كسبوها فى عصورهم الأخيرة

فى الأندلس ، نصر الزّلاّقة (ساكراجاس) على مقربة من بَطَلْيَوْس (اليوم : بَدَاخُوس) . .

وكما صنعت صحراء العرب أعظم محاربين عرفهم التاريخ ، فقد صنعت إسترِيمادورا أعظم محاربين أطلعتهم إسبانيا . من هنا خرج عدد من أكبر الفاتحين الذين ذللوا أمريكا الوسطى والجنوبية للإسبان : هنا موطن هِرْنان كُورتِيس قاهر إمبراطورية الأزْتِيك فى المكسيك (أصله من مِدِلِين) ، ونُونْيُوس دى بالْبُوَا فاتح پنما ومكتشف المحيط الهادى من ناحية أمريكا (أصله من شَرِيش الفرسان) ، وفرانثيسكو بيثارو فاتح پيرو ومحطم دولة الأنْكا (أصله من تُرْجالة) ، ومن هنا خرج الألوف من الجنود المجهولين الذين أنشـأوا مجد إسبانيـا وراء البحار ، أولئـك الذين يسمونهم الكُونْكِيسْتادورِيس ، وهم دون شك من أكبر الفاتحين الذين عرفهم التاريخ : تصور أن الذين فتحوا المكسيك كانوا نحو ٤٠٠ منهم مسلحين ببنادق بدائية وستة مـدافع !

هناك ، وابتداء من بلد يسمى طَلَبِيرة الملكة (تالاڤيرا دى لارينا) طريق يسمى إلى الآن طريق الفاتحين (لاروتا دى لوس كونكيستادوريس) يسير حتى إشبيلية ، ومن ميناء صغير جنوبى إشبيلية يسمى سان لوكار (شَنْلُوقَر) خرجت الحملات بعد الحملات إلى العالم الجديد ، من هذا الثقب الصغير خرج الطوفان الذى أنشأ لإسبانيا ملكاً يعدل مساحتها عشرات المرات .

* * *

نعود إلى طريقنا . وصلنا إلى ڤالديبينياس على الطريق الرئيسى إلى الأندلس ، المعروف على الخرائط بطريق رقم ٤ .

نحن فى منطقة من أغنى مناطق العنب فى إسبانيا ، ونبيذ ڤالديبينياس اسم كبير فى عالم الخمور .

على يميننا وشمالنا تمتد المزارع تقوم فيها صفوف الشجيرات كأنها جنود ، منظرها من بعيد يذكرك بحقول القطن عندنا .

الأرض هنا أرض رى ، فنحن نقترب رويداً رويداً من ملتقى عشرات من مجارى الماء الصغيرة التى تنبع من قمم عالية تسمى فى مجموعها سلسلة جبال الكاراذ (الاسم محرف عن الكرز أو الكريز) وسلسلة جبال كاثورلا وسلسلة جبال شَقُورة ، ثم تنحدر كل مجموعة من المجارى ناحية لتكوّن بعد ذلك نهراً : المجموعة التى تنحدر إلى الجنوب تشترك فى تكوين الوادى الكبير ، والتى إلى الشمال تكون الوادى آنه ، والتى إلى الشرق تكون نهر شقورة ، وهو نهر مُرْسية ، البلد الذى ولد فيه أبو العباس المرسى قديس الإسكندرية وملاكها الحارس . .

أسماء هذه الأنهار كلها عربية : نهر خَبَالُون (جبل عون) ، جُوَادَالِين (وادى العين) ، جُوَادَالْمِينا (وادى المنار) ، وهكذا . .

بعد بلدة ڤالديبينياس نبدأ فى اجتياز الممرات الكبرى المؤدية إلى قلب الأندلس . هذه الممرات تجرى وسط قمم شاهقة وهضاب عالية وتلال تتوالى من شرق ومن غرب . هذه الجبال والهضاب والتلال تسمى فى مجموعها جبال سييرّامورينا ، أى الجبـــال السمراء . كان العرب يسمونها جبل المعدن . جبال متهيّلة كما يقول ابن خلدون ، حجارتها جرانيتية سمراء داكنة ، من هنا جاء اسمها الإسبانى . إنها تمتد إلى الغرب حتى قرب حدود البرتغال . هذه الجبال كلها كانت الدرع التى تقى قلب الأندلس ، وهو حوض نهر الوادى الكبير .

مَن ملك نواصى هذه الجبال ملك الأندلس . ظل العرب فى أمن وعز طالما كانت هذه الجبال فى أيديهم . فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى اضطرب أمر الخلافة الأندلسية وتنافس الرؤساء ، كل منهم يريد أن يكون ملكاً ، وصاروا بالفعل ملوكاً كملوك المسرحيات : ملابس وكلام ، ثم لا شىء . .

هنا تقدم العدو الرابض فى الشمال . ما كان ليجسر على التقدم قبل ذلك أبداً ، ولكن الحقد بين الرؤساء والتنافس والغيرة فتحت له الطريق ، وفجأة

استولى الفونسو السادس على طليطلة وكان إقليمها يمتد إلى حدود هذه الجبال، أسلمه إياها ملك غلام تافه وسط حيل ومؤامرات . .

لم يدرِ حين أسلمها أنه أسلم الأندلس كله . جهود أربعة قرون ، حضارة بنتها أجيال بعد أجيال ملايين من الأندلسيين الآمنين العاملين . . كل هذا سلمه للعدو غلام . كان يسمى نفسه — لسخرية المقادير — القادر ! كان ذلك سنة ١٠٨٦ .

كان العالم الإسلامى كله فى ذلك الحين فى حالة يرثى لها من التفكك . بعد ذلك بثلاث عشرة سنة — ١٠٩٩ — ينزل الصليبيون أرض الشام ويستولون على بيت المقدس .

* * *

تركنا خلفنا ڤالديبنياس ، الممرات التى نجتازها مرتفعة رهيبة ولكنها خضراء ، غابات زاهية تطل على خوانق عميقة . الطريق يجرى بينها كأنه أفعى تتلوى ، فى بعض الأحيان يخيل إليك أن السيارة تجرى بك على ڤيراندا طويلة تدور حول الجبل . .

فى وسط هذه الجبال موضع تطل عليه القمم وتتلاقى عنده مجارى الأودية يسمونه ديسپينيا پيرُوس . . اسم غريب ، لأن معناه « المكان الذى يطردون عنده الكلاب » ، يقذفون بها من قمم الجبال . الاسم وضعه الإسبان أثناء الحرب الطويلة بيننا وبينهم على المصير الأخير للأندلس ، هناك أقاموا حصوناً ليردوا هجماتنا . . في بعض كتبها يسمى مَطرد الكلب.

هذه الممرات كانت أيضاً جنة قطاع الطرق . لا بد أنك قرأت أو رأيت فلماً من هذه الأفلام التى تصور قطاع الطرق الإسبان بملابسهم التقليدية المهلهلة ، يعصبون رؤوسهم بمناديل حمراء تحت القبعات . هؤلاء كانوا سادة هذه الجبال من القرن السادس عشر إلى منتصف التاسع عشر ، قصصهم ومغامراتهم تشبه الأساطير . لم يكونوا كلهم لصوصاً ، كان فيهم أبطال هاربون من ظلم

الملوك ورجال الملوك . من هؤلاء خرج أعتى قراصنة المحيط ، أولئك الذين سادوا المحيط الأطلسي والبحر الكاريبي زماناً طويلا ، وهؤلاء بالذات كسبوا لإسبانيا انتصارات خلدها التاريخ . .

وفيما بين ديسپينياپيروس وبايلْين تمضي بك السيارة في منعرجات و «مهالك لم تصحبْ بها الذئبَ نفسُه» ــ كما يقول المتنبي في بيته المشهور في ميميته الخالدة : « وفاؤكما كالربع أشجاه طاسِمُهْ » ــ حتى تصل إلى بلد صغير يسمى سانتا إيلينا (القديسة هيلانة) . . هنا قف لحظة واقرأ الفاتحة وترحم على أرواح بضع عشرات الألوف من المسلمين استشهدوا على مسافة يسيرة غرب ذلك البلد الصغير . .

أولئك هم شهداء معركة العِقاب ، والمراد بها العقبات ، وهي المقابل العربي لاسمها الإسباني « لاس ناڤاس دى تولوزا » ؛ والناڤا هي المرتفع أو العقبة .

ولو استطعت أن تفرغ بعض يوم للطواف بهذه الناحية لعشت لحظات في مشهد لا ينسى من مشاهد تاريخنا الأندلسي ، بل تاريخنا العام . .

ستجد نفسك بين جبال عالية تقطعها وديان ووهاد ، وستشعر برهبة بالغة ، لأنك الآن في قلب جبال المعدن أو سيرّا مورينا كما تسمى ، وأنت تقطع المضايق التي حمت قلب الأندلس ــ وهو حوض الوادي الكبير ــ من الغارات التي كانت تنقض عليه من الشمال .

ففي الخامس عشر من صفر ٦٠٩ / ١٧ يوليو ١٢١٢ دارت الجولة الأخيرة من جولات معركة العِقاب التي انجلت عن هزيمة قاصمة لقوات الموحدين أمام قوات قَشْتالة يقودها ألفونسو الثامن .

وكان يقود الجيوش الإسلامية محمد بن أبي يوسف يعقوب المنصور رابع خلفاء الموحدين ، وكان محمد هذا يلقب بالناصر ، وكان شاباً متواضع الملكات ، لم يقسم له من الذكاء وبعد الهمة ما قسم لأبيه المنصور الموحدي

بطل يوم الأرْك العظيم قبل ذلك بست عشرة سنة فى ٩ شعبان ٥٩١ / ١٩ يوليو ١١٩٥ .

وكان محمد الناصر هذا يرجو أن يدرك نصراً كنصر أبيه ، ولكن سوء حظه أراد له أن يقترن اسمه بقاصمة الظهر فى تاريخ الأندلس : خرج من إشبيلية فى المحرم سنة ٦٠٩ / يونيو ١٢١٢ ونزل بقلعة رباح Calatrava حيث استقبله قائدها أبو الحجاج يوسف بن قادس كبير قواد الأندلسيين وزعيمهم . ولأمر ما وقع النفور بينه وبين الناصر ، وتسرع هذا فقتله ، فساءت ظنون الأندلسيين وتغيرت قلوبهم ، ووهنت الروح المعنوية فى الجيش الإسلامى كله .

وأراد محمد الناصر أن يعبر ممرات ديسپينياپيروس ليفضى إلى السهول التى كسب فيها أبوه معركة الأرك ، ولكن قوات قشتالة سبقته وعبرتها واحتلت مرتفعاً عالياً يسمى اليوم لاميسا دِل رِىْ (مرتفع الملك أو منضدته) ، وأشرفت على جموع المسلمين التى احتشدت فى الوادى عند نهر صغير يسمى نهر مَتِجَانْيا شرقى سانتا إيلينا هذه ، وهذا الوادى ـــ كما ستراه ـــ سلسلة من الهضاب المتوالية هى المسماة بالعِقاب ، واجتهد المسلمون فى سد منافذ الجبال حتى يأمنوا فى معسكرهم .

ومن أعلى « مرتفع الملك » هذا رسم ألفونسو خطة الهجوم فى حصن لازال باقياً إلى اليوم يسمى حصن الفِرّال (كاسترو دِلْ فِرّال) ، ثم تسللت جيوش قشتالة من ممر صغير تجده بين لاميسا دل رى وميراندا دل رى إلى شرقى سانتا إيلينا ، وكان المسلمون قد اجتهدوا فى سد الطريق الرئيسى الذى يسمى اليوم ثغر موراداال (پويرتو دى موراديبل) ودقوا فى الأرض ألوفاً من رؤوس الأسهم الصغيرة لعرقلة الخيل . مئات من هذه الأسهم لا زالت باقية فى الأرض هناك ، تستطيع أن تجد منها بضعة دون مشقة .

باغت هذا الهجوم المفاجئ قوات المسلمين فتفرقت ، وأسرع محمد

الناصر هارباً إلى أُبَّذَة (أوبيدة) ومنها إلى جيّان ثم إلى إشبيلية . وانتهى ذلك اليوم الذى تستطيع أن تعتبره نهاية الأمل فى استعادة مجد الأندلس .

* * *

وبعد قليل تصل بك السيارة إلى بايلين ، ملتقى طرق كبير . إنه فى حساب الجغرافيا بلد صغير فى مقاطعة جيّان ، ولكنه فى حساب التاريخ شيء هائل . .

إن كنت تذكر تاريخ نابليون ، فانت تذكر أنه عند هذا البلد هزمت جيوشه للمرة الأولى فى التاريخ . هناك تحطمت أسطورته ، زالت رهبته من القلوب ، لم يعد نابليون الذى لا يغلب ، بل نابليون المغلوب . .

كان ذلك فى ١٩ يوليو ١٨٠٨ ، وقد استولى نابليون على شبه الجزيرة كله ، وتوج أخاه جوزيف ملكاً فى مدريد ، وعسكرت فرق من جنوده فى أبهاء حمراء غرناطة . .

ولكن أهل الجبال رفضوا الطاعة ، قاموا وعلى رأسهم قائد شهم هو فرانثيسكو خافيير كستانيوس ؛ وكان يقود الفرنسيين الجنرال دوبون . .

وعند بايلين دارت المعركة الحاسمة . انهزم جيش نابليون وقضى عليه ، ووقع الجنرال دوبون أسيراً فى أيدى الإسبان ومعه هيئة أركان حربه كلها !

بعد الهزيمة بأحد عشر يوماً اضطر جوزيف نابليون إلى الهرب من مدريد . .

ومن بين جنود الإسبان الذين اشتركوا فى المعركة ضابط صغير اسمه خوسيه دى سان مارتين ، هذا الضابط الصغير هو الذى سيحرر الأرجنتين من إسبانيا فيما بعد .

من بايلين تحررت أوروبا من نير نابليون . .

ومن بايلين تحررت أمريكا الجنوبية من سلطان الإسبان . .

وعندما فقدنا نحن منطقة بايلين فقدنا الأندلس . .

* * *

وللأندلس طريق آخر لا يقل عن هذا متعة ولا أهمية . طريق قل أن يطرقه منا أحد ، لأنه لا يؤدى إلى قرطبة وغرناطة ، بل إلى شرق الأندلس ، أو جنوبه الشرقى بتعبير أدق . والناس ينسونه لأن القادمين إلى هذه البلاد يكونون فى العادة متعجلين الذهاب إلى مدائن الأندلس الجنوبية الكبرى .

هذا الطريق تفضى إليه من جنوبى مدريد ، الطريق الرئيسى رقم ٤ ، حتى إذا وصلت إلى أوكانيا انحرفت جنوباً بشرق فى طريق السيارات رقم ٣٠١ أو الخط الحديدى الذاهب إلى مرسية .

ستجد نفسك تقطع بطاحاً واسعة هى الجانب الشرقى من منطقة المانشا ، بطاح ممتدة حتى الأفق فى كل ناحية، كلها مزارع قمح أو كروم فى الغالب . وتستوقف انتباهك قلة الأشجار ، فالأفق أمامك مفتوح حيثما نظرت لا تقوم فيه شجرة ، فيما خلا نوادر بين الحين والحين ، حتى تصل إلى بلدة كِنتانار دى لا أوردن ، وأصلها حصن أنشأته جماعة الرهبان المحاربين المعروفين باسم جماعة قلعة رباح (لا أوردن دى كالاتراڤا) ، وبعدها بنحو ساعتين تصل إلى بلدة الروضة (لارودا) وهى عربية كما يدل على ذلك اسمها ، ثم تصل إلى مدينة البسيط (الباثيتى) وهى بلد حديث جميل ، قام على أساس حصن عربى قديم يحمل نفس الاسم ، كان له دور عظيم فى الصراع بين الإسلام والنصرانية فى الأندلس أواخر أيام الموحدين .

وبعد البسيط تدخل فى منطقة جبال رهيبة حقاً . لقد خلفت وراءك منطقة المانشا وسهولها ، وأنت الآن فى الطرف الشمالى الشرقى الأقصى لجبال سْيِرّا نيڤادا (جبل الثلج) . هذه الجبال تبدو لك على يمينك وشمالك طيات بعد طيات ، وهى جبال قاحلة لونها قريب من لون الأسمنت ، والطريق بينها متعرج خطر لا بد أن تسير فيه بحذر ، وتقابلك فيه قرى عربية الأصل : الفِلِّين (تكتب اليوم Hellín) ، أو إسبانية حديثة : يِكْلا ، ثْيِيسا وما إليها . وكلها صغيرة صامتة ، لأن المنطقة كلها كانت منطقة حصون ومواقع يطول بنا الأمر لو مضينا نحصيها (حصن الكَرَس ، شَقُورة ،

قَرَبَاقَة، مُولَة، جِنْجَالَة، شَلْبَطَرَّة. . الخ)، والمواقـع الحربيـة بين المسلمـين وأعدائهم التي دارت هناك كـان معظمهـا في القرن الثـالث عشر الميـلادي، أيام كان المسلمون يدافعـون دفاع المستميت عـما بقي بأيـديهم من الأندلس بعد موقعة عِقاب تولوزا.

وننتهى أخيراً إلى مُرسية، فإما اتجهت بعد ذلك شمالا بشرق إلى لَقَنْت (أليكانتى) أو جنوباً بشرق إلى قرطاجنة الحلفاء (كارتاخينا) أو جنوباً إلى المرية، وسنتحدث عنها كلها فيما يلى.

ولو ذهبت إلى المرية، وأردت بعد ذلك النزول إلى مالقة عن طريق مُطْرِيل فحبذا لو أخذت طريق الجبال الداخلى، وأنت تأخذه من بلدة صغيرة على البحر إلى غربى المرية تسمى البُنْيُول. بعد هذه البلدة تدخل فى منطقة جبال وعرة. هذه هى منطقة البشارات (لاس البوخاراس): أوعار متوالية ولكنها ساحرة بجمالها، فجبالها خضراء تشرح الصدر، وقممها عالية لو نظرت من إحداها لرأيت الوديان ساحقة العمق تحت قدميك. هذه هى قلب جبال سيِرّا نيڤادا، ومن هنا تستطيع أن ترى قمة «أبو الحسن» (مولهاثِن) أعلى جبال إسبانيا كلها. وفى وسط هذه الجبال تجد بلدة وادى آش (جْوادِيكْس) بلد شاعرنا الملهم أبى عبدالله محمد بن الحداد المعروف بالوادى آشى. والعرب يسمون البلد أحياناً بوادى الآشات، والآش محرف عن اللفظ اللاتينى آكْس ويراد به الماء، أى عين الماء؛ وهو بدوره محرف عن أكْوَا وهو الماء أيضاً. ولفظ أيِكْس لا زال باقياً فى أسماء كثير من البلاد الأوروبية: أيكس لاشاپل، أيكس آن پرُوڤانْس وما إليهما. وفى هذه الجبال تجد من بلادنا العربية برشانة (بورتشينا) وشرشال (خيرْخِيل) وبَرْجَة (بيرْخا) ودَلاّية (دالياس) وعَذْرة (أدرا) وما إليها، وكلها بلاد أخرجت قادة وشعراء وكتاباً وعلماء يزدان بهم تاريخنا الفكرى.

ولكن هذه الجبال مشهورة فى تاريخنا بأنها كانت ميدان آخر ثورة كبرى قام بها المسلمون الأندلسيون بعد سقوط غرناطة. كان ذلك فى أوائل القرن

السادس عشر الميلادي، ثورة واسعة المدى قامت بها بقايا المسلمين هناك احتجاجاً على قوانين التنصير وديوان التحقيق، ولكنها لم تعمر طويلاً، ثم قُضي عليها وساد السكون الذي تحس به من حولك حتى تصل إلى مُطْرِيل.

ولم يؤرخ لهذه الانتفاضة الأندلسية الأخيرة أحد منا بالتفصيل الذى تستحقه، وإليك موجزاً لما دار فيها لتعرف وأنت بين هذه الجبال فى أى أرض تسير . .

كان ذلك بعد استسلام غرناطة بثمان سنوات . كان أهلها من المسلمين ومن جاورهم من جماعاتهم فى بلاد الأندلس الأخرى قد اطمأنوا بعض الشيء بعد سنوات الحروب التى انتهت بتسليم البلد، وكان الملكان الكاثوليكيان — فرناندو وإيزابيلا — قد أعطيا من بقى منهم عهداً قاطعاً يضمن لهم الحرية فى عقيدتهم، وأقاما على البلد حاكماً معتدلا هو الكونت دى تِينْدِيّا يعاونه أسقف هو أقرب إلى التسامح هو الأب إيرناندو دى تالاڤيرا.

ولكن الكردينال ثيسنيروس — رأس الكنيسة الإسبانية إذ ذاك — كان رجلا عنيفاً شديد العصبية، فأراد أن يرغم المسلمين على التنصر. ولجأ إلى إذلالهم، فأمر بأن تحرق نسخ القرآن التى وجدت إذ ذاك، وأحرقت بالفعل فى ميدان باب الرملة فى غرناطة. وكان طبيعياً أن تثور نفوس المسلمين على إثر ذلك، فهب أهل حى البَيّاسين هبة رجل واحد، وهاجموا ثيسنيروس وكادوا يظفرون به لولا أن أسرع الأسقف إيرناندو دى تالاڤيرا فاستنقذه وأخذ يهدئ من روع الناس. ووصلت أنباء الثورة إلى الملك فرناندو وأسرع إليه ثيسنيروس يهول الأمر، فأصدر أمراً بإقامة محكمة للثائرين من أهل البياسين. وخاف هؤلاء من العقاب، فقبل التنصر منهم من غلبه الخوف، وفر الباقون إلى الجبال.

وتسامع المسلمون فى بقية نواحى الأندلس بالأمر، وأسرع أهل جبال البشارات فانتقضوا على حكم الإسبان وقرروا الحرب دفاعاً عن أنفسهم وعقيدتهم.

وأسرعت الجيوش الإسبانية إلى هذه الجبال يقودها الكونت تِينْدِيَّا وجونذالو فرنانديث دى كوردوبا ثم لحق بهما الملك فرناندو بنفسه ، ومضوا يستولون على بلاد البشارات واحدة واحدة بعد قتال مرير . وسقطت بلاد إقليم غرناطة التى كانت قد اشتركت فى الثورة مثل وَجَرْ ومُنْتُوجَرْ والأنْجَرُون (لانخارون) ولُنْجَار ووادى آش وبَيَّاسة ، أما المرية فقد آثر أهلها التسليم .

وفى العام التالى — ١٥٠١ — تجددت الثورة على صورة أعنف فى جبال فيلابْرِس ، وامتدت إلى جبال رندة ، وأسرعت جيوش قشتالة لقمعها يقودها أكبر قواد إسبانيا إذ ذاك : ثيفوينتِس وكونت أورينيا وألونسو دى أجيلار ، وأمام هذه القوات لم يستطع الثائرون الصمود .

وقد جنح الملك فرناندو إلى اللين أول الأمر ، ولكن ثيسنيروس لم يزل به حتى أصدر مرسوماً فى ١١ فبراير ١٥٠٢ يخير مسلمى الأندلس بين التنصر أو مبارحة أوطانهم . وتنصر من تنصر ، وهرب بنفسه ودينه من هرب لاجئاً إلى بلاد المسلمين وأقربها المغرب .

صفحات من التاريخ تعقبها صفحات . .

وطريق الأندلس — فى حساب التاريخ — طويل . .

سلامًا يا قُرطبة

نحن على أبواب الأندلس . .

على أبواب ركن من الدنيا حبيب إلينا ، وإلى الناس أجمعين . .

فإن السائح الذى يدخل إسبانيا ، من أى باب من أبوابها ، لا يكاد يستريح من الرحلة الطويلة حتى يسأل عن الطريق إلى الأندلس . .

يحاولون إغراءه بزيارة الشمال أو الشرق أو الشمال الغربى ، فيأبى إلا أن يذهب إلى الأندلس . فى أدلة السياحة الإسبانية يجعلون الأندلس فى آخر الدليل : يريدون أن يبدأ الناس بالكنائس العجيبة الماثلة فى الإسْكُرْيال وطُلَيْطِلَة وشَقُوبْيَة وأبِلَة وبلد الوليد وسَلَمَنْقَة وخاصة شَنْت ياقُب (سنت ياجو) . . ولكن السائح يهز رأسه ويقول : الأندلس أولا . .

لأن الأندلس فى نظر السائحين جميعاً هو إسبانيا . .

وها نحن على الأبواب ، فى الطريق إلى ليناريس . بلد حديث ، ملتقى طرق ، وككل بلد من هذا الطراز لا يتوقف السائح فيه إلا إذا كان به عطش أو جوع . شربة مرطبة فى مقهى ، أو لقمة تكسر حدة الجوع فى مطعم ، ثم إلى قرطبة . .

هذه طلائعها تبدو . من أعلى جبال السَّيِرّا مورينا التى نجتازها تبدو لنا

بطاح سهل الوادى الكبير ، كأننا نخرج من صحراء إلى واحة ، كأننا ننظر من عند الأهرام إلى وادى النيل . المنطقة الجرداء التى نقطع آخر مراحلها أثر من آثار الصراع على مصير شبه الجزيرة .

قرون طويلة والعرب وأهل الشمال يتصارعون خلالها على مصير الأندلس . عندما انتهت الحرب كانت قد تحولت إلى بطاح مقفرة وقرى خلت من أهلها (دِيسپُوپْلادُوس) . فى القرن السابع عشر حاول ملوك الإسبان تعميرها ، استقدموا معمرين من ألمانيا وسويسرا وفرنسا .

ولا بد أن الوادى الكبير كان فيما مضى أكبر مما هو اليوم بكثير ، إنه اليوم واد صغير . . كانت السفن البحرية تصل أيام العرب إلى قرطبة ، اليوم تصل إلى إشبيلية ، بل لا تكاد .

سهول الوادى الكبير تسمى اليوم ڤِيجَاس أو لاس ڤيجاس ، تحريف للفظ العربى « البقاع » ، وتسمى أيضاً كامْبِينيْيَاس . العرب يجعلونها « القَنْبانية » . .

عن يميننا ، وعن شمالنا ، حقول قمح واسعة . هنا يعتمد الناس على الرى والمطر معاً . الملكيات هنا كبيرة ، كبيرة جداً . أصحاب الأراضى يهتمون بالأشجار : الزيتون والبرتقال واللوز والمشمش وما إليها . الزيتون لا يحتاج لعمل كثير ، ولهذا فإن مساحات شاسعة من حقول الزيتون التى نمر بها تبدو وكأنها غير مسكونة . الفلاحون يتجمعون فى قرى كبيرة كأنها مدن ، ها نحن نمر بإحداها . اسمها أنْدُوخَرْ ، العرب يسمونها أندوجَر أو أندوشَر ، ذكر ياقوت من شعرائها أبا إسحاق اليحصُبى الأندوشرى . إنها اليوم لا تخرج شعراء ، بل تنتج الأورانيوم ، ولكل عصر اهتماماته . .

المنطقة كلها معادن ، كان العرب يسمون السِّيرّاموررينا جبالَ المعدن .

كلما اقتربنا من قرطبة زاد الشوق إليها . الصبر ينفد فى هذه القطعة من

الطريق على قصرها . تتردد فى الخاطر
فيديريكو جارثيا لوركا :

« قرطبة . . .
بعيدة ووحيدة . . .
إننى أسير إليها على بغلة سوداء
وتحتى خُرج ملىء بالزيتون
ومع أننى أعرف الطرق كلها . . .
فإننى لن أصل أبداً إلى قرطبة
آه . . ما أطول هذا الطريق . . !
يا لهذه البغلة الباسلة . .
إن الموت ينتظرنى
قبل أن أصل إلى قرطبة . .
قرطبة . .
تلك البعيدة الوحيدة . . . »

• • •

سائق السيارة الذى يأتى بك من مدريد يفضل دائماً أن يدور بك خارج قرطبة حتى يصل إلى ضفة الوادى الكبير ، ثم يسير بك محاذياً له حتى يصل إلى الجامع الأعظم . إذا كنت متعجلا فافعل ذلك ، أما إذا كنت قد أوسعت على نفسك فى الوقت لكى تصحب قرطبة يومين أو ثلاثة ، فاطلب إلى السائق أن يخترق بك البلد : أن يمضى بك إلى ميدان لامجدالينا ثم شارع كلاوديو مارسيلو حتى ميدان خوسيه أنطونيو ، سُرّة قرطبة اليوم . أو اطلب إليه أن يمضى بك إلى ذلك الميدان الجميل المسمى كامبو دى لاميرثيد ، ثم شارع الجنيراليسيمو فشارع ثيرڤانتس .

أثناء السير الوئيد تستطيع أن ترى قرطبة وتتذوقها . .

إنها قرطبة الحديثة كما يقولون ، ولكنى أشم فى كل ركن منها ريح قرطبتنا الخالدة ، وأشعر تماماً أننى أسير فى نفس الطرق التى سار فيها ابن رشد وابن طُفَيل وابن حزم وابن شُهَيد ، مع اختلاف الأسماء طبعاً . فى هذه المدن التي صنعت التاريخ لا فرق بين قديم أو حديث، إنه زمن واحد وموكب واحد يجمع كل شيء في آن واحد . .

فالطريق الذى دخلت منه البلد هو نفس الطريق القديم الذى كان أجدادنا يطرقونه إذا بارحوا قرطبة إلى الشمال . كان يسمى السكة العظمى ، وهى ترجمة لاسمه قبلهم . كان الرومان يسمونه ثيا آوجستا ، وهو طريق قديم سار فيه يوليوس قيصر وپومپى وتراچان وهادريان ، ثم سار فيه عبد الرحمن الداخل والأوسط والناصر ، ثم أمير العسكريين الذين أنجبهم الأندلس : المنصور بن أبى عامر .

وكان يقوم عليه باب من الأبواب الكثيرة فى أسوار قرطبة ، وهو باب عباس — وكان الباب الذى يفضى منه الناس إلى شرق الأندلس — وإلى جانبه مقبرة البرج ، ثم يخترق الإنسان مُنية المغيرة ثم منية عبدالله ، ويصل أخيراً إلى أحد أبواب السور الداخلى لقرطبة : باب عبد الجبار . .

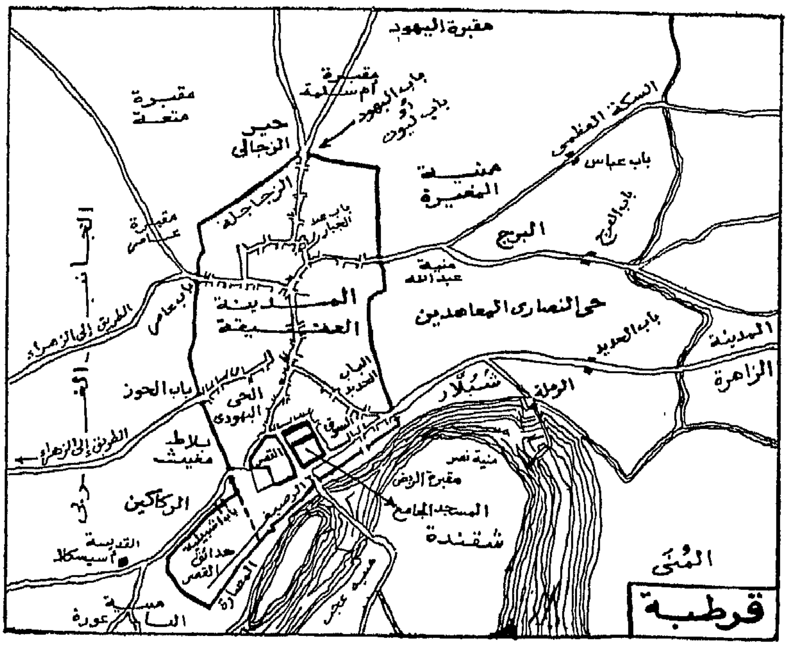
هذا —بالتقريب— هو الطريق الذى تسير فيه داخلا قرطبة،فأنت تمر أولا بين حدائق فاكهة واسعة يحيط كل منها بقصر من قصور الأغنياء ، الواحدة منها تسمى أويرتا (أى حديقة) : أويرتا دى دِيتْراس دى لاپُورْتيَا (حديقة ما وراء الباب) ، أويرتا دى لاتُورِّيثِيَا (حديقة البرج الصغير) .. وهكذا . إنها « ثيلات » بلغتنا الحديثة . الڤيلا عند عرب الأندلس كانوا يسمونها المُنْيَة ، وأويرتات اليوم هى مُنيات الأمس .

إلى سنة ١٨١١ كانت المنيات العربية قائمة كما خلفها أصحابها ، مع اختلاف الأسماء طبعاً،فإن القواد الذين دخلوا البلد مع فرناندو الثالث — الذى استولى على قرطبة من أيدى العرب سنة ١٢٣٦ — تقاسموا هذه المنيات وأعطوها أسماءهم . .

وهذا القسم الشرقى من قرطبة كان أعمر أقسامها أيام العرب ، كان يسمى المدينة الشرقية أو الشرقية أو الجانب الشرقى ، ولا زال إلى الآن يسمى أخَارْكيا (الشرقية) .

أما بقية قرطبة فكانت تسمى المدينة أو المدينة العتيقة أو القصبة ، وكانت هذه المدينة العتيقة ذات سور منيع عليه أبواب مشهورة فى تاريخ الأندلس كله : باب ليُون ، الباب الجديد ، باب القنطرة ، باب إشبيلية ، باب الجوز وباب عامر .

وقد اتسعت قرطبة العربية إلى الشرق والغرب ، وعبرت النهر ، وعمرت الضفة الجنوبية . وكانت لها ضاحية واسعة لأهل الحرف وأوساط الناس، كانت تسمى شَقُنْدة ، وهى اليوم تسمى الإسپيريتو سانتو .



رسم تقريبى لما كانت عليه قرطبة العربية فى أوجها خلال النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . يلاحظ الشارع الرئيسى . . كان يبدأ عند قنطرة الوادى ويمر بين الجامع والقصر ، ثم يتصل بعد ذلك إلى شمالى البلد عند باب ليون ماراً بباب عبد الجبار

وبين قرطبة وضاحيتها تلك لا تزال تقوم القنطرة العربية المشهورة . كانت تسمى قنطرة الوادى . أصلها « كوبرى » رومانى ، وقد أصلحها وجددها العرب مراراً . . كانت على أيامهم منتزهاً يخرج إليه الناس بعد الظهر ، كما يخرج أهل القاهرة إلى كوبرى قصر النيل .

هنا كان ملتقى الأدباء والشعراء . إلى يمين القنطرة وشمالها ، على شاطئ الوادى الكبير ، كان يقوم « كورنيش » جميل كان يسمى الرصيف ، وامتداده من ناحية اليمين كان يسمى شُبُلاّر ، ومن اليسار المُصَارّة .. وهذ الكورنيش يحمل اليوم أسماء حديثة : پاسيو دى لاريبيرا (أى منتزه الشاطئ) ، روندا دى إيزلاس .

ما أكثر الشعر الذى قاله الأندلسيون فى قنطرة الوادى ، وما أكثر أقاصيص الهوى التى يقصونها !

لعل ألطفها قصة الشاعر يوسف بن هارون الرمادى مع جارية فاتنة من جوارى القصر ، رآها تسير وحدها عند باب العطارين (وهذا الموضع كان مجتمع النساء) فهام بها للنظرة الأولى ، ومضى يتبعها ، وعبر القنطرة وراءها . حتى إذا صارت فى موضع خال من الناس خافت أن يكون شريراً يريد أذاها ، فالتفتت إليه وخاطبته ، وعرفت أنه صب مستهام بها ، فرجته أن يدعها وشأنها ، ورفضت أن تقول له ممن هى وأين تعيش . كل ما قالته له أن اسمها « خَلْوة » وأنها ستلقاه فى نفس الموعد والمكان كل جمعة . ثم اختفت فلم يعد يراها . وعاش بعد ذلك يحلم بها ويقول فيها الأشعار ...

* * *

وأنت تتمشى فى شوارع قرطبة اليوم فتشعر دائماً أن حزناً عميقاً يملأ نفسك . إنه ليس الأسف على ضياعها ، فإن إشبيلية ضاعت هى الأخرى ، ولكن هذا الحزن لا يثقل على نفسك على هذه الصورة هناك .

وقد كانت قرطبة هكذا دائماً . .

حتى فى أيام عزها ، أيام الخلفاء العظام ، أيام الدولة الكبرى والجيوش المنصورة والحضارة الزاهرة ، كانت قرطبة ذات وقار وسكون كأن أهلها كانوا يشعرون أن القدر لهم بالمرصاد . .

يسمونها اليوم السلطانة الحزينة . .

وفيديريكو جارثيا لوركا يقول إنها بعيدة وحيدة . .

وأنطونيو ماتشادو شاعر إشبيلية الأكبر فى العصور الحديثة يقول فى إحدى قصائده إن مياه الوادى الكبير تتحول إلى دموع عندما تمر بقرطبة . .

والعشرات من شعراء العرب الذين أنجبتهم قرطبة شعراء حزن وهموم ، من عباس بن ناصح إلى ابن حزم لا نجد إلا الدموع . .

كان الأندلسيون يشعرون أن قرطبتهم الجميلة ينتظرها الموت .

كان أعداؤها كثيرين : العدو الكبير يزحف دائماً من الشمال ، وأعداء صغار كثيرون يتربصون بها الدوائر من كل ناحية . .

كانت دائماً بعيدة وحيدة . .

بعيدة عن أخواتها فى المشرق النائى : دمشق وبغداد والفُسطاط والقيروان . . وحيدة تحمل على كتفيها عبء خلافة ومصير حضارة وشعب . .

هذا الشعور بالوحشة ملأ نفس عبد الرحمن الداخل ، صقر قريش المظفر . أبياته التى تصور استيحاشه يعرفها كل قارئ للأدب العربى :

أيها الراكب الميمِّم أرضى	أقْرِ من بعضىَ السلامَ لبعضِ
إن جسمى - كما تراه - بأرض	وفؤادى ومالكيه بأرض
قُدِّر البين بيننا فافترقنا	وطوى البين عن جفونىَ غمضى
قد قضى الله بيننا فافترقنا	فعسى باجتماعنا سوف يقضى

وعبد الرحمن الناصر — أعظم خلفاء الغرب الإسلامى ، ملك الملوك فى عصره — كان يشعر بهذا الحزن . التاج والقوة والفخامة لم تصرف عن قلبه

الهموم ، حتى الورد البهيج كان يثير في قلبه الحزن :

- الـورد ممـا يهيج حـزنى ويبعث السوسن اهتيـاجى

وعندما ذهب مُلك بنى أمية الأندلسيين ، وقامت الفتنة التى أنذرت الأندلس بالنهاية (أوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) تخربت قرطبة على أيدى أهلها .

لقد زارها ابن حزم ، ابنها البار الحبيب الذى جعل حياته رثاءً طويلا لبلده العزيز ، زارها بعد النكبة وقال يصف حالها : « وقفت على أطلال منازلنا بحَوْمة بلاط مغيث من الأرباض الغربية ومنازل البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة (أى بعد عودته إليها بعد الفتنة) ، فرأيتها قد امَّحت رسومها ، وطُمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيرها البلى ، فصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافى موحشة بعد الأنس ، وآكاماً مشوهة بعد الحسن ، وخرائب مفزعة بعد الأمن . . » ، إلى آخر هذا الوصف المفجع .

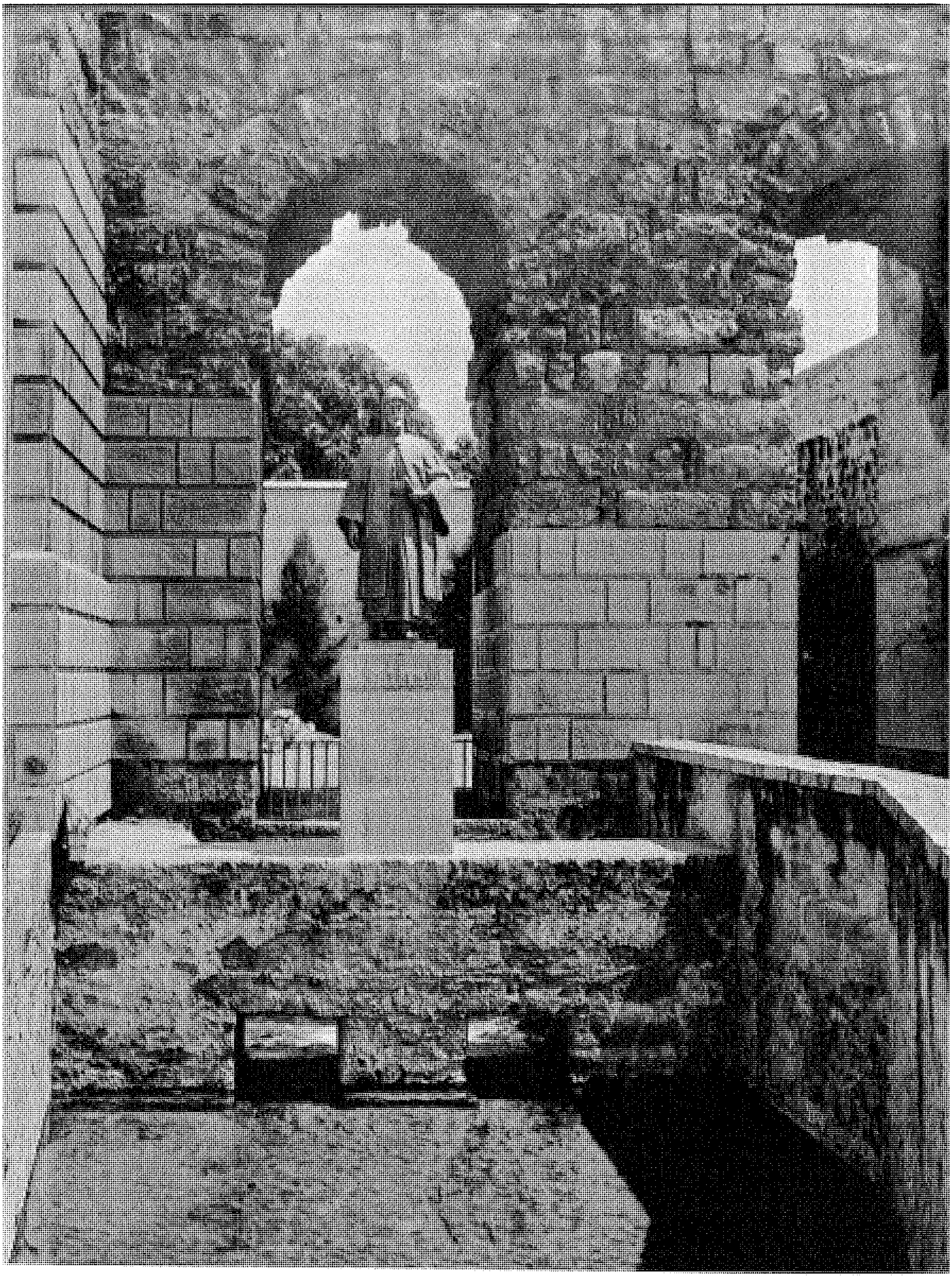
وابن حزم رجل دقيق ، كلامه ليس كلام أديب يجرى مع عاطفة تدفعه إلى المبالغة ، إنه كلام رجل يصف بالضبط ما رأى .

كان ذلك فى أواسط القرن الخامس الهجرى ، فإن ابن حزم توفى سنة ٤٥٦ هجرية ، كانت قرطبة العربية قد بدأت تحتضر من زمن بعيد . .

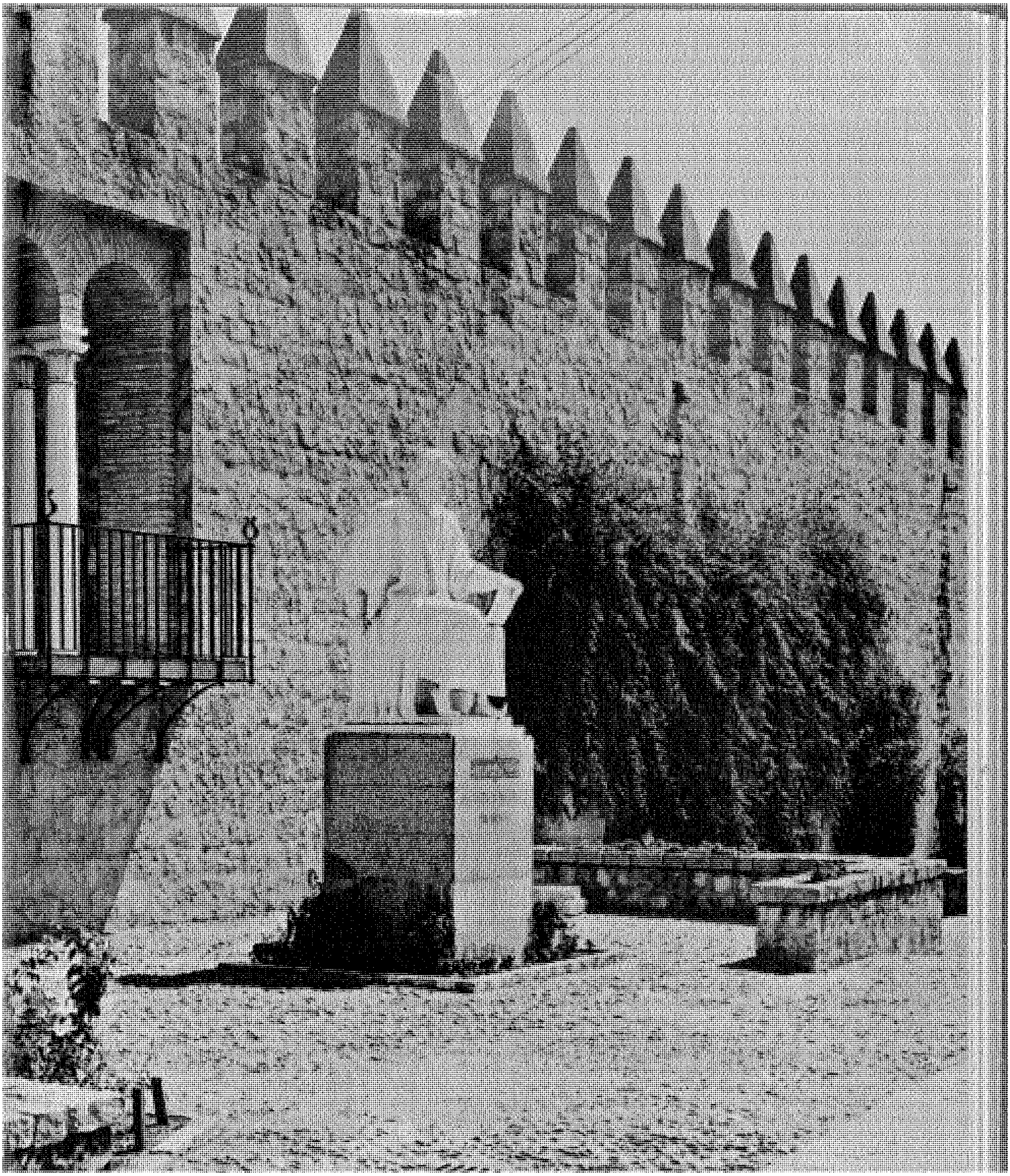
بقى لها من العمر بعد وفاة ابن حزم نحو قرنين من الزمان ، فقد سقطت فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة وأرجون سنة ٦٣٣ هـ . أى ١٢٣٦ ميلادية .

خلال هذين القرنين لا يدرى إلا الله ماذا جرى لقرطبتنا : فتن لا تنتهى ، حروب بين الرؤساء ، خيانات ومؤامرات بين الطامعين فى الملك والسلطان ، وقرطبة تدفع الثمن ، وأهلها يكفرون عن خطايا هؤلاء وهؤلاء . .

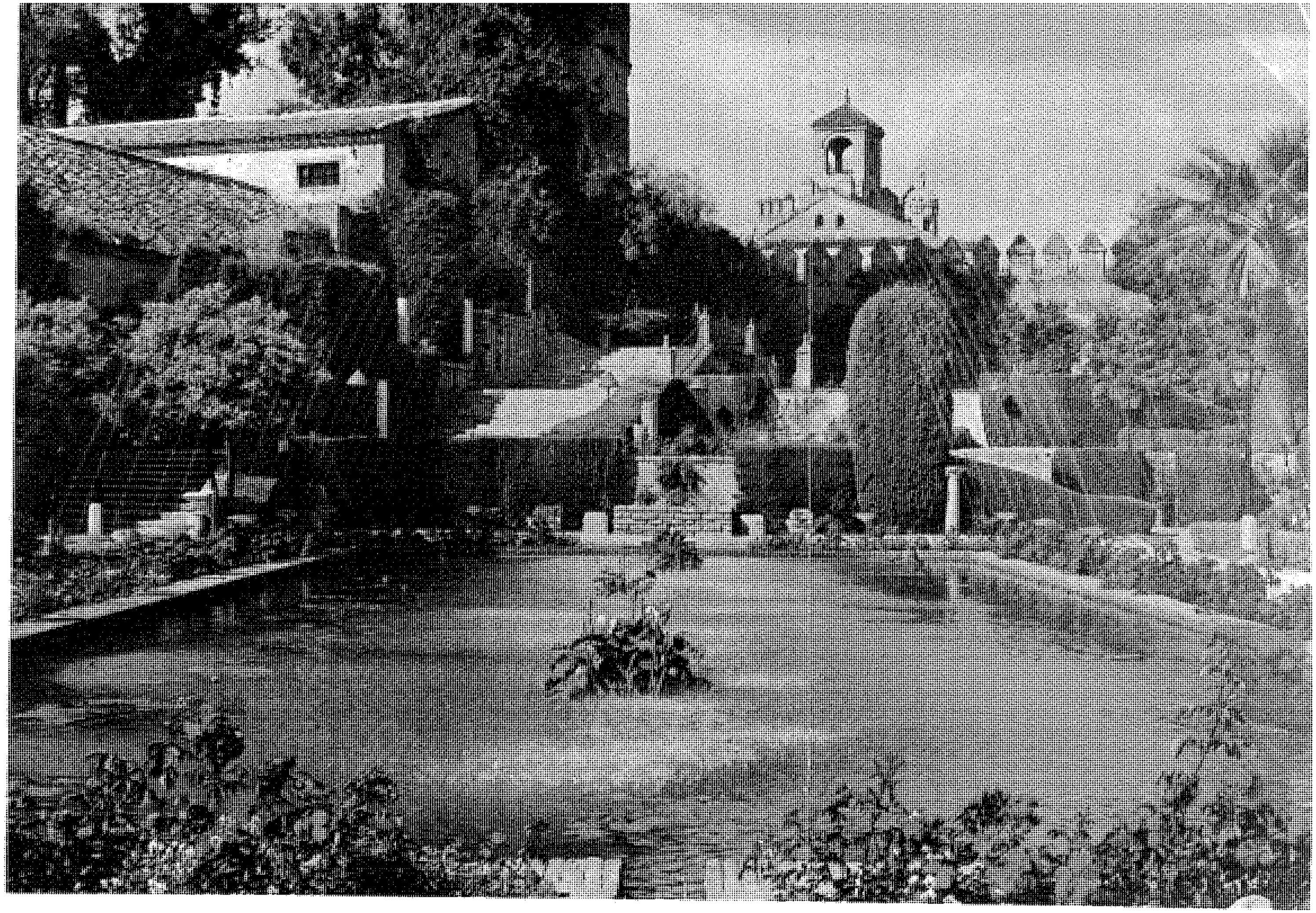
خلال هذه الفتن شمل الخراب سلطانة مدن الغرب كله . شيئاً فشيئاً تهاوت مبانيها وقتل من أهلها من قتل ، وفر الباقون إلى نواح أكثر أمناً :



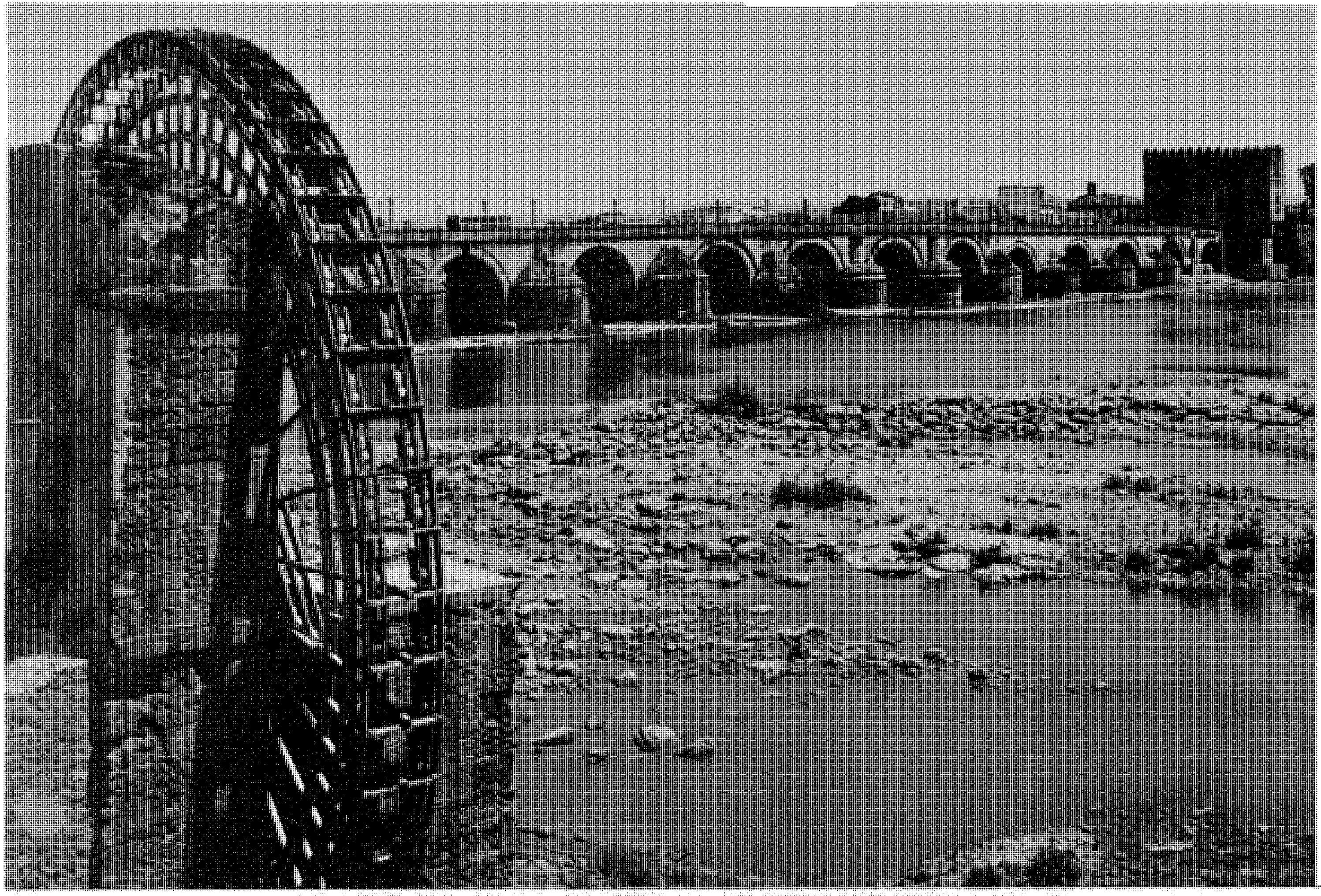
أبو محمد علي بن حزم. تمثال جميل أزيح الستار عنه سنة ١٩٦٣ أثناء الدورة الأولى للجلسات العملية. من تحت تلك البوابة كان ابن حزم يمر وهو في طريقه من داره في منية المغيرة بشرقي مدريد إلى قصر الخلافة أثناء وزارته القصيرة لعبد الرحمن المستظهر من خلفاء عصر الفتنة. رفع الستار عن التمثال سنة ١٩٦٣.



ابن رشد في مجلسه عند أحد أبواب سور قرطبة. هذا التمثال صنع واحتفل بإزاحة الستار عنه أثناء الدورة السادسة من الندوات العلمية السنوية التي كان ينظمها معهد الدراسات الإسلامية في مدريد بالاشتراك مع الهيئات العلمية الإسبانية. السور هنا أعادوا ترميمه وفتحوا النافذة ذات العقدين التي تراها إلى اليسار. كان ذلك سنة ١٩٦٦.



جانب من حدائق قصر قرطبة المواجه للجامع. هذه الحدائق حديثة الإنشاء ولكنها تقوم
في نفس الموقع الذي كانت تقوم فيه حدائق قصر الخلافة.



ناعورة الوادي الكبير. أقيمت هذه الساقية البديعة في نفس الموقع الذي كانت تقوم فيه ناعورة قرطبة لترفع الماء من النهر إلى مستوى الشارع لتصب الماء في قناة أو صهريج تنبع منه أنابيب من الفخار تحمل الماء إلى أحياء قرطبة. تظهر في الصورة قنطرة الوادي التي تصل قرطبة بربض شقندة. إنها رومانية الأصل تقوم على أرجل ضخمة ولكن المسلمين أعادوا بناءها مرة بعد أخرى.

إلى المَرِيَّة ومالَقَة وخاصة غرناطة،بل منهم من هاجر إلى المغرب أو إلى المشرق .

خلال هذه القرون الحزينة ، وخلف أسوار المدينة المتهاوية ، عاشت قرطبة فى خوف وشقاء ، ولكنها لم تذل أبداً . ظلت رافعة الرأس . خانها أولادها ، تخلى عنها حماتها ، ولكنها ظلت تبعث ضياء حضارتها الباهر إلى بلاد أكثر منها أمناً وأسعد حالا فى الشرق والغرب على السواء . .

فبين هذه الخرائب عاش أبو الوليد بن رشد أعظم فلاسفة العصور الوسطى على الإطلاق ، مجد من أمجادنا التى تزداد مع الزمان جدة ، رجل مد يمينه فصافح أرسطو ومد شماله فصافح ديكارت ورينان . .

وبين هذه الأطلال عاش أبو بكر بن طفيل صاحب قصة حى بن يقظان ، أروع قصة فلسفية كتبها إنسان ، قصة ترجمت إلى لغات العالم كله ، طبعاتها فى عواصم الدنيا لا تحصى .

ووسط هذا الحزن الشامل عاش أبو القاسم الزهراوى ، أعظم جراح ظهر فى الوجود حتى العصر الحديث ، الرجل الذى أهدى الإنسانية عمليات استخراج الحصى من المثانة والكلى ، وعنه أخذ الأطباء عملية الكتاراكتا . إذا كنت لم تسمع به قبل الآن فاقصد إلى أقرب مكتبة عامة إليك واطلب كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » وانظر كيف وصف أدوات الجراحة التى ابتكرها ورسمها بيده . .

وعلى هذه الأطلال وقف الشاعر الزجال أبو بكر بن قُزمان يضحك ويغنى ويبكى . إنه أعظم عبقرية شعرية أنجبها الأندلس ، تقرأه حيناً فتقول : مجنون ، وتقرأه حيناً آخر فتقول : عبقرى . عبقريته وجنونه يوجزان مأساة قرطبة : هذه المدينة بناها العباقرة وضيعها المجانين . . .

هذه المحن كلها هى التى حكمت بالموت على قرطبة العربية قبل وفاتها بزمـــان . .

عندما سقطت لم يكن قد بقى منها إلا المسجد الجامع والحى الصغير المحيط به ، ومن عجب الأقدار أن يكون حىَّ اليهود ، ولا زال يحمل هذا الاسم إلى اليوم . .

بعد سقوطها بثلاثة قرون ونصف زارها الوزير المغربى محمد بن عبد الوهاب الغسانى فلم يجد فيها غير الجامع . .

وبعد ذلك بقرن زارها الغزال الفاسى سفير سلطان المغرب ، فلم يجد غير الجامع أيضاً . .

لو أننا اتعظنا بمأساة قرطبة لكان فى ذلك عزاء – « وما ضاع من مالك ما علّمك » – ولكنها ضاعت ولم نتعلم شيئاً . .

* * *

وقد ورث أهل قرطبة خصال الأجيال العربية الماضية : الوقار والصمت والنظرة الفلسفية إلى الحياة . .

مهما بلغ فقر الواحد منهم فإنك تراه دائماً أنيقاً كريماً صامتاً ، يسير فى اعتزاز كأنه يشعر بوزن التراث الذى يحمله على كتفيه . .

قيل فى وصفهم مرة : إن الواحد منهم يتكلم كأنه الفيلسوف سينيكا ، ويتغنى بالشعر كأنه الشاعر بتليك ، ويتصرف كأنه لويس الرابع عشر . .

فى سمت ووقار وملابس سوداء يعيشون جميعاً ، لا صخب ولا عربدة ولا طيش ، إنهم حاشية أعظم سلطانة عرفها التاريخ . .

قرطبة ، السلطانة الحزينة . .

قرطبة البعيدة الوحيدة . .

مسجد قرطبة
العزيز في المنفى البعيد

فى سنة ١٧٦٥ زار قرطبة سفير مغربى هو أحمد بن المهدى الغزال ليتحدث فى تنظيم تبادل الأسرى بين المغرب وإسبانيا . . إن الحرب بين البلدين لم تسكن إلا بعد معاهدة استقلال المغرب فى مطالع سنة ١٩٥٦ .

وأطال السفير الوقوف بمسجد قرطبة الجامع ، ثم كتب بعد ذلك كتاباً لطيفاً عن رحلته اختص فيه المسجد ببضع صفحات وصف فيها الشعور الذى ملأ نفسه وهو بين يدى هذا الأثر العربى الجليل ، قال : « . . . وقد تخيل الفكر أن حيطان المسجد وسواريه تسلم علينا ، وتهش إلينا ، من شدة ما وجدنا من الأسف ، حتى صرنا نخاطب الجمادات ، ونعانق كل سارية ، ونقبل سوارى المسجد وجدرانه . . »

وهذا هو الشعور الذى يملأ نفسى كلما أقبلت على مسجد قرطبة : شعور شوق عظيم أتمنى معه لو استطعت أن أمد ذراعى لأضمه كله إلى صدرى ، أو لأضم صدرى إليه بتعبير أصح .

ولكننى لا أحسب أنه هو نفسه مشوق إلينا . . لقد تركناه وحده ومضينا ، بنيناه وتأنقنا فيه ، وأقمنا معه أيام الرخاء والسلام ، وعندما تغيرت الأيام

وجاءت الحرب دافعنا عنه وعن بلده ما استطعنا ، ثم أسرع الباقون منا يطلبون النجاة . .

وبقى هو وحيداً . .

وبعيداً — ونحن فى ظلال الأمن — وقفنا نبكيه . .

وفعل الغير به ما فعلوا : أقاموا فى وسطه كنيسة ، حولوا مئذنته إلى برج للنواقيس ، غيروا اسمه من جامع إلى كاتدرائية . .

وغضبنا ، وصرخنا ، ونحن نعرف أننا مسئولون إلى حد بعيد عما أصـــابه . .

والجامع العظيم يعرف ذلك ، وهو — لهذا — ينظر إلينا فى عتب ، فى سحر . هذا الصمت الشامل الذى يملأ أكبر بناء أقامته يد العرب فى التاريخ أبلغ من كل كلام . .

إن هذا المسجد المهيب — ككل عظيم — يؤثر الصمت إذا غضب ، وصمته أقسى من أى عتاب . .

ويوم يشعر هذا الوحيد فى منفاه البعيد أننا اتعظنا ، أننا تعلمنا ، سوف تهش لنا حيطانه وسواريه كما يقول أحمد بن المهدى الغزال . .

• • •

مسجد قرطبة الجامع هو — دون شك — أضخم عمل معمارى قام به العرب فى الشرق أو الغرب على السواء ، فإن مساحة الصحن المسقوف ٤٨٦٨ متراً مربعاً ، أى ما يزيد على الفدان . .

فإذا أضفنا إلى ذلك الفناء غير المسقوف — وهو بقية صحن الجامع يحيط بها سوره — كانت مساحته ١٢١٨٩ متراً مربعاً ، أى نحو ثلاثة أفدنة . وعدد السوارى ، أى الأعمدة ، الباقية إلى اليوم يزيد على ١٢٠٠ سارية . .

ومحراب هذا المسجد أروع محاريب الجوامع الأثرية الباقية إلى اليوم . .

والحلول الهندسية التى وفق إليها المعمارى الأول الذى وضع تصميم هذا الجامع ، والابتكارات المعمارية والزخرفية التى وصل إليها هو ومن جاءوا بعده تقرر دون أدنى شك أن العرب كانوا أعظم مهندسى الدنيا حتى مطالع العصر الحديث . .

وهذه العبقرية الهندسية تتجلى إذا تأملت كيف حمّل المهندس سقفاً ارتفاعه نحو تسعة أمتار على عمد رفيعة لا يزيد قطر الواحد منها على ٢٥ سنتيمتراً . لقد احتاج مهندس كنيسة نوتردام إلى عمد من الحجر قطر الواحد منها ٤ أمتار ليطمئن على مثل هذا السقف . .

لكى يصل المهندس العربى إلى ذلك وضع عموداً فوق عمود ، قوساً فوق قوس . فى مساجد أخرى ،لها مكانتها فى تاريخ الفن ، خاف المهندس من استخدام أعمدة الرخام الرفيعة ، واعتمد على أعمدة من الحجر سمك الواحد منها متر تقريباً ، أو أقام أعمدة من الرخام وربط بينها من أعلى بروابط من الخشب ، تبدو لك ـ إذا نظرت إليها ـ وكأنها سقالات نسيها البناءون بعد الفراغ من البناء ، فأضاع ذلك بهجة الجامع . . .

وأنصع دليل على عبقرية هذا الابتكار أنه لم يتكرر ، فمن المعروف أن المعماريين ينقل بعضهم عن بعض . إذا ابتكر واحد منهم شيئاً فى الشرق نقله الآخرون عنه فى سلسلة طويلة حتى يصل إلى أقصى الغرب . .

إلا هذا الابتكار . فريد فى نوعه على طول التاريخ ، فريد وحيد كالجامع نفسه . .

يقولون إن المهندس نقله عن سقاية ماء رومانية قديمة فى ماردة . هناك نجد ثلاثة أقواس بعضها فوق بعض . ولكن أى فرق ! إن الأعمدة التى تقوم عليها السقاية من الحجر ، وسمك الواحد منها ستة أمتار . .

والهدف الذى قصد إليه هذا المعمارى المبدع بهذا الابتكار يدعو إلى الإعجاب . . إنه هدف جمالى صرف . .

فقد خطط القسم الأول من الجامع أولا ، ورسم الرسم وحسب حساب الارتفاعات ومقادير مادة البناء . .

ثم بدا له — بعد أن وضع أسس الجدران — أن يمد المساحة قليلا ناحية الجنوب . .

وتصور فى ذهنه هيئة البناء بعد التوسعة فلم تعجبه . .

أحس أن الارتفاع لن يناسب المساحة ، سيبدو السقف منخفضاً بعض الشيء . . .

ولم يكن ليستطيع أن يزيد فى طول العمد ، فهى من الرخام ، وكانت قد أعدت وهيئت . .

لهذا خطر بباله أن يتم وضع الأعمدة ويعقد الأقواس بينها ، ثم يقيم أعمدة أخرى فوق الأعمدة الأولى ، ثم يعقد أقواساً ثانية ، وفوق هذه يقيم السقف . .

ابتكار لا يخلو من جرأة ، وأقل ما يتطلبه حساب دقيق لاحتمال الأعمدة الأولى ، ثم أوزان الأعمدة الثانية وأقواسها والسقف فوقها . .

ولكنه كان معمارياً ممتازاً وحاسباً دقيقاً ، فتم له ما أراد . .

ولم يجرؤ مهندس جامع آخر على تطبيق هذا الابتكار ، لأن أعمال العباقرة لا تتكرر ولا تقلد . .

وسنرى — عندما نفضى إلى صحن الجامع — أن الابتكارات الأخرى التى وصل إليها هذا المعمارى وتلاميذه لا تقل روعة عما ذكرناه . .

وإذا كان هناك بناء يدل على بانيه ، فإن جامع قرطبة رمز ناطق على عبقرية عبد الرحمن الداخل . هذا عبقرى الفن وذلك عبقرى السياسة والحرب . وكما خرج الفتى عبد الرحمن بن معاوية من آسيا وحيداً شريداً ، وعبر إفريقية من طرف لطرف ليقيم لنفسه ملكاً فى أوروبا ، فكذلك جامع قرطبة ، تبدو لك أقواسه الرائعة وكأنها تمتد حتى دمشق ، قنطرة ثقافية كبرى تظل البحر الأبيض من سواحل الشام إلى قلب إيبيريا . رمز على حضارة

نحن رفعنا عمدها على ثلاث قارات ، ونحن بإذن الله نرفع رايتها فى كل القـــارات . .

* * *

نحن أمام ثلاثة مساجد لا مسجد واحد . .

ثلاثة مساجد بنتها سبعة أجيال على الأقل من المعماريين ، فإن أول حجر وضع فى المسجد كان سنة ٧٨٠ ميلادية ، وآخر حجر وضع فيه كان سنة ١٠٠٠ ميلادية . مائتان وعشرون سنة فى عمل فنى واحد يمتاز أول ما يمتاز بالوحدة والانسجام . لم يتكرر هذا الترابط بين أجيال الفنانين إلا مرة واحدة . كان ذلك فى ميدان الموسيقى لا فى مجال المعمار ، فهناك نجد أربعة من أعلام الموسيقى : چوزيف هايدن وأماديوس موتسارت ويوهان سباستيان باخ ولودڤيج ڤان بيتهوڤن يصافح أحدهم الآخر فى سيمفونية كأنها بحر من النغم طوله مائة عام .

وقبل أن نمضى فى تأمل هذا العمل الخالد علينا أن نبدد سحابة صغيرة نسجتها يد الأساطير . .

ذلك أنهم يقولون إن المسلمين عندما استقروا فى قرطبة قاسموا أهلها كنيستهم الرئيسية ، فلما أراد عبد الرحمن الداخل إنشاء جامعه اشترى منهم النصف الثانى وهدمه وأقام البناء . .

وذلك كله غير صحيح ، وما تقوله مراجعنا العربية أساطير نشأت فى القرن العاشر ، أى بعد بناء الجامع بقرنين . .

ولقد نقب الأثريون تحت الجامع فى كل موضع إلى عشرات الأمتار ، فلم يجدوا أدنى أثر لكنيسة أو بناء ، وتبينوا أنه يقوم على أرض عذراء . .

وماذا كان يضطر عبد الرحمن إلى أن يشترى نصف كنيسة ، ويعوض أهلها بمال ليبنوا به كنيسة أخرى ، والأرض أمامه فضاء يبنى فيها كيف يشـــاء ؟

* * *

الجامع الأول ، أو القسم الأول من الجامع ، بناه عبد الرحمن الداخل فيما بين سنتى ٧٨٠ و ٧٨٦ ، فى ست سنوات لا سنة واحدة كما يقول هواة الأساطير . .

هذا الجامع هو الذى يدخل الناس إليه اليوم من الباب الرئيسى المعروف بباب النخيل . كان مدخله الرئيسى أيام عبد الرحمن الباب المعروف اليوم بباب القديس اصطفان ، وهو أول الأبواب الثلاثة الكبرى التى تراها فى واجهة الجامع الغربية الواقعة فى الشارع المعروف اليوم باسم شارع توريخوس . كان فى الماضى شارع قرطبة الرئيسى ، وكانوا يسمونه المَحَجَّة العظمى ، وكان يشرع من ضفة الوادى الكبير إلى آخر قرطبة ، فلا ينتهى إلا عند السور عند باب ليون الذى يسمى أيضاً الباب الجديد .

الجنوبى من الجامع الحالى .

د (أو القوس) الثالث عشر فى اتجاه

بينك وأنت داخل) وينتهى إلى

.

إذا افصيت من الباب الرئيسى الحالى وجدت نفسك فى رواق من الأقواس المزدوجة عرضه ٧,٨٥ أمتار . على يمينك خمسة صفوف من الأعمدة وعن يسارك خمسة أخرى . .

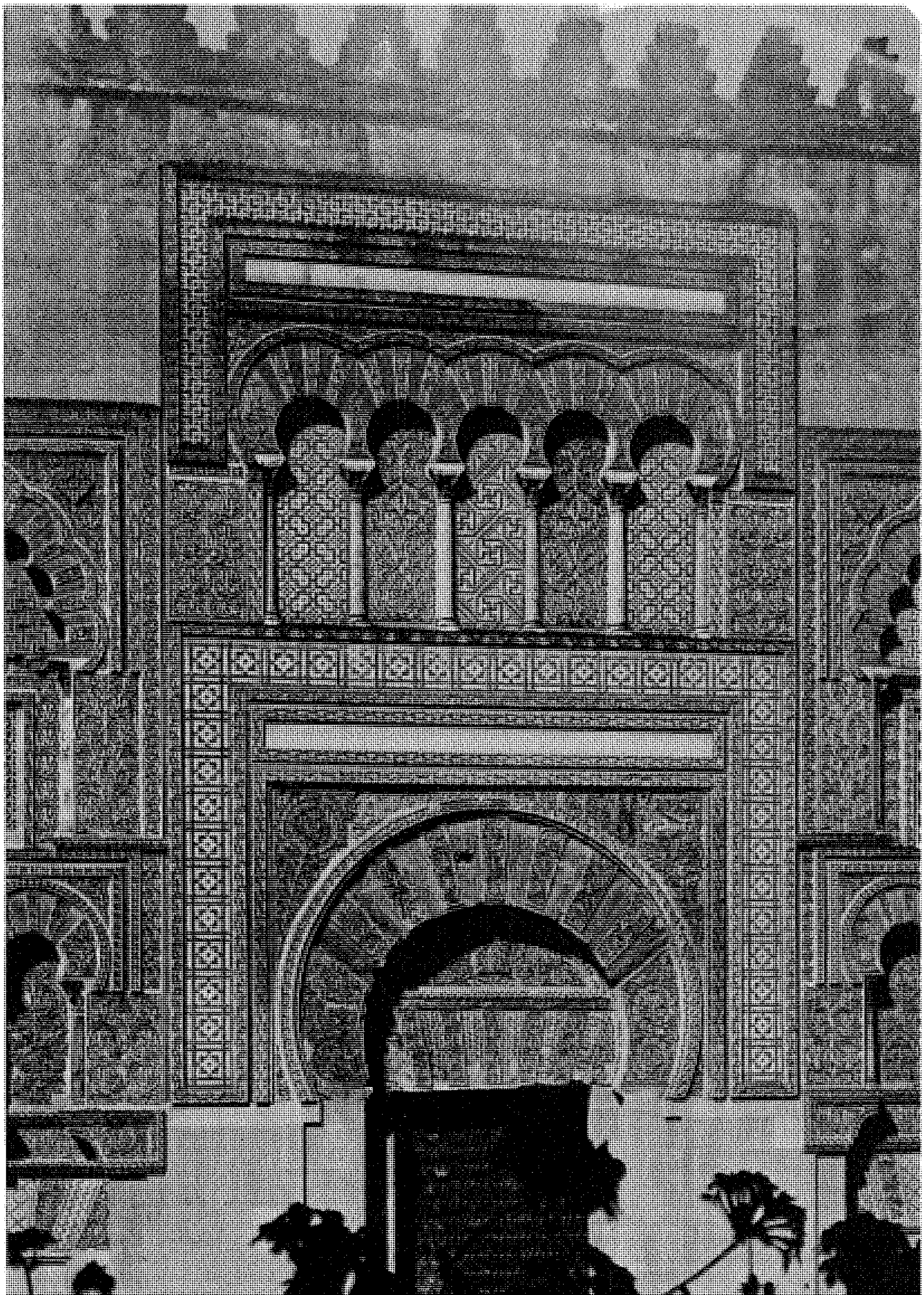
وعند القوس الثالث عشر كان يقوم جدار الجامع الأول الذى أقامه عبد الرحمن الداخل ، وتحت هذا القوس (أو البلاطة كما كانوا يسمونه) كان يقوم المحراب الذى صلى إليه صقر قريش . .

ولا زالت آثار جدار هذا الجامع الأول باقية إلى اليوم ، فإنك تجد هناك بدل الأعمدة أجزاء من الجدار تحمل الأقواس .

وإذا تأملت الأعمدة فى هذا الجزء لاحظت أنها مختلفة فى اللون والمادة : بعضها رخامى أبيض وبعضها مرمرى شفاف أو وردى أو أخضر . وتيجان



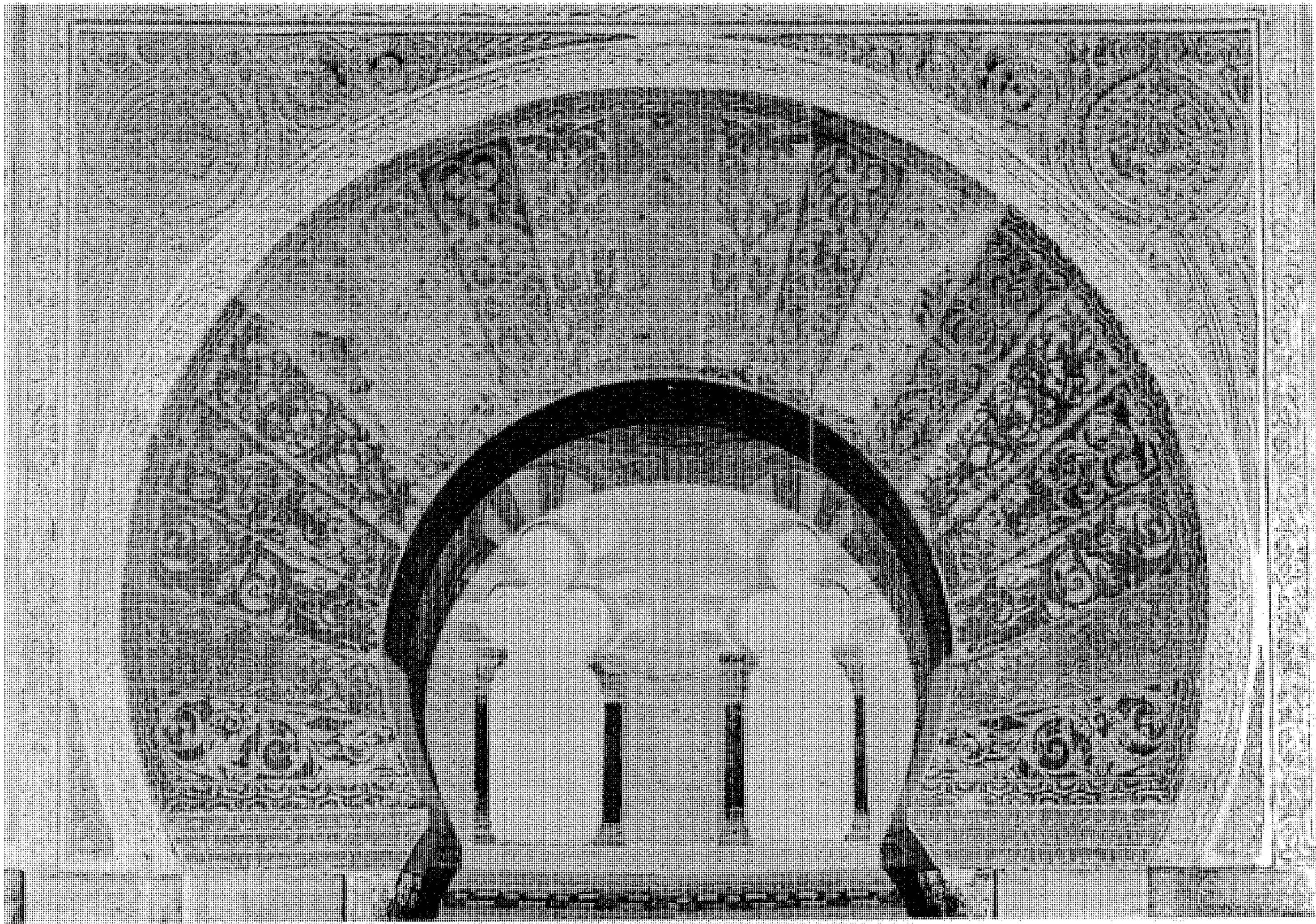
المسجد الجامع بقرطبة : إنه درة المدينة في عصور الإسلام وما بعدها، وهو أضخم مسجد عامر في الدنيا إلى يومنا هذا، وهذه صورة له من الجو برج الأجراس الذي تراه في صدر الصورة هو المئذنة بعد تحويرها إنها في أقصى الصحن ناحية الشمال، وبيت الصلاة يمتد حتى الرصيف وهو شاطىء الوادي الكبير. على الضفة الأخرى من النهر ترى ربض شقندة.



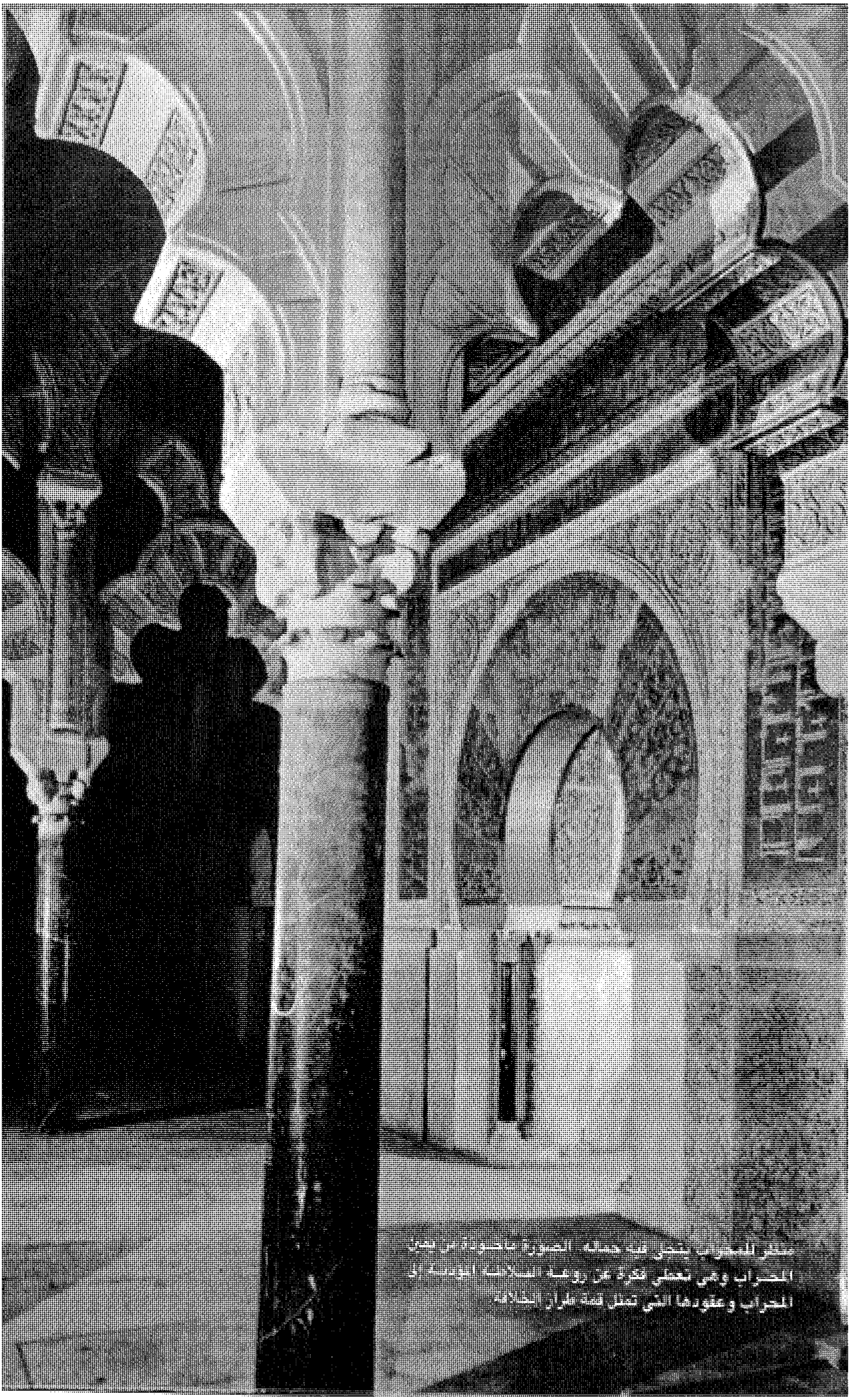
باب اصْطِفَن أحد أبواب المسجد المغلقة الآن. تأمل كيف أحاط المعماري المسلم الباب بإطار باهر من الزخارف، وجعل فوق الباب تصويراً بديعاً للوحدات الفنية التي تتألف منها عمارة المسجد.



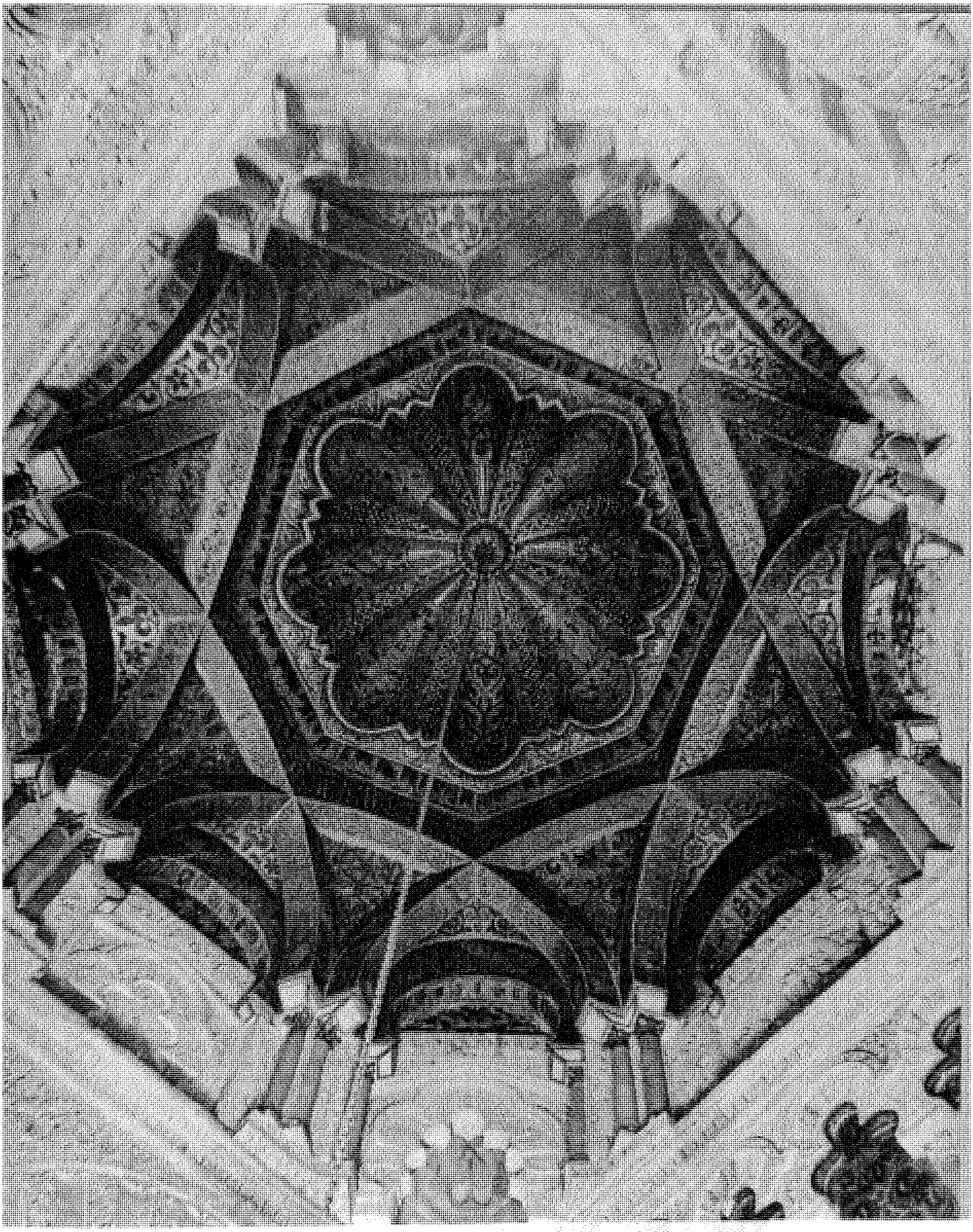
باب المغفرة من أبواب مسجد قرطبة. إنه يقع إلى جوار صومعة الجامع أي مئذنته في الجدار الشمالي للمسجد. تأمل البوابات الزخرفية المتوالية التي تؤدي إلى صحن الجامع.



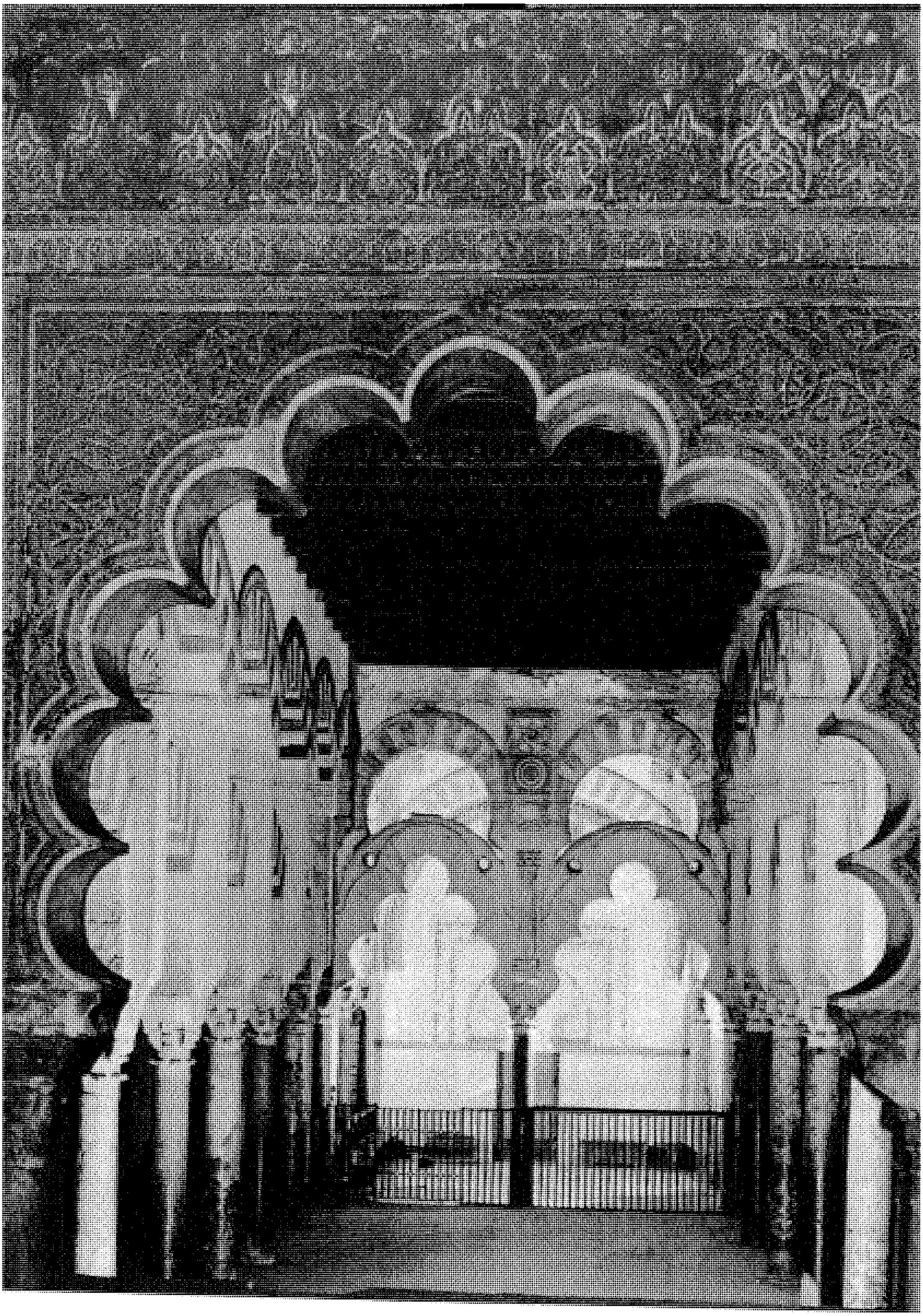
الجزء الأعلى من المحراب، والمحراب كما ذكرنا في النص غرفة صغيرة
من الرخام كان يوضع بداخلها مصحف عثمان الشهيد رضي الله عنه.



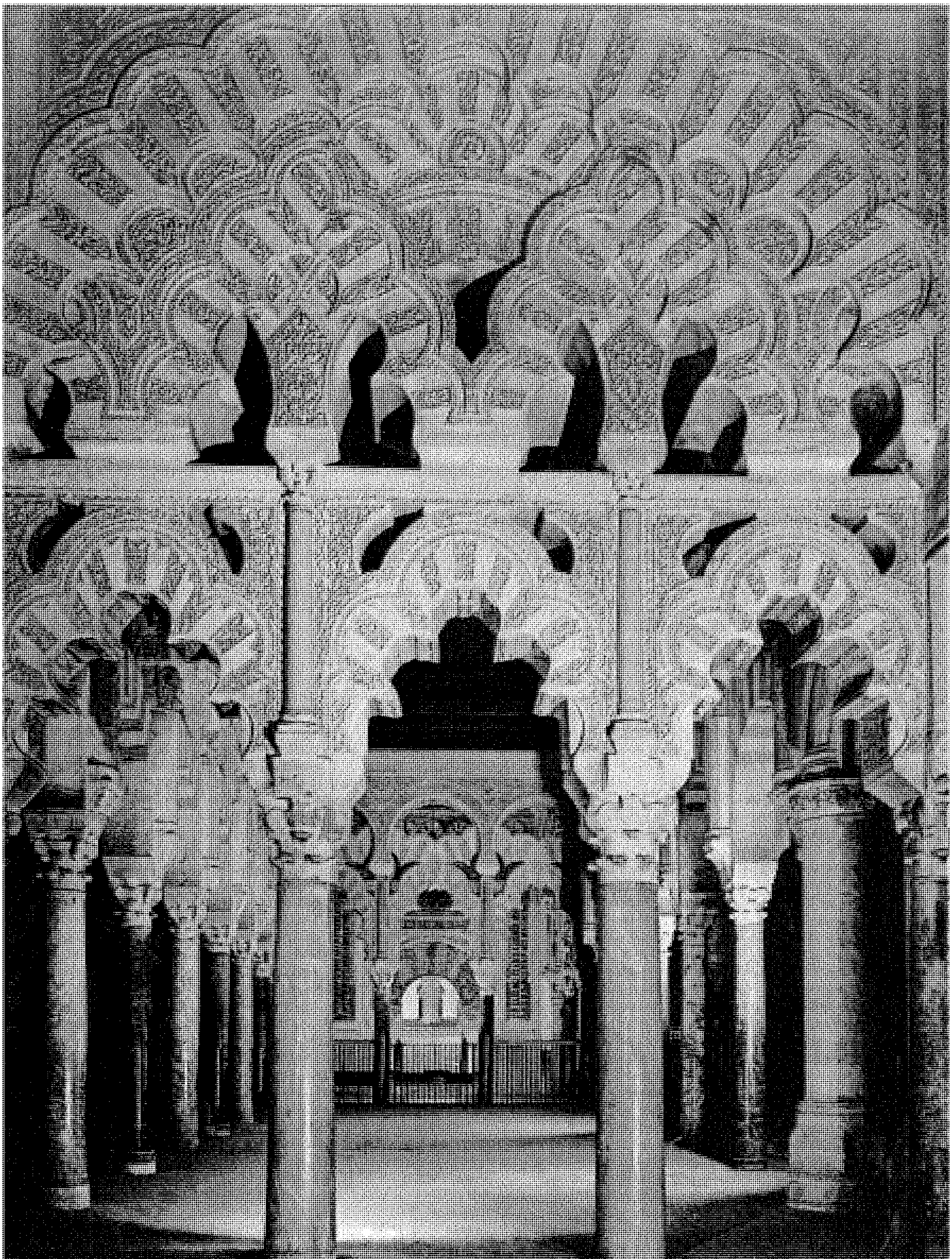
منظر للمحراب يتجلى فيه جماله. الصورة مأخوذة من يمين المحراب وهي تعطي فكرة عن روعة البلاطات المؤدية إلى المحراب وعقودها التي تمثل قمة طراز الخلافة



القبة الوسطى فوق بلاطة المحراب. انظر إلى العصبات الحجرية التي تقوم القبة عليها.
تلك هي بداية طراز العمارة القوطي.



بـلاطة محـراب المسجد الجـامع بقـرطبة. تـأمل العقـود المزدوجـة. العلويـة منها ذات فصوص. وهذا القسم من الجامع من إنشاء عبد الرحمن الناصر وابنـه الحكم المستنصر وهو يمثل ذروة من ذرى الإبداع في العمارة الإسلامية.



المدخل إلى بلاطة المحراب. هنا ترى بوضوح كيف أنشأ المعماري العقود العليا فوق السفلى ووضع عموداً فوق عمود. وهذا التركيب كله يقوم على أعمدة دقيقة من الرخام المختلفة الألوان. قمة من قمم التوازن الهندسي في تاريخ العمارة العالمية.

هذه الأعمدة مختلفة الطرز : بعضها دُورِيّ وبعضها أيونى (وهما طرازان إغريقيان) والأخرى رومانية أو مركبة .

ذلك أن المعمارى أتى بها من مواضع شتى ، بل فيها ما أتى به من قرطاجنة إفريقية (على مقربة من تونس الحالية) أو من إيطاليا ، وتكلف ذلك أموالا طائلة دفعها عبد الرحمن الداخل عن طيب خاطر ، وقد عرف البناءون كيف يسوون بينها فى الطول والحجم .

أما كيف أقام المعمارى العمود الثانى فوق الأول ، فقد وضع فوق تاج العمود الأول قاعدة صغيرة مربعة من الحجر ، وفوق هذه قاعدتين أوسع ، حتى حصل على اتساع كاف أقام فوقه العمود الثانى من الحجر ، وفرّع فى نفس الوقت أربعة أقواس . .

وعند نهاية العمود الثانى فرع الأقواس الثانية موازية للأولى ، وأقام عليها السقف .

وابتكر شيئاً ثانياً زاد فى جمال هذه الأقواس المزدوجة : عملها بالحجارة والطوب الأحمر ، طوبة من هذا وطوبة من ذاك ، فبدت الأقواس فى الهيئة المزخرفة الجميلة التى تراها عليها الآن . .

وقد خفف السقف فجعله من الخشب ، ثم قواه بأعمدة خشبية أخرى ، ونقش ذلك كله ولوّنه بالذهب والأزرق والأحمر . .

والسقف الحالى ليس هو السقف القديم ، لقد بَلِيَ هذا ورُفع ووضع غيره من الخشب البسيط غير المزخرف . .

إذا أردت أن ترى نماذج من خشب السقف القديم ، وجدتها معلقة قطعاً على حائط بهو البرتقال ، وهو الذى كان الجزء المكشوف من صحن المسجد .

• • •

وبعد هذا القسم من الجامع مباشرة تجد الزيادة التى أضافها عبد الرحمن

الأوسط . وهى على نمط جامع عبد الرحمن الداخل تماماً ، وتمتد إلى الجنوب سبعة أقواس تحملها ستة أعمدة ، تليها بقايا جدار الجامع بعد أن وسعه مرة ثالثة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر .

إنها مسجد ثان أضافه عبد الرحمن الأوسط إلى مسجد جده عبد الرحمن الداخل ، تستطيع أن تسمى هذا الجزء مسجد عبد الرحمن الأوسط فى قرطبة ، فقد بنى مساجد أخرى كثيرة فى غير قرطبة ، أشهرها جامع ابن عَدَبَّس فى إشبيلية ، وقد حول هو الآخر إلى كنيسة . .

إذا وقفت فى الرواق فى هذا القسم من الجامع وظهرك إلى الباب الذى دخلت منه رأيت أجمل منظر يمكن أن تقع عليه عينٌ داخل مسجد . .

وإذا أمعنت النظر فى أحد الأعمدة رأيت عجباً . .

ستجده — كأعمدة القسم الأول — من رخام أحمر أو أخضر أو وردى ، لأن هذه الأعمدة أيضاً جمعت من كل مكان فى إسبانيا ، بل أتى ببعضها من إيطاليا والمغرب ، ولكنك لن تحس أن بين بعضها وبعض فرقاً ، لا فى السمك ولا فى الهيئة ، لأن الفنان العظيم عرف كيف يصوغها فى قالب واحد .

تيجان هذه الأعمدة من كل طراز . وقد وضع المعارى على كل منها قاعدة ضيقة من أسفل واسعة من أعلى ، وبذلك حصل على سطح أوسع ليضع عليه عموداً ثانياً من الحجر . .

من جانبى هذه القاعدة أخرج المهندس الأقواس الأولى ، يستدير كل منها ويستقر على رأس العمود المجاور . ولكى يزيد هذه الأقواس المزدوجة بهاءً جعل واحداً منها مستديراً والثانى فى هيئة حدوة الحصان .

ومن بعيد يخيل إليك أنك فى غابة من النخل العجيب ، أغصانه تمتد فى كل اتجاه ، خفيفة رقيقة كأنها تهتز مع النسيم . .

وقد بقيت لنا أسماء من أشرفوا على هذه الزيادة الأولى ، وهم القاضى محمد بن زياد ونصر ومسرور مولَيا عبد الرحمن الأوسط .

ولكن عجيبة هذا المسجد الكبرى ، ميزته التى جعلته فريداً فى طرازه حقاً ، هى الزيادة التى أضافها إليه الحكم المستنصر ثامن أمراء البيت الأموى الأندلسى والثانى من خلفائه . وقد تمت بين سنتى ٩٦١ و ٩٦٦ بإشراف علم من أعلام الفكر الأندلسى ، هو القاضى منذر بن سعيد البلوطى .

إنها مسجد جديد كامل . الفن الذى فيه يمثل ذروة من ذروات فنوننا العربية . بين يوم البدء فى هذه الزيادة واليوم الذى أرسى فيه الحجر الأول من المسجد العظيم نحو ١٨٠ سنة ، خطا الفن الأندلسى خلالها خطوات شاسعة إلى الأمام . ولكن مهندسى الحكم المستنصر عرفوا كيف يؤلفون بين القديم والجديد على نحو حفظ على البناء وحدته الفنية الكاملة ،فلا تشعر وأنت تخطو داخل هذا القسم الجديد أنك تعبر من القرن الثامن إلى القرن العاشر الميلاديين .

هذه الزيادة الجديدة أضيفت فى جنوب الجامع – أى فى اتجاه نهر الوادى الكبير – فى نفس اتجاه زيادة عبد الرحمن الأوسط .

بهذه الزيادة وصل الجامع إلى ضفة النهر . إذا نظرت إلى رسم الجامع وموقعه لاحظت كيف زحف مسجد قرطبة حتى وصل إلى الحد الطبيعى : ضفة النهر .

إن الجامع يحكى فى نموه وتطوره قصة البيت الأموى الذى أنشأه ورعاه . كما وصلت الخلافة الأموية الأندلسية أوجها على أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، فكذلك وصل الجامع إلى أوجه فى أيامهما . كان وصول المسجد إلى النهر ، وإلى الأوج معاً ، إيذاناً بوصول البيت الأموى إلى قمة مجده . هناك قمة أخرى للخلافة القرطبية : قمة وصل إليها محمد بن أبى عامر الملقب بالمنصور ، قمة مصطنعة خادعة أضرت أكثر مما نفعت . وعلى يد المنصور زاد الجامع زيادة ضخمة ، ولكنها مصطنعة أيضاً . .

لم يتطابق تاريخ دولة وتاريخ بناء مثل التطابق الذى نراه بين تاريخ بنى أمية الأندلسيين وتاريخ جامعهم . كلهم أضافوا إليه إلا واحداً : المنذر ابن محمد (حكم أقل من سنتين) .

عبد الرحمن الناصر هو الذى أمر بهذه الزيادة التى نتحدث عنها ، وعهد إلى ابنه الحكم المستنصر فى الإشراف عليها ، واستمر العمل فيها أيام الناصر وابنه الحَكم ، فهى من عملهما معاً .

* * *

وقبل أن ننتقل إلى الفصل التالى ، الذى نتحدث فيه عن زيادة الحكم المستنصر ، أحب أن تلاحظ أن المنظر الذى تراه الآن لا يمثل إلا جانباً صغيراً من الجمال الفنى الذى أفرغه عليه المعمارى العظيم يوم بناه . فسترى فى الفصل التالى أن يد التغيير قد عبثت بالجزء الذى بناه عبد الرحمن الأوسط : أنشئت كنيسة صغيرة يتقاطع محورها مع محور المسجد،وبنى مَصلب هذه الكنيسةعلى يسار الرواق فضاع معظم جماله؛ومساجدنا قطع من الفن يضيرها أقل عبث أو تغيير .

ثم إن أبواب المسجد التى تفضى إلى بهو البرتقال قد سُدت عدا المدخل الذى أتيت منه ، وهو أيضاً مدخل مظلم عليه بدل الباب أبواب ، فاحتبس النور وأصبح الداخل يدخل وكأنه فى شبه ظل لا يكاد يتبين معه شيئاً . فإذا ذكرت أن النور كان عنصراً من العناصر التى حسب الفنان حسابها عندما وضع تصميم هذا المسجد ، تصورت مقدار الخسارة التى نزلت بالجامع من جراء هذا التحريف . .

إنك تنظر إلى المسجد الآن وكأنك تتأمل لوحة فنية فى ضوء خافت حبيس . كل ما تراه هو الهيكل العام ، أما التفاصيل التى شقى الفنان ليضفيها ، أما اللمحات التى تعبر عن شخصه وتميزه عن غيره ، فقد خفيت كلها ، ولم يبق إلا أن تستكمل ما خفى عن طريق التصور والخيال . .

ونحن فى الأندلس فى دنيا لا تكتمل صورتها إلا مع خيال خصب خلاق يكمل ما ضاع ويستنقذ ما فات . وما من مرة تأملت هذا الجامع إلا تصورت أننى أنظر إليه بعين غواص ينظر إلى قاع البحر خلال الماء ، كل شىء يتراءى له خلال سحب رقيقة من الماء ، وكل شىء أمامه يتراقص مع سير الماء فلا يتبين الواقع إلا فى صبر وعناء . .

نُورٌ عَلَى نُور

آثرت أن أفرد لهذا القسم الثالث من المسجد – أو المسجد الثالث ، إذا شئت – فصلا قائماً به ، لأنه عمل فنى كامل ، ابتكار فنى معمارى فريد فى بابه ، وإن كانت يد الفن الماهرة قد عرفت كيف توفق بينه وبين مسجد عبد الرحمن الداخل وزيادة عبد الرحمن الأوسط على نحو من الرقة واللطافة لا تستبين العين معهما انتقالا حاداً أو مفاجئاً . .

وربما كان هذا فى ذاته رمزاً على ما دخل على دولة بنى مروان فى الأندلس من تطور بعيد المدى على يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر ، والذى يكتبه بعض المحدثين – مجاراة للأوروبيين فى أسلوبهم فى تلقيب ملوكهم – عبد الرحمن الثالث . .

فقد تولى عبد الرحمن الناصر سنة ٩١٢ والفتن على أشدها ، كان نفر من الظاهرين فى نواحى الأندلس قد أغراهم الحُكم العادل اللين بالخروج عن الطاعة ، والأندلس – كما رأيت – بلد عسير الطبيعة لا يسهل جمعه تحت راية واحدة . ولم يتوحد شبه الجزيرة قبل العرب أبداً ، ولم يتوحد بعدهم إلا فى القرن الثامن عشر .

وكان عبد الرحمن الناصر يعرف هذه الطبيعة الجموح وما يتطلبه تذليلها من جهد ، فشمر عن ساعد الجد ومضى يعمل ستاً وعشرين سنة متوالية ،

لم يسترح له فيها جنب ، حتى أوفى على الغاية وجمع أطراف بلده حول راية قرطبة ، وأظله بالعدل والسماحة وساسه بالعقل وبعد النظر والرفق والكياسة ، فأزهر وأينع ، ورفرف الرخاء على رباه ونشطت النفوس واشرأبت الآمال ، وغدا الأندلس بيُمن هذا الناصر المبارك جنة الدنيا تتألق فى قلبه قرطبة ، أزهر حواضر أوروبا كلها إذ ذاك . .

وفى خلال هذا الجهد المتصل ، بعد أن مهد البلاد وأقر الأمن والأمان ، وجد أن لقب الإمارة لم يعد يتناسب مع الجلال الذى صار إليه ، وأنه لا يضفى على مُلك الأندلس الرُّواءَ الجدير به بين ملوك أوروبا — وكان فيهم من يتخذ لقب الإمبراطور — فاتخذ لقب الخليفة ، وأصبحت قرطبة مركز أول خلافة إسلامية قامت على أرض أوروبية ، والثانية خلافة آل عثمان فى القسطنطينية .

وكان لا بد لهذه الخلافة الزاهرة من مسجد جامع خليق برووائها ، وقد كان عبد الرحمن الناصر قديراً على أن ينشئ جامعاً جديداً رائعاً ينسب إليه ، ولكن سلائل بنى مروان فى الأندلس كان فيهم حرص على التقاليد واستمساك بمناهج أجيالهم الأولى ، كأنهم كانوا يجرون فى سياستهم على الحديث النبوى الشريف الذى يقول : «لا يصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أوله» .

وكانوا يعرفون أيضاً أن وحدة الدولة والوطن لا تقوم إلا على أساس من وحدة التاريخ ، ومهما بلغ من رواء ملك عبد الرحمن فهو بناء على ما أسَّ جدُّه عبد الرحمن الداخل ، وما دام هذا قد أنشأ ذلك المسجد وجعله محراب جماعة الإسلام فى الأندلس ، فليظل كذلك ، لا تُخلع عنه هذه الصفة ولا يُنقل عنه هذا الشرف إلى غيره ، وليوسَّع هذا المسجد وليُضْف عليه من جمال الفن وجلال الخلافة ما شاء إبداع الفن ونمو الحضارة وما قَدَّرَ جَاهُ الخليفة ...

وقد احتفل عبد الرحمن بهذه الزيادة الجديدة ما شاء له الاحتفال ، وعهد فى الإشراف عليها كما قلنا إلى ابنه الحكم — وكان آية من آيات ربه فى العلم والفهم وصفاء القلب وصدق النية — وأردفه بكبير علماء قرطبة فى وقته

وقاضيها وخطيب مسجدها الجامع منذر بن سعيد البلوطى ، وأفرغ عليهما من الأموال ما يلزم لهذا العمل الجليل . .

لا غرابة إذن فى أن تجىء هذه الزيادة جامعاً جديداً قائماً بذاته داخل الجامع القديم . .

وقد ذكرنا كيف عرف المهندسون الأندلسيون كيف يوفّقون بين ما ابتكروه في هذه الزيادة الجديدة ونظام المسجد الأول وزيادته . .

ووصفنا مدخل الزيادة ، وبيَّنا ما تمتاز به من تجديد وابتكار . .

ونحب أن نستلفت نظرك قبل أن نمضى مع الوصف إلى أن هذا الجزء من الجامع ، وجزءاً كبيراً من زيادة عبد الرحمن الأوسط — التى خلفتَها وراءَك — قد نالها تغيير كبير أضاع الكثير من روائهما بعد أن خرجت قرطبة من دار الإسلام . .

ففى أعقاب سقوط البلد وتحويل المسجد الجامع إلى كنيسة جامعة (كاتدرائية) أيام فرناندو الثالث استنفر القسس وأنشأوا كنيسة صغيرة يُدخل إليها من أحد أبواب المسجد الشرقية المفضية إلى الشارع المسمى المَحَجَّة العظمى (يسمى الآن شارع توريخوس) وهو الباب الذى يسمى اليوم باب القديس ميخائيل (پويرتا دِسان ميجل) وأقاموا فى وسط المسجد تماماً — إلى يسار الرواق بين العمودين الثانى عشر والخامس عشر فى اتجاه المحراب — مصلى مسيحياً تـراه إلى يسارك إذا وقفت في هـذا الموضـع من الرواق، وهم يسمونه اليوم «الكُورو» أي قلب الكنيسة . .

وأما ما أدخل من التغيير على زيادة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر فنشير إليه بعد قليل . .

والمهم لدينا أن هذه التغييرات شابت جمال المسجد الجامع وأضرت بوحدته الفنية الرائعة ، فقـد كنت إذا أفضيت من الباب إلى الرواق وجدت نفسك فى روضة مترامية من الأعمدة تبسق من أعاليها الأقواس اثنين اثنين ،

فتحس أنك فى غابة نخيل من مرمر مختلف ألوانه ، سعفه تلك الأقواس البديعة بيضاء وحمراء ، حتى يستقر بصرك على المحراب وما يؤدى إليه من أشكال هندسية تأخذ بمجامع الألباب ، أصبحت تجد هذه الكنيسة القديمة ثم الكاتدرائية من خلفها كأنهما جلمودان يأخذان عليك مذاهب النفس والبصر ، ويحولان بين خيالك واسترساله مع أمواج العاطفة والإيمان وإشراق النفس . . وهذا بعض ما أصاب هذا المسجد العظيم على يد الزمان وأهل الزمان . .

* * *

انتهينا فى مطافنا إلى البلاطة التى تلى مدخل زيادة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر . .

وقفنا تحت قبتها ، لنتأمل الإعجاز الفنى الذى خلعه المهندس والصانع العربيان عليها . .

إذا نظرت إلى يمينك لاحظت أن هيئة القوس تختلف عما رأيته إلى الآن فى هذا الجامع . .

إنه قوس من خمسة فصوص . .

وفوقه وضع المهندس قاعدة أخرج منها قوسين صغيرين ، أحدهما يمضى إلى اليمين والثانى إلى اليسار . .

وفوق هذين القوسين وضع قوساً ثالثاً . .

وفوق ذلك كله رفع قبة تقوم على عروق متشابكة من الحجر . .

إنها قبة صغيرة ، ولكنها آية من آيات الفن . .

وهى واحدة من ثلاث قباب تزين سطح هذا المسجد العظيم . .

الثانية والثالثة فوق البلاطتين اللتين تقعان عن يمينك وعن يسارك . .

ليس فى الدنيا أجمل من هذه الأقواس المتشابكة التى تراها إذا رفعت بصرك إلى أعلى وأنت تحت هذه القبة . .

إنها خميلة معلقة فى الهواء ، خميلة من حجر أشبه بفروع الشجر ، ولكنها بلغت من الدقة والرقة بحيث يخيل إليك أنها مرسومة فى الهواء . .

لقد استهوت هذه البلاطات الثلاث أفئدة الإسبان . عندما حولوا المسجد إلى كنيسة فجعلوا الوسطى منها مصلى سموه المصلى الملكي (كاپيّارِيال) واليمنى مصلى آخر سموه باسم بلد صغير فى إقليم قرطبة : ڤيِنّا ڤِثْيُوسا،والتى إلى اليسار سموها مصلى الرسول بطرس . .

بيننا وبين المحراب الآن سبعة أقواس من الطراز المزدوج العام فى المسجد. بعد أن تقطعها تجد نفسك أمام آية أخرى من آيات الفن فى كل العصور. . .

* * *

أراد الفنان أن يهيئ نفس المقبل على المحراب ، لأنه ليس محراباً عادياً يشبه ما رأيت إلى الآن فى مساجد الإسلام . .

لهذا قدم بين يديه بثلاث بلاطات بديعة تبدو للرائى وكأنها ثلاثة أقواس نصر رائعة . .

الأقواس فى هذه البلاطات الثلاث مركبة متشابكة ، السفلى منها من سبعة فصوص ، ومن أعلى كل منها فرّع المعمارى نصف قوس يستتم فى البلاطة التى عن يمين وعن شمال . .

وفوق الأعمدة الأولى رفع الثانية ، من المرمر هذه المرة . .

وعلى هذه الأعمدة العليا أقام الأقواس الثانية . .

وفوق هذه البلاطات أقام قباباً أو مناور ينفذ منها ضوء باهر . .

المنظر من بعيد يحار فيه النظر . .

خلف هذه « الدنتلا » من الحجر يفيض النور ، نور الله سبحانه وتعالى . .

فيض رائع من نور البارئ تعالى يملأ بيته سبحانه . .

لم أر فى حياتى تصويراً أروع من هذا لقول الله سبحانه وتعالى يصف ذاته القدسية : (نور على نور) . .

وهذا النور الربانى كله يبدو لك من خلال الأقواس والأعمدة التى وصفناها وكأنه خيال . .

إنه الفن الصافى يسبح معك لله بارئ الأرض والسماوات . .

فإذا أفضيت إلى هذه البلاطة السابقة للمحراب ، ووقفت وسط هذا القيض من نور الله ، واستدرت وراءك لترى ما قطعت إلى الآن من المسجد ، رأيت عجباً أى عجب . .

فهذه هى الأعمدة والأقواس تتوالى أمامك فى نسق كأنها طريق لا ينتهى ، والرواق يمتد أمامك إلى الباب كأنه طريق فى غابة من الشجر يهتز ويتمايل . .

أرجو أن تضيف إلى هذا شيئاً . .

فإن الرواق ينتهى عند الباب الذى دخلت منه فى شبه ظلام ، وما كان هكذا على أيامنا . .

كان الباب الرئيسى للمسجد يقع فى آخر هذا الرواق — أو أوله بتعبير أصح — ولم يكن باباً ، وإنما كان قوساً عظيماً يفضى إلى الصحن غير المسقوف المسمى اليوم بهو البرتقال . .

أى أنك لو كنت فى مكانك هذا أيام الحكم المستنصر مثلا ، لرأيت الصحن المكشوف وفيه أشجار البرتقال ترف مع النسيم . .

نور من خلف ، ونور من أمام . .

ونعود إلى المحراب . .

إنه لا يشبه المألوف من المحاريب ، فهو ليس تجويفاً فى الجدار مزيناً بالزخارف والألوان كما هو الحال فى غيره من المساجد ، بل هو أشبه بصومعة تدخلها من مثل باب مسجد . .

هذا الباب الزخرفى على هيئة حدوة حصان مرفوعة فوق قواعد من الرخام . أحجار القوس كلها ملونة تزينها الزخارف يحيط بها من خارج القوس إطار زخرفى .

الجدار حول العقد وفوقه منقوش تزينه كتابات .

يلى ذلك من أعلى ، وحتى السقف ، صف من الأقواس الزخرفية الصماء . يخيل إليك أنها تصوير باليد لأعمدة المسجد وأقواسه فى زيادة الحكم المستنصر .

وداخل هذه الأعمدة والأقواس زخارف زهرية تضفى على هذه الواجهة خفة ونضارة ، وإطارات قوس الباب مزخرفة بكتابات يزعم أدلاء المسجد لمن يسيرون معهم من السائحين أنها أسماء المهندسين الذين بنوا الجامع . .

وإليك قراءة هذه الكتابات :

كتابة الإطار الخارجى لواجهة المحراب تبدأ من السطر الأول من اليمين من أسفل ، وتصعد ثم تسير من اليمين إلى اليسار ، ثم تنحدر إلى أسفل اليسار . .

وكذلك السطر الثانى . .

الكلمات الأربع الأولى من السطر الأول ليست شيئاً مفهوماً . إنها تقليد لهيئة الكتابة العربية ، لأن الذين رمموا المسجد سنة ١٨١٦ وجدوا أن الكتابة والزخرفة سقطتا من هذا الجزء ، فأكملوه بتقليد هيئات الحروف العربية حتى لا يبقى فراغاً . . وبعد ذلك تقرأ الآية السادسة من سورة السجدة : (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم) . .

ثم الآية ٦٥ من سورة غافر ، تقرأ منها من أسفل إلى أعلى : (هو الحى) . وتستمر الآية فى السطر الأعلى من اليمين إلى اليسار : (لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين) . وبقية السطر : موفَّقٌ الإمام المستنصر بالله عبدالله الحكم أمير المؤمنين أصلحه الله .

ثم تستمر الكتابة من أعلى إلى أسفل : لهذه البنية المكرمة ومعينه على نيته الخالصة فى التوسع لرعيته . . وبقية السطر مطموسة .

والسطر الثانى — ابتداءً من أسفل اليمين — أوله لا يقرأ لأنه نقش زخرفى فى هيئة الكتابة الكوفية ، ثم بعد ذلك تقرأ من أسفل لأعلى : ما إليه وإليهم الرغبة فيما ابتدا من فضله فيهم ، وصلى الله على محمد وسلم .

والسطر الثانى من أعلى من اليمين إلى اليسار ، ثم من أعلى إلى أسفل : أمر الإمام المستنصر بالله عبدالله الحكم موليه (أى مولاه) وحاجبه جعفر

ابن عبد الرحمن رحمه الله بتشييد هذه البنية ، فتم بعون الله بنظر محمد بن تمليخ ومحمد بن نصر وخلد (= خالد) بن هاشم أصحاب شرطته ومطرف ابن عبد الرحمن الكاتب . .

وتحت هذين السطرين ، وفى إطار مستطيل من اليمين إلى اليسار : (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم نص الآية ٢٣ من سورة الحشر : (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون) .

وعند قاعدتى القوس (العقد) على اليمين واليسار كتابتان تتألف كل منهما من ثلاثة سطور .

على اليمين ، بعد البسملة ، الآية ٤٣ من سورة الأعراف : (بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق) . وبعد ذلك : أمر الإمام المستنصر بالله عبدالله الحكم أمير المؤمنين . .

وعلى اليسار يستمر الكلام : أصلحه الله موليه (= مولاه) وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن ، رضى الله عنه بنصب هذين المنكبين فيما أسسه على تقوا (= تقوى) من الله ورضوان فتم ذلك فى شهر ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثلث ماية (ثلاثمائة) . .

ونقوش الواجهة وكتاباتها محلاة بالفسيفساء ، وهى المعروفة فى اللغات الأوروبية باسم موزايك أو موزايكو .

يصنعونها بأن يقطعوا الحجر مكعبات صغيرة ضلع الواحد منها سنتيمتر أو أقل ، ثم يغمسوها فى الألوان : أزرق وأحمر وذهبى وأصفر ورمادى ووردى . .

ويرسمون الرسم الذى يريدون على الموضع المراد رسما خفيفاً بالفحم ، ثم يلصقون قطع الفسيفساء على خطوط الرسم وظلاله ، فتكتمل الصورة بهذه القطع . .

هذا الفن ابتدعه المصريون فى العصر المسيحى ، وعنهم أخذه البيزنطيون وجودوه ، ثم انتقل إلى عرب المشرق . .

وفى عهد الحكم المستنصر ، وأثناء بناء جامع قرطبة ، كانت هناك علاقات ثقافية بين الدولة البيزنطية والدولة الأموية فى قرطبة : كانوا يتبادلون الكتب والعلماء وأشياء الفن . ورأى قسطنطين السابع أن يبعث إلى الحكم المستنصر بهدية من هذه الفسيفساء ، فطلب إليه الحكم أن يبعث معها بعاملين يعلمان صناع قرطبة وضع الفسيفساء ، ففعل . وتعلم القرطبيون هذا الفن وطبقوه على واجهة المحراب ، فجاءت آية فى جمال الفن .

الألوان الغالبة عليها الأزرق العربى ، وهو ذلك الأزرق الصافى المتوسط العمق ، وهو مشهور فى عالم الألوان باسمهم (بلو دارابى) ، ثم الذهبى والأحمر .

* * *

ونفضى إلى داخل المحراب . .

إنه مقصورة صغيرة ذات أضلاع . .

جدرانها مبطنة من أسفل بالرخام الأبيض ، ثم يلى ذلك عقود زخرفية صماء ، ثم إفريز محلى بالكتابة ، يليه إفريز زخرفى صغير .

وفوق هذا أقام المعمارى المبدع سقف المحراب . جعله من قطعة واحدة من الحجر ، هيأها على صورة المحارة مقسمة إلى فصوص زخرفية . .

والإفريز الأول المكتوب يضم نص الآيتين ١٠٢ – ١٠٣ من سورة آل عمران ، وأنت تقرأهما من اليمين إلى اليسار :

(بسم الله الرحمن الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تُقَاتِه ، ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شَفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) .

نبوءة بالغيب من صاحب الغيب سبحانه . .

إنذار من الله بما سيكون . .

وما كان الله ليذكّر أهل الأندلس بنعمة من نعمه أجدى عليهم من الاتحاد والاعتصام بحبله ، فإن الخطر الأكبر الذى كان يتهدد هذا الأندلس العربى الإسلامى هو التفرق ، فبلدهم ثغر وجبهة قتال ، والأعداء من حولهم كثيرون .

ولكنهم نقشوا كلام الله سبحانه بأيديهم ولم يعوه بقلوبهم . .

وتفرقوا ، واختلفوا ، وتحاقدوا ، وتحاربوا . .

وعادوا على شفا حفرة من النار . .

وأكلتهم النار !

وما قاساه أهل الأندلس نتيجة للتفرق لم يكن غير النار والدمار وضياع الأهل والولد والدين والديار . .

وسبحان من أنذر فأعذر ، وأرسل كلماته هدى ونوراً لمن أراد الهدى والنور . .

رحم الله أبا إسحق إبراهيم بن خفاجة حين قال يرثى بلنسية :

عاثت بساحتك الظُّبى يا دارُ	ومحا محاسنَك البِلى والنـــارُ
فإذا تردد فى جنابك ناظر	طال اعتبارٌ فيك واستعبـــار
أرض تقاذفت النوى بقطينهـا	وتمخضت بخرابهـــا الأقدار
كتبت يد الحدثان فى عرصاتها :	لا أنت أنت ، ولا الديار ديار

وتحت هذا الإفريز الذى زانته هذه الآيات الواعظة ترى إفريزاً آخر واسعاً تقرأ فيه الآية ٢٣٨ من سورة البقرة مسبوقة بالبسملة : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) ، وبعد ذلك : أمَر الإمام المستنصر بالله عبدالله الحكم أمير المؤمنين أصلحه الله ، فيما شيد من هـــذا المحراب بكسوته بالرخام داخله فى جزيل النور وكريم المنار ، فتم ذلك على يدى موليه (مولاه) وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن ، رضى الله عنه ، بنظر

محمد بن تمليخ وأحمد بن نصر وخلد (خالد) بن هاشم أصحاب شرطته، ومطرف ابن عبد الرحمن الكاتب فى شهر ذى الحجة من سنة أربع وخمسين وثلث ماية (ثلاثمائة) (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقا (الوثقى) وإلى الله عاقبة الأمور) (سورة لقمان ، آية ٢٢) .

وفى إفريز ضيق ، يدور مع المحراب تحت الأقواس الزخرفية ، تقرأ الآيتين ٥ و ٦ من سورة المائدة : (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين . وإن كنتم جنبًا فاطّهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النســاء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) .

وفى هذا المحراب كتابات أخرى ، بعضها آيات قرآنية وبعضها توقيعات من اشتركوا فى عمله . والمسجد كله حافل بهذه الكتابات ، يطول بنا الأمر لو مضينا نذكرها واحدة واحدة . .

ولكن تهمنا تلك التى تعيّن تواريخ عمل بعض أجزاء هذا العمل الفنى العظيم .

فعلى القوسين المؤديين إلى البلاطة السابقة على المحراب تقرأ : الحمد لله على الهذا (الهدى) ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء . أمر الإمام المستنصر بالله عبدالله الحكم أمير المؤمنين وفقه الله موليه (مولاه) وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن ، رحمه الله ، بعمل هذا المَشْرع إلى مصلاه ، فتم بعون الله بنظر محمد بن تمليخ وأحمد بن نصر وخلد (خالد) بن هاشم ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب . الحمد لله . .

وتقرأ أيضاً : بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبدالله الحكم أمير المؤمنين أصلحه الله موليه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن ، رحمه الله ، بعمل هذه

الفسيفساء فى البيت المكرم ، فتم جميعها بعون الله سنة أربع وخمسين وثلث مائة .

وغير ذلك كثير . .

والذى ضاع وتفرق من هذه الذخائر أكثر مما بقى . .

فقد وجدوا مثلا – فى سنة ١٨٤٤ قطعة من عقد من المرمر وهم يحفرون فى شارع رُويْلاس كتب عليها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . أمرت السيدة « مُشْتاق » أم الأمير المغيرة بعمل هذا المنار والسقيفة المنضمة له ، وتجديد طرر هذا المسجد ، فتم بعون الله على يدى جعفر بن عبد الرحمن فتاها . . فى شهر رمضان [سنة] . . . ـين وثلث مائة » .

وإذن فقد كان أمراء وأميرات البيت الأموى يضيفون إلى هذا المسجد قدر ما استطاعوا ، كأنه كان ديوان بيتهم يجتهد كل منهم فى الإضافة إليه ووضع اسمه فيه . . .

والأمير المغيرة نحن نعرفه . إنه ابن عبد الرحمن الناصر وأخو الحكم المستنصر . وقد قتـل غيلة عقب موت أخيه . خاف محمد بن أبى عامر وأصحابه الطامعون فى الدولة أن يصل إلى العرش من دون الغلام الصغير هشام بن الحكم المستنصر ، فيضيع سلطانهم ، فقتلوه . .

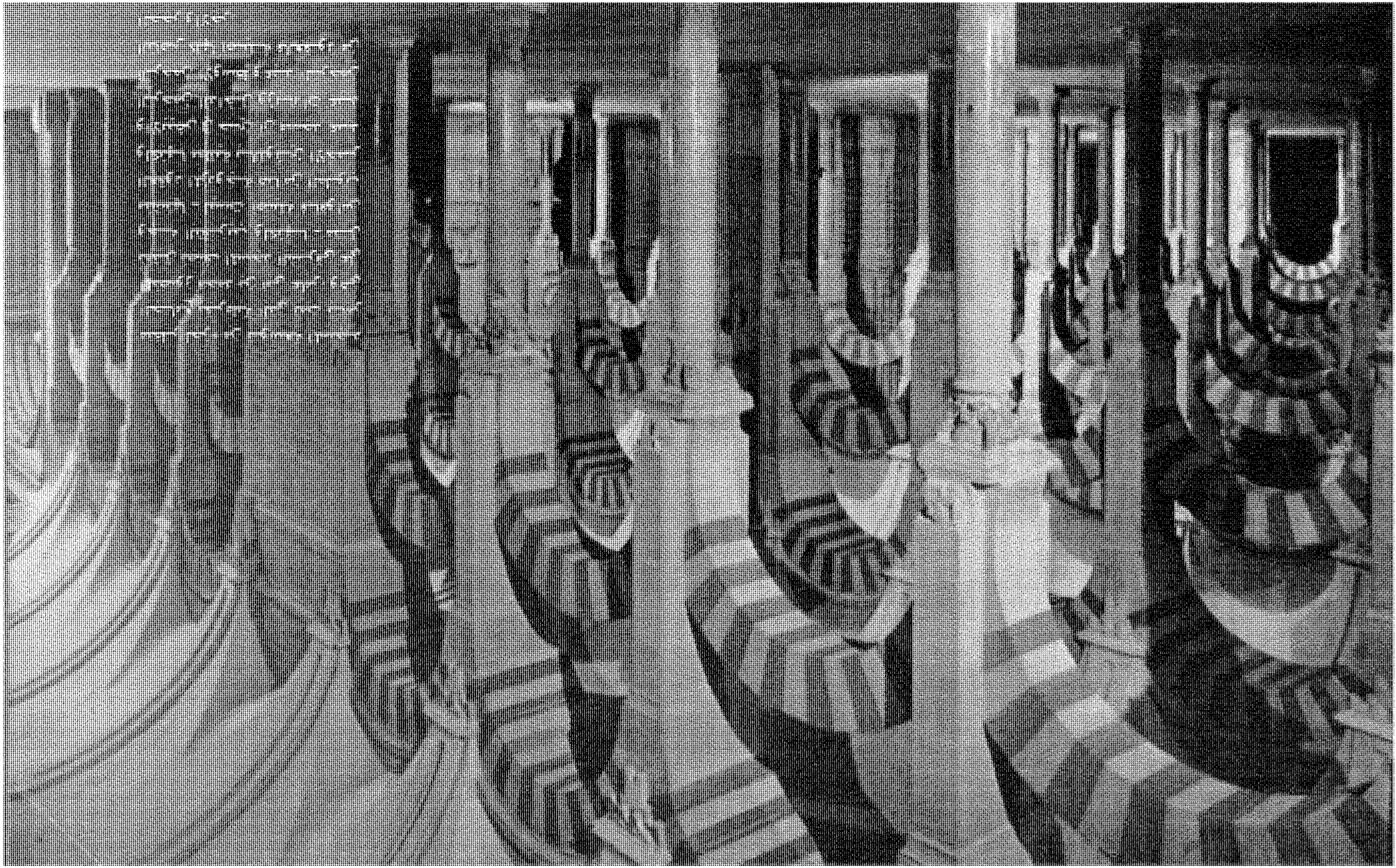
* * *

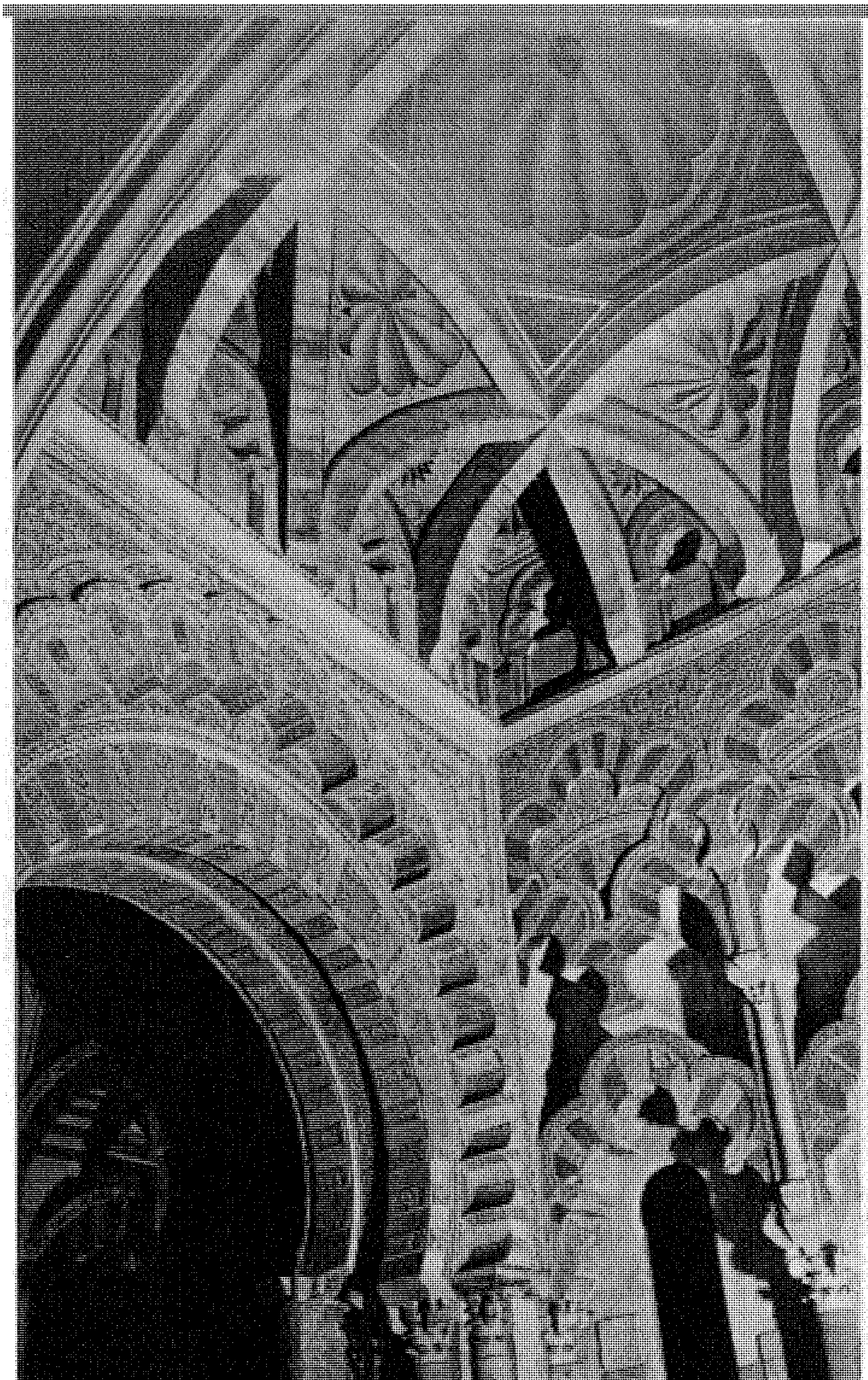
على يمين هذا المحراب البديع وعلى يساره أقام المعمارى غرفاً أو مقاصير . .

فى الأولى منها – على يمين المحراب – كان يوضع مصحف ذى النورين عثمان . .

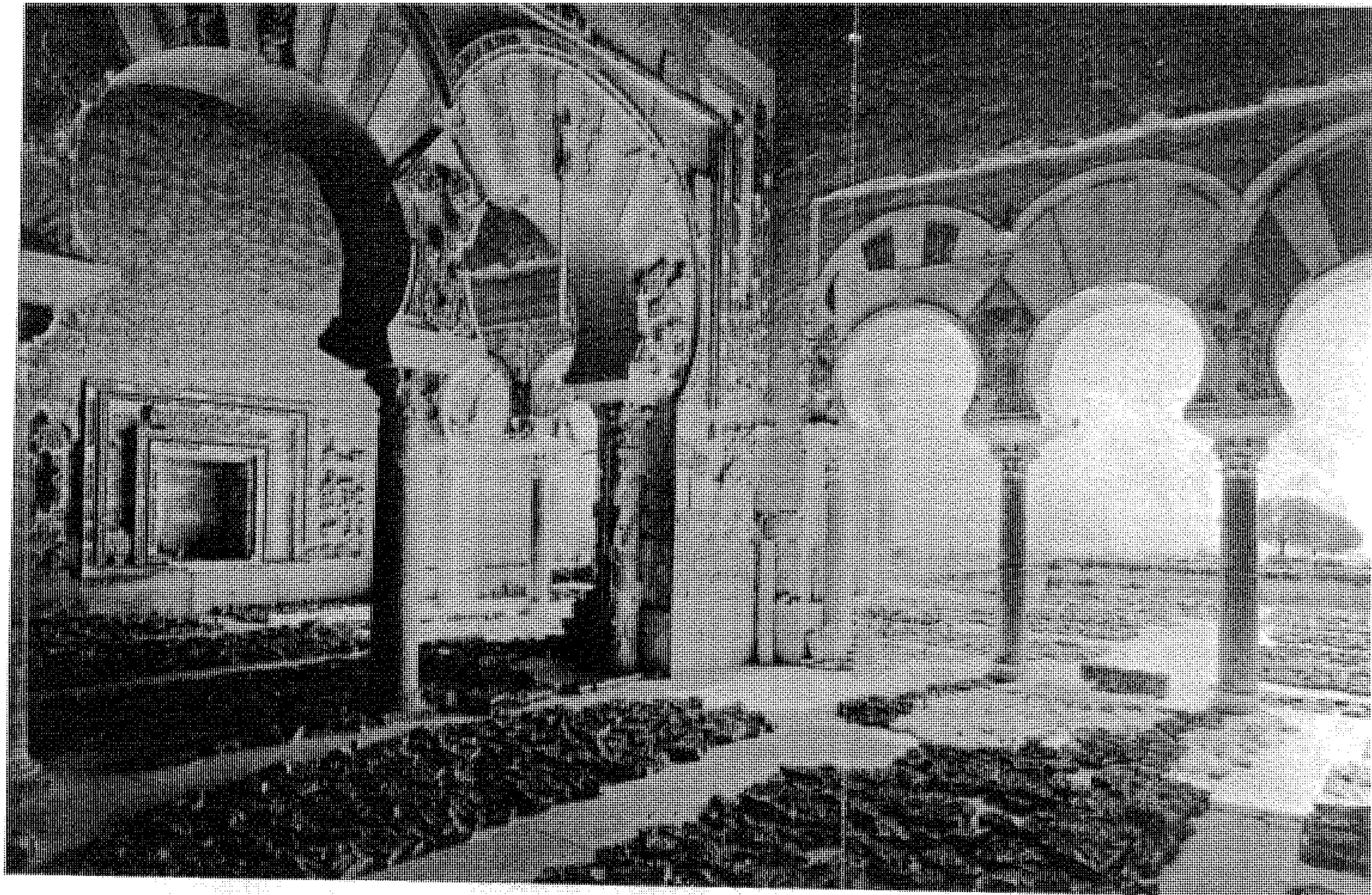
كان قد أُتى به – أو زُعم – إلى بنى أمية ، وعليه قطرات من دمه الزكى . .

فى هذه المقصورة كان يُحفظ على وساد من مخمل يحمله كرسى مطعم بالصدف . ويوم الجمعة من كل أسبوع ، كان يُخرج قبل الصلاة ، ويؤتى به للقارئ فى المحراب ، فيقرأ منه ما شاء الله له أن يقرأ . .





صورة جميلة جداً للعصبات الحجرية الحاملة للقبة الوسطى في المسجد الجامع. هذه العصبات الحجرية تقرر دون شك أن طراز العمارة القوطي الذي يعتبر أعظم الإضافات الأوروبية للعمارة في العصور الوسطى من ابتكار المسلمين وميلاده هنا في قرطبة.



مثال رائع من أمثلة الترميم الأثري. هذا مدخل مدينة الزهراء الملكية التي أنشأها عبد الرحمن الناصر على سفح جبل العروس الواقع جنوب غربي قرطبة. كل هذا أقامه الأثريون من قطع صغيرة كالتي تراها أكواماً في مقدمة الصورة. البوابة ذات العقود الثلاثة من طراز الخلافة تؤدي إلى مجلس الخليفة في صدر البهو. كان كرسي الخليفة يقوم في نفس الموضع الذي تتأمل أنت منه هذه الصورة، وإلى اليسار ترى بهواً ثانياً. في حفلات الاستقبال كان الوزراء وكبار رجال الدولة يجلسون على مقاعد إلى يسار البهو ويمينه، أما الأمراء فكانوا يحفون بالخليفة في مجلسه.



هكذا يزينون شوارع قرطبة الإسلامية . مثل من التزويق السياحي الأنيق. بلدية قرطبة تقوم بعمل الواجهات والنوافذ ووضع اصص الزهور وسكان البيوت يرعونها.

والمقاصير الأخرى كانت مخازن لحاجات المسجد : كتب وشموع وما عسى أن يحتاج له قوّمته وخدمه . .

المقصورة الأولى إلى اليسار وسعوها وغيروا شكلها بعد تحويل المسجد الجامع إلى كنيسة . إنها اليوم مصلى باسم القديسة تيريزا (كاپيّا دِسانتا تيريزا) ومستودع لذخائر الكنيسة (تيسورو) . .

والبلاطة التي أمامها تسمى العشاء الرباني (سانتا ثينا) . .

وفي أيام الخلافة القرطبية كانت البلاطة الواقعة أمام المقصورتين الأولى والثانية على يمين المحراب مقصورة يصلى فيها الخلفاء .

وكان الخلفاء يدخلون إليها من باب مواجه لها ، وهو في نفس الوقت أمام باب القصر على الجانب الآخر من شارع المحجة العظمى . ولم يكن الخليفة يعبر الطريق ، وإنما كان يمر في قنطرة فوق الشارع من قصره إلى باب الجامع . .

هذه القنطرة كانت تسمى الساباط ، وباب المسجد الذى تنتهى عنده هو باب الساباط . .

ولا زال هذا الباب باقياً إلى اليوم . .

* * *

إلى هنا كان ينبغي أن ينتهى المسجد . .

على هذه الصورة كان ينبغي أن يظل أبداً ، فقد وصل جداره إلى « الرصيف » على ضفة الوادى الكبير . .

ولكن ، فيما بين ٩٨٠ و ١٠٠٢ استبد بأمر الأندلس محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور . .

كان — كما ذكرنا — عبقرياً من عباقرة السياسة والحرب . .

أقام لنفسه داخل الدولة الأموية دولة تسمى الدولة العامرية ، وقضى على منافسيه في عنف وقسوة ، وتتبع بالأذى كل من توسم فيه النجابة من بني أمية . .

وعند ما أصبح هذا الرجل كل شيء ، لم يعد فى الأندلس شيء . .

ودولة تقوم على عمود واحد ، لا بد أن تنهار عندما يزول هذا العمود الواحـــد . .

وهذا هو ما حدث بالفعل . . بعد المنصور جاء ابنه المظفر ، فحكم سبع سنوات . . ثم ابنه الثانى عبد الرحمن المعروف بشَنْجُول فحكم أقل من عامين . .

وفى سنة ١٠٠٩ قتل شنجول ، وانتثر عقد الدولة ، وبدأت الفتنة . .

ولم تعد وحدة الأندلس بعد ذلك أبداً . .

وفى سنة ١٠٣١ زالت الخلافة الأموية من الوجود ، وبدأ النزع الطويل .

وقد كانت أيام المنصور كلها فتوحاً وأمجاداً ، ولكنها كانت مجرد طبول : دوى عظيم وفتح قليل . . ففى غزواته التى قاربت الخمسين لم يقض على واحد من أعداء الأندلس قضاءً نهائياً ، ولا حوّل قاعدة من قواعد الخصوم إلى قاعدة من قواعد الإسلام . . وكان مجده ، من كل ناحية ، مجداً حربياً اجوف كله آلام ودماء، لنا قبل غيرنا . .

ولكى ينسى الشعب آلامه ودماءه ، اجتهد ابن أبى عامر فى أن يبهر أنظاره بكل عجيب من الأعمال . .

ومن هذه الأعمال العجيبة تلك الزيادة التى أضافها لجامع قرطبة . .

أراد أن يضيف إلى الجامع جزءاً يزيد على ما أضافه سابقوه . .

ولكن كيف وقد وصل الجامع إلى النهر ، ولم يعد يقبل إضافة فى الاتجاه الطبيعى ؟

وكما حطم المنصور كل القواعد ليبنى مجده، أضاع تناسق الجامع ليضيف زيادته .

وسع الجامع من ناحيته الشرقية : أضاف إليه بطول هذه الناحية ما يزيد على ثلث مساحته أيام الحكم المستنصر .

أضاف وحده ٢٤٥ عموداً وقوساً ، اجتهد فى أن تكون من طراز عمد

المسجد وأقواسه . وهى بالفعل تبدو وكأنها كذلك ، ولكن الفرق بعيد لمن يتأمل من قريب .

وأبسط هذه الفروق أن الأقواس تبدو من بعيد وكأنها مبنية بالحجر والطوب الأحمر كبقية أقواس المسجد ، ولكنها فى الحقيقة كلها حجر ، واللون الأحمر طلاء . .

وكذلك جدار المسجد الشرقى وأبوابه التى صنعها المنصور ، لا تقارن فى البهاء والدقة بالجدار الغربى وأبوابه . .

المهم لدينا أن المسجد أصبح بهذا أضخم ما بناه العرب من المساجد . .

وكما أضاف المنصور إلى صحنه المغطى أضاف إلى صحنه غير المغطى ما يعادل ثلثه ، وأدار السور على ذلك كله . .

وهذا الصحن غير المغطى هو المسمى اليوم بفناء النارنج (أى البرتقال) . وهو أيضاً فريد فى بابه ، لأن الفقهاء كانوا يحرمون غرس الأشجار فى صحون المساجد غير المغطاة ، ولكن فقهاء الأندلس أباحوا ذلك ، وكان الذى أفتى بذلك الفقيه صعصعة بن سلام الشامى (توفى سنة ٧٧٤) . وكانت هذه الفتوى مدار مناقشات طويلة بين الفقهاء .

ولا زال شجر البرتقال قائماً فى الصحن إلى الآن ، وإن كان قد أعيد غرسه وتنظيمه على نظام سياحى جديد ، وأضيفت إليه بضع نخلات ونافورات . .

وكانت للمسجد ميضأة عظيمة وسط الفناء المكشوف ، ساق الخلفاء إليها الماء من الجبل فى قنوات من الرصاص ، كان الماء يجرى فيها ليلا ونهاراً .

ولكى يضيف المنصور إلى الجامع شيئاً جديداً ، أنشأ تحت الميضأة صهريجاً عظيماً يتكون من تسعة أقبية تقوم على أربعة أعمدة واثنى عشر قوساً ولا زالت آثار هذا الصهريج باقية إلى اليوم . .

وكان يحيط بالمسجد سور عظيم فيه سبعة عشر باباً . .

ولم يكن للصحن المسقوف أبواب تؤدى إلى الصحن غير المسقوف ، بل الأقواس كانت هى الأبواب ، فكان الضوء يدخل منها ويملأ الجامع نوراً . .

ومن ناحية النهر ، أنشأ الحكم المستنصر والمنصور رصيفاً (أى كورنيشاً) جميلا بطول الجامع ، وكان هذا أيضاً من متنزهات قرطبة . .

أما مئذنة الجامع فكانت آية فى الجمال ، كانت تقوم إلى يمين الداخل من باب فناء النارنج – وهو يعرف اليوم بباب المغفرة (پويرتا دِلْ پِردون) – وكان ارتفاعها نحو ٤٥ متراً ، وكانت أشبه ببرج عظيم ارتفاعه ٣٠ متراً فوقه مئذنة طولها ١٥ متراً . .

هكذا كان الجامع عندما خلفناه وراءنا وتركناه وحيداً عند سقوط قرطبة سنة ١٢٣٦ . .

* * *

كان لا بد أن يدفع هذا العزيز الوحيد ثمن تخلينا عنه . .

لقد حوله الغالبون إلى كنيسة جامعة (كاتدرائية) ، وأصبح اسمه من ذلك الحين « لا كاتيدرال » . فى كتب السياحة يسمونه : لامِيثْكيتا كاتيدرال ! حولوا مئذنته إلى برج أجراس . .

وفى قلبه تماماً ، وخلف الكنيسة التى أنشئت فيه عقب سقوط قرطبة ، أنشأوا فى جزء من زيادة عبد الرحمن الأوسط وجزء من زيادة المنصور كنيسة كاملة تتكون من مذبح ومصلى ومتصلب وخلوات للاعتراف . .

أنشأوا ذلك كله على أسوأ صورة فنية يتصورها العقل : أزالوا ٨٠ عموداً وقوساً والسقف الذى فوقها ، وبنوا شيئاً ثقيلا ينكره من يراه من النصارى قبل المسلمين . .

وإلى جانب المحراب والقبلة أقاموا مصلى يعرف بمصلى القديسة تيريزا ، إلى جانبه مستودعات لذخائر الكنيسة كما ذكرنا .

ولكى يسود داخلَ البناء الجديد الظلامُ الذى يقولون إنه لا بدَّ منه للخشوع

الكاثوليكى ، أقاموا جداراً بين صحن الجامع وفناء النارنج ، وسدوا ١٣ من أبواب الجامع بالحجارة ، فأصبح الجامع مظلماً فى كثير من أجزائه .

وفى وسط الجامع تماماً — عند الكنيسة التى أنشأوها — ينعدم الضوء تقريبـــاً . .

وأضافوا أشياء أخرى ، واجتهدوا ما وسعهم فى إزالة المعالم الرئيسية لذلك الجامع الأصيل . .

ويقال إن شارل الخامس — المعروف بالإمبراطور شرلكان — عندما دخل الجامع أول مرة بعد إنشاء الكنيسة فى قلبه ، تأسف إذ سمح للقساوسة بهذا التشويه ، وقال لهم : لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه فى أى مكان آخر ، فضيعتم بعملكم هذا ما كان أثراً وحيداً فى الدنيا . .

ولكن ، رغم ذلك كله لا زال المسجد مسجداً . .

رغم الجدران والسدود والأجراس والظلام والمصابيات وصور القديسين ، لا زال الجامع جامعاً ، جامعاً تتردد فيه آى القرآن فى نغم طويل خافت ، كأنه صوت عتاب أو سوط عذاب . .

وقرطبة اليوم هى الجامع ! هامش على المبنى العظيم ، هامش ضخم ، ولكنه هامش !

والذى يأخذ القطار من مدريد إلى قرطبة ثمانى ساعات ، لا يفعل ذلك ليشرب القهوة فى ميدان خوسيه أنطونيو ، بل لكى يزور ذلك العزيز العظيم .

وفى دليل قرطبة الرسمى يحاولون أن يصرفوك عنه ، ويزينون لك زيارة الكنائس التى أنشأوها ، والمعالم التى جدت فيما بعد : كنيسة سانتا ڤكتوريا ، مذبح عذراء المصابيح ، برج مالمويرتى ، كنيسة سان فرانثيسكو ، كنيسة سان خاثينتو ، قلعة قَلَـهُرَّة ، تمثال انتصار سان رافاييل ، وما إلى ذلك . .

ولكن الزائر يسأل أولا عن الجامع ، ولا يزور غير الجامع . . .

وعندما يخرج يتجه إلى شارع توريخوس ويتأمل واجهة الجامع الغربية ،

ثم يمضى لينظر المكان الذى كان يقوم فيه قصر الخلفاء فى مواجهة الجامع من هذه الناحية . . ثم يسرع بمبارحة قرطبة . .

ولكننا نحن العرب لا نزور قرطبة سائحين . .

إننا نزورها كما يعود النازح المغترب إلى وطنه وبلده . قد يكون كل شىء فيه قد تغير ، ولكنه يظل وطنه وبلده وموضع حنينه ..

يقف فى موضع مّا قام فيه مبنى جديد سامق فيحس كأنه لا يراه ، إنما هو يرى البيت الصغير الذى كان قائماً قبله ، البيت الذى ولد فيه أو ولد فيه واحد من أترابه ، ولعب معه فى رحابه ؛ ويمضى مع الذكريات . .

وقرطبة بلدنا ، مهد من مهادنا : هنا عشنا ، هنا سعدنا ، هنا بنينا وأعلينا ، وهنا أيضاً أصابنا الزمان وبكينا . .

بعد أن نخرج من الجامع نمضى فى الشوارع الصغيرة المحيطة به . نتمشى فى طرقاتها الصغيرة التى تشرح النفس بنظافتها وروائها ، ونقول : هنا كان يقيم أهل العلم من أساتذة وطلاب ، فى هذه الدور سكنوا ودرسوا وقضوا الليل يستذكرون أو يؤلفون . .

وهنا أيضاً كانوا يسمعون أذان المؤذن مع السحر ، يتردد فى نعاس الليل ، يدعو المؤمنين إلى بيت الله . .

وتستيقظ قرطبتنا على صوت المؤذن ، ويقبل الناس للصلاة على ضوء الشموع وقناديل الزيت ، ثم يسند أهل العلم ظهورهم إلى العمد فى انتظار موعد الدروس . .

ويقبل الشيوخ . . وتبدأ حلقات الدروس فى أركان هذا القدس الفسيح ، وفى ركن معروف يجلس قاضى قرطبة وإلى جانبه كاتبه وأمامه المتقاضون يتكلم عنهم محامون بالمعنى الصحيح . كانوا يسمونهم خصوماً أو مخاصمين أو وكلاء ، وكانوا قانونيين مؤهلين يجيدون الأخذ والرد ويحسنون الدفاع . .

وقضاة قرطبة كانوا أشبه بمستشارى النقض فى أيامنا ، أحكامهم قوانين يسجلها الناس ويطبقها بعد ذلك القضاة . .

وفى ركن آخر نجد جماعة من أهل الأدب ، يتطارحون الشعر ويروون آخر ما وصلهم من شعر أهل المشرق . .

وهنا وهناك نجد رجالا قد اعتزلوا بأنفسهم يؤلفون : هذا فى الفقه ، وذاك فى الأدب ، وذلك فى الجغرافية أو الأعشاب والطب . .

مسجد ، ومجلس قضاء أعلى ، وجامعة . .

جامعة بأدق ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، جامعة تخرج فيها علماء دارت على علمهم الأرض وعاشت على نورهم الأجيال . .

نور ، على نور ، على نور . .

نور الله سبحانه ، ونور الحق والعدالة ، ونور العلم والعرفان . .

* * *

ولن نغادر قرطبة قبل أن نزور موضعين : قصر الخلفاء ومدينة الزهراء .

أما قصر الخلفاء فلم تبق منه إلى الآن إلا آثار كأنها أوهام . .

فأمام الجامع فى شارع توريخوس – الذى كان يسمى بالمحجة العظمى – تجد مبنى ضخماً يسمونه القصر الأسقفى (پلاثيو إيبيسكوبال) ، إذا اجتزت بابه وصعدت سلمه وانحرفت يميناً سرت فى طرقة واسعة تؤدى بك إلى سلم ينزل إلى حديقة فسيحة . .

مكان هذا القصر الأسقفى كان يقوم قصر الخلفاء ، وتلك حديقته . .

إذا انحرفت بعد ذلك القصر إلى اليمين وجدت نفسك فى شارع صغير يسمى شارع أمادور دى لوس ريوس ، وهو علامة إسبانى جليل ، كان أول من درس جامع قرطبة وسجل كتاباته ونقوشه فى العصر الحديث . .

شارع أمادور دى لوس ريوس يؤدى بك إلى فضاء واسع بعضه حدائق .

فى بعض أجزاء منها ينقبون اليوم عن آثار القصر العظيم، وقد وجدوا بالفعل مواضع جديدة وأسساً .

هناك تجد قصراً عظيماً يسمونه القصر الملكى (كاسا ريال) أو قصر الملكين الكاثوليكيين (پالاثيو دلوس رييس كاتوليكوس) .

كان هذا جناحاً من أجنحة قصر الخلفاء ، وكان هذا القصر مجموعاً عظيماً من الأبنية تحتل هذه المساحة كلها ، وتطل على نهر الوادى الكبير بواجهة عظيمة هى اليوم سور القصر الملكى .

كانت للقصر على أيام الخلفاء أبواب كثيرة ، يذكر أبو القاسم بن بَشْكُوَال المؤرخ منها خمسة ، أكبرها باب السُّدَّة ، وهو باب القصر من ناحية النهر ، كان يؤدى إلى « الرصيف » متنزه قرطبة العظيم . والسدة هنا معناها دواوين الحكومة وإداراتها ، فقد كانت تقوم فى مبنى عظيم داخل القصر . فى هذا المبنى كانت مكاتب الوزراء ، وكانوا كثيرين ، ومكتب رئيس الوزراء وكانوا يسمونه الحاجب ، وبيت الوزراء أو بيت الوزارة ، وكانت قاعة فسيحة لاجتماعات الوزراء ، يجلس كل منهم على مرتبة (حشية) خاصة به ، ومرتبة الحاجب أعلى من مراتب سائر الوزراء .

وباب العدل كان يقوم فى حيث يوجد اليوم باب القصر الأسقفى ، وقد أقام عبد الرحمن الأوسط أمام هذا الباب « فوارة » أى نافورة .

والأبواب الثلاثة الباقية نعرف أن واحداً منها كان داخلياً ، أى يؤدى إلى الحدائق ولهذا كان يسمى « باب الجنان » . أما الاثنان الباقيان : « باب الحديد » و « باب الوادى » فلم نعرف إلى الآن أين كانا يقومان . .

ويبدو أنه كان هناك باب سادس يسمى باب قُورِية .

وخلف القصر — كما قلنا — كانت تمتد الحدائق فى اتجاه الشرق .

فى هذه الحدائق التى تمتد إلى فندق « كوردوبا پالاس » كانت تقوم قصور الأمراء .

ويطلق على هذه الحدائق كلها اليوم اسم « حديقة الملك » (أوِيرتا دِل رِىْ) ، وكان بنو أمية الأندلسيون — كأجدادهم فى المشرق — لا يطيقون البقاء طويلا فى قصورهم الرسمية ، وكانوا يتخذون لأنفسهم قصوراً ريفية (يسمونها فى الشام بالبوادى) يخرجون إليها بين الحين والحين مع أهلهم والمختارين من أصحابهم ليقضوا ساعات بعيدة عن تكاليف الرسميات . .

من هذه القصور واحد ابتناه عبد الرحمن الداخل عرف بالرُّصافة ، كان يقع على ثلاثة كيلومترات من قرطبة إلى شمالها الشرقى على قمة تل يسمى إلى الآن بالرصافة .

فى هذا الموضع أنشأوا اليوم فندقاً سياحياً لطيفاً من هذه الفنادق التى يجيدون إنشاءها فى إسبانيا ، اسمه « نُزُل الرصافة » (پارادو دِ لا الرصافة) .

وأنشأ عبد الرحمن الناصر لنفسه قصراً آخر على كيلو مترين من قرطبة فى اتجاه الشرق على ضفة النهر ، وسط مزارع ورياض ، وكان يسمى « مُنية الناعورة » ، والناعورة هى التى نسميها فى مصر بالساقية ، ولا زال اسمها فى اللغة الإسبانية « لانورْيا » . أما الساقية عند الأندلسيين فكانت التّرعة الصغيرة تشق للرى ، وقد دخل اللفظ فى اللغة الإسبانية بهذا المعنى : أثِيكْيا . .

* * *

أما أعظم منشآت بنى أمية خارج قرطبة فهى مدينة الزهراء . . لا زال موضعها باقياً إلى اليوم ويسمونها « مِدِينا أثَارَا » .

تقوم أطلال مدينة الزهراء على خمسة كيلومترات شمالى غربى قرطبة ، وأنت تصل إليها عن طريق طويل ممهد .

موقعها يعرف عند القرطبيين اليوم باسم « قرطبة القديمة » (كوردوبا لافييخا) ، وهو سفح آخر مرتفع من سلسلة الجبال التى تسمى بجبال قرطبة (سْيِيرّا دِكوردوبا) ، وكان العرب يسمون هذا المرتفع بجبل العروس .

على سفح هذا التل وفى لِحفْه وفى البسيط الممتد أمامه أقام عبد الرحمن الناصر مدينته « الزهراء » . .

لقد وجد هذا الخليفة العظيم أن قصر الخلفاء داخل البلد لم يعد يتسع للمظاهر الكبرى التى تناسب جاه الخلافة العظيم ، فإن الملوك والأمراء والسفراء الذين يفدون على بلاطه يضطرون إلى السير بمواكبهم داخل البلد ، فتغص بها الشوارع ويضيق الناس وتتعطل أعمالهم ، ففكر فى إنشاء قصور ملكية بعيداً عن العاصمة ، كما فكر لويس الرابع عشر فى إنشاء قصور ڤرساى خارج پاريس . .

وبالفعل كانت الزهراء ڤرساى الأندلس . .

ولمؤرخينا فى ذلك أسطورة : يزعمون أن جارية من جوارى عبد الرحمن الناصر ، كانت تسمى الزهراء ، وهبت قدراً جليلا من المال لفداء أسرى المسلمين فى بلاد الأعداء . .

وأرسل الناصر إلى تلك البلاد فلم يجد فيها أسيراً مسلماً واحداً ، فطلبت الزهراء أن تُبنى بالمال مدينة تحمل اسمها . .

مجرد أسطورة . .

استمر إنشاء الزهراء سنوات طويلة ، ١٣ على قول البعض ، و ٤٠ على قول آخرين . .

وكما كانت عادة عبد الرحمن الناصر ، عهد فى الإشراف على بنائها إلى ابنه الحكم المستنصر .

بدأ الناصر ببناء قصر عظيم للاستقبال . بناه على سفح جبل العروس ، بحيث يشرف على السهل الفسيح أمامه .

لقد أعاد الأثريون الإسبان إنشاء هذا القصر ، وهو يتألف من قاعة كبرى بابها الرئيسى نحو الوادى ، إذا أفضيت إليها وجدت عن يمينك

ويسارك عقوداً تشبه عقود الجامع إلا أنها مفردة الأقواس ، وفى الصدر ثلاثة عقود كبرى ، الأوسط منها أوسع من الباقيين .

تحت هذا العقد الأوسط كان يوضع عرش الناصر ، وعن يمينه ويساره مقاعد الأمراء والوزراء ، وتمتد المقاعد على الجانبين إلى الباب ليجلس عليها كبار رجال الدولة . .

وخلف العقود الجانبية ممران كان يصطف فيهما جند الحرس ، وتتصل صفوفهم إلى خارج القاعة وتمتد حتى الوادى ، فيمر الضيوف بين صفوف الجند من بعيد ثم يدخلون القاعة فيحيون الخليفة وهم بالباب ، ويتقدمون فيحيون مرة أخرى ، حتى إذا كانوا أمام الخليفة قرأوا عليه تحية ثالثة ، ثم يأمر بجلوسهم حيث يشاء ، وينظرون إلى الوادى والجند والحرس مصطفين فيه صفوفاً ، مشاة وفرساناً ، ثيابهم بيضاء وعلى مناكبهم أقبية بيض تتدلى خلف ظهورهم ، تزين رؤوسهم العمائم وفى أيديهم السيوف . . منظر باهر طالما تحدث فى وصفه المؤرخون . .

وبقية القصر قاعات للخليفة والأمراء ورجال الدولة . .

وأنشئت إلى جوار هذا القصر قصور أخرى للأمراء والوزراء والموظفين ، وقد بقيت آثار الكثير منها . .

وعلى درجة بعد هذه على السفح أقيمت مساكن الجند والحرس ، وأعد ميدان عظيم للعرض العسكرى ، يشهده الخليفة من قصره ، ومخازن للسلاح والعتاد ودور للخيل . .

كان الذى وضع تصميم هذه المدينة وقام بتنفيذ منشآتها تحت إشراف الحكم معمارى أندلسى مشهور هو مسلمة بن عبدالله ، هو دون شك من أعلام تاريخ هندسة تخطيط المدن . .

كانت المدينة تقوم على ثلاث درجات ، أعلاها قصر الخليفة وقصور

الأمراء ، والدرجة الثانية كانت حدائق يقوم فيها جامع الزهراء ، والثالثة للقواد والجند وأهل البلد . .

وقد ساق هذا المهندس البارع الماء للبلد من أعلى جبال قرطبة وفتح له فتحات فى جبل العروس ، ثم مد أنابيب الرصاص والآجر إلى القصور والحدائق وبيوت الناس ، ولا زالت قطع من هذه الأنابيب باقية إلى اليوم . .

وقد انتقل الناصر إلى الزهراء فى أخريات سنوات حكمه ، ثم أقام فيها من بعده ابنه الحكم المستنصر .

كانت الزهراء مدينة واسعة ، يقول المؤرخ ابن عذارى أن أعمدة الرخام التى جلبت لها بلغت ٤٣١٣ عموداً . وقال غيره أنها كانت عامرة بالأسواق والمتاجر ، وأن سوراً عظيما كان يدور عليها ، وكانت للسور أبواب كثيرة أكبرها المفضى إلى طريق قرطبة ، ويقال إن ذلك الباب كان مزيناً بتمثال عظيم للزهرة ، كان هذا الباب يسمى « باب العقبة » . أما باب قصر الخليفة فكان يؤدى إليه ممر طويل مسقوف بالقرميد ، ولهذا كان يسمى بالسَّطح الممرَّد ، ينهى إلى باب القصر المسمى بباب السُّدَّة .

وكان للزهراء قاض وصاحب شرطة وصاحب مدينة ، وهذا الأخير كان لقب حاكم المدينة أو « محافظها » كما نسميه اليوم .

ولم يكتب للزهراء عمار طويل . لم تكد الفتنة الكبرى يندلع لهبها سنة ١٠٣١ حتى هجر الناس هذه الضاحية المتطرفة ، ولجأوا إلى قرطبة .

وخرب البلد شيئاً فشيئاً بتوالى الفتن . عند ما زارها الشريف الإدريسى أوائل القرن السادس الهجرى — الثانى عشر الميلادى — وجدها خراباً . .

إشبيلية ، الأرملة الطّروب ..

فى أواخر القرن الماضى كانت ميادين السياحة الكبرى فى العالم ثلاثة : الأقصر والأندلس وسويسرا . . .

وكانت السياحة ترفاً أرستقراطياً لا يقبل عليه إلا الأغنياء ، أغنياء أوروبا فى الغالب . كانوا يزورون هذه النواحى فى حراسة قناصل دولهم : كان الواحد منهم يسير فى الطرقات وكأنه يوليوس قيصر ، ينظر إلى العالم فى كبرياء من وراء وجه محمر كأنه الجزر ، وأسنان بارزة كأنها بقايا جمجمة ، وقد علق فى رقبته منظاراً مقرباً وآلة تصوير ، وسار يختال فى بذلة تقليدية من التويد السميك . .

وتسعون فى المائة من هؤلاء كانوا يكتبون كتباً عن رحلاتهم بعد عودتهم إلى بلادهم . هذه الكتب هى التى أعطت مصر صورتها التقليدية السياحية : الأهرام والرمال وأبو الهول . . والتى أعطت إسبانيا صورتها الرومانتيكية : الراقصة الأندلسية ذات الشعر الأسود الفاحم تزينه قرنفلة تتوهج ، وقد التوى جسدها فى هيئة تشبه علامة الاستفهام ، ورفعت ذراعيها فوق رأسها فى هيئة بالغة الرقة والجمال ، وفى أصابعها الكاستانييتاس ، ومن خلفها راقص فى بذلة تحكى جسده كأنها جلد ثان فوق لحمه ، وعلى رأسه قبعة قرطبية سوداء . .

هذه هى صورة إشبيلية فى أذهان معظم الناس ، من زاروها ومن لم يزوروها . ولو أنك أريت هذه الصورة لواحد من أجدادنا الذين كانوا أهلها فى القرن العاشر الميلادى مثلا لما تردد فى التعرف على بلده رغم اختلاف الملابس والزمان . .

فإن إشبيلية كانت أيام العرب مدينة الفن والموسيقى والرقص والغناء . .

كانت ملتقى الشعراء ومجمع الموسيقيين وأهل الفن وملجأ كل راغب فى متاع الحياة . .

كانت أكبر من قرطبة وأغنى ، ولكن هذه كانت أجل وأوقر . .

كانت أول عاصمة للأندلس العربى : فيها أقام موسى بن نصير وابنه عبد العزيز . .

وكانت آخر عاصمة للأندلس . هنا قضى خلفاء الموحدين السنوات الأخيرة قبل سقوط البلد سنة ١٢٤٨ فى يد الإسبان ، وانحسار الأندلس إلى منطقة غرناطة . .

ومن هنا خرج الألوف بعد الألوف ممن عمروا نواحى أمريكا الجنوبية والوسطى من الإسبان . .

وهنا فاض ذهب العالم الجديد أنهاراً ، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . . ثم تسرب الذهب — لا يدرى أحد كيف أو متى — وأخذ الفقر يخفق بجناحيه الأسودين فوق البلد الجميل . .

ولم يبق من ذكريات العز الذاهب إلا أساطير شاردة تحوم إلى اليوم فى شوارع إشبيلية ، وعلى أساس هذه الأساطير نشأت حكايات جديدة : هنا مسرح مغامرات الدون خوان ، وهنا عاش حلاق إشبيلية ، وهنا كان مسرح مأساة كارمن ، وهنا أيضاً جرت مأساة ماريا كورونل ، تلك الجميلة التى تعقبها الملك بدرو القاسى طامعاً فى جمالها ، وقتل زوجها ليظفر بها ، ففرت إلى الدير ، وتتبعها الملك إلى هناك ، فلم تجد ما ينجيها من مطاردة هذا

المحب اللدود إلا التخلص من سبب شقائها : جمالها ! فألقت على وجهها زيتاً مغلياً . .

أقاصيص وحكايات . . مهازل ومآس . .

* * *

ولكن المأساة الكبرى هي مأساة إشبيلية العربية نفسها . .

بعد سقوط الخلافة استبد بها بنو عباد . . طراز عجيب من الناس : باليد اليمنى كتبوا أرق الشعر وأعذبه ، وباليد اليسرى اقترفوا أشنع الجنايات وأبشعها . فى ظلالهم عاشت إشبيلية سنوات طويلة تتوزعها الهموم والمخاوف ، تتخللها ساعات قصيرة من مسرة مريضة فيها إسراف على النفس والعصب . بنو عباد هؤلاء — أبو القاسم محمد وابنه المعتضد ثم حفيده المعتمد — عاشوا ذاهلين عن حاضرهم ومستقبلهم : الأخطار من حولهم والعدو ينوش أطراف ملكهم ويتخطف رجالهم ، والمنايا تطل عليهم مع الصباح والمساء ، ومع هذا فقد وجدوا وقتاً ينظمون فيه الشعر ! لياليهم الطويلة كانت تتقضى فى تطارح الشعر ، مخاطباتهم بعضهم لبعض ، حتى رسائلهم لأعدائهم ، كانت شعراً !

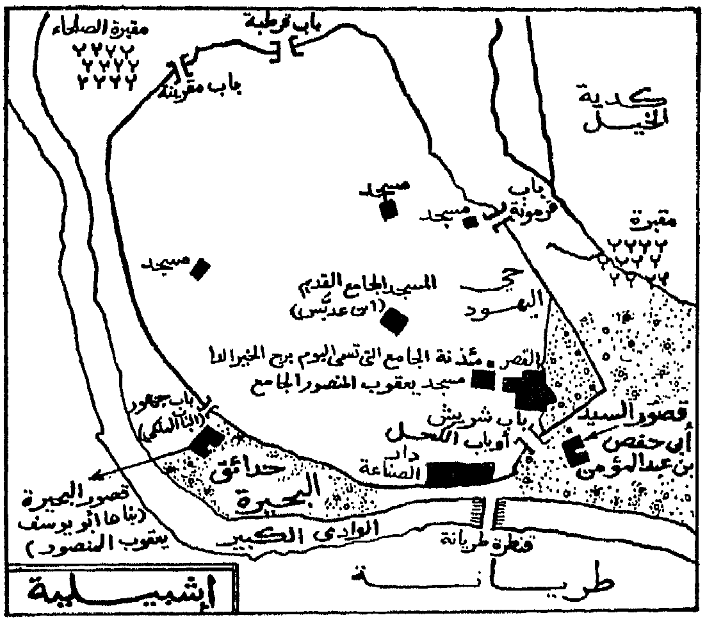
ثم انقضت أيامهم كأن لم تغن بالأمس . .

وبعد ذلك بقرن من الزمان عرفت إشبيلية فى ظلال الموحدين عصراً ذهبياً قصيراً . .

كان ذلك أيام الموحدين ، ...
الإسلامى كله . خلال معظم القرن الهجرى السادس
١١٣٠ على وجه التحديد — قام خلفاء الموحدين بأمر ...
الأندلس ، وكانت لهم فيه مواقع وأمجاد . .

وفى أيام أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على (٥٥٨ — ٥٨٠ / ١١٦٤ / ١١٨٤) وابنه أبى يعقوب يوسف المعروف بالمنصور (٥٨٠ /

٥٩٥ / ١١٨٤ — ١١٩٩) عرفت إشبيلية نحو ٤٠ سنة كانت آخر سعدها على أيامنا . .

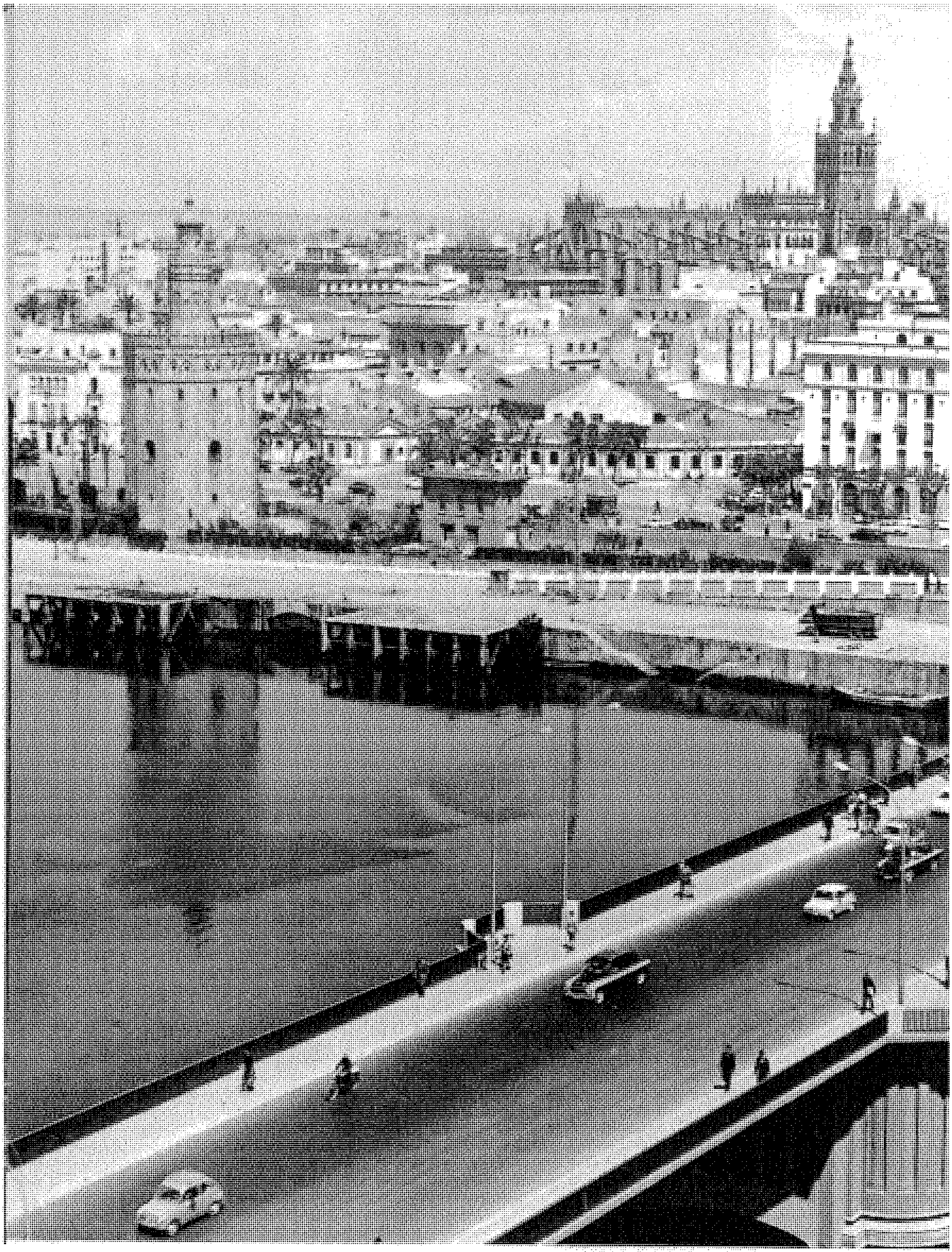


إشبيلية العربية : يلاحظ أن هـذا البلد الكبير أدخلت عليه تعديلات كبيرة وأضيفت إليه مبان ومنشآت كثيرة أيام الموحدين ، وخاصة أيام أبي يوسف المنصور ثالث خلفائهم

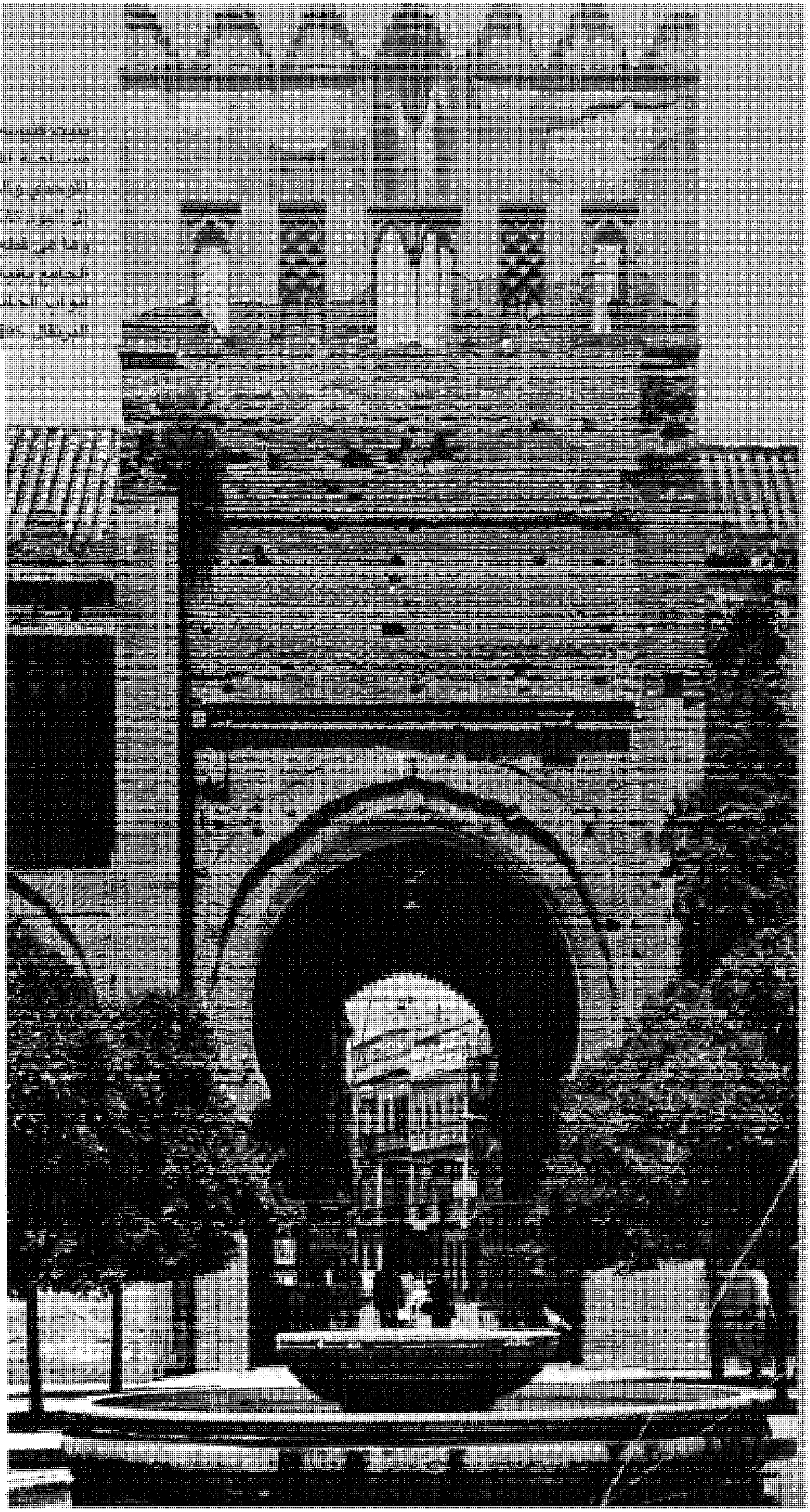
فقد اتخذها هذان الموحديان العظيمان قاعدة ومقاماً ، واجتهد الثانى منهما فى عمارتها والنهوض بها ، حتى أصبحت إلى جانب قرطبة أزهر بلاد أوروبا خلال القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى . .

ثم كان بعد ذلك الانحدار السريع . .

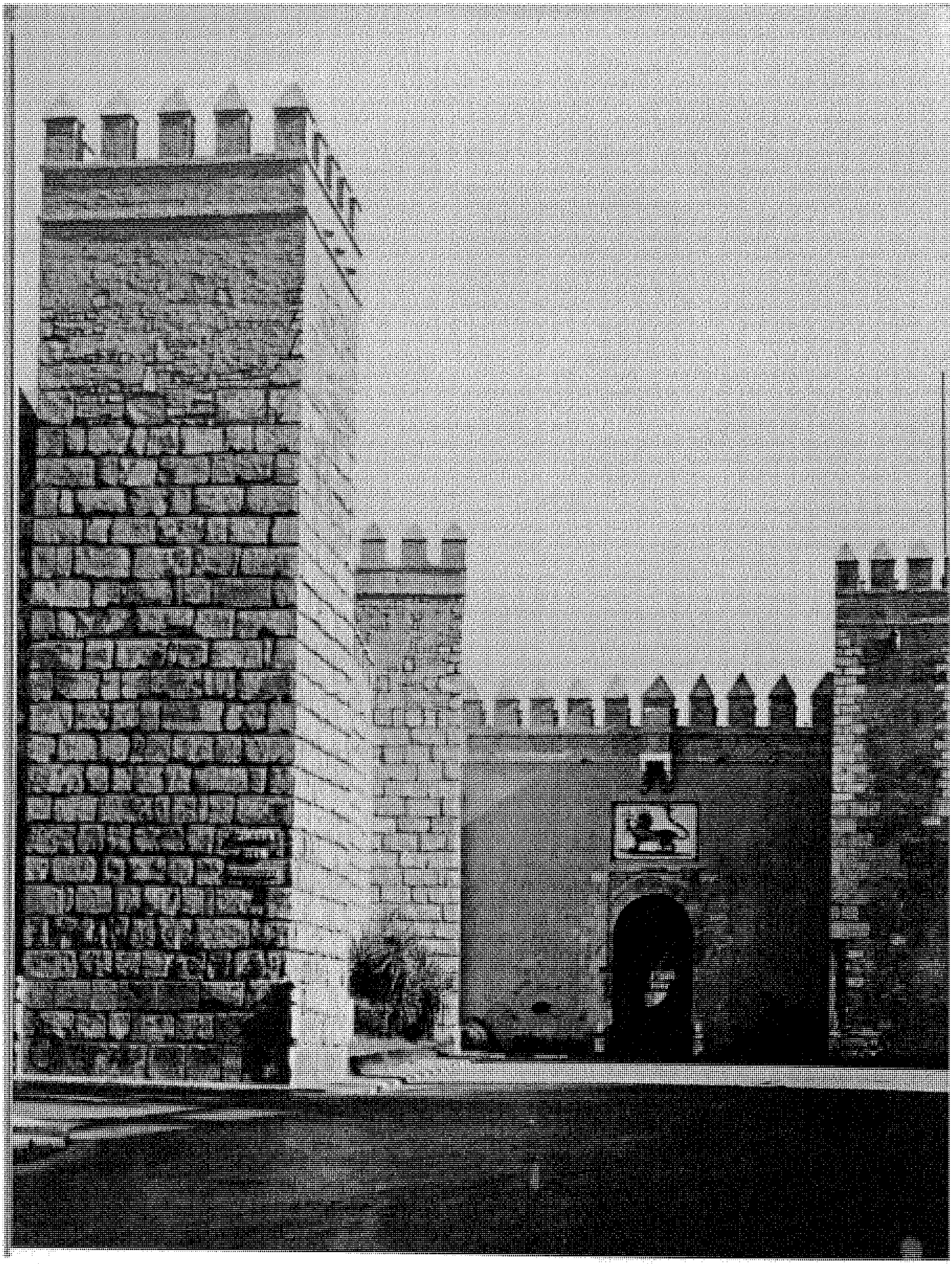
لأن الضغط من الشمال لم يعد مجرد حرب بين دول نصرانية ودول إسلامية فى شبه الجزيرة ، وإنما أصبح حرباً صليبية تشترك فيها أوروبا كلها ضد بقيةٍ من بلد أنهكته الحروب والفتن والثورات . .



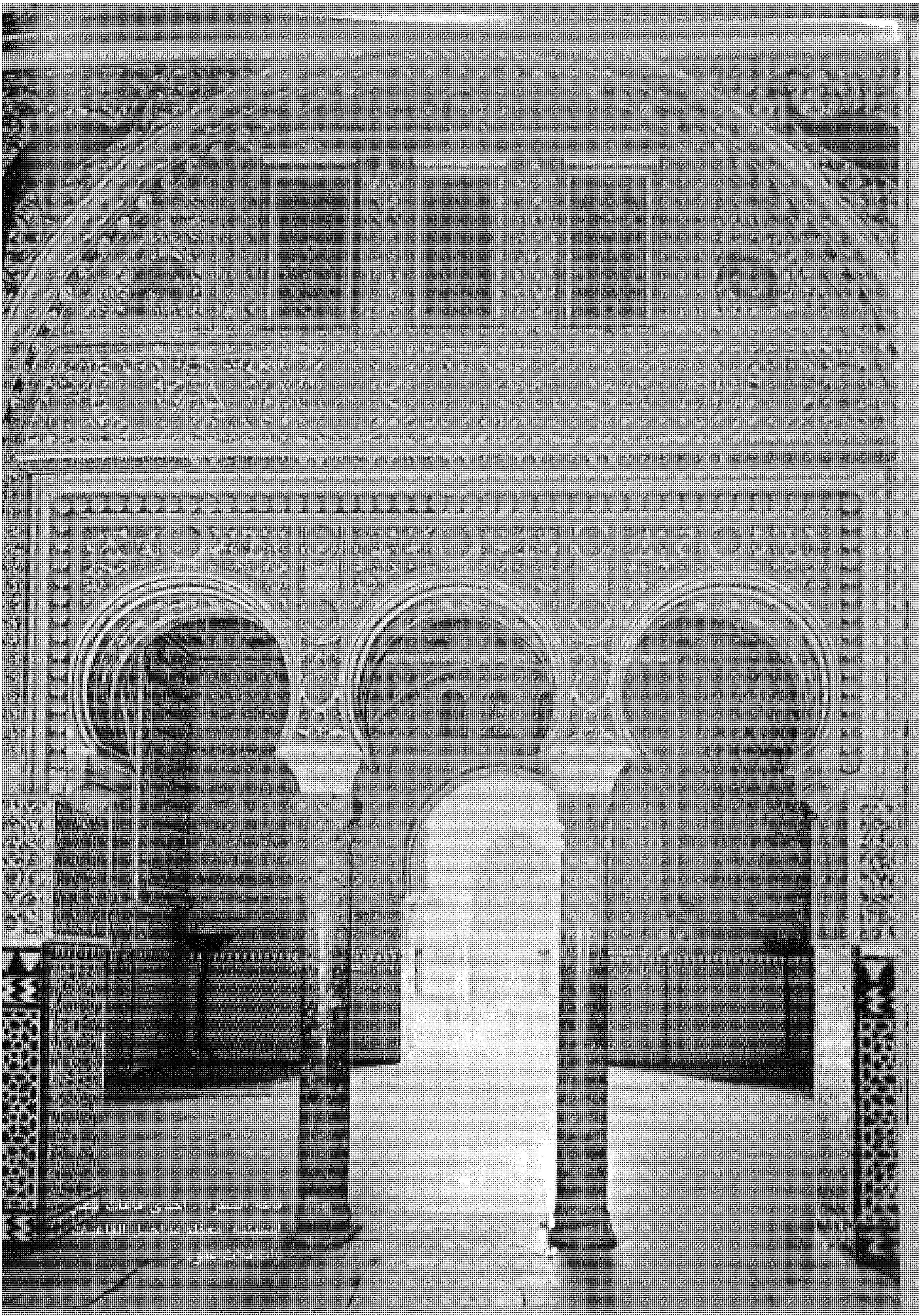
بشارة إشبيلية المشهورة بها في الدنيا هي الدوارة أو لاخيرالـدا، وهي مئذنـة مسجدهـا الجامع الثاني الذي بني أيام الموحدين في العصور الإسلامية. حيثمـا نظرت رأيتهـا. ها هي تطل عليك من بعيد وأنت على شاطىء الوادي الكبير عند كوبري (قنطرة) فقرينة.



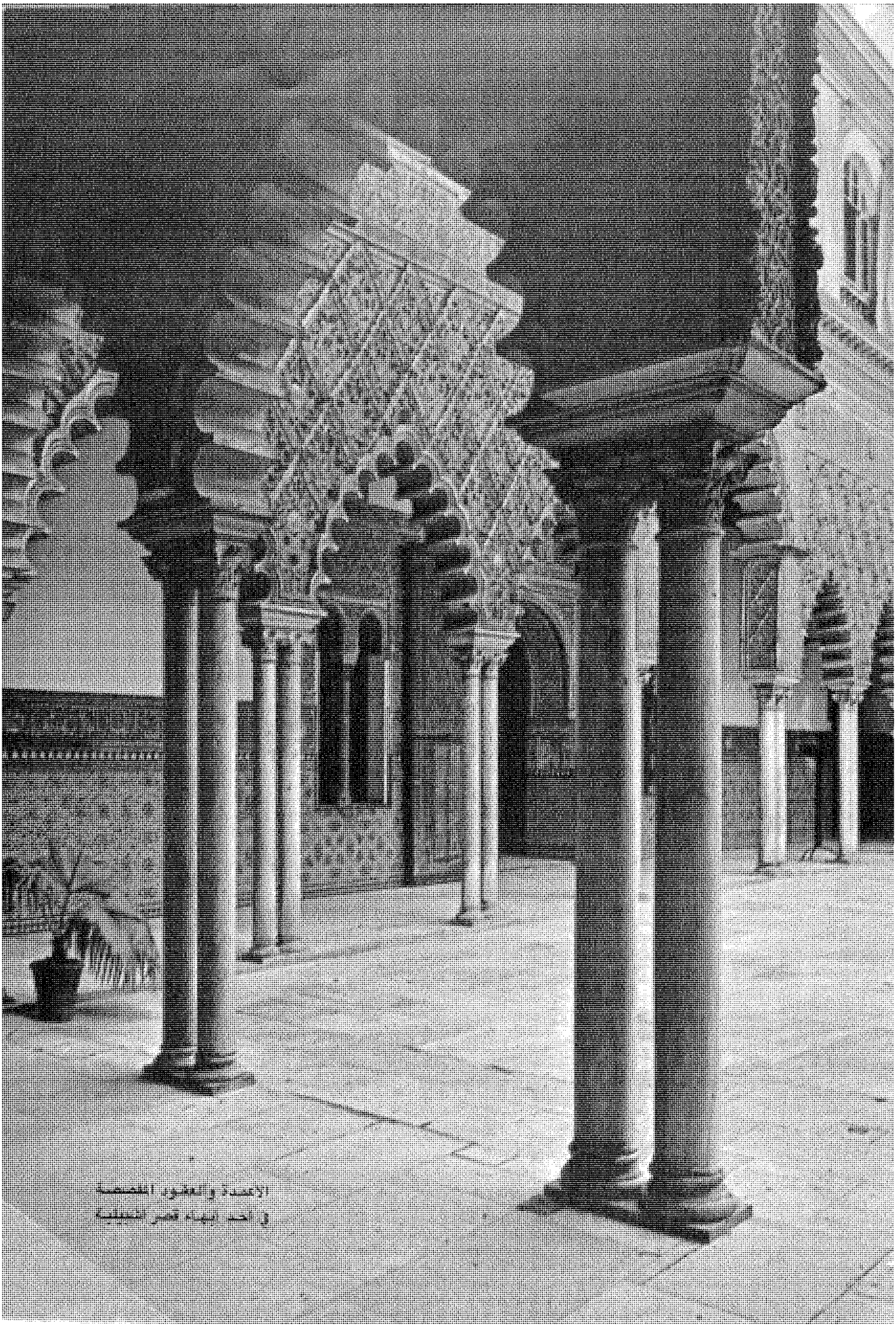
بنيت كنيسة اشبيلية على كل مساحة المسجد الجامع الموحدي والخيرالدا الباقية إلى اليوم كانت مئذنة الجامع، وما من قطع اخرى من عمارة الجامع باقية: باب الرحمة من ابواب الجامع يطل على صحن البرتقال El plato de los Naranjos



إلى جوار الكاتدرائية والخيرالدا تجد قطعة من جدار الجامع، رممت على نفس هيئتها لتكون جزءاً من مدخل قصر إشبيلية. ترى المدخل هنا مطلياً بالأحمر وعليه رمز ملوك قشتاله وليون.



قاعة السفراء، إحدى قاعات قصر
إشبيلية، تتخلله مداخل القاعات
ذات ثلاث عقود

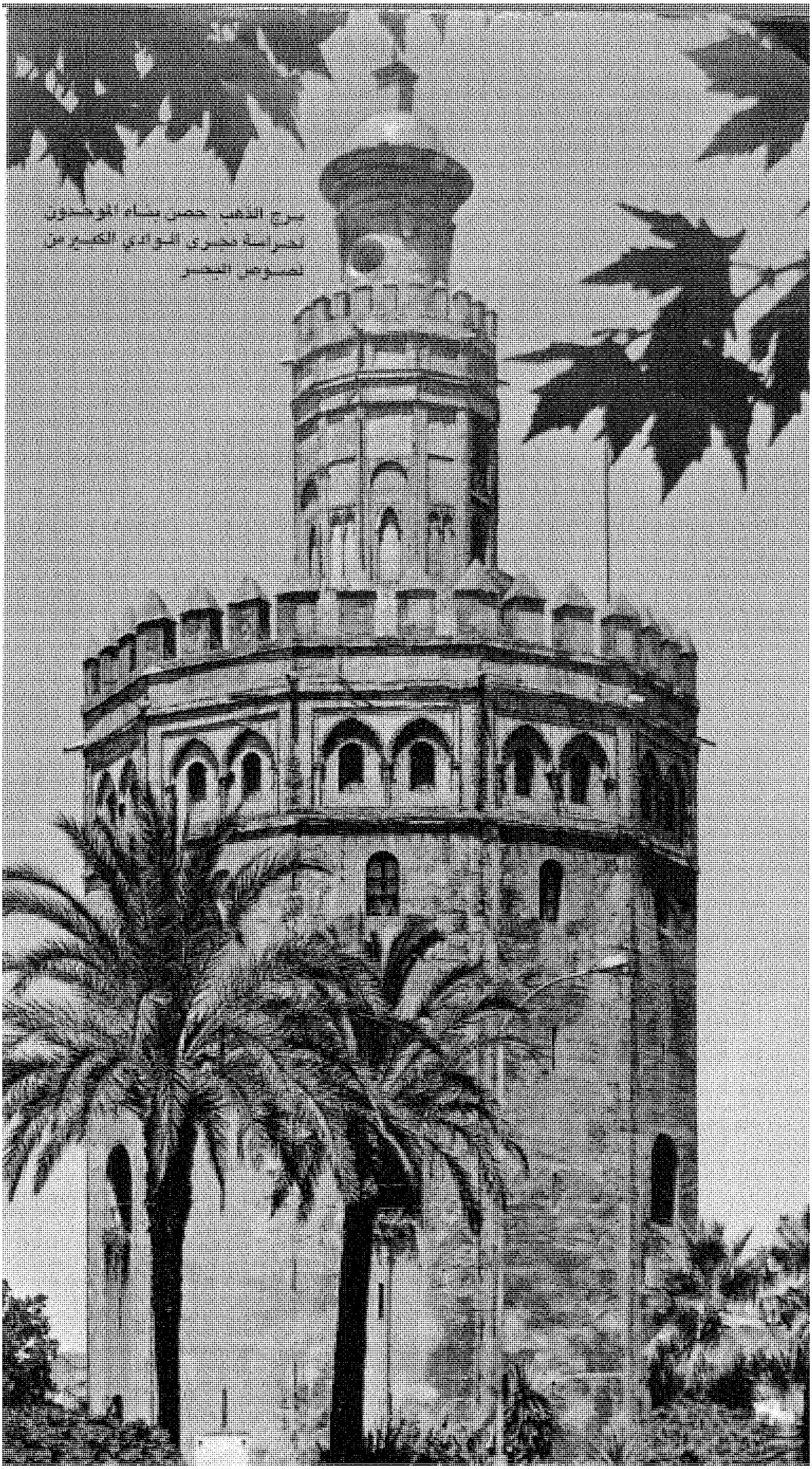


الأعمدة والعقود المفصصة
في أحد أبهاء قصر اشبيلية





مشهد بديع من سلالم قصر


برج الذهب، حصن بناه الموحدون لحراسة مجرى الوادي الكبير من لصوص البحر

ويشهد التاريخ بأن العرب بذلوا فى الدفاع عن إشبيلية وبقية الأندلس أقصى ما يستطيعه حَولُ البشر ، ألوف بعد ألوف استشهدت فى هذا الدفاع .

دافعوا وجاهدوا واستشهدوا ، فإذا كان التوفيق لم يكتب لهم فذلك قدر الله المكتوب ، وسبحانه يُجرى على عباده ما يشاء . .

ولقد جرى فى تقديره أن تخرج إشبيلية من دار الإسلام فى الثالث والعشرين من نوفمبر ١٢٤٨ ؛ وهو وارث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين . .

وبعد أن خرجت إشبيلية من أيدينا ، شهدت — من القرنين الخامس عشر إلى آخر السابع عشر — شيئاً جديداً لم يكن فى الحسبان . .

لقد اكتُشف العالم الجديد ، وخرج الألوف بعد الألوف من الإسبان إلى ذلك العالم الذى تفتحت أبوابه فجأة يطلبون الغنى والجاه . .

وكانت إشبيلية الباب الكبير الذى خرجوا منه . .

لم تشهد مدينة من الحركة ما شهدته إشبيلية خلال هذين القرنين . .

ألوف تأتى من شتّى نواحى إسبانيا والبرتغال ، وتقيم فى البلد أياماً ريثما يحل موعد الرحيل ، ولهذه الألوف أقيمت الفنادق والخانات والأسواق . .

واتسع الميناء ، وكثُر بناة السفن والنجارون والحدادون وكل من له صلة بأعمال السفن والبحار . .

ومع هؤلاء أتى أهل الأسواق أخلاطاً من كل مكان . .

ومع كل مركب عائد من أمريكا أقبل مال كثير وذهب كثير . .

وأزهر البلد وراجت أحواله حتّى أصبح من أغنى بلاد أوروبا . .

وأقبل الناس على البناء ، هدمت أحياء قديمة بأسرها وقامت أحياء جديدة ، وما أهلّ القرن الثامن عشر حتّى كانت إشبيلية القديمة قد تلاشت آثارها . .

ولهذا فإنك لا تجد اليوم فى ذلك البلد إلا القليل من آثارنا . .

وخلال القرن التاسع عشر سكنت ريح الهجرة وقل النشاط ، وأصبحت إشبيلية مقاماً محبباً للملوك وأهل الغنى واليسار ، وأنشئت فيها حدائق واسعة هي حدائق الملكة ماريا لويزا وهي من أجمل رياض إسبانيا . .

وإشبيلية اليوم تتجدد مرة أخرى . بعد حركة الإنشاء والبنيان على غير نظام جاء عصر تخطيط المدن وهندسة الشوارع والميادين . .

وبهذه الحركة الجديدة يختفى كل يوم — أكثرَ فأكثر — ما كان قد بقى من معالم البلد القديم . .

وجدّت للبلد أمجاد جديدة ولدت فى تلك العصور . .

فهنا عاش ، ورقد رقدته الأخيرة ، كريستوف كولومبوس . .

وهنا أيضاً ظهر اثنان من أكبر رسامى إسبانيا : بيلاسكيث وموريّو ..

وحول إشبيلية كان قلب الأندلس الحقيقى . كل بقعة هنا كانت عربية ، وكل بلد أو قرية نمر عليها فى طريقنا من قرطبة إلى عروس مدائن الأندلس لها فى تاريخنا السياسى والفكرى ذكريات . ما من قرية أو بلد إلا وقد أطلع عالماً أو أديباً . خذ كتاب « المُغرب فى حلى المَغرب » وانظر فصل إشبيلية وإقليمها تدهش لعشرات الأعلام الذين أطلعتهم إشبيلية ، ورصعت بهم تاريخنا الأدبى المجيد ، هناك على المحيط الأطلسى ، على آلاف الكيلومترات من مهد العروبة . ذلك أعظم شاهد على قوة العنصر العربى المجيد وحضارته التى طوت الأرض كأنها بساط . .

* * *

البلد ضخم يمتد عشرات الكيلومترات . إنه رابع بلاد إسبانيا بعد مدريد وبرشلونة وبلنسية . . سكانه ٥٠٠ ألف . عدد مبانيه — إن كان ذلك يهمك — ٢١,٠٠٠ بيت ، وعدد ميادينه ٤٨ .

يسمونها مدينة الميادين . كل ملتقى شارعين يسمونه هنا ميداناً . .

ولكن الذى يهمنا من البلد — ويهم كل السائحين — قطعة صغيرة فى

جنوبها تقريباً يتوسطها ميدان يسمى ميدان النصر (تريومفو) . .

حول هذا الميدان الصغير يتجمع كل ما يهمنا : قصر إشبيلية البديع ، الكنيسة الكاتدرائية ، منارة الخيرالدا ، دار محفوظات الهند الغربية . وعلى مقربة منه قصر بيلاتوس ، شارع سيْيرْبِيس ، كنيسة السلفادور ، برج الذهب ، حي سانتا كروث . .

هنا فى هذا الجزء بالذات كانت إشبيلية العربية . على الضفة الأخرى من النهر كانت تقوم طريانة ضاحية إشبيلية .

نبدأ بالكنيسة ، فهى تقوم بالضبط فى موقع مسجد إشبيلية الجامع ، شقيق جامع قرطبة العظيم . .

لا يمكن أن تتصور ضخامة هذه الكنيسة . كتلة هائلة من الحجر تحتل قلب البلد كله . حيثما اتجهت وجدتها أمامك ، ولا بد أن تدور حولها . إنها تحتل ٨٨١٦ متراً مربعاً ، أى فدانين . يقولون إنها ثانية كنائس العالم بعد كنيسة القديس بولس فى روما . ما رأيت زائراً أطاق البقاء داخلها دقائق : ظلام رهيب ، أعمدة هائلة من الحجر تبدو لك وكأنها أشباح ، صور وتماثيل شاحبة تقرأ فى وجوهها الرغبة فى الفرار إلى النور . حتى قبر كريستوف كولومبوس أقاموا فوقه مجموعة نحتية رهيبة : أربعة رجال من الحجر بالحجم الطبيعى يحملون نعش المكتشف العظيم . .

وكل شيء ملبّس بالذهب ، ذهب حقيقى : رءوس الملائكة والقديسين والأنبياء والأعمدة . على كل خطوة مصلى يكاد يهبط بما يثقله من ذهب . هنا تتكدس تلال من ذهب أمريكا . الإسبان أتوا من أمريكا بأضعاف ما أتى به الإنجليز من الذهب . الإسبان وضعوه فى الكنائس وتجمد هناك . الإنجليز تاجروا به . الفرق بين التصرفين يعطيك الفرق بين التاريخ الاقتصادى لكل من البلدين . .

ولماذا أقاموا هذا البناء الهائل كله ؟

السبب أنهم أرادوا أن يخفوا كل أثر للجامع العربى الشهيد . .

هنا ، وعلى هذه المساحة كان يقوم مسجد إشبيلية الجامع . .

إذا شئت قلت إن هذه الكنيسة الهائلة تجثم على رفات مسجد عظيم ، مسجد لا يقل عن مسجد قرطبة رواء أو فخامة ، ولو عاش لكان مجداً من أمجاد العمارة فى تاريخها كله . .

وما دمنا نزور الأندلس العربى ونجدد ذكره ، فلنستعد صورة هذا المسجد العربى الجليل ، وإذا كان الزمان قد اعتدى عليه وغاله ، فليس من الإنصاف أن نعين الزمان عليه ونتناساه . .

وسنأتيك بأطراف من وصفه المفصل كما حفظه لنا أبو مروان بن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين .

كان البادئ بتعمير إشبيلية أيام الموحدين خليفتهم الثانى يوسف بن عبد المؤمن بن على .

فى سنة ٥٦٦ / ١١٦٠ أنشأ لإشبيلية « القنطرة العظيمة الهندسية الممسوكة بالمراكز المؤسسة » ، والمراد هنا جسر من القوارب يصف بعضها إلى جوار بعض ، وتثبت على مسافات محسوبة بقواعد من الحجر راسية فى قاع النهر ، وعلى القوارب توضع ألواح من الخشب فتصبح وكأنها طريق ، وتقام لها حواجز على الجانبين . وكان افتتاح هذه القنطرة سنة ٥٦٧ ــ ١١٦٠ ، وكانت تقوم فى موضع الكوبرى المعروف اليوم باسم إيزابيلا الثانية بين إشبيلية وطريانه .

وابتنى يوسف بن عبد المؤمن لنفسه قصوراً فى الطرف الجنوبى من إشبيلية ، عند باب من الأبواب الباقية من سورها القديم يسمى اليوم باسم الباب الملكى « پويرتا ريال » وكان فى أيامنا يسمى باب جَهْوَر .

وأنشأ حول القصر حدائق واسعة عرفت باسم البحيرة ، والبحيرة فى المصطلح الأندلسى هى الحديقة الواسعة . .

وكان لإشبيلية إذ ذاك مسجد جامع مشهور هو جامع عمر بن عَدَبَّس، بناه عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٤ / ٨٣٠ ، وكان من أعظم مساجد الأندلس جلالا وبركة .

وقد زال هذا الجامع ، ومكانه اليوم كنيسة السلڤادور . .

ورأى يوسف بن عبد المؤمن أن المسجد الجامع القديم لم يعد يفى بحاجات أهل إشبيلية ، فقرر بناء مسجد جديد يضاهى مسجد قرطبة .

اختار الموضع الذى تقوم عليه الكاتدرائية اليوم ، وعهد إلى أكبر مهندسى عصره أحمد بن باسة فى وضع تصميم المسجد ، وأقام للإشراف على البناء نفراً من رجاله نذكر منهم أبا داوود يلول بن جلداسن ، وكان « مشرفاً على الأعمال » ، أى أشبه بوزير الأشغال اليوم ، وعاونه فى العمل أبو بكر بن زهر وأبو بكر الميناقى وعبد الرحمن بن سعيد العنسى .

كانت مساحة الجامع كمساحة مسجد قرطبة الجامع ، وإليك قطعة من كلام ابن صاحب الصلاة تعطيك فكرة عن عظمة هذا الجامع ، أنقلها بلفظه الذى لا يخلو من طرافة :

« . . . واهتبل العرفاء (أى اجتهد المهندسون) واستعرفوا وتحذقوا فى بناء القبة التى على محرابه أعظم الاهتبال فى العمل بصنعة الجبس والأقباء بالبناء ونجارة الخشب بغاية الاحتفال . وابتنوا عن يسار المحراب ساباطاً فى الحائط (أى قنطرة فوق الطريق تؤدى من القصر إلى أحد أبواب الجامع) يمشى فى سعة فيه الماشى — مُعدًّا لخروج الخليفة عليه من القصر إلى هذا الجامع لشهود صلاة الجمعة . . وعلى يمين المحراب أقباء فى حائط الجامع معقود بالبناء لكون (أى ليوضع) المنبر فيه عند إخراجه للخطبة وإدخاله فيه . وصُنع هذا المنبر من أغرب ما قدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة ، اتخذ من أكرم الخشب مفصلا منقوشاً مرقشاً محكماً بأنواع الصنعة والحكمة فى ذلك، من غريب العمل وعجيب الشكل والمثل ، مرصعاً بالصندل ، مجزعاً بالعاج

والأبنوس ، يتلألأ كالجمر بالأشغال وبصفائح من الذهب والفضة ، وأشكال في عمله من الذهب الإبريز يتألق نوراً ، ويحسبها الناظر لها في الليل البهيم بدوراً . ثم أردفت له بالعمل المقصورةُ من أحسن الخشب مختصرة من قصبة وثيقة لحجبه (أي يحيط بها سياج من خشب وثيق ليحميها) وكان الخليفة يتطلع بناءه (أي يراقب سير العمل) . . . حتى انكملت جهاته الأربع بالبناء وعقد الأقواس منه بالأقباء ، وكمل بالتسقيف . . . فكانت المدة في بنائه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً قمرياً » .

وقد تم بناؤه في ١٤ شعبان سنة ٥٧١ (٢٨ فبراير ١١٧٦) .

وكان صحنه أيضاً قسمين : قسما مسقوفاً وقسما غير مسقوف . .

وكما رأيت في قرطبة كان في الصحن المسقوف أشجار برتقال ، ولا زالت بقية من ذلك الصحن قائمة خلف الكنيسة تراها إذا وقفت وراء الكنيسة على مقربة من برج الخيرالدا ، وتسمى أيضاً بهو أشجار البرتقال (باتيو دى لوس نارانخوس) .

وكانت أول جمعة صُليت فيه في ٢٤ ذي الحجة ٥٧٧ (أول مايو١١٨٢).

هذا هو المسجد الشهيد ، الذي تقوم على رفاته الكاتدرائية . .

واحد من ألوف كانت تعمر بها الأندلس . .

* * *

لم يكن هذا المسجد ، الذي تقوم فوق أطلاله الكنيسة — كما قلت — أقدم ولا أحسن مساجد إشبيلية . لأن أعظمها كان مسجد ابن عَدَبَّس ، وقد بناه عبد الرحمن الأوسط ، وتأنق فيه كما تأنق في الجزء الذي بناه من جامع قرطبة . . .

وقد زال هذا الجامع أيضاً من الوجود . وتقوم مكانه اليوم كنيسة السلفادور الواقعة بين ميداني الخبز (بلاثا دل بان) والسلفادور قريباً من الكاتدرائية . .

كان هذا المسجد الجامع القديم معظماً عند مسلمي الأنـدلس جميعاً، وله في التاريخ كرامات كثيرة، فقد حاول النورمان ـ المعـروفون بـالمجوس ـ إحراقه مرتين. وجـدده خليفة المـوحدين أبـو يعقوب المنصـور سنة ١١٩٥. وعنـد ما سقـطت إشبيلية في يـد فرنـاندو الثـالث سنة ١٢٤٨ (بعـد سقوط قرطبة باثنتي عشرة سنة) حوله إلى كنيسة. ثم هدم وأعيد بناؤه فيما بين سنتي ١٦٧٤ و١٧١٤، ولم يبق من الجامع الجليـل إلا قاعـدة مئذنتـه، وهي اليوم برج الكنيسة . .

ولم يبق من المسجد الجامع الموحِّدى إلا مئذنته . .

لا أظن أن المسلمين أقاموا فى تاريخهم مئذنة أروع من هذه . . ارتفاعها فى الهواء ٩٦ متراً ، وطوابقها سبع . ومن العجيب أنك تصعد فيها دون سلم ، بل على ممر منحدر رفيق تسير عليه دون مشقة ، وهذا المصعد يدور مع الجدار الداخلى حتى أعلاه .

وكلما درت مع الجدار دورة كاملة وجدت شرفة عربية بديعة تكشف لك جزءاً من البلد ، فإذا وصلت إلى الشرفة السابعة وجدتها أشبه باسپلاناد واسع تشرف منه على كل إشبيلية وسهلها . .

وبعد ذلك كانت ترتفع المئذنة ، وكان فى أعلاها ثلاث كرات ضخمة ــ تسمى التفاحات أو التفافيح ــ مغطاة بطبقة سميكة من الذهب كانت تتألق من بعيد . كان ملوك الإسبان يقتربون إذ ذاك من إشبيلية شيئاً فشيئاً ونظرهم مثبت فى هذه الكرات الذهبية الرائعة التى كانت تبدو لهم فى ضوء القمر وكأنها نجوم فى الفلك . لقد صنعها ورفعها إلى موضعها على ارتفاع ٩٦ متراً المعلم أبو الليث الصقلى .

وبعد سقوط إشبيلية وقع زلزال كسر المئذنة ، فاستعاض عنها الإسبان بدوارة تبين اتجاه الرياح ، ومن هنا سميت المنارة كلها : الخيرالْدا ، أى الدوارة . .

* * *

وكما رأينا فى قرطبة ، كان قصر حكام إشبيلية العرب يقع فى مواجهة الجامع ، فى الناحية الجنوبية من ميدان تريومفو . .

يغلب على الظن أن أول من بنى هذا القصر وسكن فيه هو عبد العزيز ابن موسى بن نصير ، وتعاقب عليه حكام العرب حتى إذا أصبحت إشبيلية قاعدة مملكة بنى عباد أصبح القصر دار ملك .

ثم سقطت إشبيلية فى يد فرناندو الثالث سنة ١٢٤٨ .

وكان بنو الأحمر إذ ذاك جادين فى بناء الحمراء وقصورها فى غرناطة، فرأى منافسوهم سادة إشبيلية أن يبنوا لأنفسهم فى إشبيلية قصراً يضارع الحمراء . فهدموا القصر القديم ، واستقدموا عمالا من غرناطة ليبنوا لهم قصراً عظيما . .

وعمال العرب الذين بنوا هذا القصر وأمثاله يعرفون بالمُدَجَّنين ، أى الذين دَجَنُوا (أقاموا مكانهم) تحت سلطان الغالبين ، وقد ابتكروا فناً عظيما مزجوا فيه بين الطراز الأندلسى والطراز المغربى والطراز القوطى ، وأخرجوا من هذا كله ذلك الطراز المعمارى الوحيد الذى أضافته إسبانيا إلى تاريخ الفن المعمارى فى تاريخها الطويل . .

والمعالم المميزة لهذا الطراز هى الأقواس المدببة من أعلاها ، تعتمد على أعمدة رخامية رفيعة كأنها أقلام الرصاص ، وقد توضع اثنين اثنين لتحتمل ما فوقها . ويمتاز كذلك بالزخارف الجصية أو المنحوتة فى الحجر التى يحار فيها النظر ، والكتابات الزخرفية التى يذهب فيها الفنان مع ابتكاره إلى مداه .

هذا القصر — أو الكاثار — يتألف من قاعات وأبهاء يلى بعضها بعضاً فى تناسق هو أقرب إلى السحر . فى بعض الأحيان تقف وأمامك أربع بوابات أو خمس يلى بعضها بعضاً فتتصور أنك فى قاعة مرايا . .

وكل قاعة تحمل اسما : العرائس ، السفراء ، الآنسات ، ملوك العرب ، فيليپ الثانى ، وما إلى ذلك . .

وهو يتكون من طابقين ، والطابق الأرضى هو الأجمل . وكان ملوك إسبانيا ينزلون فيه إذا قدموا إلى إشبيلية ، وملك إسبانيا اليوم ينزل فى بعض أجنحته أيضاً فى الدور الثانى .

ومن أبدع ما ينفرد به هذا القصر هي السقوف البديعة التي تقوم فوق قائمات الدور الأرضي . انها أجمل مجموعة سقوف عربية منقوشة ملوّنة في الدنيا، وقد طالما تمنيت لو استطعنا تصويرها وعمل اطلس بها .

وحدائق هذا القصر تحفة من التحف، تشم وأنت تتمشى فيها رائحة البرتقال والريحان، وقد حرفوا اسمه إلى «الرِّيّانِس» . .

هذا القصر بنته الحضارة العربية وحدها ، دون ملك أو سلطان، بناه إخوان لنا مساكين في ظلال الحزن والأسر، ونقشوا بأيديهم للسيد الإسباني كتابات مثل: عز لمولانا السلطان بدر (أو بِضْرُه، وهو پدرو القاسي . .) . و«النعمة الشاملة» و«الملك لله وحده» . .

نعم، لله وحده الملك! نقشها الفنان العربي الأسير بالدموع . .

* * *

خلف هذا القصر يقع حي سانتا كروث. لا يُعرف كيف كان يسمى أيام العرب. حي عربي كامل يذكرك بأحياء المدن المغربية: حوار وأزقة متعرجة. نوافذ البيوت تكاد تتلاقى. في بعض الأحيان يمد الرجل يده فيقطف زهرة نابتة على شباك جاره. البيوت بيضاء ناصعة، تحليها الزهور. . .

تسير في هذه الحواري والأزقة كيف شئت. يخيل إليك في بعض الأحيان أنك لن تخلص منها أبداً. تذكرني «بزنقة السبع لويات» في مدينة فاس . .

وبمناسبة «زنقة السبع لويات» . .

غير بعيد من الكاتدرائية تجد شارع سْيِربِس - أو اللويات أو المنحنيات - إنه أشهر شوارع إشبيلية. خان الخليلي في أقصى البحر الأبيض

المتوسط. أسائل نفسي كلما سرت في هذا الشارع ورأيت التجار: لماذا لا يلبسون العمائم؟ . .

هنا تجد كل طريف من التحف، والمطاعم فيها كل شهي. تجد المطعم صغيراً فتحسب أنك لن تجد فيه غير الشطائر، فإذا أخذت مكانك قدموا لك قائمة طعام في طول ذراعك، تحتاج إلى نصف ساعة لتختار منها ما تريد. .

لم يبق من إشبيلية التي تهمنا غير برج الذهب. أحد أبراج الحراسة التي أقامها العرب على ضفاف الوادي الكبير لرد الغزوات من ناحية البحر. . برج هائل يشبه مئذنة جامع ابن طولون. كان الفارس يصعد بفرسه إلى قمته. .

* * *

ليست هناك إشبيلية واحدة، بل اثنتان. .

الأولى هي إشبيلية طول العام، هادئة ساكنة كغيرها من بلاد الله. .

في شهر مارس يلبس البلد ملابس الحداد أثناء ما يسمى بالأسبوع المقدس. .

شيء رهيب. . .

ابتداءً من «أحد السعف» ولمدة أسبوع تتحول إشبيلية إلى مأتم مقبض حزناً على السيد المسيح. شرفات الكنائس تغطى بشارات الحداد. أجراسها تدق أنغام الموت رتيبة وئيدة بالليل والنهار. مواكب تقطع البلد كأنها قوافل تائهة في صحراء: صامتة حزينة تتقدمها صفوف من رجال مقنعين يلبسون قلانس طويلة سوداء وبنفسجية وبيضاء كأنهم جماعة الكو كلوكس كلان. كل موكب يحمل تمثال للسيدة العذراء. مئات من تماثيل السيدة العذراء من الشمع أو الخشب تراها محمولة على عروش. بعض المواكب تمثل مسير المسيح الأخير في طريق الآلام على مذاهب المسيحيين. بعض الرجال يمثلون المسيح: يسيرون حفاة الأقدام مكبلين يحملون صلباناً كأنها أثقال، والناس تركع عند مرور المواكب. .

شيء رهيب . . .

وينتهي الأسبوع المقدس . . وبعد بثلاثة أسابيع يبدأ الأسبوع البهيج . . .

أسبوع الرقص والغناء والطرب والشراب والطعام . . .

البلد كله يتحول إلى مولد . . .

وفي حديقة واسعة قرب حدائق ماريا لويزا تبنى مدينة كاملة من كابينات خشبية . كل أسرة موسرة ، كل هيئة ، حتى القنصليات ، تتخذ كابينات . .

وعلى ذلك كله يضفون بحراً من النور . .

وفي هذه الكابينات ـ التي تسمى كازيتّات ـ يدور الرقص . الناس ـ من السابعة إلى السبعين ـ يرقصون بالملابس الإشبيلية الجميلة . .

وبالنهار مواكب فرسان يردفون وراءهم أمازونات . .

بعد الحداد يجيء جنون المرح كما تفعل الأرملة الطروب . .

أرملةُ مَن إشبيلية؟

أرملة أولئك الرجال الذين جعلوا لها مكاناً في التاريخ ، ثم غالتهم أحداث الزمان . هناك أغنية شعبية كان أهل إشبيلية العرب يغنونها تقول :

إشبيلية عروس وبعلها عبّاد . .

وعباد هو الملك الشاعر المعتمد . لم تطرب بلد كما طربت إشبيلية أيام المعتمد . . .

ولم تبك بلد كما بكت إشبيلية يوم بارحها المعتمد في طريقه إلى المنفى . .

* * *

ولو أتيحت لك فسحة من الوقت استطعت أن تأخذ مركباً إلى جزر الكناريا س . .

مجموعة من الجزائر قرب الشاطىء الإفريقي مقابل جنوبي المملكة المغربية، في مواجهة منطقة إيفنى تماماً. .

إذا وصلت إليها أحسست كأنك في جنة الخلد، فلا غرابة أن سماها العرب جزائر الخالدات. .

احتلها الإسبان في القرن السادس عشر. لم يجدوا فيها إلا قبيلا من أهل المغرب ـ دون شك ـ يسمون الجوانشي. كانوا قوماً طوالاً عراضاً، ولكنهم بادوا، وليس هناك اليوم إلا الإسبان. . ولهذا فهي جزء من إسبانيا. . .

وقد عرف الإسبان كيف يحيلون هذه الجزر إلى جنة حقاً.

إنها بعيدة هناك وراء البحار السبعة كما يقولون، لا يكاد يروعها شيء من متاعب أهل الدنيا. تصور أن نفراً من أهلها لم يعلموا بأن الحرب العالمية الثانية قامت وقعدت! . . مرت بعيداً عنهم، كأنها زوبعة في بحار الصين. . لا شعروا بحرب ولا أحسوا بضرب. .

وفي هذه الجزائر نفر من إخواننا العرب. .

إنهم مهاجرون جدد، معظمهم كانوا في طريقهم إلى أمريكا، ثم أعجبتهم هذه الجزر فحطوا رحالهم فيها، ووفقهم الله إلى ما يصبون إليه من مال ورخاء. . وهم هناك يتسمعون أخبارنا ويستمعون إلى إذاعاتنا ويبعثون في طلب كتبنا من القاهرة ودمشق وبيروت. .

إذا وقفت بك الباخرة أو الطائرة مرة في ميناء لاس پالماس (أى النخل) أو ميناء سانتا كروث فالتمس هؤلاء الإخوة وراء الأمواه، واحمل إليهم تحية الأوطان وآلها، واحمل عنهم تحية إلى أوطان رحلوا عنها وحملوها في قلوبهم.

ولا تلتمس هناك عصافير الكناريا. . فقد هاجرت كلها، فيما يبدو. . تركت فضاء الله في جنة الخلد لتعيش في الأقفاص.

غرناطة، المعقِل الأخير..

لو أننا قصدنا من إشبيلية إلى غرناطة فى رفقة واحد من رحالتنا الأدباء من أهل الأندلس أمثال إبراهيم الحِجارى، أو على بن سعيد، أو أبى الحسن ابن جُبير لما قطعنا هذه المسافة — ٢٥٧ كيلو متراً — فى أقل من شهرين، لأنه كان لا بد مستوقفاً إيانا عند كل قرية أو بلد نمر بهما ويقول: هذا بلد فلان الذى قال . . . . وفلان الذى أنشد . . . . ويمضى يرتل ما حفظ، وما أكثره!

إذا كنت تريد أن تأخذ فكرة عن الخصوبة الفكرية الأدبية للأرض التى نمر بها فى الطريق من إشبيلية إلى غرناطة فما عليك إلا أن تجرى بصرك فى بضع صفحات من كتاب «الإحاطة فى أخبار غرناطة» للسان الدين بن الخطيب آخر الشعراء والعلماء الموسوعيين الذين أطلعهم الأندلس، أولئك الذين تشعر وأنت تقرأ لهم أنهم حملوا تراث العرب الفكرى كله فى صدورهم، لا يغيب عنهم اسم شاعر ظهر فى قرية نائية مما وراء سيحون وجيحون، ولا يند عنهم بيت شعر استشهد به التبريزى فى شرحه للمعلقات السبع أو لفظ غريب استعمله أبو الطيب فى إحدى قصائده .. أو تتأمل فى كتاب «المُغرب فى حلى المَغرب» لأبى الحسن على بن سعيد الذى حمل تراث الأندلس الثقافى فى قلبه ومضى به إلى المشرق يحدث الناس بآياته من تونس إلى العراق . .

ستجد وأنت تتصفح هذين الكتابين أن الطريق من إشبيلية إلى غرناطة

ـ ككل ما قطعناه إلى الآن من طرق الأندلس ـ إنما هو طريق علم ونور ، فما من قرية نمر بها إلا أطلعت العالم والعالمين والشاعر والشاعرين وما فوق ذلك حتى ليحدثوننا أن الفلاحين فى حقول الأندلس كانوا يقولون الشعر أو يطربون له على الأقل ، وتلك آية من آيات الحضارة العربية الباهرة : هذه القوة الدافعة التى حملتها فى كيانها حتى لتجدها فى أطراف عالم الإسلام ، فى سهول الهند أو جزائر إندونيسيا وفى سواحل الأطلسى عند شواطئ إسبانيا والبرتغال والمغرب العربى فى نفس القوة التى تجدها بها فى القاهرة وبغداد ودمشق . وقد لمس أرنولد توينبى هذه الحقيقة وأشاد بحيوية الحضارة العربية فى دراسته التاريخية المعروفة ، ونحن حريون بأن نتناول الموضوع بمزيد من التفصيل ، فهذا ـ أعتقد ـ مجدنا الأكبر ، وعمادنا فى الحاضر والمستقبـــل .

فإذا لم يتسع وقتك لصحبة هذه الكتب ، فعندك معجم البلدان لياقوت الحموى ـ وهو مجد من أمجاد تاريخنا الفكرى ـ فابحث فيه عن أسماء ما تمر به من المدن والقرى ، وانظر من أطلعت من أهل الفكر والأدب . . انظر قلعة وادى إيرُه (ألكالا دى جواديرو) ، الرَّحْل (الراهال) ، أشُونة (أسونا) ، اسْطَبَّة (استيبا) ، الرويضة (رُويدا) ، أنطكيرة (أنتيكيرا) ، أرشذونة (أرشيدونا) ، لُوشة (لوخا) ، إلى آخر هذه المعالم التى تخطف بك السيارة ماراً بها وأنت مسرع تتعجل الطريق إلى غرناطة . . .

ولكننا متعجلون ، والشعر زاد الهادئ المتئد خلى البال ، وأين نحن من خلو البال ! إننا نرى الدنيا على خريطة ، ونزور المدن فى بطاقات بريد ، ونلم بالتاريخ فى أفلام يصنعونها هناك فى هوليوود . .

المهم أن تذكر أننا نمضى الآن على آخر خط دفاع كان قد بقى للأندلس فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى . ضاعت آندوخر (١١٥٥) وقرطبة (١٢٣٦) وجَيّان (١٢٤٦) وقَرْمُونة (١٢٤٧) وإشبيلية (١٢٤٨)

وغيرها من قواعد خط الوادى الكبير. انكشفت جبهة الأندلس على طولها ، وتجمعت قوى ممالك إسبانيا لتضرب الضربات الأخيرة . شجعها على ذلك أن قوى الموحدين كانت قد انحسرت بعد هزيمتهم فى معركة « العِقاب » المعروفة باسم لاس ناڤاس دى تولوسا (١٢١٢) . .

حوالى سنة ١٢٥٠ كان يبدو أن أيام العرب فى الأندلس أصبحت معدودات . .

ولكن هذه البقية الصغيرة من المجد الذاهب قاومت — مع ذلك — قرنين من الزمان . السبب فى ذلك يرجع إلى الطبيعة الجغرافية للإقليم الذى أصبح معقلهم الأخير ، ويرجع كذلك إلى حيوية الجنس العربى التى لا تنفد . ففى هذا العصر الأخير بالذات أنشأ العرب شيئاً لا نظير له جمالا وروعة : قصور الحمراء ، وأطلعت أرومتهم علماء وأدباء وشعراء ، يكفى أن نذكر منهم لسان الدين بن الخطيب .

ويرجع السبب — أخيراً — إلى اختلاف ملوك إسبانيا فيما بينهم ، كلما شدوا علينا وتقدموا شبراً اختلفوا فيما بينهم ، وتنفَّسنا . .

وكان من الممكن أن نتنفس إلى اليوم . .

ولكن علتنا الكبرى الاختلاف والحسد والحقد بين الرؤساء . . .

هذه الحيات التى تأكل القلوب قتلتنا . وضعنا الخنجر فى قلوبنا بأيدينا ، و « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . . .

* * *

ولكن مدينة واحدة من هذه التى نمر عليها فى طريقنا إلى غرناطة لم تكن عربية . كانت القاعدة التى صُوبت منها الضربة القاضية إلى الحصن الأندلسى الأخير . تلك هى « سانتافى » أو «شَنْتَفِى» كما تكتب فى نصوصنا العربية . بناها فرناندو وإيزابيلا فى أواخر ١٤٩١ ليديرا منها معركة غرناطة الأخيرة . .

بينها وبين غرناطة نحو تسعة كيلومترات ، وتستطيع أن تقسم أن كل شبر من هذه المسافة قد روى من دماء المجاهدين الذين قاموا بالدفاع الأخير عن غرناطة أكثر مما روى من مياه الأمطار . فقد دافعت غرناطة قبل سقوطها دفاعاً رهيباً ، واستشهد فى ميدان الشرف من أهلها ألوف بعد ألوف ، واحتفظت لنا الروايات بأسماء أبطال نحن جديرون بأن نقيم لكل منهم تمثالا ارتفاعه ألف متر : موسى بن أبى الغسان ونعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة وغيرهم كثيرون . . .

وألوف من الجنود المجهولين . . .

ولكن ، لا مفر من قضاء الله . . .

وفى ٢ يناير ١٤٩٢ استسلمت غرناطة ، واحتُلت الحمراء . انتهت قصة الأندلس . . .

وشهد هذه المأساة ألوف ، فى مؤخرتهم وقف رجل صامت ينتظر الفرصة ليتحدث إلى فرناندو وإيزابيلا . . .

ذلك كان كريستوف كولومبوس . . .

فى وقت واحد ماتت دنيا وولدت دنيا . . .

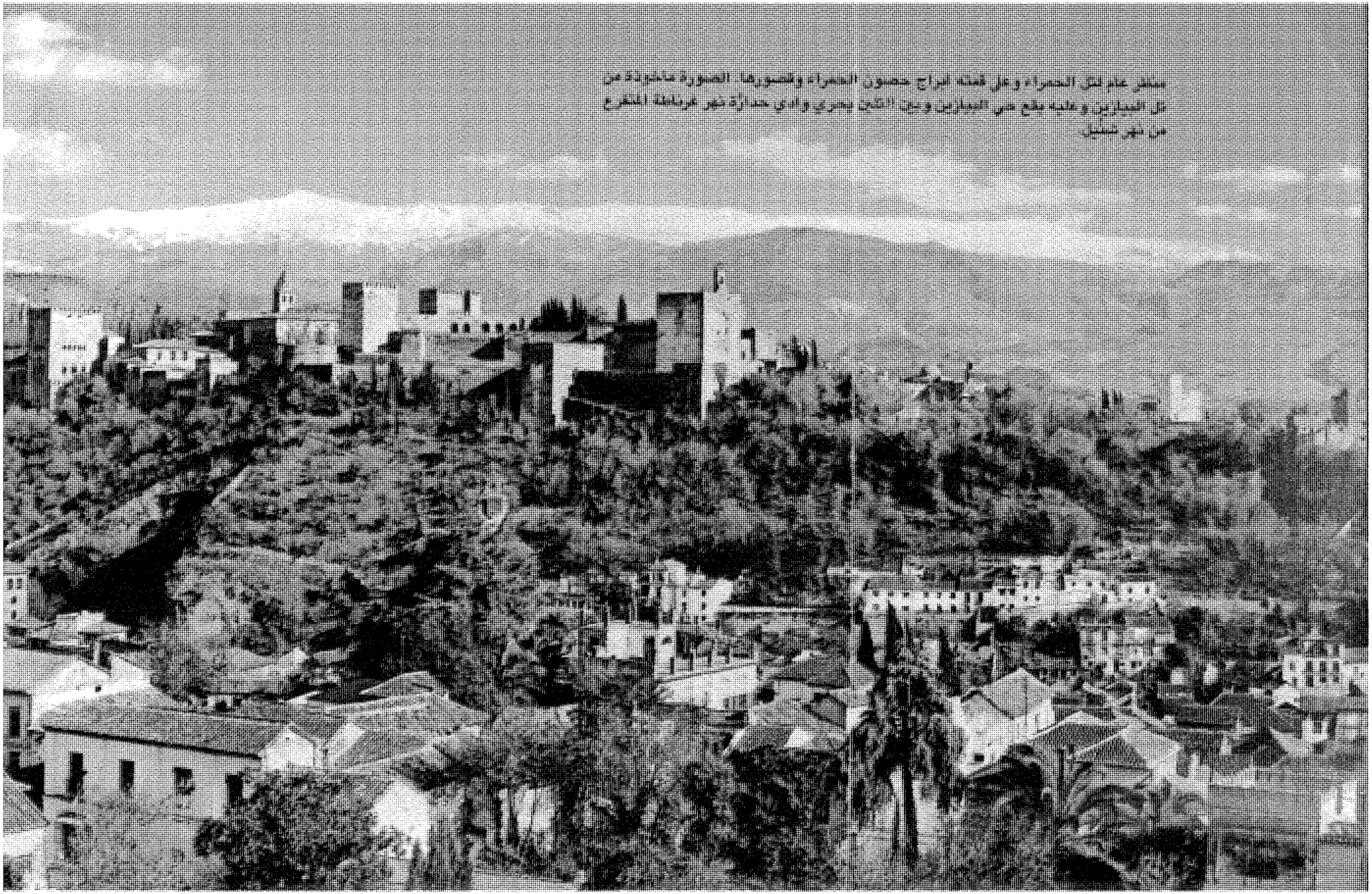
وذلك هو التاريخ . . .

* * *

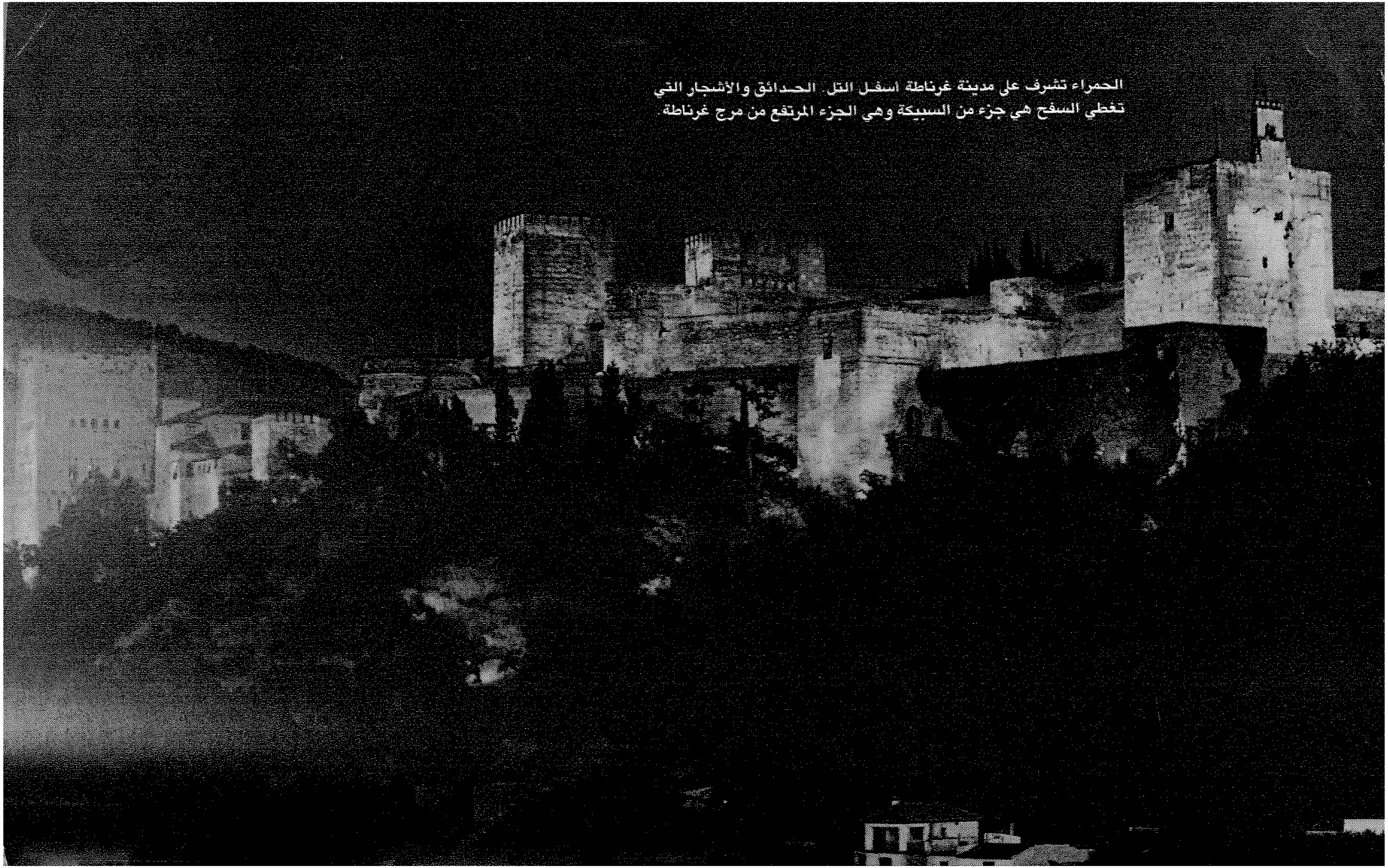
لندع الماضى وراءنا ، ولننظر إلى الطريق من حولنا . . .

إنه روضة يانعة ، خضرة تمتد إلى مدى البصر وأشجار فاكهة من كل لون . تلك هى البقاع (لاس ڤيجاس) الغرناطية . إنها ليست قديمة ، أنشأها الغرناطيون خلال القرن الأخير من تاريخهم العربى . حفروا شبكة من الأنفاق والقنوات لتصل مياه نهر حَدَّارُه (دارو) إلى كل جزء من ذلك السهل .

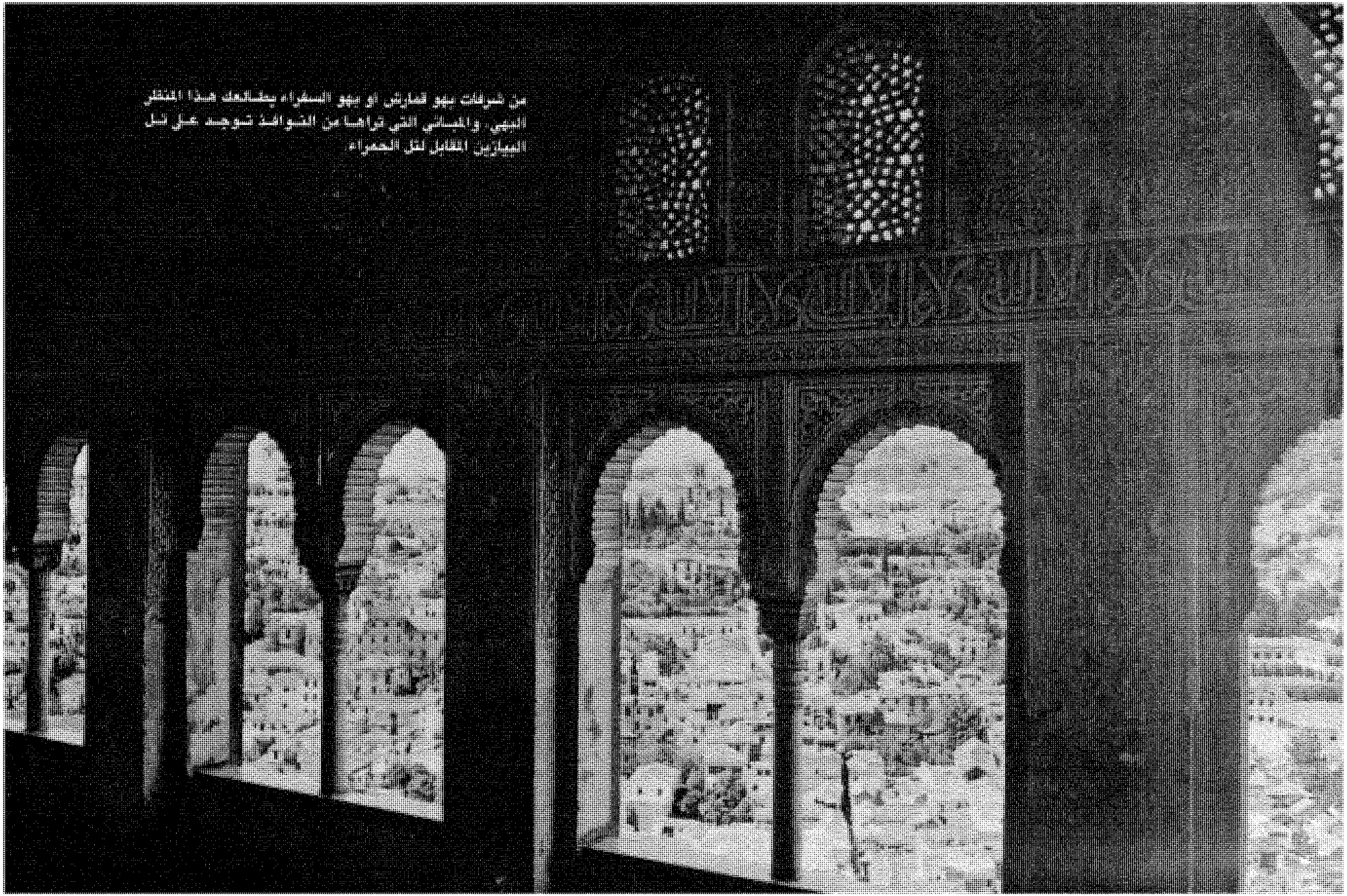
على يميننا وشمالنا تقوم مصانع كثيرة . مدخل غرناطة من ناحية الشرق مدينة صناعية فعلا . مصانع السكر والنسج تمد مداخنها فى الهواء . مستعمرات



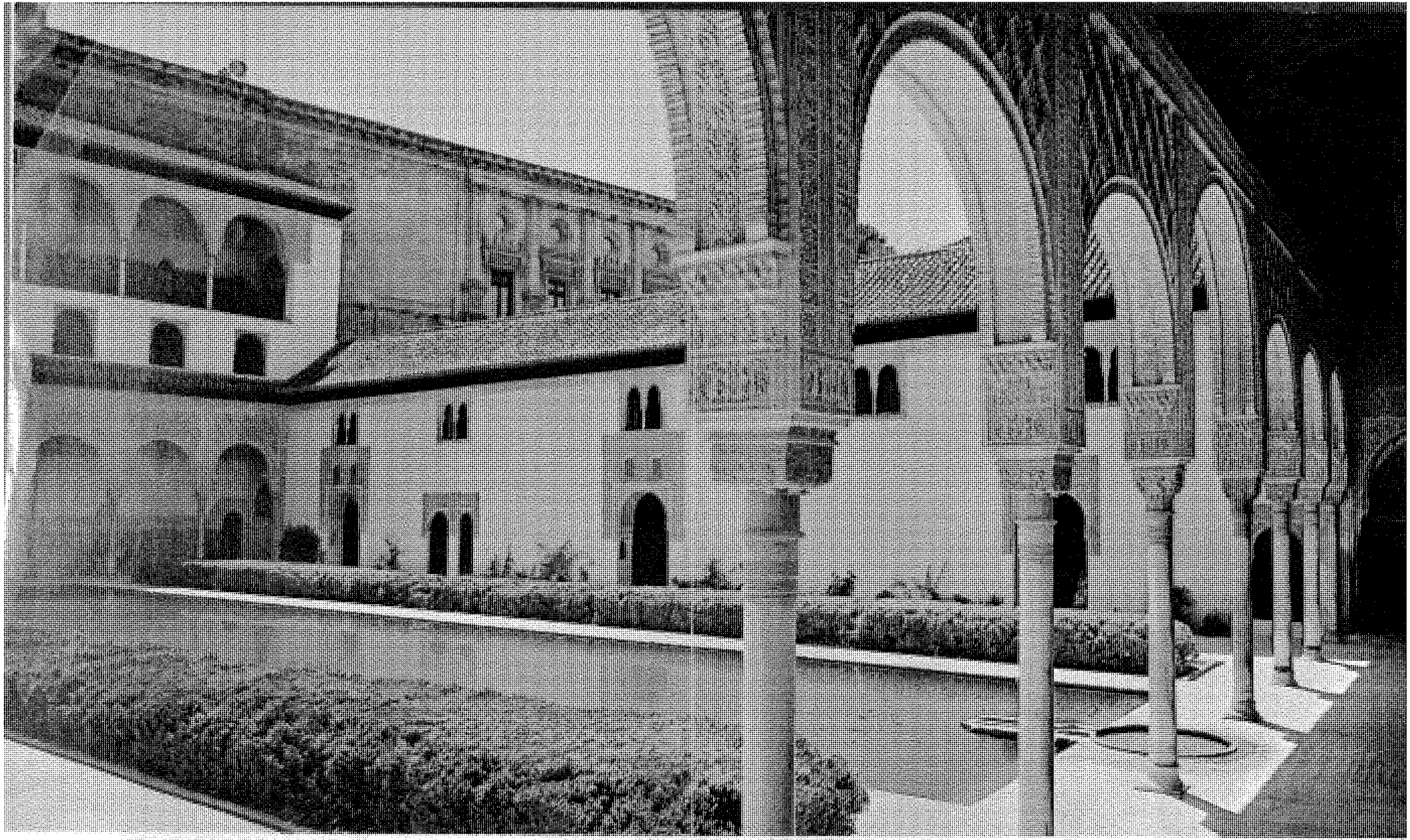
منظر عام لتل الحمراء و على قمته أبراج حصون الحمراء وقصورها. الصورة مأخوذة عن تل البيازين و عليه يطل حي البيازين و بين التلين يجري وادي حدارة نهر غرناطة المتفرع من نهر شنيل



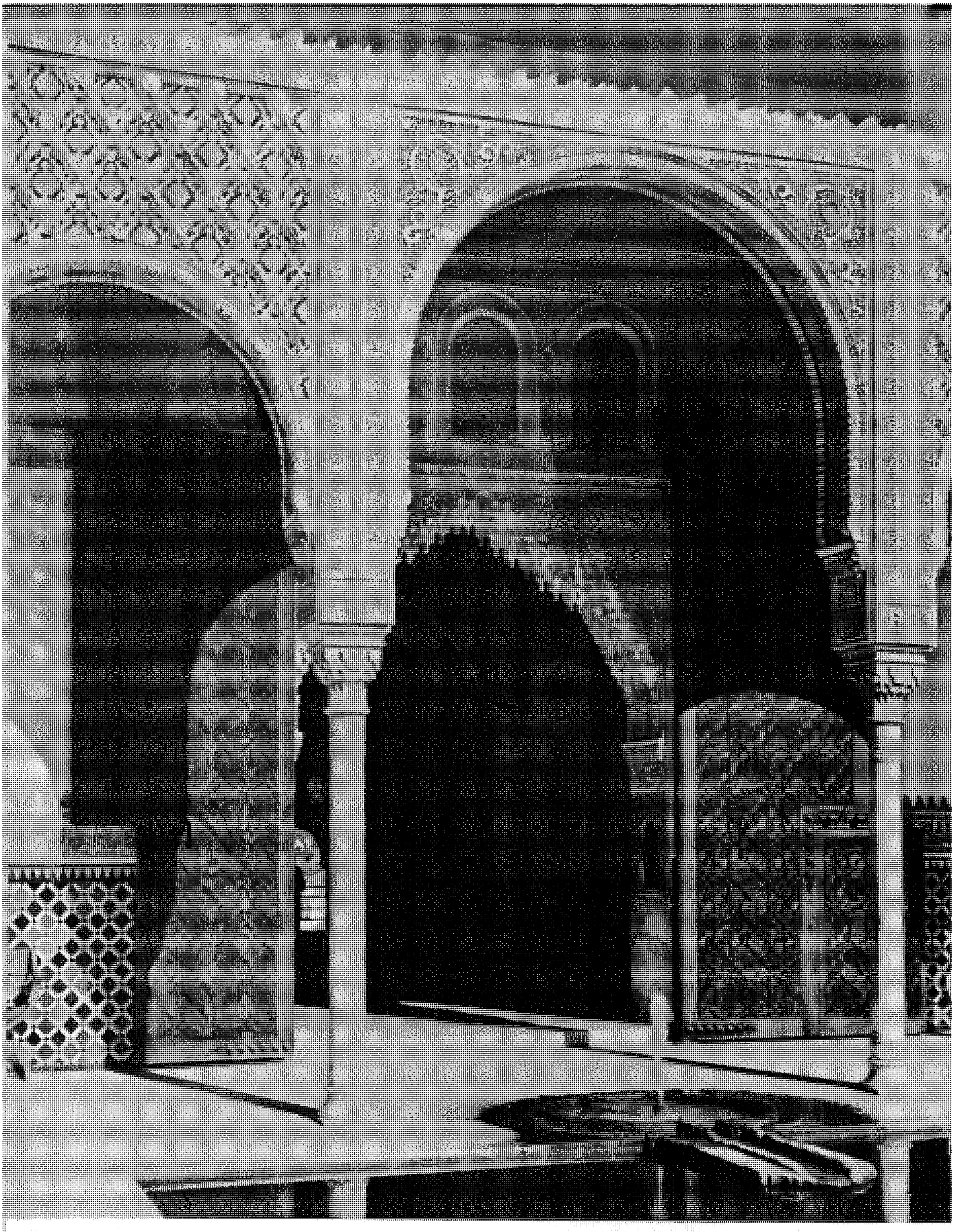
الحمراء تشرف على مدينة غرناطة اسفل التل. الحدائق والأشجار التي
تغطي السفح هي جزء من السبيكة وهي الجزء المرتفع من مرج غرناطة.



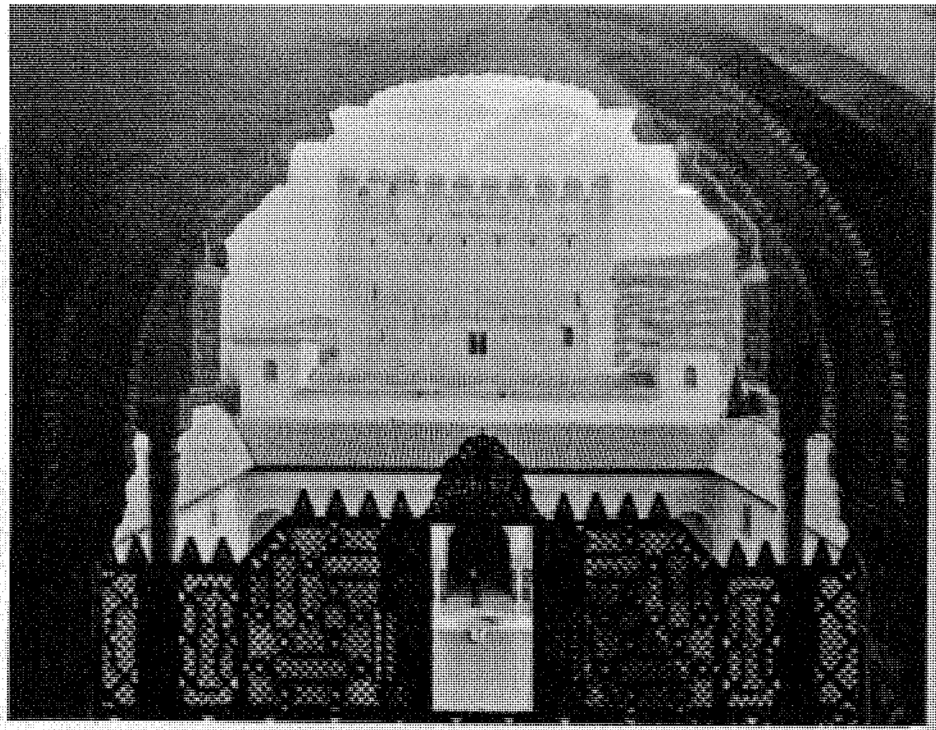
من شرفات بهو قمارش او بهو السفراء يطالعك هذا المنظر البهي. والمباني التي تراها من النوافذ توجد على تل البيازين المقابل لتل الحمراء.



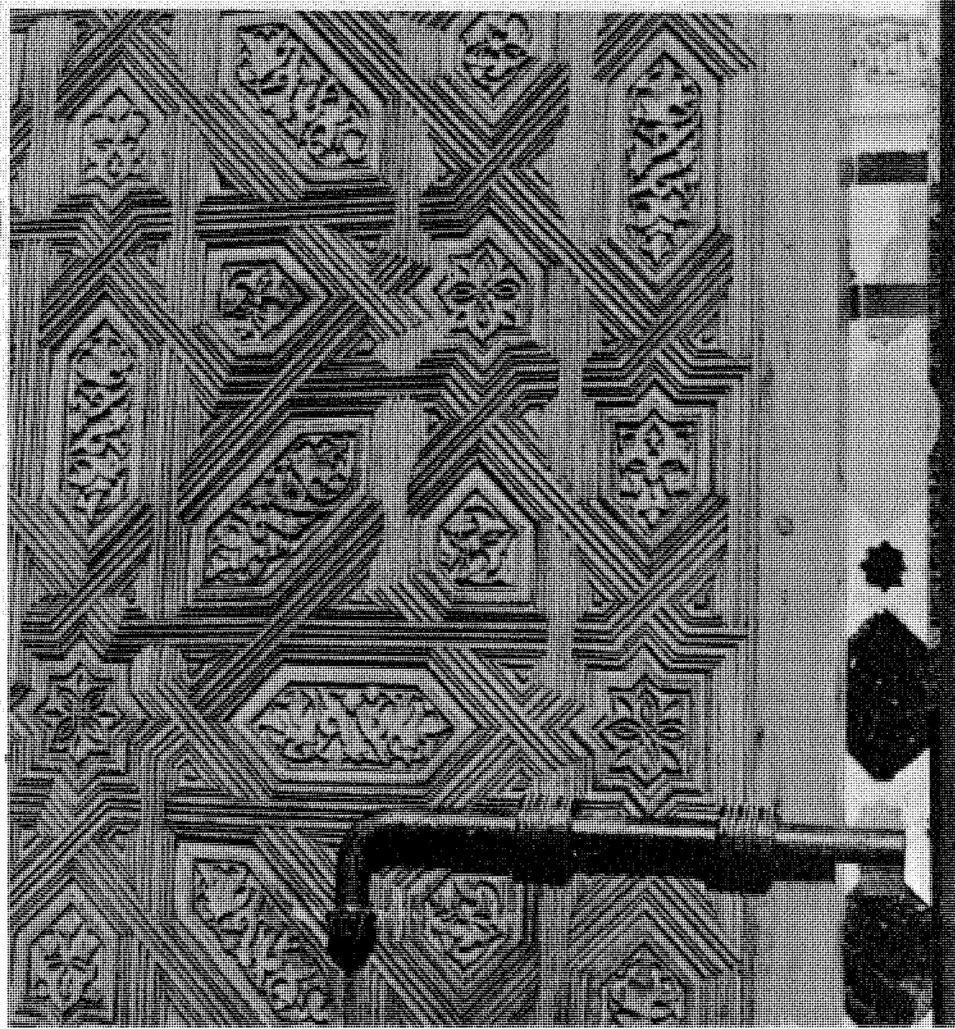
منظر عام لبهو الريحان مأخوذ من ناحية بهو قمارش. التسمية جاءت من إطار الريحان الذي يحيط بالبركة المستطيلة التي تتوسط البهو. أخذ المصور الصورة من هنا لكي يريك تفاصيل أعمدة الحمراء الدقيقة الأنيقة



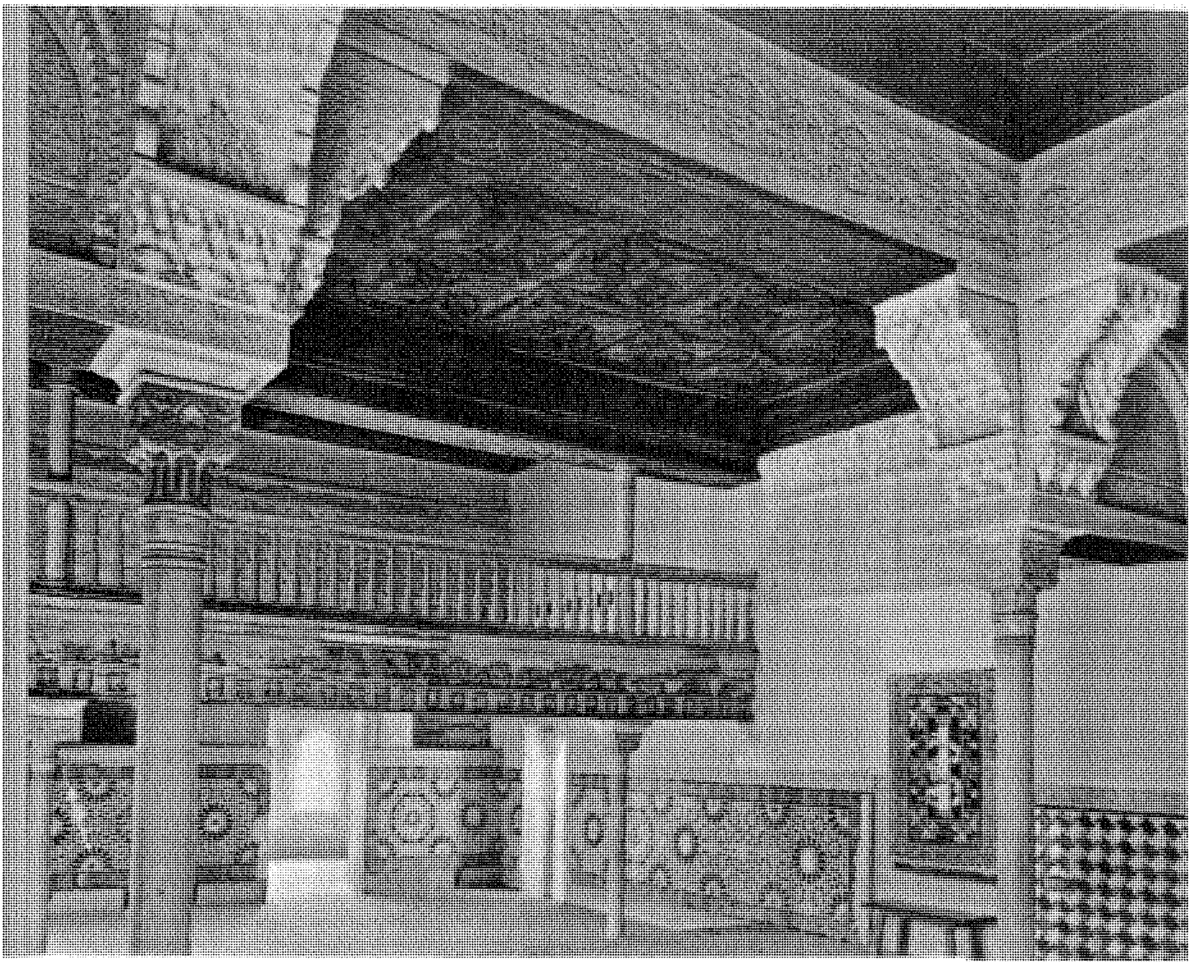
صورة لبعض العقود الدقيقة التي اشتهرت بها الحمراء. الأعمدة رقيقة من الرخام تحمل عقوداً من الخشب المغطى بالجص المزخرف والرخام. لاحظ الزليج أو (القاشاني) الذي يغطي أسفل الجدران.



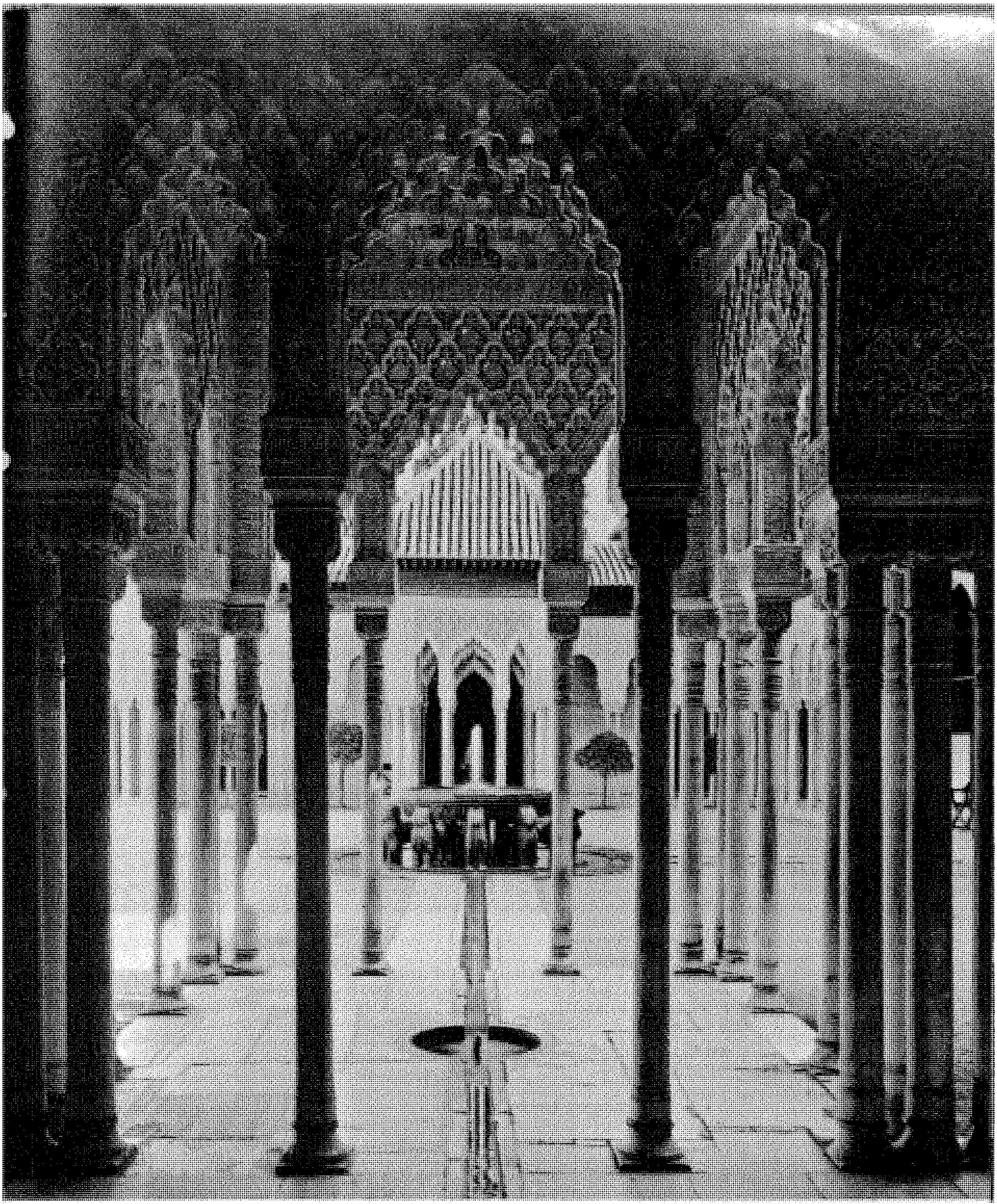
منظر لا يشهده الكثيرون: بهو الريحان من أعلا سقف البناء المواجه لبهو قمارش. لاحظ إبداع صنعة الخشب.



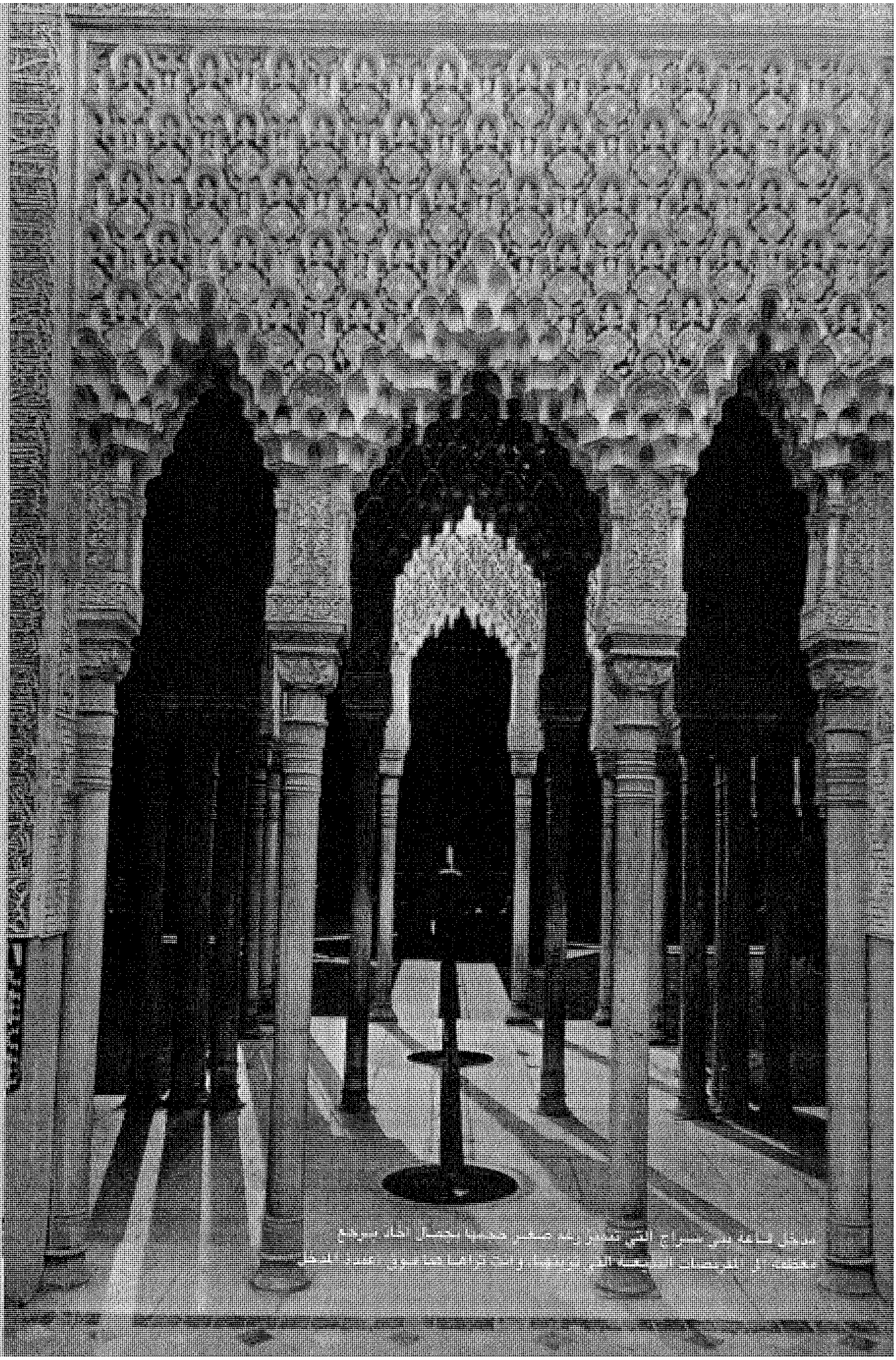
باب الدخول إلى بهو قمارش. إنه مفتوح دائما ولهذا لا يظهر جمال شغل الخشب ولا هيئة المفتاح الحديدي لهذا الباب.

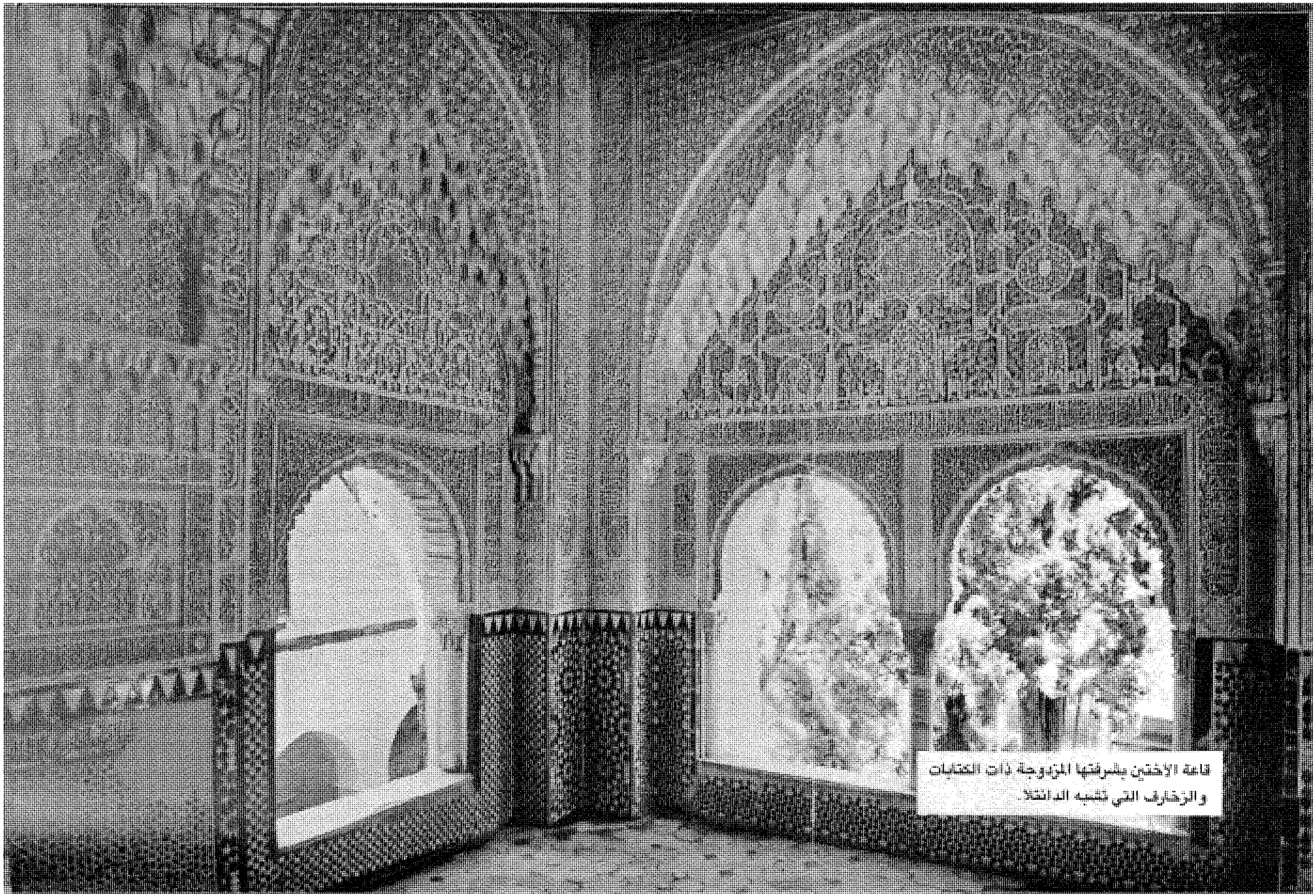


قاعة المشور هي أول ما يلقاك عندما تدخل قصور الحمراء. وما كان قبل ذلك من المباني زال.. هذه القاعة من إنشاء السلطان محمد الغني بالله، وكان الفراغ من إنشائها سنة ١٣٦٥م. أي أن عمرها ٦١٩ سنة ميلادية. كانت في الأصل مجلساً يجتمع فيه السلطان برجال دولته للتشاور. وبعد سقوط المدينة أراد النصارى أن يحولوها إلى مصلى فأقاموا تلك الشرفة الخشبية التي تراها وسط القاعة، ثم ألغوا الكنيسة عندما اعتبرت الحمراء أثراً قومياً. وتركت القاعة على هذه الصورة.

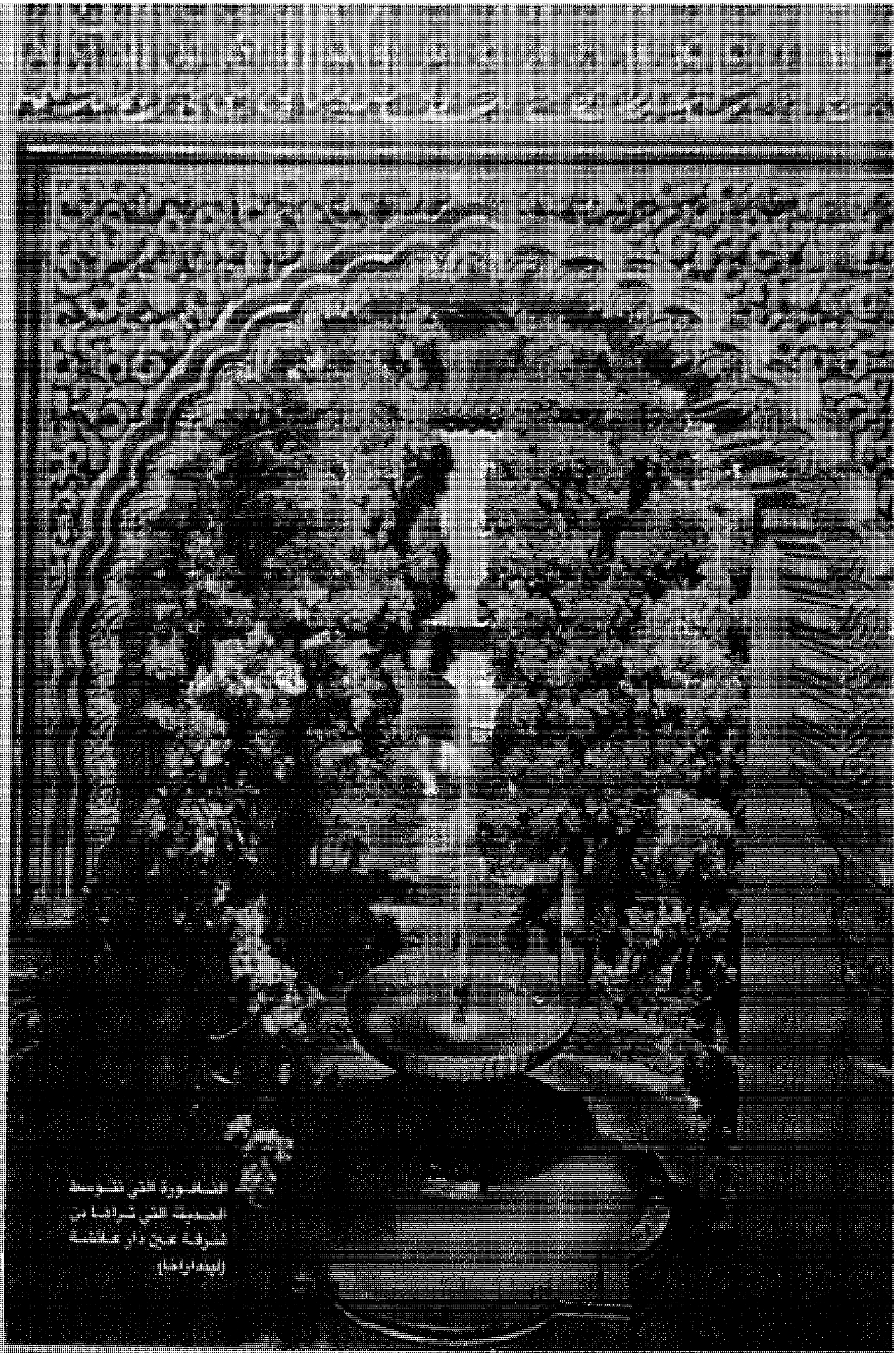


بهو السباع:
صورة جامعة له أخذت من خميلة المدخل تقابلها في الناحية الأخرى خميلة مماثلة لها وفي الوسط النافورة التي تحملها السباع.

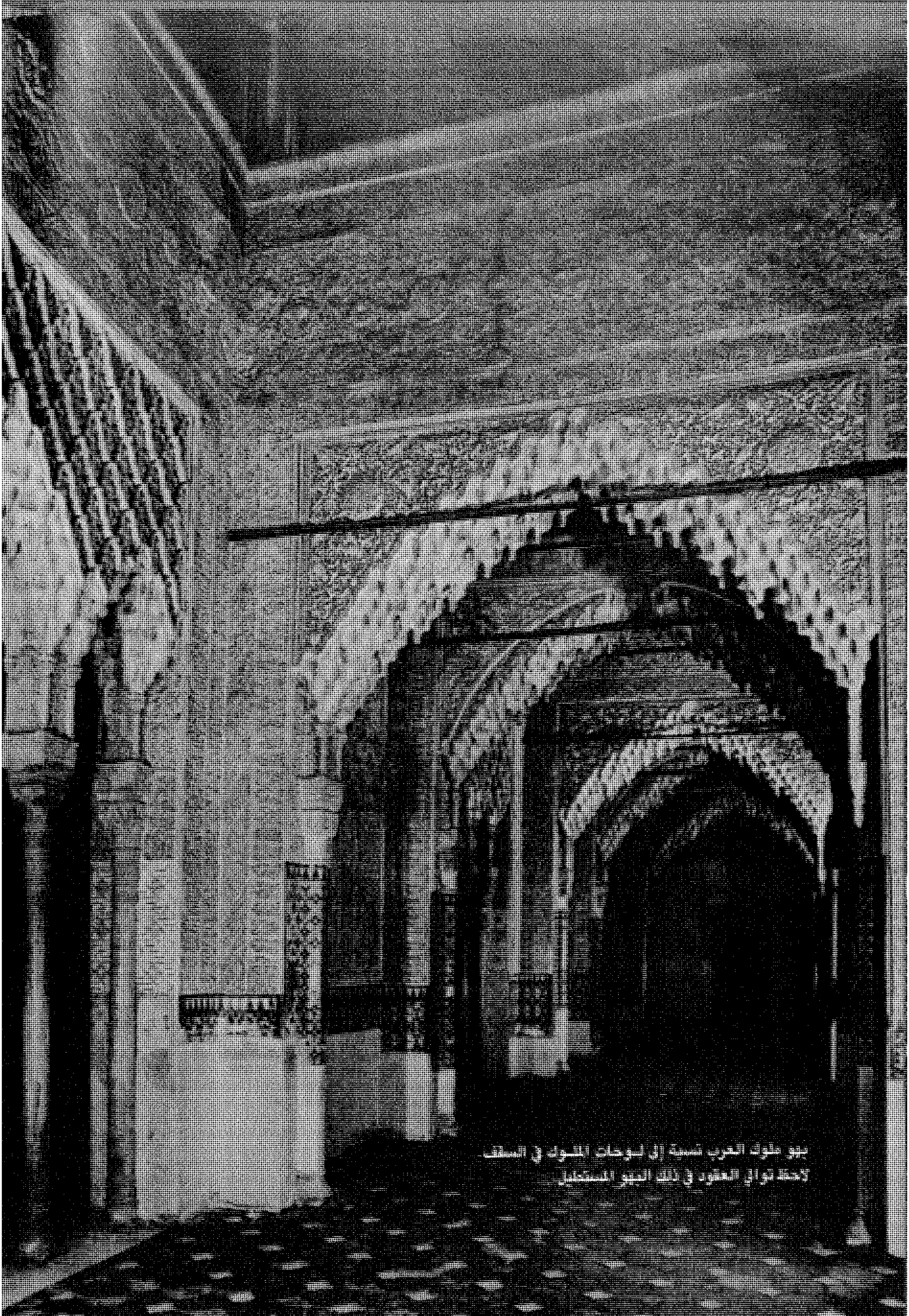




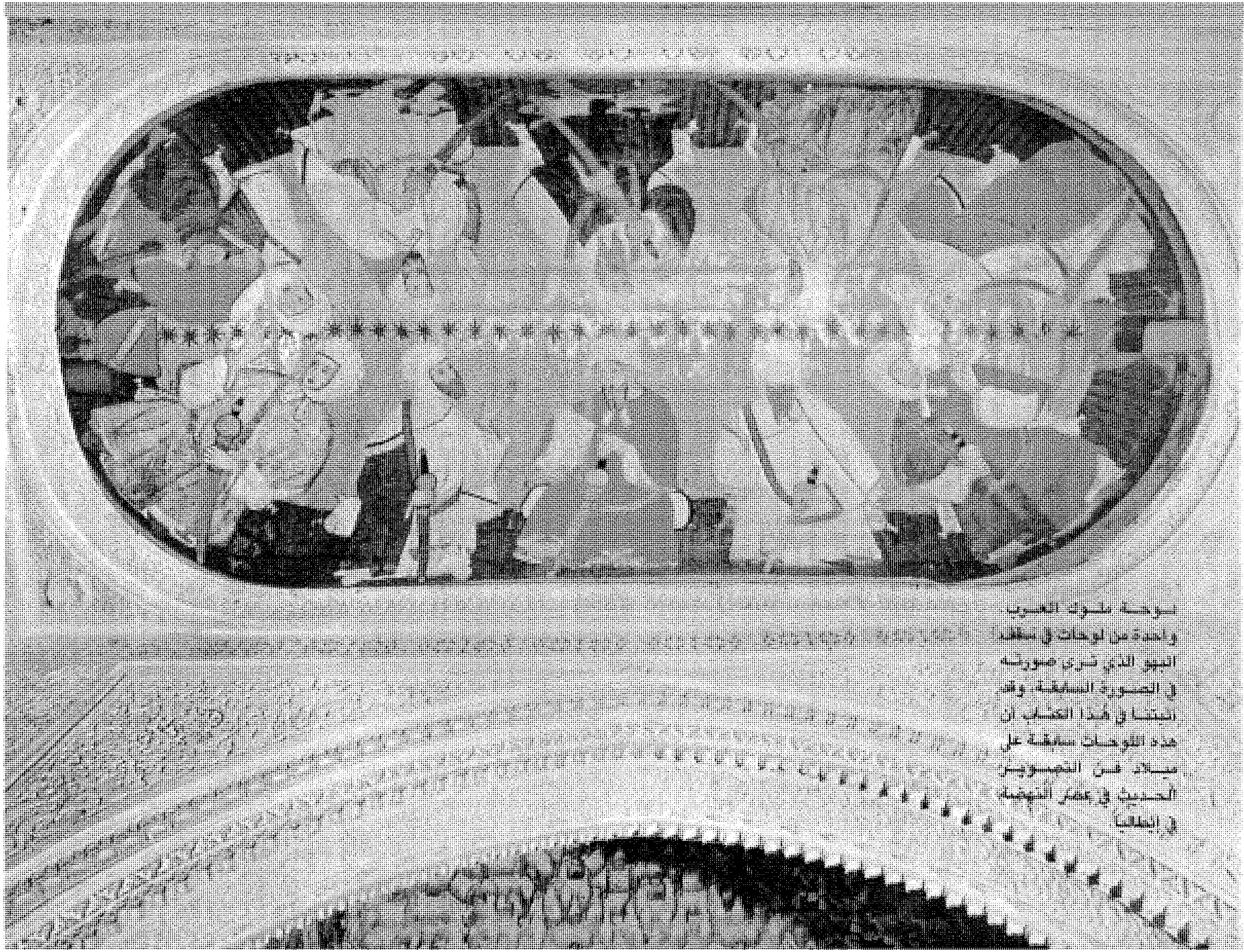
قاعة الأختين بشرفتها المزدوجة ذات الكتابات
والزخارف التي تشبه الدانتلا



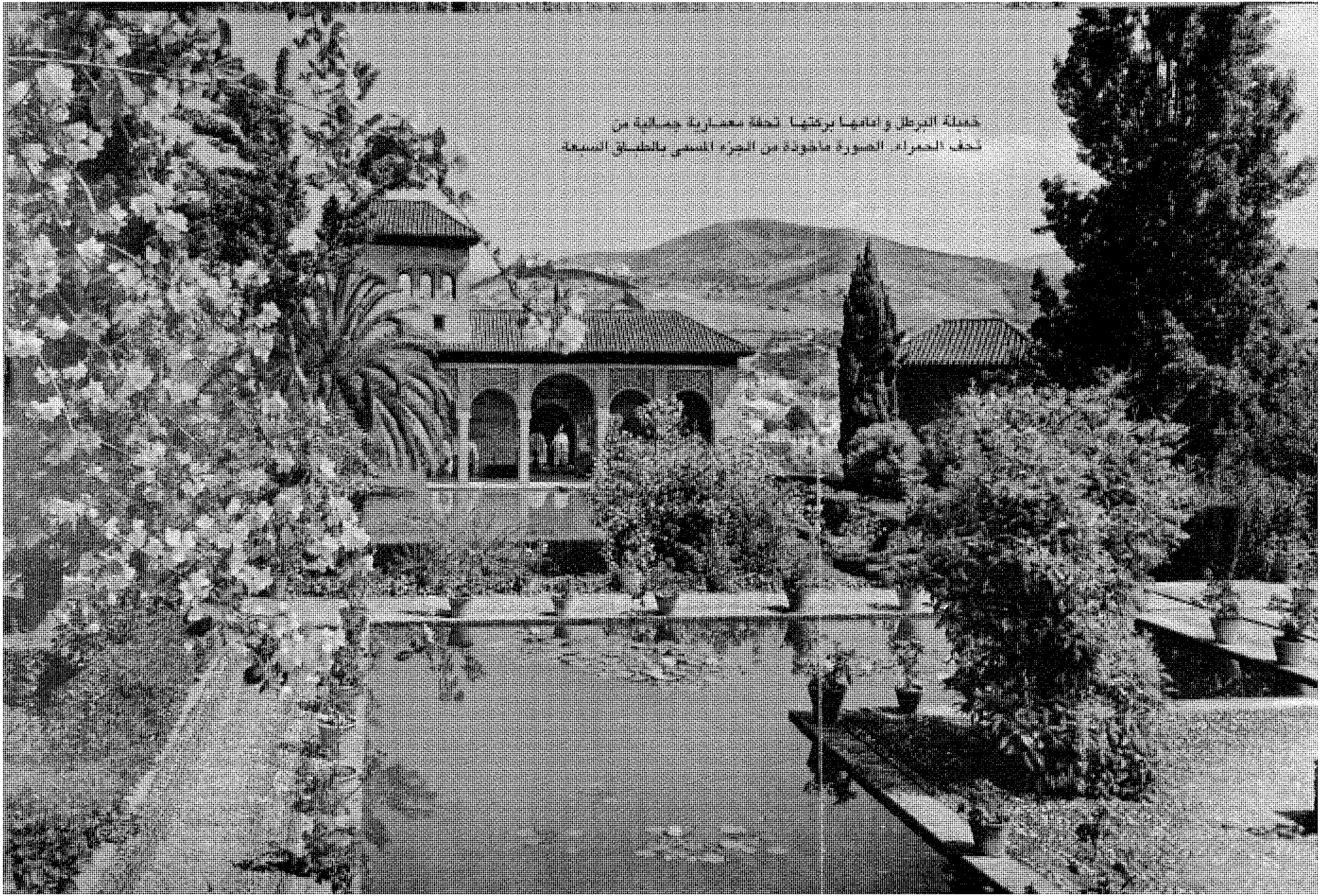
النافورة التي تتوسط الحديقة التي تراها من شرفة عين دار عائشة (ليندارخا)



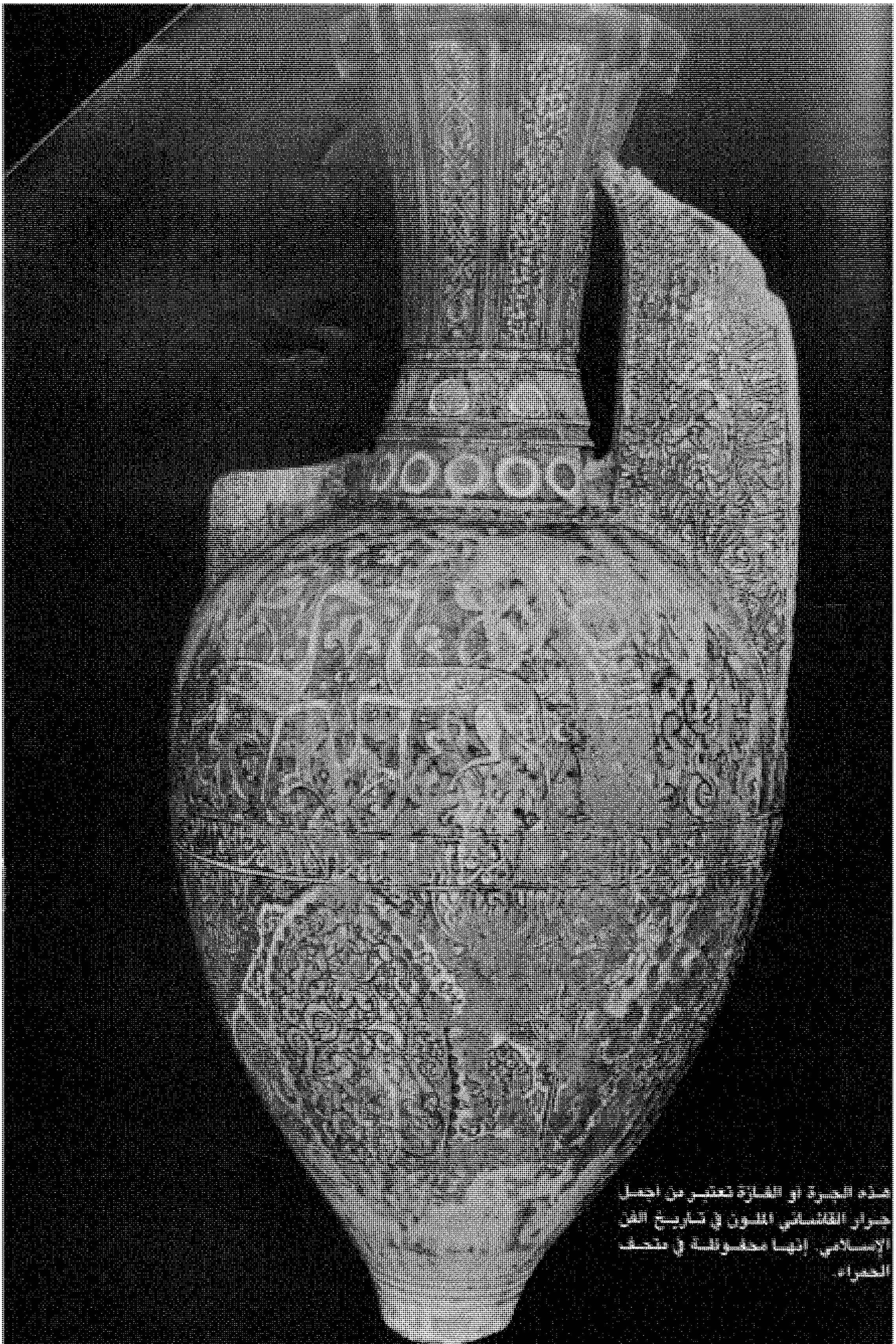
بهو ملوك العرب نسبة إلى لـوحات الملوك في السقف.
لاحظ توالي العقود في ذلك البهو المستطيل.



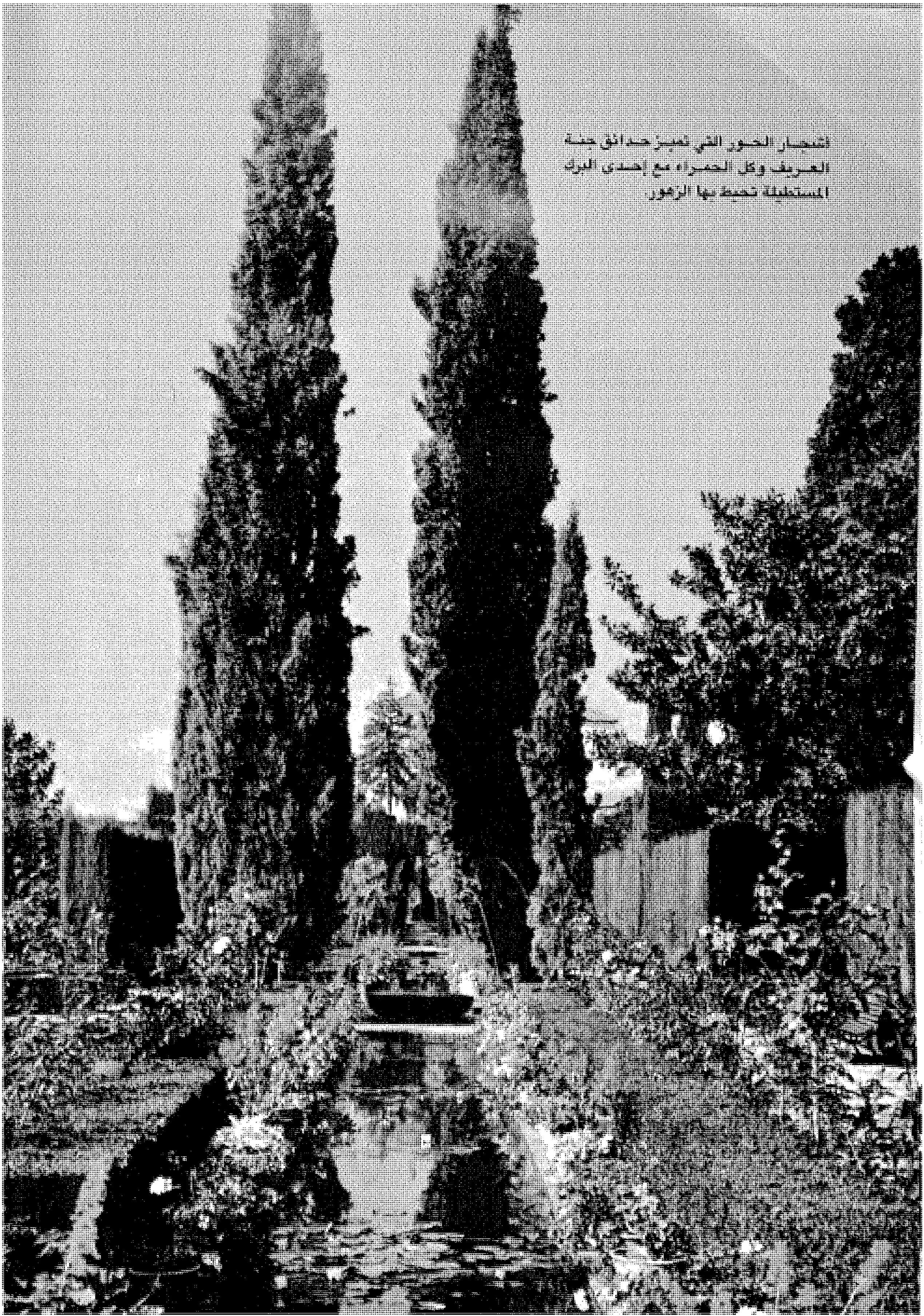
لوحة ملوك العرب
واحدة من لوحات في سقف
البهو الذي ترى صورته
في الصورة السابقة، وقد
بيّنّا في هذا الكتاب أن
هذه اللوحات سابقة على
ميلاد فن التصوير
الحديث في عصر النهضة
في إيطاليا



قبيلة البرطل وامامها بركتها تحفة معمارية جمالية من
تحف الحمراء. الصورة مأخوذة من الجزء المسمى بالطباق السبعة



هذه الجرة أو الفازة تعتبر من أجمل جرار القاشاني الملون في تاريخ الفن الإسلامي. إنها محفوظة في متحف الحمراء.



أشجار السرو التي تميز حدائق جنة العريف وكل الحمراء مع إحدى البرك المستطيلة تحيط بها الزهور.

مدن العمال تكاد لا تنتهى . عمارات متجاورة كأنها علب الكبريت . ذلك كله نشأ بعد الحرب العالمية الثانية وكذلك بعد الحرب الأهلية الأسبانية .

فجأة نجد أنفسنا فى شارع فسيح جميل تظلله الأشجار ، ذلك هو الجران بيّا دى كولون (شارع كولومبوس الكبير) ، وتبدأ سلسلة العمارات والمتاجر والمقاهى ودور السينما والمطاعم . تلك المنشآت التى تهبط بك فى لحظة من عالم الخيال إلى الواقع المادى ، تنقلك قروناً كثيرة فى غمضة عين . .

هذه المنشآت لم تكن هنا قطعاً أيام عاش واشنطون إيرڤنج فى غرناطة ليكتب « حكايات الحمراء » أو أيام وضع الموسيقى الأندلسى مانويل دى فايا— الذى ولد فى قادس — متتابعته الأندلسية ،أو أيام كتب فيديريكو جارثيا لوركا مسرحيته الخالدة « الزفاف الدامى » ، ولم تكن موجودة قطعاً أيام أنشأ أنخل جانيڤيت — أكبر مفكر غرناطى فى العصور الحديثة — ندوته الأدبية فى القرن الماضى ، أو أيام رسم رسامون عالميون من أمثال روبرتس وكالڤرت لوحاتهما الرائعة عن غرناطة . .

لنترك إذن دنيا ناطحات السحاب وأضواء النيون ودور السينما وراء ظهرنا كما تركنا « سانتافى » والتاريخ المحزن ، ولننظر البلد الذى أتينا نزوره . . .

خير مكان لذلك أن نتجه نحو النهاية الشمالية لشارع الملكين الكاثوليكيين (فرناندو وإيزابيلا) لنقف على تلك القنطرة اللطيفة التى تسمى باسم الكنيسة المجاورة لها : سانتا آنا .

سنجد أنفسنا فى قاع واد ضيق يجرى فيه نهر كأنه خندق ، ذلك هو نهر حَدَّارُه الذى يسمونه الدارو . .

إنه فرع من نهر شِنِّيل ، وهذا بدوره فرع من نهر الوادى الكبير . .

على يميننا يرتفع جبل أخضر ، يقوم كأنه الحصن ، وفوقه قصور وقلاع ، ذلك هو تل الحمراء ، وتلك قصورها وقلاعها . .

على يسارنا تل آخر يرتفع ارتفاعاً هيناً ، تغطيه تقريباً بيوت بيضاء ، ذلك هو حي البيازين ، حي أوساط الناس والعمال فى غرناطة القديمة . وخلفنا تقع مدينة غرناطة .

القصور والقلاع على يميننا كانت مقام الملوك والأشراف والقواد والأغنيـــاء . .

والبيوت البيضاء عن يسارنا وخلفنا وفى الفسيح بين التلّين كانت بالطبع بيوت الرعية . .

الذين على يميننا هم الذين أكلوا وشربوا واستمتعوا ثم أسلموا البلد للعدو . .

والذين على يسارنا وخلفنا هم الذين عملوا وتعبوا ودفعوا الضرائب ، ثم بيعوا للعدو . . .

هذا — فى لمحتين — هو ملخص تاريخ غرناطة . .

لنرجع أدراجنا ، قبل أن تجرفنا ذكريات التاريخ مرة أخرى . .

فى الفسيح الذى تمتد فيه غرناطة الحالية كانت تمتد غرناطة العربية على جانبي نهر حداره . كان إذ ذاك نهراً حقيقياً يفيض بالماء، وخاصة فى الربيع بعد ذوبان ثلوج جبل الثلج (سْيِرّانيڤادا) . كانت تقوم عليه قناطر كثيرة : قنطرة الدباغين ، قنطرة القزازين ، قنطرة القاضى ، وهكذا . .

كانت مجموعة من الضواحى (أرباض) للحمراء : ربض القاضى ، ربض المنصور ، ربض زناته . . كان يحيط بها كلها سور منيع له أبواب ضخمة ، بقى منها اليوم باب إلبيرة وباب البيازين وباب الرملة . . .

وكانت المساجد كثيرة جداً ، وقد زالت كلها . . وكذلك كانت الفنادق ، وقد بقى منها واحد سنراه بعد قليل .

أما المسجد الجامع ، فكان يقع بالضبط حيث تقوم الكاتدرائية اليوم .

وكانت إلى جانبه مدرسة ذات شهرة طائرة ، لا زالت آثارها باقية إلى اليوم . . .

وعندما تقف عند ملتقى شارعى الملكين الكاثوليكيين والجران بيا ، فأنت بالضبط فى قلب غرناطة القديمة والحديثة .

لنلق نظرة على ما بقى منها ، لنفرغ بعد ذلك للحمراء وجنة العريف . .

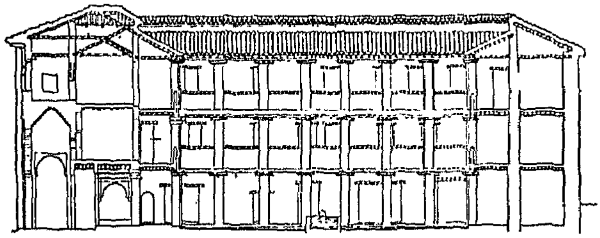
نقطة البداية — كما هو الحال فى إشبيلية — هى الكاتدرائية ، فهى جامعنا القديم . . كما فعل أحبار إشبيلية فعل أحبار غرناطة : هدموا الجامع وأقاموا على مساحته كلها شيئاً هائلا ، يقول فى وصفه چان سرميه إنه « يدهش أكثر مما يؤثر فى النفس . لا بد أن تظهر أنك تعجب به تأدباً » . فى هذه الكنيسة قبر فرناندو وإيزابيلا وابنتهما خوانا المجنونة وزوجها فيليب الجميل ، وفيها صور عربيات بالخمار يتنصرن على يد القسيس ، وصور عرب يقولون لك إنهم سعوا إلى القسيس مختارين ليدخلوا النصرانية . بدئ فى بنائها سنة ١٥٢٣ ، ولم تفرغ إلا فى القرن الثامن عشر .

خلف الكاتدرائية تجد بقية المدرسة العربية القديمة . لم يبق منها إلا الجناح الذى يضم محراب جامعها . معظم ما كان قد بقى فيها من الآثار العربية نقل إلى متحف الآثار فى غرناطة ، ومتاحف أخرى .

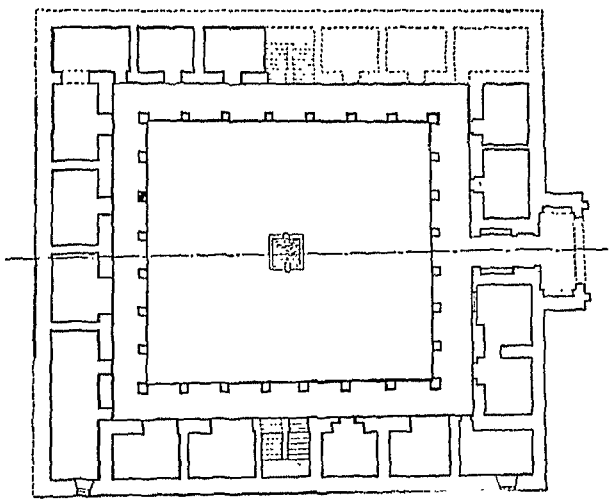
على مقربة من الكاتدرائية تجد القيسارية ، لا زالت تحتفظ باسمها العربى . سوق صغير أنيق مثل خان الخليلى ، ولكنه ألطف وأجمل . إنها صورة من قيساريتنا العربية ، فقد احترقت هذه سنة ١٨٤٣ وأنشئت الجديدة على طرازها .

إذا خرجت من القيسارية إلى الشارع الكبير وجدت فى الناحية الأخرى شارعاً صغيراً يسمى ماريانا بينيدا ، فيه الفندق — أو الخان — الغرناطى المشهور . كان يسمى « الفندق الجديد » . إنه الوحيد الذى بقى لنا من فنادق الأندلس . هندسته تعطيك فكرة عن نظام فنادقنا القديمة : مدخل عربى كبير يليه مدخل أصغر على جانبيه غرفتان صغيرتان . إنهما تقابلان ما يعرف فى الفنادق الحديثة « بالاستقبال » و « البواب » . هنا كان الداخل يسجل اسمه ويحجز غرفته . كان يسجل أيضاً دابته إذا كانت معه دابة . بعد ذلك تجد

فناء واسعاً فى وسطه حوض . هنا كان النزيل يربط دابته لتشرب ، ربما يتولى الخدم أمر طعامها . البناء يقوم حول الفناء على هيئة ثلاث طبقات من الشرفات . أبواب الغرف تفتح على الشرفات .



مقطع فى فندق غرناطة المعروف اليوم بربع الفحم يبين تصميمه الهندسى



مسقط لفندق غرناطة يبين هيئته العامة . يلاحظ المدخل إلى الفناء يتوسطه مسقى الدواب ، والمبنى قائم حوله ثلاثة أدوار كل منها يتألف من غرف متجاورة تطل على الفناء .

تبدلت الأيام على هذا البناء بعد العرب . استعمل ذات مرة مخزناً للفحم ، لهذا يسمى اليوم حظيرة الفحم (كورال دل كاربون) . واستعمل مرة أخرى مسرحاً ، ومثلت فيه روايات كالدرون ولُوبِ دى ڤيجا . وهو اليوم ملك للدولة تابع لإدارة قصور الحمراء . .

وغير هذه هناك فى الوادى أبواب باقية من غرناطة العربية : باب الرملة — ينطقونه اليوم بالنطق الغرناطى القديم : بيب الرملة — وباب إلبيرة وقطع من الأسوار ، ومنازل متناثرة . .

وهناك حى البيازين الذى سنزوره بعد الحمراء . .

* * *

أنت مشوق الآن إلى زيارة الحمراء ، لهذا وحده أتيت ، لهذا وحده يأتى الألوف أيضاً كل يوم . غرناطة بدون الحمراء تصبح بلدة ريفية مثل مُطْرِيل أو كولمينار ، هل سمعت عنهما ؟ إنهما هناك غير بعيد عنها .

الفنان العربى صنع من بلدة صغيرة فى أقصى أوروبا درة تتألق وتجتذب الألوف . لكى تصبح روما روما كان لا بد أن يتعاون فى إنشائها ملوك الرومان وأباطرتهم من رومولوس إلى قسطنطين ، والرسل والبابوات من بطرس إلى بيوس الحادى عشر . أما غرناطة فقد أصبحت قبلة أنظار الدنيا بمجموعة واحدة من القصور والحدائق ، بل بنصف مجموعة ، والنصف الثانى عدت عليه العوادى وزال من الوجود . .

الطريق إلى الحمراء طريق جميل . اصعده على قدميك ليزداد استمتاعك به ، خذ الشارع المسمى كويستا دى جوميريث (مصعد بنى غمارة ، قبيلة مغربية) . بعد قطعة صغيرة من شارع ضيق ستجد نفسك أمام بوابة حديثة تسد الطريق ، هذه بناها شارل الخامس (شرلكان) مكان بوابة الحمراء القديمة التى كانت تسمى باب الرمان .

إن الحمراء حصن بنى على سفح تل وفوق قمته الفسيحة التى تشبه الهضبة . لم يكن بنو الأحمر أول من تنبه لحصانتها ، سبقهم إلى ذلك الثائرون على خلفاء بنى أمية . ثم اتخذها قاعدة له أحد ملوك الطوائف وهو باديس بن حبوس أوائل القرن الحادى عشر الميلادى . سميت من ذلك الحين بالقصبة الحمراء ، نسبة إلى لون حجارة التل الذى بنيت عليه .

فى ذلك الوقت أيضاً بدأت مدينة غرناطة أسفل التل تعمر . إلى جوارها كانت تقوم مدينة كبيرة تسمى إلبيرة ، أصبحت إلبيرة اليوم قرية صغيرة .

إلى آخر القرن العاشر الميلادى كانت الناحية كلها تسمى إلبيرة ، أو كورة إلبيرة ، وكانت من أعظم كور (مديريات) الأندلس الإسلامى . خلال القرن الخامس الهجرى — الحادى عشر الميلادى — عندما تلاشى السلطان المركزى وتقاسم الأندلس عشرات الرؤساء والمستبدين أصبحت للحصون المنيعة أهمية كبرى ، لأن المدن القائمة فى السهول كانت فرائس المغيرين . لهذا انتقلت الأهمية من إلبيرة القائمة فى السهل إلى غرناطة القائمة على سفح الجبل تحميها القلعة الحمراء على قمته .

ولكن تاريخ الحمراء التى نرى بقاياها اليوم لا يبدأ إلا بعد سقوط قرطبة سنة ١٢٣٦ . هذا الحادث روع أفئدة عرب الأندلس . حاول الكثيرون منهم إيقاف الخطر الداهم دون جدوى ، فأسرع بعضهم إلى مواضع حصينة واعتصموا بها . من هؤلاء محمد بن نصر بن الأحمر . كان فارساً شهماً بعيد النظر . أسرع برجاله فاحتل حصن غرناطة القديم — الذى كان يسمى القصبة القديمة ، أو الحمراء القديمة — وأحكم أسوارها وبنى على الأسوار أبراجاً حصينة عالية منها برج الحراسة (تورى دى لافيلا) الباقى إلى اليوم ، وبنى لنفسه قصراً فى المكان الذى يقوم فيه قصر شرلكان اليوم . سميت مبانيه بالقصبة الجديدة .

استطاع الرجل بمهارته أن ينشئ مملكة تشمل كل الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة جنوب نهر الوادى الكبير . بنى عشرات الحصون على طول حدود المملكة من قادس فى الغرب إلى المَرِيَّة فى الشرق . إلى هذه المنطقة المحصنة وفد العرب من البلاد التى استولى عليها الإسبان ألوفاً بعد ألوف ، حاملين معهم خلاصة حضارة الأندلس .

تلك هى مملكة غرناطة التى ظلت تقاوم — وحدها — أربع ممالك إسبانية من ١٢٣٨ إلى ١٤٩٢ ؛ سترى أسباب الانهيار فيما يلى من الحديث .

نعود إلى باب الرمان ، لعلك لاحظت أن ذلك الاسم ترجمة للفظ جْرانادا . المنطقة كلها مشهورة بالرمان . لا بد أن بلداً صغيراً بهذا الاسم كان موجوداً من قديم الزمان . لا زالت الرمانة شارة غرناطة . .

بعد باب الرمان ننتقل مباشرة إلى منطقة تذكرك بجبال سويسرا : خضرة وغابات وجو رقيق . المنحدر عنيف بعض الشيء ، ولكنك لا تشعر بتعب . هذه الغابات لم ينشئها العرب ، لأن قواعد الأمن فى تلك العصور كانت تحرم غرس غابات حول الحصون حتى لا يختبئ فيها الأعداء . كانت أرضاً مكشوفة لاستعراض العسكر تسمى السبيكة . .

إذا التفتّ إلى يسارك وأنت صاعد رأيت أسوار قصبة الحمراء تطل عليك ، بعد قليل تصل إلى ميدان صغير .

على يسارك تجد باباً عربياً ضخماً ، ذلك هو باب الشريعة ، هذا هو مدخل الحمراء اليوم .

والشريعة هنا ليست الشريعة بمعناها المعروف ، وإنما هى أقرب إلى معنى الشارع . وباب الشريعة — على هذا — معناه : الباب الذى يشرع أو يفضى إلى الطريق ، الباب الخارجى . لا علاقة له بالقضاء ، وترجمته باسم « پويرتا دى لاخوستيثيا » ترجمة خاطئة .

هنا نقف قليلا قبل أن ندخل الحمراء . .

إنك فى الغالب تصل مع آخر ساعات النهار ، أو لعلك لا تستقر فى غرناطة إلا مع الليل . . ولا تستطيع زيارة القصور إلا مع الصباح .

وهذه الليلة التى تقضيها فى غرناطة ، قبل زيارة الأثر العربى العظيم ، تأذن لك فى أن تتأمل من شرفة أحد الفنادق الجميلة القائمة أعلى التل « بقاعَ » غرناطة وسهولها . . هذه الرياض التى تمتد أمام بصرك فى ظلام الليل وقد شملها سكون الأبد . .

فى موقفك هذا وقف سلاطين غرناطة وقوادهم وأهل الحراسة والحرب يتأملون هذه الأرض المباركة يستولى عليها العدو شبراً شبراً فى قسوة القدر ...

كل يوم يتقدم خطوات ويستولى على بلدة أو قرية . . .

تحت بصرك ، ميدان من ميادين الجهاد والأبطال . عند الأفق ترى خط الحدود الذى وقف عنده رجالنا يقاتلون . .

لقد سقط خط الوادى الكبير — كما رأيت — فيما بين ١٢٣٠ و ١٢٥٠ . فى هذه السنوات العشرين التى أعقبت تصدع دولة الموحدين ضاعت بلنسية ومرسية ودانية وجيان وقرطبة وإشبيلية . .

عشرون سنة سوداء كان الأندلس خلالها دون دولة تقريباً . . .

مدن كبرى لها فى تاريخ الحضارة العربية والعالم مجلدات ، وقفت فى العراء أمام حرب صليبية يقوم بها ملوك وراء كل منهم ألوف الفرسان مدرعين بالحديد الثقيل . .

ومن وراء جبال البُرت (البرانس) أقبل ألوف آخرون من المحاربين الصليبيين تدفعهم البابوية وتؤجج النار فى قلوبهم . .

ومن وراء البحر أقبلت أساطيل الجمهوريات الإيطالية : جنوة وبيزا وأمالفى مشحونة برجال حريصين على ألا تفوتهم الغنيمة الباردة . .

هؤلاء جميعاً أقبلوا يهاجمون مدناً أراد القدر المحزن أن تقف فى تلك الأيام دون حماية . .

ومع ذلك ، فقد دافع أهل هذه البلاد واستبسلوا . وقف أهل قرطبة وأهل جيان وأهل إشبيلية وبلنسية ومرسية . . بل أهل الجزائر الشرقية — المعروفة بالبليار — يدافعون . وماذا يستطيع المدنيون المسالمون من أهل الحرف أو رجال العلم والتجار وأوساط الناس ؟ ومع ذلك فقد ناضلوا ودافعوا ما أمكنهم ، ولم يستسلموا إلا بعد أن تلاشى آخر أمل فى الثبات . .

استسلموا مجاهدين أشرافاً ، على عهود أخذوها من ملوك كان كل منهم يقود جيشاً جراراً . . .

وبعد التسليم ؟

لا عهود ولا مواثيق ...

لم يكن العصر عصر مواثيق بين غالب ومغلوب ...

ورحم الله أجدادنا أصحاب موسى وطارق وعبد العزيز بن موسى . .

ما قطعوا على أنفسهم عهداً لبلد استسلم لهم إلا رعوه وحفظوه . . .

وما دخل فى ذمتهم إنسان إلا حفظوه وصانوه فى أهله وماله ودينه ، وظل إنساناً له كرامة الإنسان . .

* * *

هذا ما فعلناه . . .

وذلك ما فعلوه . . .

لا نقولها شاكين ، فإن الحر لا يعرف الشكوى ، إنه يستقبل مكروه الأيام بقلب ثابت كالصخر وعين لا تعرف الدموع . .

ونحن بنو الدنيا نحارب فى ميادينها ، لا يزدهينا نصر ولا توئسنا هزيمة . .

ورحم الله شاعرنا الذى قال :

بنى لىَ المجدَ آباء كرام   ورثنا مجدهم باعاً فباعا
وهذبنى الإباءُ ، ففات طرفى   وكلٌّ بَعدُ يجرى ما استطاعا

وإنما وقفت بك هذه الوقفة ونحن على أبواب الحمراء ، لكيلا يقع فى خاطرك أننا غُلبنا عن رخاوة أو خوف أو « استنامة للترف » كما يجرى فى بعض الأذهان . . .

لقد فقدنا خط الوادى الكبير حوالى سنة ١٢٥٠ . .

ولم يبق لنا بعد ذلك إلا ركن صغير فى الطرف الجنوبى مركزه غرناطة ، ويحده من الشمال مجرى نهر شِنِّيل . . .

ثُمن مساحة شبه الجزيرة . . .

هذه المساحة فتحها طارق بن زياد فى أسبوعين ، واحتاج الإسبان لينتزعوها منا إلى قرنين ونصف . .

لم يأخذوا منها شبراً إلا بعد معركة وقتلى من الجانبين . .

فكيف يقال إن الذين أبلوا هذا البلاء قوم ضعفاء استولى عليهم الترف وأنهك قواهم الفساد ؟ . .

الذى حدث هو أن الحظ خاننا فى الأندلس . خلال هذين القرنين ونصف القرن لم يظهر رجل واحد جامع لصفات الزعامة والقيادة والسياسة والتدبير . . رجل من أولئك العشرات الذين كثروا خلال القرون الأربعة الأولى ، أو رجل من طراز القادة الذين جمعوا لواء المسلمين والعرب فى المشرق بعد نكبة الغزو الصليبى ، رجل من طراز مَلِكْشاه وألِب أرْسلان وعماد الدين زَنْكى ونور الدين محمود وصلاح الدين . . .

فى تلك العصور كان كل شيء يتوقف على القادة والزعماء . .

ومنذ أن انتثر عقد الخلافة القرطبية لم يُطالع الأندلس رجلا اكتملت له الصفات التى تطلبها الخطر الشديد المتزايد . . .

ما ظهر قائد إلا وكان له عيب — أو عيوب — تقف به عن مواجهة الظروف . .

إذا كان ذكياً واسع العقل وجدناه تافه الطموح سيئ الأساليب ، كالمعتضد بن عباد . . .

وإذا كان سياسياً وجدناه أنانياً لا يفكر فى غير نفسه ، كالمستعين بن هُود . . .

وإذا كان شجاعاً أريباً وجدنا قلبه خالياً من المثل الأعلى ، كمحمد بن سعد بن مَرْدَنِيش . . .

وإذا كان بطلا مغواراً لا يهاب عدواً وجدناه متسرعاً قليل التروى ، مثل محمد بن يوسف بن هود . . .

سوء حظ !

* * *

وهناك سوء حظ أنكى من بخل الأيام . . .

هو الخلاف والشقاق . . .

فى هذه السنوات كلها ما اجتمع قائدان إلا اختلفا ، وما استقام الأمر لرجل إلا أكل الحسد نفوس الآخرين . . .

معظم جهدهم انصرف إلى حرب بعضهم بعضاً . . .

لعنة حلت واستقرت فى القلوب . .

فإن كان لى رجاء وأنت على أبواب آخر معاقل العروبة فى شبه الجزيرة فهو أن تدعو الله مخلصاً أن يصفى قلبك لإخوانك ، وأن يطهرك من الحسد للإخوة فى العروبة والأوطان ، وأن يبرئك من الأنانية والنظر إلى ما فيه خيرك وحدك . .

أجل . وادع الله أن يجمع قومنا على الحب ، ويؤلف قلوبهم على المودة ، وأن يظلهم براية الوحدة . .

وكفى ما ضاع . . .

وهذه المأساة التى نتجول بين فصولها إنما كتبها الحقد والحسد . . .

وما أحسب أنك — بعد الذى رأيت وسترى — سترضى أن يكون لك موضع بين الحاقدين الحاسدين ، المبغضين للإخوان ، المنكرين عليهم نعم الأيام . .

هذه هى العظة الكبرى التى أرجو أن تخرج بها من ذلك التجوال . .

إن وعيناها فالغد كله إشراق وآمال . . .

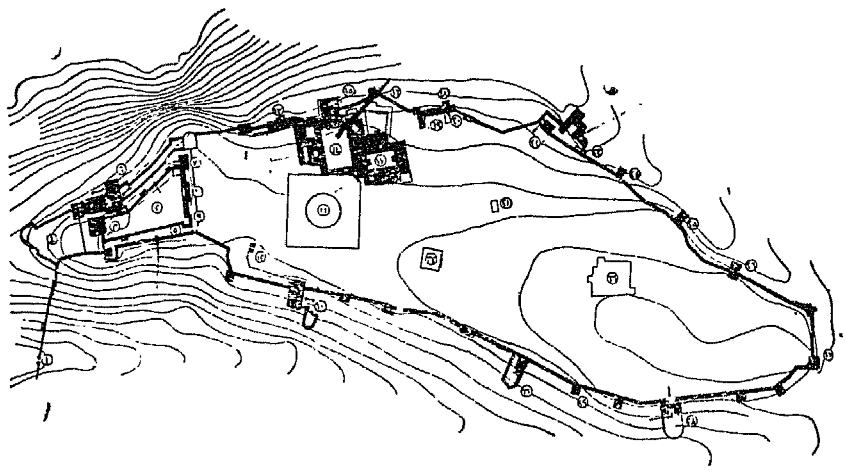
وإن نسيناها فالغد كله مأساة كهذه التى تملأ قلبك بعد أن رأيت الذى كان . . .

هذه الآثار يراها غيرنا ليستمتع ويطرب ، وهو يتعجب وهو يراها كيف ضاع الذين بنوها ومضوا مع أمس الدابر .

أما نحن فنراها لنتعظ ونعتبر . ما زرتُها مرة إلا وقع فى خاطرى أن الله سبحانه أبقاها لحكمة عنده ، أبقاها لنرى من خلالها ما ضيعناه . أبقاها لكى يقول الواحد منا لنفسه : هذا هو الحطام فكيف كان السفين ؟ هذه هى البقية فكيف كان الكل ؟ وهذا الكل ضيعه أجدادى غفر الله لهم ، ضيعوه لأن قلوبهم خلت من التآخى والتعاطف ، لأنهم نسوا أن المجد لا يقوم على شر أبداً ، إنما يقوم على الخير والحب والتضحية والإيثار .

ضيعوه لأن قلوبهم خلت من المثل الأعلى ، نسوا أن الأوطان لا تُحمى إلا إذا كان أهلها صفاً كالبناء المرصوص .. ضيعوه ثم أقبلوا يبكونه ، وهذه الدنيا لم تخلق لمن يبكى . خلقت لمن يقف مناضلا عن أرضه وعقيدته وإخوانه ، خلقت لمن غنىَ قلبه بالحب وتعلقت نفسه بالخير .

والوطنية والدين حب وخير ...



منظر عام يمثل القصبة وأبراجها والمباني التي بداخلها ، ما بقي منها وما زال وما بني فيها بعد أيام العرب . وهذه القصبة هي التي تسمى اليوم حصون الحمراء وقصورها ، وهي تقوم على قمة التل الأحمر يحيط بها سور تقوم عليه الأبراج ، ومعظمها باق إلى اليوم . الطرف الأيسر من هذه المنشآت هو القسم العسكري من مباني الحمراء ، ويسمى الآن بالقصبة . وإلى جنوب القصبة على سفح التل كانت تقوم حدائق ، لا زال بعضها باقياً إلى اليوم . وفي الموضع الذي كانت فيه هذه الحدائق يمر الطريق الصاعد إلى الحمراء اليوم ، وعند قاعدة التل كان يقوم فحص السبيكة ، وكان مزارع وحدائق ، وهو اليوم جزء من مدينة غرناطة تقوم فيه المساكن . وإلى الشمال الشرقي من القصبة تقوم حدائق جنة العريف . وقد بينا أسماء الأبراج ، وقلما يراها الزائرون ، رغم أهميتها المعمارية . (نقلا عن ليوپولدو توريس بالباس) .

١ — أبراج الحمراء (توريس بيرميخاس) .

٢ — ميدان السلاح داخل القصبة

٣ — برج الحراسة (تورى دى لاڤيلا)

٤ — تحصينات

٥ — الدروب (أداربس)

٦ — باب السلاح

٧ — برج التكريم (تورى دى أوميناخ)

٨ — البرج المهدوم (تورى كيبرادا)

٩ – برج الدراق (تورى دى أدارجيرو . والدراق صانع الدرقات ، وهى تروس من الجلد)

١٠ – باب الشريعة

١١ – قصر كارلوس الخامس

١٢ – الباب المسمى بباب النبيذ

١٣ – برج ماتشوكا

١٤ – بهو قمارش

١٥ – برج قمارش

١٦ – برج متزين الملكة (پينادور دى لارينا)

١٧ – بهو السباع

١٨ – برج النساء (تورى دى لاس داماس)

١٩ – البرطل

٢٠ – مصلى

٢١ – أطلال قصر كونت تنديا

٢٢ – برج القمم (تورى دى لوس پيكوس)

٢٣ – باب الحديد

٢٤ – برج القنديل

٢٥ – برج الأسيرة

٢٦ – برج الأميرات (تورى دى لاس إنفانتاس)

٢٧ – برج الماء

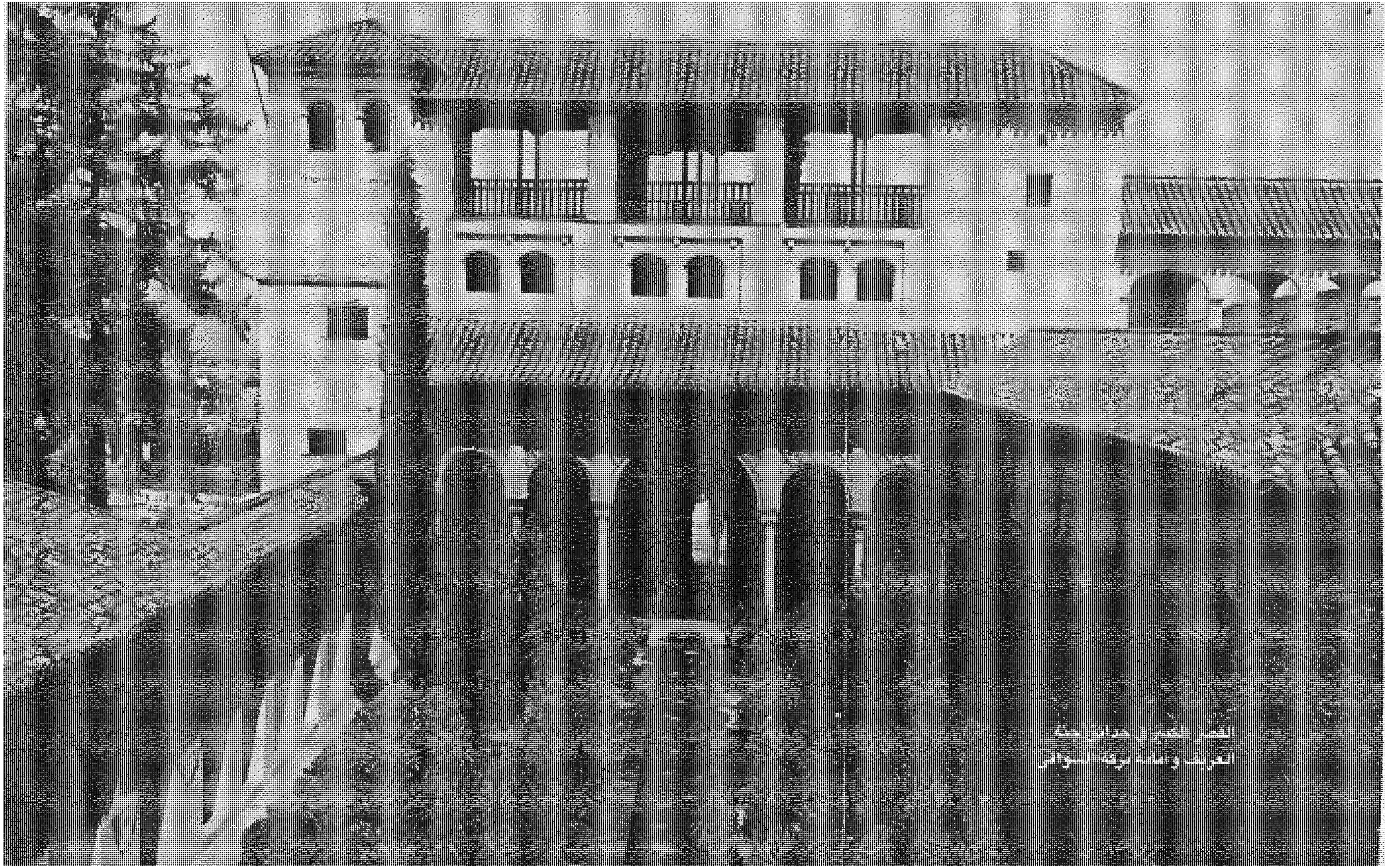
٢٨ – برج الطباق السبع (تورى دى سييتى سويلوس)

٢٩ – برج الطليعة (تورى دى لا أتالايا)

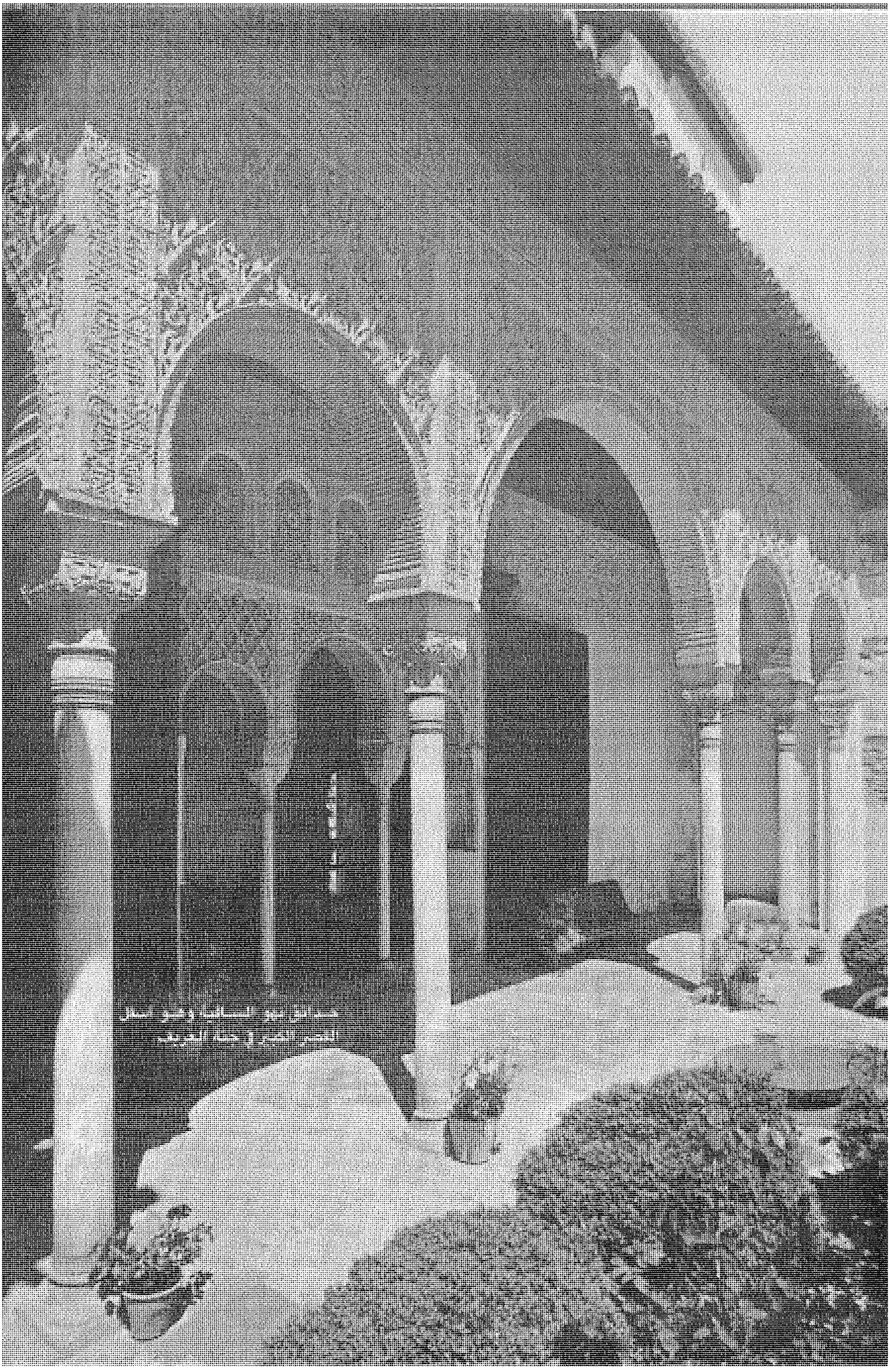
٣٠ – برج الرءوس (تورى دى لاس كابيثاس)

٣١ – نزل سان فرانثيسكو (كان قبل ذلك ديراً بنفس الاسم)

٣٢ – الحمام



القصر الكبير في حدائق جنة
العريف وتبدو بركة المياه



حدائق بهو الساقية وفي أسفل
القصر الكبير في جنة العريف

وَلا غَالب إلاّ الله ..

إذا كان محمد بن نصر بن الأحمر مؤسس الدولة النصرية هو الذى بدأ بإنشاء الحمراء ابتداءً من سنة ١٢٣٨، فإن معظم مبانيها القائمة إلى اليوم، ومعظم السحر الفنى الذى يتجلى فيها، يرجع الفضل فيه إلى السلطان أبى الحجاج يوسف ابن أبى الوليد إسماعيل بن فرج (٧٣٣ — ٧٥٥ / ١٣٣٣ — ١٣٥٤) سابع السلاطين من بنى نصر. لقد كان ملكاً فناناً شاعراً، أضفى من شعره وفنه على مبانيه ومبانى أسلافه، فكان ما ترى من البهاء . . .

وأبو الحجاج يوسف هذا هو الذى بنى باب الشريعة الذى نقف أمامه . .

بوابة عربية هائلة ارتفاعها خمسة عشر متراً، كانت الباب الرئيسى الذى يدخل منه رجال الدولة وأهل الحاجات من الناس. الشريعة هنا معناها الشارع لا الشرع. لا محل — كما قلنا — لترجمته بمعنى « باب العدالة » أو باب العدل (پويرتا دى لاخوستيثيا) لأن هذا الباب لم يكن يؤدى مباشرة إلى الجامع (وهو مجلس القضاء أو المحكمة) وإنما هو يؤدى إلى وسط مبانى الحمراء، إلى الميدان الواقع بين القسم العسكرى من مبانيها (الأبراج والمحارس) والقسم المدنى (المساكن والحدائق وإدارات الدولة وما إلى ذلك).

من ممر جانبى نصل إلى بوابة أخرى تسمى اليوم باب النبيذ. اسم حديث

طبعاً، من غير المعقول أن يطلق المسلمون هذا الاسم على باب من أبواب مدينتهم . . .

السبب في ذلك الخطأ الشنيع يرجع إلى خطأ في القراءة. فقد كان الأندلسيون يسمون هذا الباب باب الحمرة فجاء رجل وقرأه: باب الخمرة والخمرة هي النبيذ.

كثير جداً من الأسماء التي تطلق اليوم على أجزاء من الحمراء أسماء حديثة. بعضها أيضاً عامي ابتكره ناس أو أدلاء لا يعرفون عن الحمراء شيئاً، وذلك أمر كثير الحدوث فيما يتصل بالآثار: يضع لها العوام أسماء تتفق مع تصورهم ثم تصبح هذه الأسماء أعلاماً تسجل في الكتب، كما نقول نحن: «تمثال شيخ البلد»، أو «مصطبة فرعون» أو «أبو الهول»، وما إلى ذلك . . .

نصل إلى ميدان فسيح يسمى ميدان الجب (إلألخِيبى)، أي ميدان صهريج الماء. الصهريج لا زال باقياً، نجده في نهاية الميدان تحت الأرض. حولوه إلى «بوفيه» للماء، الوحيد من نوعه في العالم. لو شئت أضافوا إليه شيئاً من السكر وقليلاً من شراب الينسون.

على يميننا نجد مبنى حديثاً، ذلك هو قصر شارل الخامس. أراد بعض حاشيته أن يتقرب إليه فزعم أنه سيبنى له قصراً أجمل من قصور العرب. هدموا جانباً عظيماً من قصور الحمراء وأقاموا بناءهم. دخله الملك وألقى نظرة ثم خرج، ولم يعد . . كان على حق. التحفة التي أنشأوها لم تكن إلا ميدان مصارعة ثيران. وقف البناء عند الدور الأرضي وجزء من الدور الثاني. يستعملون جزءاً منه إدارة للحمراء، من هنا تأخذ تذكرتك لزيارة القصور . .

على يسارك تجد القصبة: مجموعة من الحصون والأبراج تقوم على حافة الجبل، كل قطعة منها آية من آيات الهندسة العسكرية.

هذا هو القسم الحربي من مباني الحمراء . .

فالحمراء لم تكن قصوراً فحسب، وإنما كانت قصوراً وحصوناً ودواوين. وهي لهذا تنقسم بوضوح إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول هو الذي تراه على يسارك إذا دخلت، إنه يسمى القصبة. القصبة في نظام تخطيط المدن الإسلامية جزء من البلد يختارونه دائماً على مرتفع وينشئون فيه حصناً داخل أسوار البلد. في هذا الحصن يقيم الجند والقادة ويُخزن السلاح والذخيرة وزاد احتياطي من الحبوب وعلف الخيل. إذا اقتحم عدو أسوار البلد لجأ أهله إلى القصبة - أي الحصن - واستمر الجند في الدفاع. لا تجد في المغرب والأندلس بلداً دون قصبة.

والقسم الثاني من الحمراء خاص بالمباني العامة: مجالس المشاورات، وقاعات جلوس السلطان، واستقبال الضيوف، والجامع، وما إلى ذلك..

والقسم الثالث متصل بهذا، وهو القسم الخاص: دور السلطان وأهله وخدمه وحريمه..

بين القصبة والمباني العامة والخاصة يفصل ميدان الجب.

وبين المنشآت العامة ودور السلطان يفصل بهو قَمَارش.

ولا تقتصر الأبراج والتحصينات في الحمراء على القصبة، لأن الحمراء في مجموعها كانت حصناً، ومن ثم فإن الأبراج تقوم على كل قسم فيه. بعد أن تفرغ من زيارة الباقي من قصور الحمراء ستجد مجموعة أخرى من الأبراج.

والباقي من قصور الحمراء يطلق عليه اليوم في جملته «القصر العربي»، ونحن ندخل إليه من ممر صغير إلى جانب قصر شارل الخامس. ممر أشبه بالمنزل يؤدي بك بعد دهليز قصير إلى أول ما تلقاه اليوم من قاعات الحمراء، قاعة المَشْوَر.

***

لم يكن أهل غرناطة يدخلون من هنا، لأن القاعة المعروفة الآن بالمشور كانت وسط سلسلة طويلة من القاعات والأبهاء. كانوا يدخلون من باب في آخر ميدان الجب، فإذا دخلوا منه أفضوا إلى بهو واسع مهجور

يسمى اليوم بهو ماتْشُوكا. ماتشوكا هذا كان المعلم المكلف بأعمال النجارة في قصر شارل الخامس. استعمل البهو مخزناً لأخشابه فهدمه، ونسب إليه. إليه أيضاً ينسب برج لا زال قائماً عند حافة البهو.

قبل هذا البهو كان يوجد مسجد صغير لا زالت آثاره باقية، لا بد أن المعلم ماتشوكا قضى عليه هو الآخر.

بعد ذلك نصل إلى المشور. هنا يبدأ لقاؤنا مع الباقي من فن الحمراء. .

والمشور مبنى ـ أو جزء من مبنى ، كما هو الحال في الحمراء ـ لا يخلو منه قصر ملكي في المغرب.

إنه قاعة ـ أو قاعات ـ كانت تخصص أول الأمر لاجتماع السلطان برعيته لينظر في ظلاماتهم، ثم أصبح بعد ذلك يخصص لاجتماع السلطان بوزرائه ورجال دولته.

مَشْوَر الحمراء كان مخصصاً لاجتماع السلاطين برعاياهم، ويذكر ابن فضل الله العُمَري ـ وهو معاصر لبني الأحمر، إذ عاش وكتب في القرن الرابع عشر الميلادي ـ أن السلطان كان يقعد للناس فيه يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، وكان يحضر هذا المجلس معه أولاده ونفر من قرابته ورجال حاشيته. وقد تم إنشاء هذه القاعة سنة ١٣٦٥، بهذا تشهد أبيات لابن زَمْرَك شاعر الحمراء. نظمها مهنئاً للسلطان محمد الغني بالله بالفراغ منها، إنها من أجمل ما نظم شعراؤنا في وصف المباني والمنشآت.

إنها تتناول الحمراء كلها، وأنت جدير بأن تقرأها كلها، فقد أتانا بنصها شهاب الدين أحمد بن محمد المُقَّرى في كتابه المبدع «أزهار الرياض» (جـ ٢ ص ٦٥ وما يليها). أبيات كثيرة من هذه القصيدة تجدها منقوشة على جدر الحمراء وأعمدتها، ومطلعها:

سَلِ الأفْق بالزهر الكواكب حاليًا   فإنِيَ قد أودعته شرح حاليا

وأبياته التي يصف فيها قاعة المشور هي هذه، أورِدُها لأنها الوصف

الوحيد الباقي بين أيدينا لهـذه القاعـة الفريـدة كما كـانت عندمـا فرغت من انشائها يد الفنان :

به الْبهوُ قد حاز البهاءَ، وقد غدا | بـه القصرُ آفـاقَ السـماء مبـاهيـا
وكـم حُـلة جـلَّلْتَـه بـحَـلْيـهـا | من الوَشْي تُنسِي السابريَّ اليمانيا
وكم من قسيٍّ في ذراه تـرفَّـعت | عـلى عَمدٍ بـالنور بـاتت حـواليـا
فتحسَبُهـا الأفـلاكَ دارت قسيُّهـا | تُظلُّ عمودَ الصبـح إذ لاح باديـا
سـواريَ قد جـاءت بكل غـريبة | فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
بـه المرمـر المجلوُّ قـد شفَّ نُـورُه | فيجلو من الـظلماء ما كـان داجيا
إذا ما أضاءت بـالشعاع تَخـالُفها | عـلى عِـظم الأجـرام منهـا لآليـا

وإذن فقد كانت في سقف هذه القاعة قبة تقوم على عمد من المرمـر في وسـطها. وكـانت هذه القبـة تقوم عـلى قسيّ ـ أي أقواس صغيـرة ـ تزينهـا شبابيك من الزجاج الملون، إذا نفذ منها الضوء خيل للإنسان أنها لآلىء . .

هذه القبة قد زالت الآن ، لأن الذين استولوا عـلى الحمراء أرادوا أن يحولوا هذه القاعة إلى كنيسة صغيرة أو مصلى، فأزالوا القبة وسدوا فتحتهـا، ووضعوا منصة معترضة مرفوعة على عمـد ليقف القس فوقهـا، وأزالوا كـل الزَّلِيج (القاشاني) الجميل الذي كـان يغطى الحـائط الأيمن إلى ارتفاع نحـو متر، ثم ازالوا كل النقوش التي كانت تزين ذلك الحائط، وتبينـوا بعد ذلـك أن المكان لا يصلح للمصلى، فتركوا القـاعة عـلى هذه الهيئـة الشائهـة. وفي تاريخ متأخر وضعوا رَنْك (شارة) شارل الخامس على الحائط الأيمن، وفتحوا نوافذ كبيرة تطل على ما يعرف الآن ببهو ماتْشُوكا.

ولا زالت النـاحية اليسـرى من هـذا المشـور كـما هي، وهي وبعض السقف هما كل ما بقي من هيئتها الأولى.

وفي الممـر الذي تخترقه في طـريقك إلى المشـور، على اليمـين محراب جميل بارع الزخرفة، هو بقية مسجد صغير كان يقوم في ذلك الموضع.

ومن المشور تفضى إلى قاعة صغيرة تسمى اليوم القاعة المذهبة (كوارتو دورادو) ، ويمكن الدخول أيضاً إلى هذه القاعة من مدخل صغير على اليمين قبل أن تدخل المشور .

ومدخل هذه القاعة غاية فى الجمال ، فهو يتألف من بوابة زخرفية بالغة الرقة تقوم على عمودين من الرخام ، ويلى هذه البوابة باب القاعة تزينه من أعلى باكيتان توأمتان كأنهما مشربيتان أنيقتان من الجص المخرم ، وزخارف هذا الباب منقوشة بالذهب ، ومن هنا جاءت تسمية القاعة المذهبة .

وهذه القاعة المذهبة تؤدى بك إلى بهو مكشوف يسمى البهو المذهب ، وليس فيه من الذهب شىء ، وإنما هو أشبه بفاصل بين ما مررنا به من أجزاء القصر وما يليها ، وتلك ميزة من ميزات عمارة الحمراء : بعد كل مجموعة من الغرف والأبهاء يقوم بهو مكشوف ، لأن الهواء والشمس وزرقة السماء جزء من التكوين الفنى للحمراء . .

هذا البهو فقد الكثير من زينته وجماله : جدرانه الآن عارية من يمين ومن شمال ، النافورة التى كانت تزينه نقل معظمها إلى حديقة دار عائشة (داراشا) التى سنراها بعد قليل .

لم يبق من هندسته القديمة إلا مدخل قاعة قمارش الذى تراه أمامك . إنه مدخل عظيم يذكرك بمدخل قصر إشبيلية . يطول بنا الأمر لو أخذنا فى وصفه قطعة قطعة ، فها هو أمامك ببابيه الصغيرين وجداره المتسع الذى عرف الفنان كيف يحيله إلى معرض للنقوش والزخارف من كل هيئة . فوق كل من البابين ترى شرفة من عقدين زخرفيين صغيرين يقومان على أعمدة رفيعة من الرخام . وأعلاه شمّاس (أى مظلة) عظيم من الخشب .

من بابى هذا المدخل تفضى إلى غرفة صغيرة تسمى غرفة قمارش .

غرفة مثقلة بالزخارف ، نموذج لما سيتكرر منذ الآن أمام بصرك فى الحمراء . . أمام هذا الحشد الهائل من الزخارف — الشبيهة بالدنتلا — التى

تريح العين وتتعب الفكر ، تشعر وكأن أفكارك تتلاحق فى سرعة . تصبح هى الأخرى دنتلا . . .

بعد ذلك تصل إلى علم من أعلام الفن الأندلسى ، بل العالمى : بهو قمارش . .

للمرة الأولى فى تاريخ علم الجمال يوفق البشر إلى تنسيق رائع من : الرخام ، والحجر ، والجبس ، والخشب ، والماء ، والخضرة ، والزهور ، والسمك ، والشّعر . . .

هذه كلها تتجمع فى يد الفنان الخالق فينشئ وحدة جمالية فريدة فى بابها ، قاس الفنان كل شىء فيها وقدره بمقدار . .

البهو مستطيل ينتهى كل من طرفيه بسبعة عقود غاية فى الرقة والخفة ، هذه العقود تقوم على عمد رقيقة من المرمر . .

العقود القبلية (الجنوبية) تحمل طابقين صغيرين : الأول منهما له نوافذ بسيطة تحمل عقوداً من الخشب الملبس بالجبس أرق من الأولى .

تحتل وسط الفناء كله بركة مستطيلة كأنها مرآة يسبح فيها سمك الزينة ، على جانبيها — من اليمين ومن الشمال — صفان من شجيرات الريحان .

وتزين جدار الوجهة الشمالية أبيات من شعر ابن زمرك من قصيدة قالها لمناسبة المولد النبوى الكريم والفراغ من إنشاء هذا الفناء . . كان ذلك سنة ١٣٦٩ أيام السلطان محمد الغنى بالله . .

ينبغى أن تتأمل هذا البهو عندما يكون خالياً من الناس ، مع الصباح الباكر مثلا ، فقد أنشئ ليخلو فيه السلطان إلى نفسه أو إلى وزرائه ورجال دولته . نعم إن هذا البهو هو الفاصل بين القسم العام من مبانى الحمراء وقسمها الخاص ، ولكن هذا الجزء العام نفسه لم يكن مباحاً لكل الناس ، إنه مكان خلوة أيضاً . خلوة للتفكير والتدبير ، وهذا التأنق الذى تراه هدفه التسرية عن النفس ، إنه إطار فنى تطمئن إليه الروح ويصفو معه الخيال .

هنا تختلف قصور الحمراء عن مثيلاتها من القصور الملكية التي تعتبر آثاراً تاريخية وفنية . قصور ڤرساى مثلا أنشئت ليتباهى بها أصحابها على الناس . أنشئت لتبهر عقول الزائرين . أما قصور الحمراء فلم تنشأ إلا لأصحابها . لم يكن المقصود أن تصبح معارض فى أيامهم أو متاحف من بعدهم . إنها كصورة رسمها فنان لنفسه ، فيها ذلك الإخلاص الذى يكون بين المرء ونفسه والصفاء الذى يلتمسه الإنسان بعيداً عن الناس .. هذه القصور أنشأها خمسة أو ستة من السلاطين ، أضاف كل منهم شيئاً يوافق مزاجه . كل شىء هنا مفصل على مقياس رجل واحد .

الأعمدة والأقواس صغيرة رقيقة كأنها نماذج مصغرة لا للمبانى نفسها . لهذا تبدو الحمراء فى أجمل صورها على « الكارت پوستال » . المادة التى صنعت منها هى أيضاً رقيقة هشة ، معظمها خشب وجبس وقاشانى . لم يحدث أن صاغ الإنسان هذا الجمال كله من مواد بهذا الرخص . فى ڤرساى مثلا يرجع معظم الجمال إلى الذهب والفضة والرخام والبلور والكريستال والأخشاب الغالية .

أضاف العصر الحديث أشياء كثيرة إلى الحمراء ليجعل منها شيئاً سياحياً . عندما تفتح أبواب الحافلات لتصب عشرات السائحين ليجوسوا فى هذه المخادع تموت الحمراء : يخيل إليك والناس يروحون ويجيئون ويلتقطون الصور أنك فى مسرح ، وهذه مناظر على القماش . عندما تتأمل بهو قمارش وترى ظلال الأعمدة فى الماء يخيل إليك أنها محمولة على الهواء ، هذا هو جو الشعر الذى أراده الفنان . لهذا ينبغى أن تكون هناك وحدك . .

تحت الأقواس البحرية (الشمالية) باب تنفذ منه إلى بهو صغير يسمى بهو الباركا ، أى بهو القارب . هذا اسم حديث ، لأن سقف هذا البهو احترق سنة ١٨٩٠ فسقفوه بشىء فى هيئة القارب المقلوب . ما يقوله الأدلاء من أن اسم « الباركا » مشتق من « البركة » العربية غير صحيح . فى هذا البهو تجد من الزخارف الهندسية ما يحتاج تأمله لأيام متوالية . .

من هنا تنفذ إلى قاعة قمارش ، تسمى أيضاً قاعة السفراء . قمارش جمع إسبانى للفظ قُمْرِيّة ،وهى المنور الصغير المزين بالزجاج الملون . الاسم العربى للقاعة إذن : قاعة القمريات . لا تدرى أين تستقر عينك : الجدران كلها نقوش رائعة من أعلى إلى أسفل ، وحدات زخرفية صغيرة متماسك بعضها مع بعض فى تناسق شجى . أنشودة حلوة من الألوان والخطوط والدوائر والمثلثات . الشرفات واسعة ، حافاتها أقواس أصغر ، أعلى القاعة كله شرفات صغيرة جميلة : تلك هى القمريات . أنت الآن تحت برج من أكبر أبراج الحمراء ، برج قمارش . تحت القمريات ترى شريطاً من الكتابة كله دعاء متكرر لمنشىء القاعة : عز لمولانا السلطان المجاهد أبى الحجاج يوسف . .

من هنا ينبغى أن تمضى إلى حمام الحمراء . إنه لا يتبع ذلك القسم العام من مبانى الحمراء ، ولكن أيسر طريق إليه الآن يأخذ من هذه الناحية . الحمامات جزء من حياة العربى . قصور فرساى كلها ليس فيها حمام واحد . لويس الرابع عشر لم يستحم فى حياته إلا مرة واحدة ، أقسم بعدها لا غسل جسده أبداً !

هذه أجمل حمامات يمكن أن تتصورها . يقص عليك الأدلاء عجباً : يقولون لك مثلا أن الاستراحة المؤدية إلى الحمام كانت مخصصة لرقص النساء ، وأن موسيقيين ضريرين كانوا يعزفون فى الشرفة العليا . لا تصدق ذلك . هذه استراحة . رائعة حقاً ، ولكنها لا تخرج عن كونها استراحة . بعد أن يخرج السلطان من الحمام الساخن يجلس هنا ساعة قبل أن يخرج . الحمام نفسه تحفة : ماء ساخن وماء بارد ، هناك ماسورة تبعث فى الجو عطر المسك ، هناك بانيو صغير وبانيو كبير . ماذا اخترع العصر الحديث زيادة على ذلك ؟ . .

من هنا نمضى إلى بهو السباع . .

ليس فى أبهاء الحمراء ما هو أجمل منه ولا أشهر . صورته معروفة فى الدنيا كلها انه كـوجه أبي الهـول. إنه صغـير رقيق حتى ليخيل إليـك أنه بنى

ليعيش يوماً وليلة . البهو صغير ، ولكن الفنان عرف كيف يخيِّل لك أنه فسيح : أعمدة رقيقة تحمل أقواساً أرق على الجوانب ، فى الطرفين أخرج المعمارى خميلتين تقومان على أعمدة رقيقة كأنها أشجار شابة . كل ذلك محمل بالزخارف الجصية الملونة .

تحت البواكى مخادع أشهرها مخدع بنى سراج ، يقابله مخدع الأختين . المخدعان آيتان فنيتان . الجمال الذى فيهما لا يوصف ، يقولون لك إن السلطان قتل بنى سراج جميعاً فى تلك القاعة وجرى دمهم إلى الفناء ، ويشيرون إلى بقعة وسط حوض الماء ويقولون : وهذا هو الدم ! أساطير رددها خصومنا ورددها متعصبون من أمثال شاتوبريان . .

وتختلف قاعة الأختين عن قاعة بنى سراج ، فإن الأولى أشبه بشرفة واسعة تشرف على الحديقة ، والثانية (قاعة بنى سراج) غرفة مقفلة أصلح ما تكون للنوم . وبالفعل فإن جمالها يتبدى لك كاملا إذا أنت استلقيت على ظهرك ونظرت إلى السقف . هنا يخيل إليك أنك تنظر إلى فص خاتم من داخله . .

أما قاعة الأختين فتحيط بها الشرفات . الشرفة الرئيسية يسمونها منظرة داراشا ، أو لينداراشا . الكلمة الأولى يقولون إنها تحريف لدار عائشة ، والثانية لعين دار عائشة . عين هنا معناها المنظرة ، المكان الذى ينظر منه الإنسان . كانوا فى الأندلس ينطقون عائشة : عاشة . من هى عاشة هذه ؟ أظنها أيضاً أسطورة . على أى حال كل مخادع الحمراء تحس فيها بظلال المرأة . هذه القصور كلها تكملها النساء . إنها علب جميلة لحفظ الجواهر . .

نحن نرى الحمراء عارية : لا أثاث ولا سكان . كلما وقفت فى قاعة بنى سراج أو فى قاعة الأختين خيل إلىّ أننى داخل صندوق مجوهرات أو علبة حلوى . فى أحيان أخرى أحس أننى قد اقتحمت مخدعاً على صاحبه ، وأننى لهذا ينبغى أن أبادر بالخروج . يستولى علىّ هذا التوقير الذى نشعر به

– معاشر العرب – لحُرَم الناس ، فهذه مخادع نوم ومجالس راحة لم يخطر ببال صاحبها أنها ستكون فى يوم ما مكاناً عاماً .

المخادع خالية ، ولكن الخيال يكمل الصورة : هنا كانت وسائد ومساند تدور مع الجدران . هذه الأرض كانت تغطيها السجاجيد ، وهنا – عند الشرفات التى تطل على الحديقة – كانت أرائك . إذا أغمضت عينيك أحسست وكأن الحياة تدب فيما حولك : نساء الحريم غاديات رائحات ، همسهن الرقيق يملأ جوانب القاعة ، ويتصاعد نحو هذا السقف المثقل بالزخرفة ويضيع هناك كما يضيع كل همس . ويسود الصمت . .

الصمت هو الساكن الوحيد هنا . صمت رهيب يزيده خرير الماء عمقاً ورهبة . الماء ينبعث من نافورة فى وسط البهو تستند إلى اثنى عشر سبعاً من الحجر تمج الماء من أفواهها . هذه السباع هى أقل ما فى هذه القطعة الفنية جمالا ، ولكنها أشهر ما فيها . الشهرة لا تتمشى دائماً مع الحقيقة والجمال . .

فى الوجهة القبلية تجد قاعة الملوك ، إنها أشبه بدهليز . قف فى أحد طرفيها لترى جمالها : أقواسها وبواباتها تتوالى أمامك مثقلة بالزينة .

شىء آخر يميز هذه القاعة : تصاوير فى السقف . تصاوير ملونة على الجلد داخل إطارات تمثل صوراً من الحياة فى القصر . واحدة منها تمثل عشرة رجال جالسين فى ملابس عربية غرناطية فاخرة . يقولون إنهم ملوك ، من هنا جاء اسم القاعة . من طريقة التصوير يستنتجون أن المصور إيطالى ، وأنه قام بهذا العمل خلال الثلاثين سنة الأخيرة من تاريخ غرناطة العربية .

قبل أن نخرج إلى الحدائق لا بد أن نزور السجن . .

بضع درجات تهبط بها إلى ما تحت القصور . دفعة واحدة تجد نفسك فى عالم السدود والقيود . ظلام ورطوبة وأقبية لا ينفذ الضوء إليها إلا بشق النفس .

هذا هو الوجه الثانى من الحياة فى الحمراء . هناك لم يكن إلا صورتان

للحياة : إما أن يكون الإنسان سلطاناً أو سجيناً ، بين هذين لا يوجد وسط ؛ إما الجنة كلها أو الجحيم كله . لهذا كان النزاع على السلطان قاسياً مريراً .

لنخرج من السجن ، فإن مجرد زيارته لا تسر النفوس . .

* * *

بعد بهو السباع ببضعة ممرات نخرج إلى الحدائق والرياض .

لم تكن هذه كلها فى الأصل حدائق أو رياضاً . كانت هناك أجنحة أخرى تهدمت . كانت المبانى تمتد حتى جنة العريف ، وهى أمامك فى أعلى التل .

على يسارك تجد خميلة لطيفة تسمى البَرْطَل : خميلة باوعة الجمال تقوم على خمسة أقواس ، أمامها بركة مستطيلة تنعكس فيها صورة البرطل كأنها مرآة ؛ شرفات البرطل تطل على غرناطة كلها ، من هنا تستطيع أن تتأمل البلد ؛ أمامك من بعيد ترى التل الذى يقوم عليه حى البيازين .

والبرطل لفظ اسباني معرب انه Portal أي البوابة أو الباب .

إلى جانب البرطل مسجد أو مصلى صغير، آية في الجمال. إنه مسجد لرجل واحد . .

الحدائق التي تحيط بك روعة في هندسة البساتين : إنها درجات بعضها فوق بعض، تنسيك ما عسى أن تكون قد سمعته عن حدائق بابل المعلقة . .

في طرف سلسلة المباني هناك برجان : برج الأسيرة، برج الأميرات . الدور الأول من كل منهما أشبه بقاعة استقبال كلها جمال وفتنة . فوق ذلك يقوم البرج .

ننتقل إلى رائعة أخرى من روائع الفن العربي الغرناطي : حدائق جنة العريف . .

إنها تمثل لك فلسفة العرب فى الحدائق فى أجمل صورها ، فإن للحدائق طرزاً وفلسفات تنبع من نظرة أهلها إلى الحياة . .

الحديقة الفرنسية (ڤرساى ، تريانون ، مالميزون ، التويلرى) قطع للزينة أقيمت لتبهر العين : زهور وأشجار مهندسة مرتبة مختلفة الألوان . .

الحديقة اليابانية تجمع لك كل مناظر الطبيعة فى أصغر مساحة : شلال ، قنطرة خشبية ، تل ، مجرى ماء . . كل شيء صغير فى حجم الكارت بوستال . . .

الحديقة الإنجليزية مرج أخضر فى وسطه البيت . إنها حديقة للسكن . من هنا جاء طراز المدن المسمى بالجاردن سيتى .

أما الحديقة العربية فهي خلوة ومعتزَل: أسوار عالية وأشجار باسقة تفصل الحديقة عن تيار الحياة. خلف هذه الأسوار يجلس صاحب الحديقة خالياً بأهله أو وحده يتأمل جمال صنع الله أو يتحدث مع صديق. الماء جزء لا يتجزأ من الحديقة. خرير الماء يجعل الصمت أعمق. صفحة الماء تعكس صورة السماء.

حدائق جنة العريف تصور ذلك كله أروع تصوير. .

تصل إليها عن طريق يسير بين صفين من الأشجار الباسقة، هذا الطريق يباعد بينك وبين الحياة شيئاً فشيئاً. ثم تصل إلى الحديقة نفسها: ممرات ومماش وخمائل ذات بوابات كلها من ورق الشجر. أحواض الزهر موزعة توزيعاً رائعاً. بين هذه الخمائل مقاعد لتجلس وتتأمل. نافورات الماء في كل مكان، وخريرها تسمعه من كل اتجاه. إلى جانب سيمفونية الخضرة وألوان الزهر، هناك سيمفونية الماء.

نصل إلى ما يسمى بالقصر الكبير. إنه خميلة عربية من دور واحد بنى عليها ملوك الإسبان دوراً ثانياً. الخميلة درة من الزينة والزخرف. تخرج منها فترى شيئاً عجيباً. نافورة لطيفة ذات حوض مستدير، ثم بركة طويلة مستطيلة. من الجانبين ينبعث الماء ليصب في البركة بتقدير عجيب. الماء يبدو وكأنه أقواس نصر رقيقة تتألق تحت أشعة الشمس. على الجانبين زهور مختلفة الألوان خلفها صفان من أشجار الحور الصغيرة. هنا يتمثل لك في

أجلى صورة إبداع الفنان العربي في الجمع بين الخضرة والماء والزهر. عطر الريحان يملأ الجو، خرير الماء يملأ الأسماع. تلك هي الجنة، جنة العريف وغير العريف. .

في نهاية ذلك الممر الزهري المائي تجد الخميلة الثانية، إنها تشرف على الحمراء ومن ورائها غرناطة. من هنا تراها كلها. . .

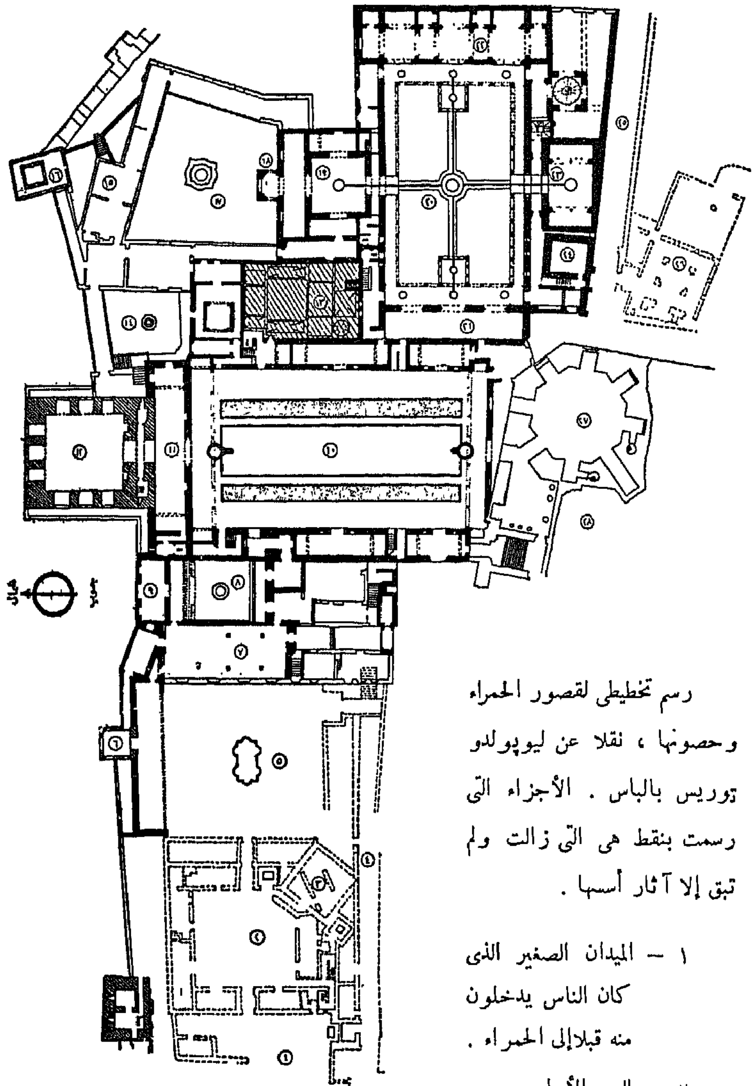
في ناحية أخرى ـ على اليمين ـ تجد سلماً عجيباً أجرى الفنان الماء على جانبيه وفي وسطه: مكان الموضع الذي تضع يدك عليه من الدربزين قناة ماء. .

هذا الماء كله ينحدر من جبل الثلج ، سْيِرّانيفادا. .
لم يحدث أن استعمل الإنسان الماء كعنصر زخرفي على هذه الصورة. .
لم يحدث أن وصل إلى هذا السحر من الخضرة والزهر والنافورات. .
ولكنه الذهن العربي والإحساس العربي. .
هذا كله صَنَعه الفنان والمهندس والعالم والشاعر. .
وضيعه الملوك. .
ولا غالب إلا الله. .

هذه العبارة شارة بنى نصر، كتبوها في كل صورة يتخيلها العقل: على كل شبر من البناء، على كل درع، على كل سيف، على كل ثوب. . .

إنها لحن طويل يتردد في كل ركن من أركان الحمراء، يتجاوب صداه في كل زاوية. .

كانوا يقولونها إذا انتصروا، تواضعاً لله. . . .
وكانوا يقولونها إذا انهزموا، أملا في نصر قريب. . .
قالوها يوم أنشأوا حصون الحمراء وأمنوا فيها على العروبة والإسلام. .
وقالوها عندما غلبوا على أمرهم وأسلموا الحمراء وغرناطة. .
ولا غالب إلا الله. .



رسم تخطيطي لقصور الحمراء وحصونها ، نقلا عن ليوپولدو توريس بالباس . الأجزاء التي رسمت بنقط هي التي زالت ولم تبق إلا آثار أسسها .

١ – الميدان الصغير الذي كان الناس يدخلون منه قبلاإلى الحمراء .

٢ – البهو الأول .

٣ – أطلال جامع الحمراء .

٤ – شارع ممهد كان يلي الأسوار .

٥ – بهو ماتشوكا .

٦ – برج ماتشوكا .

٧ — المشور ، وهو أولى القاعات الباقية الآن .

٨ — بهو القاعة المذهبة .

٩ — القاعة المذهبة .

١٠ — بهو قمارش أو بهو الريحان .

١١ — قاعة الباركا (القارب) .

١٢ — قاعة قمارش .

١٣ — الحمام .

١٤ — بهو المشربية (لاريخا) .

١٥ — الجناح الذى بنى لكارلوس الخامس (شرلكان) .

١٦ — برج متزين الملكة (پينادور دى لارينا) .

١٧ — حديقة دار عائشة (داراشا) .

١٨ — منظرة دار عائشة (ميرادور دى داراشا) .

١٩ — قاعة الأختين .

٢٠ — بهو السباع .

٢١ — قاعة المقرنصات (سالا دى لوس موكارابس) .

٢٢ — قاعة ملوك العرب .

٢٣ — قاعة بنى سراج .

٢٤ — الجب .

٢٥ — الفصيل (فوسو) .

٢٦ — الروضة .

٢٧ — مصلى قصر كارلوس الخامس .

٢٨ — قصر كارلوس الخامس .

مُفترق الزّمان

بعد الحمراء وجنة العريف يشعر الإنسان أنه اكتفى . .

هذا القدر الكبير الذى استوعبه من الفن والجمال يحتاج إلى أسابيع كثيرة حتى تتمثله النفس والروح ، ونحن لا نزور هذه المعالم لنقول إننا زرناها ، بل لتصير جزءاً من نفوسنا وكياننا .

وهذه المنشآت تبدو صامتة ، ولكن صمتها ناطق بليغ يهز النفس هزاً . كالدمع الذى ينحدر على وجنة المحزون الكتوم ، يهز نفسك على صورة لا يبلغها المعلن بالصياح المجهش بالبكاء . . .

وما زرناه أقل بكثير مما لم تسعدنا الظروف بلقياه . .

فهذه الجزيرة كلها — من أقصى الشمال عند بَنْبَلُونة ووَشْقة وتُطيلة إلى الطرف القصى الجنوبى عند جبل طارق وجزيرة طريف والجزيرة الخضراء ، ومن مَيُورْقة فى البحر إلى لشبونة فى البرتغال — هذه الجزيرة كلها موشاة بآثارنا ، لا تخلو منها مدينة بل قرية . ولكنها من ذلك النوع الحزين من الآثار : بقايا وأطلال وخرائب تجدها مطمورة تحت البيوت حيناً ، أو معزولة وحدها فى البرية خارج البلاد أحياناً.نجدها هناك وحدها ، كأنها قطرات دمع تجمدت على صفحة الأندلس . دموع الزمان على المجد الذى كان . .

إن الأندلسى لم يبك نفسه ولم يعرف الدموع . ظل إلى اليوم الأخير باسلاً فى الميدان، يضرب ويُضرب . ما يقال من أن الحضارة أفسدت طباع أهل الأندلس غير صحيح ، عنصر الرجولة فى العربى سليم صاف لا يؤثر فيه ترف . قد يقبل على النساء ومتاع الحياة ، ولكنه رجل فى ميادين الرجال . قبل أن تسقط غرناطة بأيام كان رجالنا فى الميدان يحاربون ، كانوا يناضلون وملوكهم يفاوضون للتسليم . لم يكسب مغلوب احترام الغالب كما كسب الأندلسى احترام الإسبانى .

إذن كيف ضاع الأندلس ؟ . .

تعال معى . أريد أن ترى بعينيك التاريخَ كيف سار . . .

* * *

أنت تذكرُ حيَّ البيازين الذي يقع على التل المواجه لتل الحمراء . . .

ها نحن نصعد سفحه ونتخلل الدروب بين بيوته حتى ننتهى إلى شرفة طبيعية كأنها ميدان صغير ، يسمونها پْلاثيتا دى سان نيكولاس (رحبة القديس نيقولا) .

أمامنا على قمة التل المواجه ترى حصن الحمراء وقصورها . . .

فى قاع الوادى يجرى نهر حَدَارُه ، كأنه قناة أو ترعة صغيرة . .

هذا النهر المتواضع كان كافياً لتشجيع الطامعين فى العرش على الثورة على السلطان القائم فى الحمراء . .

وفى كثير جداً من الحالات كنت تجد سلطاناً هنا وسلطاناً هناك . . والحرب دائرة . .

وكلما أحس واحد منهما بالضعف أسرع إلى الإسبان وطلب عونهم على أخيه ، فاشترطوا أن يعطيهم البلد الفلانى أو الأرض الفلانية . .

ويفعل خصمه مثله ، وتضيع بلاد وتضيع أرض . .

وإذا لم يكن هنا ثائر فى البيازين كان فى بلد آخر من بلاد مملكة غرناطة : فى مالَقَة ، فى وادى آش ، فى لَوْشة ، وتدور نفس المأساة . . .

وتضيع أراض وبلاد أخرى . . .

وفى هذه البلاد التى تضيع فى المنافسات كان يسكن الألوف من العرب الطيبين ، ألوف من الذين بنوا الحمراء وغير الحمراء . ناموا عرباً مسلمين ، وباعهم السلطان أو الثائر عليه فى الليل وأصبحوا ليجدوا أنفسهم وقد حكم عليهم بأن يكونوا غير عرب ولا مسلمين . لكى يظلوا عرباً كان عليهم أن يخرجوا من ديارهم بالأهل والولد وما حملت الدابة الهزيلة إلى طرق ملأى باللصوص والجنود ، كانوا يتخطفونهم ويقتلون الرجال ويبيعون النساء والأطفال ..

يا ولداه ! والجبابرة يتطاحنون : من منهم يلبس التاج ! . .

فى أحد الشوارع الضيقة فى البيازين وقفت عند نافذة حديدية واسعة . من ورائها جلست فتيات صغيرات يعملن المفارش المطرزة ، فى صبر وأناة ترتفع الأيدى الصغيرة وتهبط بالإبر على القماش ترسم وتنمق . أثناء العمل ، وفى شغل عن الناس ، كن يتحدثن ويتنادين : ماريا تيريزا ، ماريا كارمن ، ماريا بيلار . .

الوجوه سمراء عربية ، نغمة الحديث رقيقة كحديث بلادنا . هنا أيضاً كانت بنات غرناطة العربيات ينسجن ويطرزن . كانت أسماؤهن إذ ذاك فاطمة ، وعائشة ، ومريم . دون أن يشعرن ، دون أن تتوقف حركة أيديهن ، باعهن السلطان ، وأصبحن ماريات . . . رأيتهن بالطرحة والخمار عبر خمسة قرون . . .

لا زال حى البيازين عربياً : الشوارع ضيقة ولكنها نظيفة ، البيوت معظمها متواضع ولكنها بيضاء كالثلج. هنا يبيض الناس بيوتهم بأيديهم كل أسبوعين . كما تغسل المرأة ثوبها تبيض بيتها ، بفرشاة ذات يد طويلة تراها تعمل . فى كل بلاد الأندلس وقراه ترى هذا المنظر اللطيف .

البيوت هنا كلها عربية الطراز : خلف جدار الباب نجد الفناء الصغير فى وسطه النافورة ، قد تجد حولها أصصاً من زهر الجيرانيوم . على الفناء تطل نوافذ البيت وشرفاته . المجتمع هنا لا زال أندلسياً . لا فرق بين الغنى وجاره الفقير ، كلهم إخوان ، كلهم متساوون كما كانوا على أيام العرب .

بيت واحد أحب أن نراه قبل أن نمضى : بيت الجبّاس — أو الجَبَّيِّس بالنطق الغرناطى — اليوم يقولون : لاكاسا دل شابيس . .

دار عربية لطيفة يبدو لك بوضوح أن الذى بناها استلهم الحمراء وجنة العريف : نفس العمارة الرقيقة التى تقوم على عمد الرخام والعقود الصغيرة ، نفس الحدائق والأشجار والمياه ، كل ذلك فى صورة مصغرة . هذا المبنى رمموه وأصلحوه وجعلوه مقراً لمدرسة الأبحاث العربية فى غرناطة ، ليس فى الدنيا إطار أجمل من هذا لمدرسة من هذا الطراز . . .

* * *

والسلاطين سكان القصور والحصون ، ماذا كان حالهم ؟

إنك تتصور أن الذين أنشأوا قصوراً من هذا الطراز كانوا — لا بد — فى هدوء روحى ورخاء نفسى يسمحان لهم بالاستمتاع بهذا الجمال كله ، وإذا كانت ظروف الحرب التى عاشوا فيها لم تأذن لهم فى فرص الاستمتاع فإن هذه القصور والرياض كانت جديرة بأن تملأ نفوسهم راحة وأمناً ونبلا ..

وكيف يفكر فى شرٍّ رجلٌ يتنقل بين أبهاء الحمراء ورياض جنة العريف ؟

وكيف يمكن أن يتصرَّف ساكن هذا الفردوس تصرف الوضيع الحقير ؟

ذلك لا يخطر لك ببال . . .

ولكن هذا الذى لا يخطر لك ببال هو الذى حدث وكان . . .

فإن هذه القصور لم يسكنها إلا مروَّع خائف ، أو قاتل مضرج اليد بالدماء . . .

هذه الأبهاء والقاعات التى تبعث الأمن والنبل فى نفس الجهاد ، لم تنفع هؤلاء التعساء فى شىء . . . شقى الفنان وتعب حتّى صاغ درة غالية ، فتناولها الجبار وألقى بها فى الوحل . . .

لم يأذن لنفسه فى الاستمتاع بأجمل ما فى الحياة : صفاء النفس ، وسلامة الضمير ، وجمال الطبيعة ، وعمل الفنان . .

كان مشغولا عن ذلك بما تصور أنه أهم وأبقى : الملك ، والجاه ، والسلطان . .

وكلامى هنا لا ينصب على أمير واحد من أمراء غرناطة ، بل على معظمهم ، فقد حلت بأغلبهم لعنة الخوف والقلق ولطمع فى السلطان . .

وربما كان لبعضهم شىء من العذر . . .

فإن الظروف التى قامت فيها دولتهم وعاشوا فيها كانت أسوأ ظروف أحاطت بحاكم من حكامنا الماضين . .

كانت عقدة الخلافة الأندلسية قد انحلت منذ نيف ومائتى سنة : فى الثانى عشر من ذى الحجة ٤٢٢ (٣٠ نوفمبر ١٠٣١) وقف كبير رجال قرطبة — أبو الحزم بن جهور — فى المسجد الجامع وأعلن نهاية الخلافة الأموية . كان قد يئس من العثور على أموى يستطيع أن يجمع الشمل ويتولى هذا المنصب الخطير بما ينبغى له من حزم وقدرة . فمنذ أن قام محمد بن هشام بن عبد الجبار حفيد الناصر ثائراً على عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر فى ١٦ جمادى الثانية سنة ٣٩٩ (١٥ فبراير ١٠٠٩) ونادى بنفسه خليفة للأندلس وتلقب بالمهدى ، منذ ذلك اليوم وأهل قرطبة لم يغمض لهم جفن ولم يطمئن لهم جنب : ثورة تلى ثورة ، وانقلاب يلى انقلاباً ، وخليفة يروح وخليفة يجىء . .

تسعة خلفاء توالوا فى مدى عشرين سنة . بعضهم تولى مرتين وثلاثاً ، لا يكاد الواحد منهم يستقر فى كرسيه حتى ينهض له منافس ، وتدور الحرب ويهلك الناس . . .

ومن سوء الحظ أن أحداً منهم لم يتمتع بشيء من خصال القيادة وصفات من تقوم على أكتافهم الدولات . .

وعندما يذكر الإنسان كيف أن جد هؤلاء الخلفاء عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام ــ المعروف بالداخل ــ دخل الأندلس وحيداً أو يكاد ، لا يؤيده إلا إيمانه وخلقه ، واستطاع مع ذلك أن يجمع الناس ويقيم الدولة . . عندما يذكر الإنسان ذلك يؤمن بأن كل شيء فى هذه الدنيا يقوم على الإيمان والخلق وعزمات الرجال . .

رجل دخل بلداً غريباً عنه ، تفرق أهله فى كل سبيل ، لا ينصره إلا نفر من مواليه ، ولا يملك إلا نحو مائتى دينار ، استطاع أن يجمع الشمل ويوحد الصفوف ويعز العروبة والإسلام وينشئ دولة يزهى بها تاريخ الحضارة البشرية كله . . .

ورجال أجلسوا على العرش إجلاساً ، والدولة من حولهم قائمة ثابتة الأركان ، والبلد فسيح فياض بالخيرات ، والناس يعمرون مدنه وحقوله ملايين بعد ملايين . . .

وكل ما كان يطلب منهم أن يكونوا ذوى عقل وقلب وإيمان . .

ولكن ، لأمر فى علم الله ، لم يتعرض للأمر منهم فى هذه الفترة الحافلة بالأخطار إلا مساكين قعد بهم عن إدراك المقاصد ضعف العقل والقلب والإيمان . . .

وكانت ظروفهم إلى ذلك قاسية تتطلب رجلا فى عقل معاوية ، وحيلة مروان بن الحكم ، وجرأة أبى جعفر المنصور ، وقلب هارون الرشيد . .

وانفرط العقد ، وأصبحت كل ناحية من نواحى الأندلس دولة . .

ولمح الفرصة الأعداء الرابضون فى الشمال ، فلم يكذّبوا أن بادروا ينتهزونها . .

وسقطت طليطلة وتوابعها سنة ١٠٨٥ ، أى بعد انفراط العقد بخمس وخمسين سنة كلها حروب وويلات . .

وانحدر خط الدفاع الإسلامى من وادى دُويرُه إلى وادى تاجُه إلى واديانة . .

ضاع أكثر من نصف شبه الجزيرة . .

صحيح أن النصف الشمالي كان موزعاً بين مملكتين نصرانيتين وعدد من الإمارات، ولكن كل واحدة منها كانت وحدة سياسية ذات قوة ونظام، يقوم على أمرها ملوك وأمراء ذوو بأس وطموح، من ورائهم صفوف من الكهنة ورجال الدين يشحذون هممهم ويدفعونهم إلى الأمام، ومن وراء هؤلاء جميعاً البابوية تحفز فرسان النصرانية جميعاً على الإسراع إلى شبه الجزيرة للاشتراك في حرب المسلمين. .

وقد تدارك الله عروبة الأندلس وإسلامه فى هذه المحنة بجماعة من أعظم من عرف تاريخ الإسلام من المجاهدين المخلصين ، أولئك هم المرابطون يقودهم علم من أعلام الإسلام وبطل من أبطاله هو يوسف بن تاشفين . .

لم يجاهد أحد فى المغرب الإسلامى ابتداء من أواخر القرن الحادى عشر الميلادى كما جاهد المرابطون . .

على أيديهم كسبنا معارك كبرى كانت كفيلة بأن تحسم الخطر وترد طمع الطامعين : الزّلاّقة (١٢ رجب ٤٧٩ / ٢٣ أكتوبر١٠٨٦) وأقْليش (١٦ شوال ٥٠١ / ٣٠ مايو ١١٠٨) وإفراغة (رمضان ٥٢٨ / يونيو ١١٤٣) وغيرها كثير . . وأبطال هذه الأيام الثلاثة الجليلة فى تاريخنا هم على الترتيب : يوسف بن تاشفين ، وتميم ابنه ، ثم يحيى بن غانيّة . .

وفى سبيل الدفاع عن الأندلس استشهد من المرابطين نفر من خيرة المجاهدين : محمد بن الحاج ، ومحمد بن عائشة ، ومحمد بن فاطمة ، وأبو بكر ابن تافلويت . .

وبينما كان المرابطون فى عنفوان الصراع ذياداً عن الأندلس وأميرهم العظيم على بن يوسف يشد ظهورهم ويرمى جبهة الكفاح بالجحفل بعد الجحفل، إذ بدأت طلائع ثورة الموحدين . وما هو إلا أن توفى على بن يوسف ، حتى احتدم الصراع الذى انتهى بزوال دولة المرابطين ، وقيام دولة الموحدين . .

وقبيل هذا الصراع المحزن ،وفى أثنائه ، ضاعت سَرَقُسْطة وإقليمها الواسع الذى كان يشمل حوض إبرُه كله (٥١٢ — ١١١٨) وانحدرت الجبهة إلى بلنسية وما يليها فى الجنوب ، وفى ناحية الغرب ضاعت أقاليم واسعة تضم مدناً جليلة مثل قورية وقُلُمْرِية(كويمبْرا فى البرتغال) والأشبونة ، وهبطت الجبهة إلى ما بين الوادى الكبير والواديانه . .

وأصبحت قواعد الإســلام الكبرى : بلنسيَة ومُرسية وجيّان وقرطبة وإشبيلية وبَطَلْيَوْس (باداخوس) وباجه (بيچا ، فى البرتغال) مكشوفة أمام الأعداء . . .

وحل الموحدون محل المرابطين فى ميدان الشرف . .

وكسبوا انتصارات كبرى باقية على الزمان : مثل الأَرْك (٩ شعبان ١٥٩١ / ١٩ يوليو ١١٩٥) ، بل كادوا يستولون على طليطلة ويحسمون الداء فى أيام أبى يوسف يعقوب المنصور الخليفة المجاهد العظيم . .

وبعد وفاة أبى يعقوب المنصور بدأت الكفة تشيل من جديد . .

وعلى أيام ابنه محمد الناصر بدأ الانهيار . .

وكانت هزيمة « العقاب » (لاس ناڤاس دى تولوزا) فى منتصف صفر ٦٠٩ ١٧ يوليو ١٢١٢) .

وبعد محمد الناصر تصدعت دولة الموحدين . .

وفى خلال ٢٠ سنة فيما بين ١٢٣٠ و ١٢٥٠ سقطت تلك العواصم الكبرى كلها . . .

ضاعت قرطبة أم المدائن وقلب الأندلس ودرة الحضارة الأوروبية خلال العصور الوسطى كلها سنة ٦٣٢ / ١٢٣٦ . .

وبعد سنتين (٦٣٥ / ١٢٣٨) سقطت بلنسية . .

وبعد ثلاث سنوات ضاعت شاطبة ، بلد الشاطبي شيخ الإسكندرية وملاكها الحارس ، ودانية بلد أبي عمر الداني من أعاظم علماء القراءات فى تاريخ الإسلام ، وجيّان بلد جمال الدين بن مالك صاحب الألفية (٦٣٩/ ١٢٤١) . .

وبعد سبع سنوات (٦٤٦ / ١٢٤٨) ضاعت إشبيلية عروس مدائن الأندلس . . .

ولم يضع بلد من هذه البلاد إلا بعد قتال مرير وحصار طويل . . .

وفى أثناء هذا الانهيار المحزن هلك الألوف بعد الألوف . .

لم يستسلم أهل بلد من هذه البلاد إلا بعد أن بذلوا أقصى ما يستطيعون . حتى الفقهاء وأهل العلم لم يترددوا فى السير لأداء فريضة الجهاد ، واستشهد منهم فى سبيل الله نفر جليل نذكر منهم أبا على الصدفى وأبا الربيع سليمان بن سالم وكان عالماً تربت على يديه الأجيال ، وكانت سنه قد تخطت السبعين ، فلم يقعد به الشيّخ عن الخفوف إلى الجهاد ، وظل فى المعركة يجمع الصفوف وينادى المنهزمين حتى أكلته السيوف عليه رحمة الله . . .

وحاول نفر من المجاهدين أن يدفعوا بصدورهم السيل المتدفق ، فجرفهم التيار . نذكر منهم محمد بن يوسف بن هود ، وكان بطلا مقداماً ، ظل يقطع الأندلس من بلنسية إلى ماردة والسيف فى يده حتى استشهد فى قفار المنْشا — التى ذكرناها — على مقربة من حصن صغير كان يعرف بالبَسيط ، ومكان هذا الحصن اليوم بلدة كبيرة لا زالت تحمل اسمه (الباثيتى) قاعدة مديرية كبيرة من مديريات إسبانيا اليوم . .

وفى أثناء هذا الطوفان جمع محمد بن نصر بن الأحمر ما بقى من المقاتلين

والفرسان واعتصم فى غرناطة ، وحصَّنها وحصَّن مدائنها ، وظل وبنوه من بعده يجاهدون قرنين ونصف قرن من الزمان .

قد أكون قد كررت هنا بعض ما ذكرته فى آنف الصفحات . . .

ولكن الحقيقة التى أريد أن أثبتها تحتاج إلى تكرار وتكرار . .

وهى أننا لم نخسر الأندلس عن تخاذل أو استنامة للترف ، وإنما فقدناه كما يفقد الجندى الباسل معركة وسلاحه فى يده ، تضيع المعركة ويبقى شرف البطولة والاستشهاد . .

* * *

وعندما قامت دولة بنى الأحمر كان الذى بأيدينا من شبه الجزيرة لا يبلغ ثُـمن مساحتها . . .

وكانت تهددها مملكتان من أقوى ممالك أوروبا إذ ذاك : قَشْتالة وأرَغُون ، وإمارتان قويتان هما قَطَلُونية والبرتغال . .

ولم يكن ابن الأحمر ليستطيع البقاء إلا إذا هادن بعض أولئك الأعداء ، فحالف فرناندو الثالث ملك قشتالة وتعهد له بدفع إتاوة قدرها ربع مليون قطعة من الذهب كل عام . .

ومن أول يوم قامت فيه مملكة غرناطة ابتليت بمحنة الشقاق ، كان أشبه بالداء الذى يتمكن ويسرى . وكان يمثله فى تاريخ غرناطة أسرتان كبيرتان : بنو اشقيلولة ثم بنو السراج ، وتسمى باسم الأخيرين منهم القاعة التى وصفناها على يمين بهو السباع .

واستمر بلاء هذا الشقاق بين الرؤساء طوال تاريخ غرناطة . . .

ولولا نجدات كانت تصل من المغرب بين الحين والحين لضاعت غرناطة من أمد بعيد .

نجدات استشهد فيها الألوف من عرب ذلك المغرب الباسل . .

وكان موقف بنى الأحمر من هذه النجدات عجيباً : بعد أن ينتصر رجالها على العدو وينقذوا العرش المتهاوى ، يسرع أصحابه بالاتفاق مع ملوك قَشْتالة للتخلص من إخوانهم الذين أتوا لنجدتهم . .

والمشهد الأخير للصراع حول غرناطة — وهو مشهد دام نحو ٣٠ عاماً — يستحق أن يؤرخ فى كتاب ، للعبرة . . لعلنا نعتبر . .

كانت غرناطة قد أصبحت كجسد مريض نهكته الأمراض ، فلا يدرى الطبيب أين يبدأ وأين يعيد . .

هنا تدخل النساء ومؤامرات الحريم ، لتجهز على البقية الباقية من أمل كان يخبو رويداً كضوء شمعة قاربت الفناء . .

فإن السلطان علياً أبا الحسن الغنى بالله لم يكفه ما أصاب المماكة من تمزيق وتقطيع ، لم يكفه أن منافساته مع أخيه الثائر عليه عبدالله الزغل قد جرت الويلات على أهل غرناطة (كان كل منهما يستعين بملوك قشتالة) ، لم يكفه ذلك ، بل رأى أن يضيف إلى متاعبه شيئاً جديداً ، شيئاً قصم ظهر إمبراطوريات كبرى ، فضلا عن مدينة تحتضر : زوجة شابة بارعة الجمال ، اسمها ثريا ، تسمى بالإسبانية ثُرَيدة . أصلها من أسرة إسبانية نبيلة ، فأبوها هو القائد سانشو خيمينيث دى سوليس . أسرت وهى صغيرة ، وكان اسمها إيزابيلا ، فربيت فى قصور الحمراء وأصبح اسمها ثريا . .

وأنجبت ثريا ولدين : سعداً ونصراً . أخذت تعمل على حصر وراثة العرش فى أحد ولديها . .

وكانت للسلطان زوجة قديمة : عربية نبيلة . هى عائشة المعروفة بالحرة ، ابنة السلطان محمد الأيسر . وكان لها هى الأخرى ولدان ، أبو عبدالله محمد وأبو الحجاج يوسف . . .

وتحت سحر الزوجة الشابة ، ثريا الرومية ، أقصى السلطان الشيخ ابنيه الشابين عن العرش وسجنهما مع أمهما فى برج قَمَارِش . . برج القُمْريات . .

وفى ذات ليلة تدلت الملكة السجينة من أعلى البرج إلى الأرض ، نحو سبعين متراً، على الحبال . . أو على ملاءات الأسِرَّة . . مع ولديها، وفر الثلاثة إلى أنصارهم . .

وعاونهم فى ذلك بنو سراج . .

وبدأ الصراع ، صراع النساء ، وصراع الرجال . .

وفى ظل هذه المآسى كان لا بد أن تأتى النهاية المحتومة . .

وفى ٢ يناير سلم أبو عبدالله محمد مفاتيح الحمراء لفرناندو وإيزابيلا ، وسار على جواده منكس الرأس . .

وعندما وصل إلى آخر نقطة يستطيع أن يرى منها الحمراء ، وقبل أن ينحرف به الطريق وتغيب عن عينيه إلى الأبد ، التفت وبكى . . .

ذلك هو الموضع الذى يعرف باسم « حسرة العربى » . . إل سوسپيرو دل مورو . .

رحم الله شوقى ، وصف هذا المشهد كأنما كان يراه :

آخر العهد بالجزيرة كانت ... بعد عَرْكٍ من الزمان وضَرْسِ
فتراها تقول راية جيش ... باد بالأمس بين أسر وحبس
ومفاتيحها مقاليد ملك ... باعها الوارث المُضيِّعُ ببخس
خرج القوم فى كتائب صُمٍّ ... عن حفاظ كموكب الدفن خُرْس
ركبوا بالبحار نعشاً ، وكانت ... تحت آبائهم هى العرش أمس . .

وكم استنجد أهل غرناطة ! كم استصرخوا إخوانهم العرب والمسلمين فى كل مكان . . .

وكان الحل والإنقاذ فى أيديهم ، لو أنهم اتفقوا فيما بينهم . . لو نسى كل منهم نفسه ، لو ذكر كل منهم أن الأمر يتعلق بمصير شعب وحضارة وعقيدة . . إذن لنجا الأندلس . .

ولكن كل شيء كان ممكناً ، إلا الاتفاق . . .

كل شيء كان فى نظرهم مقبولا ، إلا أن يسلم أحدهم للآخر . .

كلهم أرادوا أن يكونوا ملوكاً . . .

وفى أثناء الصراع ضاعت المملكة . . .

وأصبحوا متسولين مشردين . . .

هل نتعظ ؟ . . هل نتعلم ؟ . . هل نفهم ؟ . . هل نتحد ؟ . .

ادع معى ، فربما استجابت لدعوتنا السماء . .

يومها أقول لك : لن يغلبنا أحد ! . .

* * *

كان ممن شهدوا تسليم غرناطة كريستوف كولومبوس . .

كان يومها فى الأربعين من عمره ، وكان قد أخذ بنصيبه من تراث العرب . فى البندقية وفى لشبونة قرأ كتب العرب التى تقول إن الأرض كروية ، وأنك لو خرجت من غربها وسرت فى اتجاه واحد لوصلت إلى شرقها . إذا كنت تشك فى ذلك فخذ — مثلا — الجزء الوحيد الذى نشر من كتاب « مسالك الأبصار » لترى فيه كيف كانوا يعرفون أن الأرض كرة وأن الهند كما تدرك من الشرق تدرك من الغرب . وأكاد أؤكد أن كولومبوس قرأ كتاب شهاب الدين أحمد بن ماجد « الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد » ، فقد كان هذا الكتاب مترجما إلى البرتغالية فى يد ڤاسكو داجاما . إن ابن ماجد يؤكد عند كلامه عن جزائر الخالدات (كنارياس) أن هناك أرضاً فيما يلى بحر الظلمات غرباً . .

ومالى أذهب بعيداً وبين يدىّ قطع من كتاب « المسالك والممالك » لأبى عبيد عبدالله بن عبد العزيز البكرى ، أعظم جغرافى أطلعه الأندلس قبل الإدريسى ، أقرأ فيها هذه السطور : « وأقيانُس البحر المحيط ، لا يُدرَى

ما وراءه غرباً إلى أقصى عمران الصين شرقاً ، والشمس إذا غابت فى أقصى الصين طلعت فى الجزائر (الخالدات) ، وبالضد » . .

وهذه ، ولا زيادة ، هى الفكرة التى جعلت من كولومبوس ما هو فى تاريخ البشر . وكأنما أخذ أبو عبيد البكرى بيده ، وقاده إلى ما وقع عليه من كشف عظيم . وليس من قبيل المصادفة البحتة أن يكون أبو عبيد من أبناء وَلْبَة (أويلبا اليوم) على أميال قليلة من « الرابطة » (لارابيدا) وهو الدير الذى لجأ كولومبوس إلى أحباره ، لكى ييسروا له مقابلة فرناندو وإيزابيلا ؛ ولا هو من قبيل المصادفة أن يكون أبو عبيد قد كتب هذه السطور فى إشبيلية، البلد الذى عاش فيه كولومبوس زمناً ، وتعلم من أهله وعلمائه وبحارته الشىء الكثير . بل إنه لا تبدو لنا مصادفة أن يكون خروج مراكب كولومبوس إلى العالم الجديد من ميناء سان لُوقَر ، أقرب بلد إلى ولبة ، والمسافة بينهما بضعة كيلو مترات »(*).

لهذا كان كولومبوس واثقاً من نفسه : ترك ابنه دييجو فى رعاية رهبان دير « الرابطة » (لارابيدا) ، وأقبل فى رفقة رئيس الدير — خوان بيريث — الذى رتب له مقابلة مع الملكة إيزابيلا . من موضعه فى آخر الصفوف رأى فرسان قَشْتالة يدخلون الحمراء . . وبعد أيام قابل الملكة . .

وبعد سبعة أشهر أبحر يبحث عن الهند . كان أسطوله يتكون من ثلاث سفن : لابِنْتَا ،لانينيا ، سانتا ماريا . عدد البحارة ٨٨ ، شىء قليل بالنسبة للكشف العظيم . لكن كان مع كولومبوس ما هو أهم من ذلك ، كان معه عِلم العرب . العرب الذين فقدوا غرناطة ، نورهم كشف الطريق نحو عالم جديد . . .

مفترَق زمان . . .

(*) انظر بحثنا « الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس » ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٧ و ٨ سنتى ١٩٥٩ — ١٩٦٠ ص ١٣٤ .

لو تأخر سقوط غرناطة سنة واحدة ، لكان لنا نصيب فى العالم الجديد !

ولو تقدم خروج كولومبوس سنة واحدة ، لشُغلوا عنا وربما بقيت غرناطة ! . .

ولكن ، هكذا قدر فكان . . .

* * *

والذين غُلبوا ، ماذا كان مصيرهم ؟ . .

الاتفاقات والعهود مزقت ، ومُسح العرب مسحاً فى سنوات . .

ولا يرضى ربك عن الناكث ولا الحانث ، وعهود الرجال ينبغى أن تكون أساساً لأعمالهم . .

أراد فرناندو وإيزابيلا أن يثبتا قواعد الملك الذى بنياه . لم يهبهما الله ولداً ، فزوجا بناتهما لملوك وأمراء .

من هؤلاء واحدة تسمى « خوانا » ، تزوجت أميراً يسمى فيليب الجميل أمير برغندية ووارث مكسميليان الأول إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ورأس أسرة الهابسبورج . .

وبعد موت إيزابيلا أصبحت خوانا وريثة عرش إسبانيا،وزوجها وريث عرش الهابسبورج . أصبح التاجان مملكة واحدة . .

كانت علائم الجنون قد بدأت على خوانا فى سن مبكرة ، وكانت قد عشقت زوجها عشقاً مبرحاً ، ولكنه انصرف عنها ، فأخذ عقلها يخف رويداً رويداً . .

ثم مات فيليب الجميل ، فجنت تماماً . حنطت جسده وأخذته معها فى تابوت ، ومضت تجوس به إسبانيا من الشمال إلى الجنوب . كانت لا تسير إلا فى الليل ، وعلى وجهها قناع . وساءت حالها ، فقرر أبوها أن يحول بينها وبين هذا التجوال . فحبسها مع نعش فيليب الجميل فى قصر توردِيسيّاس .

هناك قضت بقية حياتها ، سبعة وأربعين عاماً . . هذه المسكينة التي ورثت المُلك الدامي كفَّرت عما صنعه أبواها . هذه السنوات كلها كانت تجلس على البلاط في وسط الحجرة ، وحولها أطباق الطعام الذي لا تمسه إلا قليلا . اسمها في التاريخ خوانا المجنونة (خوانا لالوكا) . .

وكانوا قد أخذوا منها ابنها كارلوس وأرسلوه إلى الفلاندرز (بلچيكا) ليتربى هناك . وعندما بلغ سن الرشد أتى ليتربع على عرش إسبانيا غريباً عنها ، لا يتكلم لغتها ، ومعه حاشية من الأجانب الفلمنكيين .

أصبح على العرش رجل أجنبي هو كارلوس الخامس (شرلكان) . انتقل التاج إلى رأس الهابسبورج . .

حارب الإسبان وفتحوا ليملك الغير . . .

وهذا أيضاً كان مفترَق زمان . . .

خيرة أبناء إسبانيا مضوا يطلبون الذهب وراء البحار .

وتاج إسبانيا انتقل إلى سليل مكسميليان . . .

ولله في تقديره شان أي شان . . .

نبض الأندلس[٧]

الأندلس — من دون بقاع الأرض — كتوم لا يفضى بسره إلى المسافر المعجل ، ولا يحس بنبضه إلا من عاش فيه وسار في طرقه ونزل في قراه ، وتحدث إلى ناسه وشاركهم الطعام والشراب ؛ وقاسمهم هذا السمر الطويل الذى يحسنونه كما لا يحسنه غيرهم من الناس . هنا ، وفى أثناء الحديث الطويل ، يتخلله من بعيد صوت مغنٍّ جاشَ صوتُه فانطلق يغرد ، أو فتاة أحست نشوة بين صواحبها فقامت ترقص على وقع التصفيق رقصاً عنيفاً ، تترامى إلى أذنيك دقات قدميها ، وهى تلف وتدور فى براءة الشباب وروحه الصافية الجميلة . . . خلال هذا كله تحس بنبض الأندلس ، وتسمع صوته الحزين الذى يأتيك كأنه صدى مئات السنين . .

وإذا كنت قد قرأت شيئاً عن أندلسنا العربى الشهيد ، أو وعت ذاكرتك أطرافاً من أشعار المعتمد بن عباد أو صاحبه أبى بكر بن عمار أو معاصريهما أحمد بن عبد الملك بن شهيد وأبى بكر بن زيدون وابن دراج القسطلى ومن إليهم ممن جعلوا أيامهم قصائد ولياليهم مقطّعات ، فإنك — ولو كان محفوظك من شعرهم أضغاث ذكريات — ستشعر وكأنك تعيش معهم ؛ تصغى إلى أحاديثهم وتأخذ منهم وتعطى ، لأن الأندلس من تلك البلاد التى لا يتبدد

الزمان فيها ولا يبلى ، ويتصل فيها الماضى بالحاضر والأمس بالغد على نحو يتلاشى معه معنى الزمان .

وليس بعجيب أن يشتهر أهل الأندلس فى الدنيا كلها بأنهم لا يعترفون بالوقت أو يقيمون له وزناً ، فإذا قال قائلهم إنه ملاقيك غداً ، فليس من الضرورى أن يكون هذا الغد هو يومك التالى ، بل هو أى غد ، وكلها غدوات آتيات ففيم التدقيق والحساب ؟ وكلمة « مانيانا » (أى غداً) فى لسان الأندلسى تحمل معنى الإرجاء إلى أجل ممدود بطول الحياة ، والدنيا لم تخلق فى يوم ، وكان الله مع الصابرين . .

ولقد خرجت من قرطبة ذات يوم بعد الزوال بقليل ووجهتى غرناطة ، فلما وصلنا جيّان أصاب السيارة ما عطل حركتها ،وكان معى نفر من القرطبيين ؛ فأرسلنا فى طلب من يصلحها ولجأنا إلى مشرب عند مدخل البلد .

وكنت أولَ جلوسى متعجلا لا أنفك أسأل عن إصلاح السيارة ، ورفاقى يطمئنوننى وقد أخذهم الحديث ، وأرسلت بصرى إلى الطريق الذى أتينا منه ، وهو منعرجات ومخارم فى جبال ، وأشجار الزيتون فى خضرتها الداكنة تتسلق التلال ذات التربة الحمراء صفوفاً بعد صفوف ، وإذا بالوقت يمضى دون أن أشعر . .

ورجعت مع السنين القهقرى ، فكأنما كنت أسمع صوتَىْ يحيى بن حكم الغزال الشاعر وجمال الدين بن مالك صاحب الألفية — وكلاهما من جيان — يتراميان إلىّ من وراء العصور . .

وأحسست وكأننى أعيش فى ذلك البلد أيام كان عربياً ، والناس ينحدرون من بين أشجار الزيتون نحو الوادى ليأخذوا طريقهم على الدرب الذى أنظر إليه ،ثم يمضى كل منهم إلى بلد مما حول جيان : أبَّذَة وبيّاسة وحصن اللوز وبَسْطة وشَوْذَر وما إليها ، وهم يتساءلون عن آخر الأنباء من قرطبة بلد الخلفاء ، أو يتندرون بما وعت أذهانهم منْ مُلَح أهلها ، أو

يتحدثون عن فقهاء بلادهم وما آتاهم الله من علم بالقرآن والحديث وأيام العرب وغير ذلك من الأحاديث التى تتألف منها حياة الناس ، ثم يختفون عن بصرى فى معارج الطريق . .

ويهبط ضوء الغروب على تلك الربى ، وتكتسى أشجار الزيتون لوناً فضياً ، فأذكر كيف وصف مانويل ماتشادو الشاعر المحدَث جيانَ بأنها فضية ، ويخيل إلىّ أننى أسمع صوت جماعة من الشبان يغنون على نقر الكاستانييتاس تلك المقطوعة الخالدة :

« ثلاث سمراوات
شغلن قلبى ، من جيان :
عائشة ، وفاطمة ، ومريم . . .
ثلاث سمراوات بالغات الجمال ،
ذهبن ليجنين الزيتون ،
فوجدنه قد جُنى . . . »

وشيئاً فشيئاً تهبط شملة الليل ، وتختفى فى أطوائها فضة الزيتون وحمرة التلال ، ويختفى الطريق . وأنهض ، ما أشك فى أن السيارة أصلحت ، فإذا بصحبى يضحكون ويقولون : أصلحك الله ! إن الميكانيكى لم يأت بعد . . غداً . . مانيانا ! . .

ونمنا ليلتنا ، وأتى الميكانيكى مع الضحى ، واجتهد مع السيارة المضربة بقدر ما واتاه علمه ، وجاءت ساعة الغداء ، فوضعوا بين أيدينا خروفاً مشوياً انقض عليه الميكانيكى فى نهم لطيف ، ولم يرفع يده إلا بعد أن استقر ربعه فى جوفه ، ثم أفرغ عليه زجاجة من النبيذ ، واسترخى بعد ذلك واستوسن ، والسيارة راقدة أمامنا كأنها مريض لا رجاء فيه ..

وبينما كنت أسرع نحو محطة سكة الحديد لأدرك القطار ، سمعت واحداً من أصحابنا يقول : ماله معجل هكذا ؟ فقال صاحبه : لعل وراءه ما يعجله

. . . وكان آخر ما سمعت : مهما كان . . . بيننا وبين غد ساعات الليل . .
هل طارت الدنيا ؟ . . مانيانا ! . .

* * *

لهذا ، فلكي تحس بالأندلس ، لا بد أن تقطع إحدى الطرق الطويلة المؤدية من قلبه قرطبة إلى أى قاعدة من قواعده ـ الجزيرة الخضراء ، مالقة ، إستجة ، رُنْدَة ، شَرِيش ، وادى آش ... أى واحدة من هذه ـ تقطعها على هينة ، فتقف عند كل قرية أو منعرج يؤدى إلى قرية أو بلد ، وتقضى يوماً هنا وليلة هناك تحادث الناس وتسمر معهم ، وتصيب من طعامهم . كما كان أجدادنا يرحلون فى هذه النواحى على ظهور الخيل أو البغال ، وكلما مروا ببلدة صلوا فى جامعها ، وسعوا لرؤية فقيهها وهو يقرأ درسه فى الجامع والتلاميذ حوله ينصتون ويقيّدون ، فإذا هبط الليل صلوا المغرب والعشاء فى حيث انتهى بهم المسير ، ثم قصدوا فندق البلد وحطوا رحالهم ، وانصرفوا إلى هذا الحديث الريفى الممتع الذى تقصر معه ساعات الليل ، ثم أراحوا جنوبهم على الفراش إلى الصباح . .

فإذا رأيت أن تقوم برحلة من هذه فسنختار الطريق من قادس إلى مالقة ، وإنما اخترته لأننا نمر فى أثنائه بقلب الأندلس حقاً ، ونقف بعدد لا حصر له من البلاد والقرى والحصون ، كلها كانت عربية خالصة ، أطلعت من العباقرة فى كل ميدان علماء يزدان بمؤلفاتهم تراثنا الفكرى والروحى ، وشهدت من أحداث تاريخ الأندلس ما يملأ مجلدات .

بعض هذه الأحداث مسعد مفرح ، من أيام الفتح العربى إلى العصر الذهبى أيام عبد الرحمن الناصر ، أعظم خلفاء الجناح الغربى لدولة الإسلام ، وابنه الحكم المستنصر ، أعلم من تربع على كرسى الخلافة فى تاريخنا ، فقد حول قصره ـ دون مبالغة ـ إلى جامعة تزدحم بأهل العلم والأدب فى كل فن ، ومكتبة عامة تضاهى بعدد كتبها ونظامها وعدد المترددين عليها أعظم المكتبات العامة فى عصرنا .

وبعضها محزن موئلم ، شهد حلقات الاحتضار الطويل الذى عاناه الأندلس من بداية القرن الخامس الهجرى — الحادى عشر الميلادى — حتى كانت النهاية التى أرادها وارث الأرض ومن عليها أوائل القرن التاسع الهجرى وأواخر الخامس عشر الميلادى . . .

ونبدأ من قادِس : مدينة ساحرة تقوم على طرف ذراع ضيق من الأرض طوله اثنا عشر كيلو متراً ، تمضى فيه والبحر عن شمالك ويمينك كأنك فى سفينة ولست على طريق ، حتى إذا انتهيت إلى البلد وجدت درة بيضاء تتألق بين زرقة البحر وزرقة السماء : هنا أنشأ الأمير محمد بن عبدالرحمن الأوسط دار صناعة — أو ترسانة كما نقول اليوم — ليبنى فيها أسطولا يحمى شواطئه .

وعلى مقربة منها إلى الشمال — على الساحل — تجد ميناء سان لوقَر الذى خرجت منه السفن الثلاث التى تكوّن منها أسطول كريستوف كولومبوس — أو كولون ، كما يقولون هناك — ليصل إلى الهند عن طريق الغرب، فيصادف فى طريقه العالم الجديد ، ويبدأ فى تاريخ الدنيا كلها عصر جديد .

وبعد كيلو مترات قليلة نجد وَلْبَة ، وهى بلد كاتب من أعظم كتابنا فى القرن الخامس وهو أبو بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة .

وغير بعيد منها يصب نهر صغير يعرف بالنهر الأحمر ، فى مدخله جزيرة صغيره تسمى شَلْطِيش، هى مسقط رأس أعظم جغرافى أطلعه الغرب الإسلامى — قبل الإدريسى — وهو أبو عبيد البكرى الذى قرر فى كتابه العظيم « المسالك والممالك » أنك إذا خرجت من أوروبا فى اتجاه الغرب وصلت إلى الصين ، وأن الشمس إذا غربت فى أوروبا أشرقت فى النصف الثانى من كرة الأرض .

وشَلْطِيش جزيرة صغيرة راقدة عند ملتقى النهر الأحمر بنهر أوديل ، يشرب أهلها من ماء يُحمل إليهم من الشاطىء المقابل .

وطريقنا من قادِس يمر بشَرِيش ، وهو بلد جميل اشتهر فى عصور

الإسلام بنوع لطيف من الجبن وبفطائر بالجبن كانوا يسمونها بالمجبّنات ، واشتهر بعدنا بالنبيذ المنسوب إليه ، يسمونه فى إسبانيا باسمها : « خيريث» ، وفى العالم كله بصورته الإنجليزية : « تشيرى » . .

ونمر فى طريقنا ببحيرة ضحلة واسعة يسمونها « بحيرة لاخاندا »، وهو تحريف للفظ العربى « الخندق » . وهنا ، على ضفة نهر صغير يخرج من البحيرة إلى البحر كانت الموقعة الكبرى التى فتحت لنا أبواب إسبانيا ، وبطلها — كما هو معروف — طارق بن زياد . .

ونصل إلى الجزيرة الخضراء ، أو الجزيرة ، ولا زالت تسمى إلى اليوم بهذا الاسم : « الخيثيراس » ، وهى اليوم بلد صغير ، ولكن صفحاته فى تاريخنا طويلة لا تنتهى : فقد كان استيلاء طارق عليها أولَ الفتح ، وكان سقوطها فى يد ألفونسو الحادى عشر سنة ١٣٤٤ أول النهاية لتاريخ غرناطة ، ولم تسقط إلا بعد معركة دامية هى موقعة طريف التى قطعت الأمل فى كل عون يصل من المغرب العربى إلى بقية الأندلس العربى الرابضة فى غرناطة . .

ومن الجزيرة الخضراء ترى جبل طارق : صخرة هائلة كأنها ظهر فيل ضخم وسط الماء لا يصلها بالبر إلا شريط ضيق ، صخرة لا زالت تحمل اسم طارقنا العظيم ، استولى الإسبان عليها منا ، ولم تدم فى أيديهم ، فقد تحارب اثنان من ملوكهم ، فتقدمت إنجلترا تعين أحدهما على الآخر ، واستأذنت فى أن ينزل جندها فى جبل طارق . . .

ولم ينتصر الملك الذى أتوا لعونه ، ومضى ومضت أيامه ، وظلوا هم — على عهدهم — يزعمون أن هذه الصخرة صخرتهم . وقد حولوها إلى معقل لا يرام ، ونقبوا الجبل ، وبنوا فى داخله المستودعات والمَمَرّات ، بل فيه مستشفى كبير ، وأصعدوا المصاعد الكهربائية فى أنفاق لتصل إلى مواقع المدافع .

وأنت اليوم تزور هذه الصخرة وبلدها فكأنك فى بلد سياحى : فيه

الفنادق والمطاعم والدكاكين من كل صنف يملك معظمها الهنود ، وفى الطريق إلى أعلى الصخرة تمر ببقايا حصن يسمونه الحصن العربى ، ويقولون إن بانيه هو طارق العظيم ، طيب الله ثراه . .

وعلى طول الطريق تستوقف نظرك البلاد الأندلسية بطابعها المعروف : منازل بيض سقوفها حمراء ، تتراصُّ صفوفاً على المرتفعات كأنها لآلئ منثورة فى الأرض ، حتى إذا وصلت إلى بلد يسمى سان پدرو بدأ الطريق إلى رُندة . . .

وليس هناك طريق يقص من تاريخ الأندلس ما يقصه الطريق من سان پدرو إلى رندة . إنه طريق رهيب بين جبال متهيِّلة ، تشعر وأنت تمضى فيه بالخوف ، فقد كان على طول تاريخه مأوى للثائرين وقطاع الطريق . ولقد يتعجب الإنسان وهو يقرأ فى حوليات الأندلس عن ثورة عمر بن حفصون ، وعجز أمراء قرطبة عن القضاء عليه على قرب معاقله من دار الخلافة ، ولكنك إذا وقفت فى ذلك الطريق وتلفتَّ حولك انقطع العجب ، فهذه جبال ووهاد ومنعرجات ومنحنيات ، لو اختبأ فيها اليوم قاطع طريق فلا سبيل إلى إدراكه ، فكيف وقد كان جند الخلافة ورجال أمنها يقطعون هذه الفيافى والمهامه على الظهر والقدم ؟

ولقد كانت هذه المتاهات مجالات لفرسان من العرب حفزتهم الحمية على رفض الطاعة ، فمضوا — كأنهم فرسان من عصر الجاهلية — يحاربون ويقولون الشعر ويتغزلون ، وقد حفظت لنا الكتب أخبارهم وأشعارهم : سَوّار بن حمدون القيسى وسعيد بن سليمان بن جُودى وأضحى بن محمد الهمدانى وغيرهم . ولقد قال واحد منهم — سعيد بن جودى — وهو يجرى بحصانه فى هذه البطاح مخاطباً عبدالله أمير قرطبة :

قل لعبدالله يجدُدْ فى الهرب ... نَجَمَ الثائر فى وادى القصب
يا بــنى مروان خلوا مُلكنا ... إنما المــلك لأبنــاء العرب

وما زال يغامر ويقول الشعر حتّى مات أسيراً . . .

وفى أثناء الطريق إلى رندة تستوقف نظرك لافتات تشير إلى مواضع بلاد صغيرة خافية بين الجبال ، تؤدى إليها طرق أصغر من هذه وأشد خطورة : لارودا (الروضة) ، الجودوناليس (القطنيات) ، أركوس (أركُش) ، بناهافيس (ابن حفص) ، بنا أوجان (ابن يوجان) ، بنا داوود (بنو داوود) ، حتّى تصل أخيراً إلى رندة . .

ورندة – أى المستديرة – بلد عجيب يقوم على قُنّة جبل ، منازله معلقة على حافة الهاوية تعليقاً ، فكأنما بنيت لتكون حصناً ، فلا عجب أن كانت مدار صراع طويل بين الإمارة القرطبية والخارجين عليها ، وفى عصر الطوائف استهلك الملك الشاعر المعتضد بن عباد فى الاستيلاء عليها ، فلما صارت فى يده قال شعراً أوله :

لقد حُصِّلتِ يا رنــدة ... وصرتِ لمُلكنا عُقــدة

وأخذ الناس بحفظها وترديدها كأنها نشيد قومى .

وأنت تشعر فيها أنك فى بلد عربى ، بلد يشبه بلاد مغربنا العربى فى منازله وهيئته وسحن أهله ، وحبذا لو قضيت ليلة فيه ، لتجلس فى أحــد المقاهى المطلة من شاهق على نهر صغير يتلوى تحت قدميك بمئات الأمتار ، والخانق الذى يجرى فيه هذا النهر يسمى « التاخو » ، نفس الاسم الذى يطلق على نهر تاجُه الكبير ، نهر طليطلة ، ومعناه هنا « الخانق » . .

وفى سهرتك فى ليلة من ليالى الصيف – حين يرق الهواء فى ذلك المرتفَع ويمضى السُّمّار يتجاذبون أطراف حديث لا ينتهى ، وهم يشربون نوعاً من النبيذ يقولون لك إنه أحسن نبيذ فى الدنيا ، ويأكلون شرائح من لحم مقدد لا تمضغه إلا أسنان نمر قوى – تحملك الذكريات على جناحها خلال الماضى العربى ، أيام كانت رندة هذه بلداً عربياً إسلامياً ، تزينه المساجد ومآذنها السامقة أيام كان شعراء رندة وأدباؤها – من أمثال أخيل بن إدريس

الرندى وحبْلاص – يعقدون ندواتهم فى مثل مجلسك هذا ، والدنيا من حولهم بخير ، والخليفة فى قرطبة يظل الناس بأمنه ورعايته ، والناس لا يشكون فى أنه مهما حدث فإن بلدهم هذا سيظل عربياً آمناً إلى يوم يبعثون ، وكيف يسقط معقل كهذا « تعمَّم بالسحاب وتوشَّح بالأنهار العِذاب » كما يقول الشاعر القلق الجوّال إبراهيم بن وَزْمَر الحِجارى ؟

ولكن هذا الحصن الأشم استسلم هو الآخر ! ومضى آخر شعراء رندة صالح بن شريف الرندى يرثيها ، ويرثى الأندلس كله بهذه الأبيات التى أحسبك تحفظ مطلعها على الأقل ، ومن منا لا يحفظ قوله :

لكل شىء إذا ما تم نقصانُ فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسانُ
هى الأمور - كما شاهدتها - دولٌ مَن سَرّه زمن ساءته أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقى على أحدٍ ولا يدوم على حال لها شانُ

إلى أن يقول هذه الأبيات الخالدة :

دهَى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ له هوى له أحُدٌ وانهدَّ ثَهْلانُ
فاسأل بلنسية ما شأن مرسيةٍ وأين شاطبةُ أم أين جيّانُ
وأين قرطبة ، دار العلوم ، فكم من عالم قد سما فيها له شانُ
وأين حِمْصٌ ، وما تحويه من نُزَهٍ ونهرها العذب فياض وملآنُ
قواعد كنَّ أركانَ البلاد ، فما عسى البقاء ، إذا لم تبق أركانُ

وماذا بقى بعد ذلك فى رندة من آثار العرب ؟

لا شىء !

هناك دار مشهورة يزورها كل السائحين تسمى دار الملك المغربى (كاسا دل رِىْ مورو) يقولون لك إن رجلا يسمى أبا مالك (بوميليك) توج فيها ملكاً على رندة والجزيرة الخضراء . .

ولم أعرف من هو أبو مالك هذا ، وإن كان يغلب على ظنى أنه واحد من أولئك العشرات من الغاصبين — كباراً وصغاراً — الذين تقاسموا تراث الخلافة القرطبية العظيم ، وعبثوا به ما شاء لهم العبث . . .

وكيف سقطت رندة ؟

كما يسقط البطل فى ميدان الجهاد ، بعد أن سقطت قرطبة بمائتين وخمسين سنة . . .

عمر كامل يكاد يعدل عمر الإمارة القرطبية نفسها . . .

* * *

وقد وقفت بك طويلا عند رندة ، لأنها واحدة من تلك المدن التى تحس فيها إلى اليوم نبض الأندلس العربى الذاهب . . .

فذلك الجزء من شبه الجزيرة الواقع بين الوادى الكبير والبحر المتوسط وجزء من المحيط الأطلسى كان القلب النابض لهذا القطر العربى الكبير ، لا تكاد تقطع فيه كيلو متراً إلا وتلقى مدينة أو قرية لها فى تاريخنا السياسى والفكرى صفحات بعد صفحات . . .

شمال رندة تجد ثلاث مدن أخرجت عشرات الشعراء والكتاب والفقهاء والعلماء : مَرْشانة (اليوم : مرشينة) وأشُونة (اليوم : أسونة) ومَوْرُور (اليوم : مورون) .

وإلى شمالها الشرقى — فى الطريق إلى غرناطة — تمر بأنطكيرة (أنتيكيرا) وأرْشُذُونة (أرشيدونا) ولَوْشه (لوخا) ، ثلاث مدائن وقف عندها لسان الدين بن الخطيب فأطال الوقوف ، وتحدث عنها فأطال الحديث ، وذكر من أدبائها وشعرائها ما يملأ كتاباً ، وهو نفسه من واحدة منها ، فقد ولد فى لوشة .

وإلى جنوبها الشرق — على شاطئ البحر — تجد مالَقَة ، مالقة المغنية (مالاجا كانتادورا) كما يقول الشاعر مانويل ماتشادو ، أى المدينة التى

تغنى ، فهى اليوم – كما كانت أيام العرب – مدينة المرح والغناء ، مدينة الهوى والشباب . . .

فى أيام الأمراء والخلفاء كانت بلد الطرب والشعر والغناء . . .

وبعد ذهاب الخلافة خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، الحادي عشر الميلادى ، عرفت مالقة من المحن والرزايا ما لم يعرفه بلد آخر من بلاد الجنوب : حروباً وثورات وانتهاك حرمة وسلباً ونهباً ، وخضعت لحكام ما كانت لترضى بهم خدماً فيها أيام العز والخلافة . . . وسبحان الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء . . .

وشرق صوتها الصداح بالدمع والبكاء . . .

ورأى ميناء مالقة ألوف السفن ترحل أسبوعاً بعد أسبوع حاملة المهاجرين من أهل الأندلس طالبين النجاة من ويلات الحرب والأسر والإرغام على ترك الدين ، هاربين إلى الأمان فى بلاد المغرب العربى الكريم ، وربما هاجر بعضهم إلى المشرق : إلى مصر والشام والعراق . . إلى نفس البلاد التى أقبل منها أجدادهم الفاتحون قبل ذلك بسبعة قرون أو ثمانية . . .

وقصة سقوط مالقة وخروجها نهائياً من بلاد العروبة مأساة من المآسى . .

كانت مالقة هى الميناء الكبير الأخير الذى بقى فى أيدى المسلمين . .

كانت جزءاً من مملكة غرناطة ، ولكن هذه المملكة الصغيرة كانت نهباً للداء الأكبر الذى قرر مصير الأندلس : داء الخلاف والأحقاد . .

كان سلطان غرناطة رجلا ضعيفاً أقرب إلى الإسبان منه إلى العرب : كانت أمه إسبانية نصرانية الأصل تسمى ثريا ، وكان قد قضى عاماً عند فرناندو وإيزابيلا أسيراً . . ثم عاد ليحكم غرناطة تابعاً ذليلا يؤدى الجزية ، ويدين بالطاعة ؛ ذلك هو أبو عبدالله محمد بن أبى الحسن الذى أراد له الحظ السيئ أن يكون ضياع آخر معاقل الإسلام الأندلسى على يديه . . .

وكانت رعيته لا تثق فيه، وطوال سنوات حكمه الأخيرة كانت الشائعات

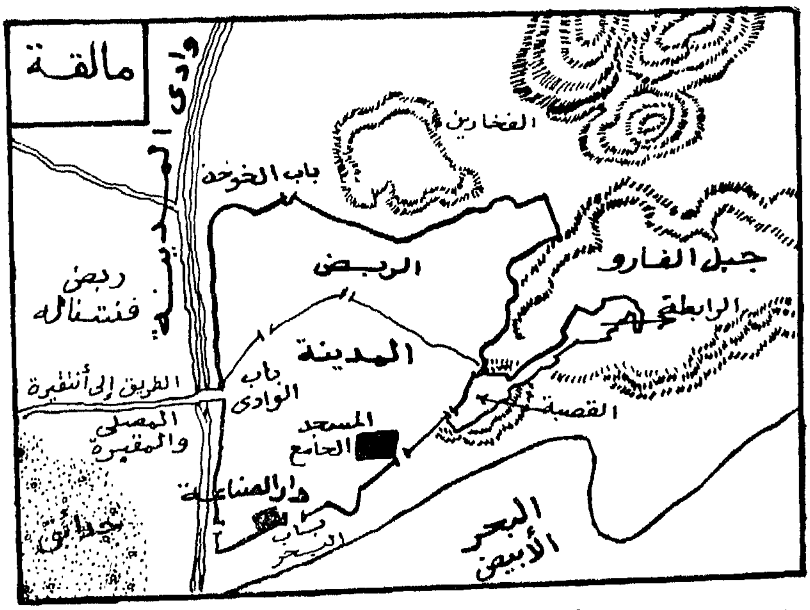
تملأ الجو فى غرناطة ومالقة ووادى آش (جواديكس) وما بقى من بلاد الأندلس ، بأن أبا عبدالله قد اتفق مع النصارى على تسليم غرناطة لهم على أن يحفظوه فى نفسه وماله وولده . . .

وكان الإسبان يسخرون منه ، كانوا يسمونه الملك الصغير (إل رِىْ تْشِيكو) ، وكانوا يطلقون عليه اسم بُوَابْدِيل (أى أبو عبدالله) . . .

وفى الطريق من غرناطة إلى مالقة يقف بك القطار عند بلدة تسمى بوبادِيّا – تحريف عن العربية : « أبو عبدالله » – لا زالت تحمل اسمه . . .

وما دام هذا الملك الصغير قد عاهد العدو على الطاعة والجزية فقد تصدى للقضاء على كل شهم فى بلاده ينادى بمناجزة الأعداء . . .

وفى نفس الوقت لم يكن هذا التعاهد فى نظر فرناندو وإيزابيلا إلا وسيلة لكسب الوقت والاستيلاء على المعاقل الإسلامية الأخيرة دون عناء . . .



مالقة العربية . يلاحظ أن بقايا الأسوار العربية بعيدة عن البحر ، وأن البلد نفسه كان يطل على البحر مباشرة ، بدليل وجود دار الصناعة (الترسانة) إلى جوار باب البحر .

وكانت مالقة هى الباب الأخير الذى بقى مفتوحاً بين بقية الأندلس الإسلامى والمغرب الإسلامى. .

وفى جمادى الأولى ٨٩٢ / مايو ١٤٨٧ فاجأ فرناندو حصن بَلَش (يسمى اليوم : ڤيليث – مالاجا) درع مالقة وحاميها ، واستولى عليه . . .

وأصبحت مالقة مهددة بالخطر المحيق . . .

واستعد أهلها لمعركتهم الأخيرة . كان يقودهم محمد الزغل ، وهو أمير صغير كان يحكم وادى آش خارجاً عن طاعة أبى عبدالله ومنافساً له . . وأرسل محمد الزغل يستنجد بملوك المغرب والمشرق ، ومن بينهم سلطان مصر الأشرف قايتباى . . .

وكان البلد يموج بالفرسان والمقاتلين موجاً ، يقودهم فارس شجاع يسمى حامداً الثغرى مع قطعة باسلة من فرسان قبيلة غمارة المغربية . واستمر الدفاع شهرين متواليين ، حتى لم يبق عند أهل البلد ما يقيم أودهم . . وتساقط المئات من أهلها صرعى ، أكلت أكثرهم السيوف وأتى على البقية الإعياء والجوع والوباء . . .

وأبو عبدالله – الملك الصغير – قابع لا يحرك ساكناً ، قانع بحماية الأعداء . . .

وفى أواخر شعبان ٨٩٢ / ١٨ أغسطس ١٤٨٧ سقطت مالقة . .

واعتبر أهلها كلهم أسرى . . كان على من يريد الخروج من الأندلس منهم أن يفتدى نفسه . .

وخيم على البلد الخراب . . .

وإلى سنة ١٨٧٠ – أى بعد أربعة قرون – كانت مالقة لا تزال فُرضة صغيرة تتألف من بضعة بيوت وكنيسة ومراكب صيادى سمك . . .

ولكن الروح دبت فيها فى أيامنا هذه . . عادت تتألق وتغنى فى نطاق الانتعاش الشامل الذى تنعم به إسبانيا اليوم . .

أصبحت مدينة السياحة الأولى ، وسمى الساحل الذى تقع عليه ساحل الشمس (لاكوستا دل سول) وهو جنة السائحين وطالبي الشمس والبحر والنسيم . . .

وعلى طول الطريق من مالقة إلى الجزيرة الخضراء تقوم اليوم مصايف ومشات رائعة الجمال فيها الفنادق والرياض والملاعب الكبار والصغار : توريمولينوس ، فوينخيرولا (اسمها عند العرب سُهَيْل) ، مربلة (ماربيا) وأسطبونة (إستيبونا) وغيرها كثير . . .

ومطار مالقة آية فى الجمال ، مطار وسط حديقة ، تقصده لتأخذ طائرة تحملك إلى أى ركن من أركان الدنيا ، أو لتقضى فى مقهاه ساعة بين الزهر والخضرة والموسيقى ، وسابحات الجو أمامك تحط وتشيل . . .

* * *

وكل المواضع التى تمر بها فى هذا الركن من شبه الجزيرة مواضع عربية : أسماؤها عربية ، وجوه أهلها عربية ، والأغانى التى تسمعها عربية اللحن والنشيد ، وإذا كنت ذاهباً إلى هناك فلا تنس أن تسمر ليلة مع المغنين والمنشدين .. ستسمع مقطعات صغيرة أشبه بالمواويل يسمونها السايتا (صائتة) وأخرى يسمونها السجيريا أو السِّجيديّا .. وهى مصغر كلمتنا العربية : الصغيرة . . .

هنـــا ، ورغم القرون التى مضت ، تشعر بقلب الأندلس يخفق حياً رتيباً كما كان . .

لأن الناس يموتون . . أما الحضارات فلا تموت . .

وحضارتنا فى الأندلس حضارة خالدة ، حضارة قامت على العلم والفن وشهامة الرجال . . .

وفى تلك البلاد : المُدَيْنة وقلعة جزُولة (لاألكالادى لوس جاذوليس) ومدينة شذُونة (مدينا سيدونيا) وبُرُنس (بورنُوس) والزهراء (ثاهارا)

وغيرها كثير لا تجد بيتاً إلا وهو عربى الطراز ، ولا تسمع نغما إلاوهوموال عربى ، وهنا وهناك ترى بقية من حصن عربى أو قنطرة عربية . . .

وقرب بلدة الزهراء بالذات وقفت طويلا عند قنطرة صغيرة عربية تقوم على قوس واحد، وخلفها أقاموا قنطرة حديثة بالأسمنت المسلح تقوم على أربعة أقواس . . .

قنطرتنا العربية عمرها لا يقل عن خمسة قرون أو ستة، ولا زالت قائمة يعبر الناس عليها نهيراً صغيراً يسمىوادى لُكْ (جوادا ليثى) وهو—كغيره من صغار أنهار إسبانيا — جاف معظم العام . . .

ولكنه كان ، يوم وقفت على قنطرته، لا يزال يحمل سؤراً من الماء . . .

وهبت نسمة منعشة، وتموج الماء القليل . .

ومن بعيد ترامى إلى سمعى نشيد راعٍ يغنى سايتا . . كان يقول فى لهجته الأندلسية الجميلة :

« كل الأمهات
لهن أشجان . .
ولكن شجنك أنت أثقل مما يحملن ..
لأنك تحملين بين يديك
ابنك الحبيب ،
مقيد القدمين واليدين . .
كأنه خائن ! . . »

الموال يخاطب السيدة العذراء،ولكنه — من بعيد — كأنه يخاطب مالقة . .

فإن كل بلاد الدنيا لا تخلو من الأشجان ، ولكن شجن مالقة إنما هو حداد طويل . .

فعلى كتفيها تحط ذكريات المجد الذى ضاع ، ذلك المجد العربى الذى طاردوه وتعقبوه . . كأنه خيانة أو عار ! . .

ولو سرت من مالقة مُساحِلاً إلى الشرق فى اتجاه المرية ، ثم إلى الشمال الشرقى فى اتجاه دانية ، لمررت فى الطريق بمدن فريدة فى بابها جمالاً وإبداعاً .

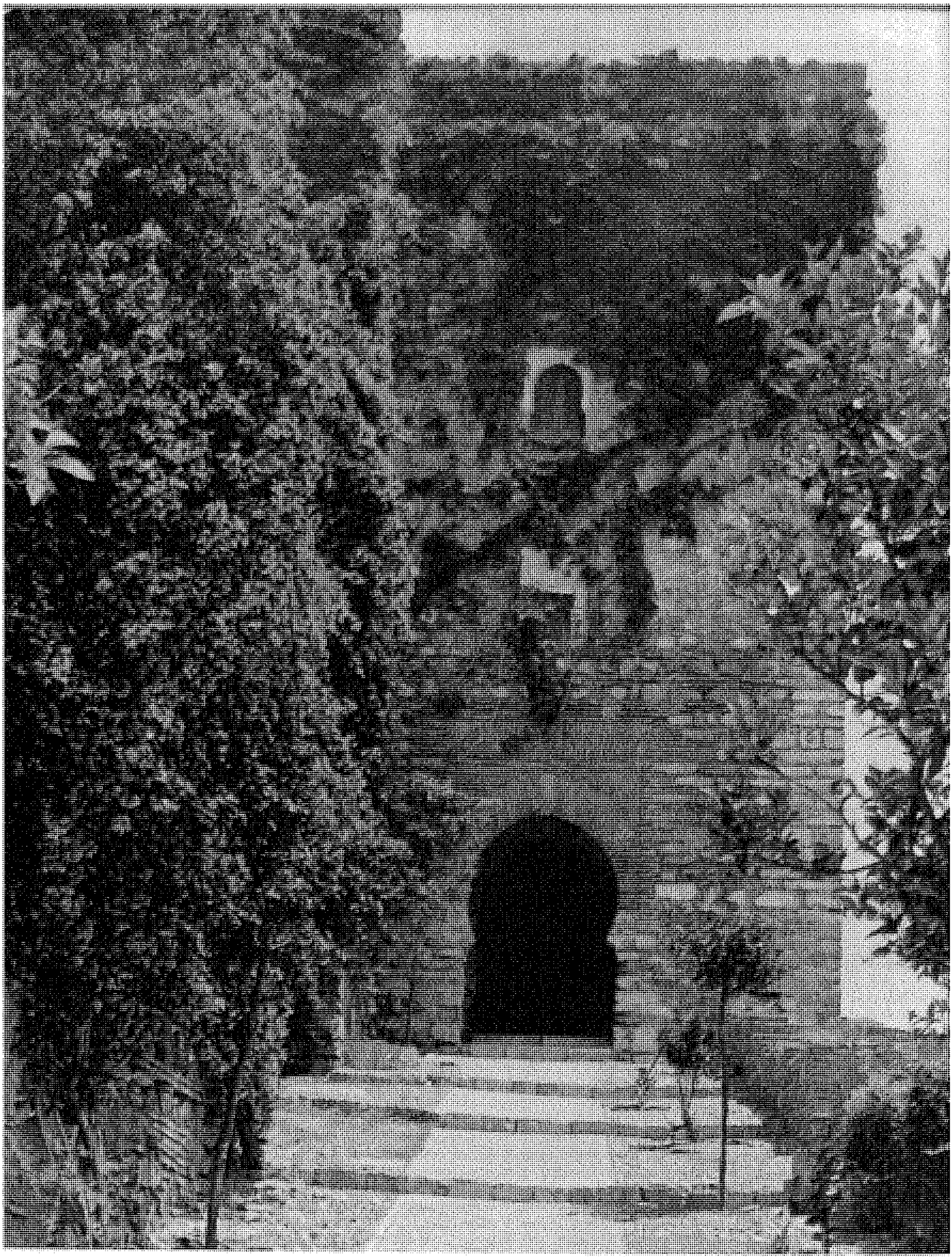
فأنت تمر أولا ببِلِزْلِنْيانة (يسمونها اليوم : ڤِنتاس دِ بِزْيلِنْيانه) بُليدة صغيرة كأنها جوهرة ، كانت على أيامنا تقع على البحر ، ولكنها تراجعت اليوم إلى الداخل شيئاً .

ثم المُنَكَّب (يسمونها اليوم : المونييكار) وهى الفرضة الصغيرة التى نزل بها عبد الرحمن بن معاوية الداخل قادماً من المشرق ثم من الشمال الإفريقى ، ومنها طلع نجم الدولة الأموية على الأندلس . إنها درة من درر الشاطئ الشرقى الإسبانى اليوم ، شاطئها رملى جميل تطل عليه الجبال العالية ، وحولها دور ريفية أندلسية من ذلك الطراز الذى يسمى كورتيخو ، وهو ما يقابل الدوّار فى المصطلح المصرى . بيت ريفى صِرف يتحدث بالنعمة والرخاء تقوم حوله مزرعة صغيرة ومَرْبىً للدواجن والماشية . هذه الكورتيخوس هى طابع الريف الأندلسى المميز ، والكثير مما يقوم حول المُنَكَّب اشتراه إنجليز وفرنسيون وألمان وإسكندناويون ليقيموا فيها عمرهم كله .

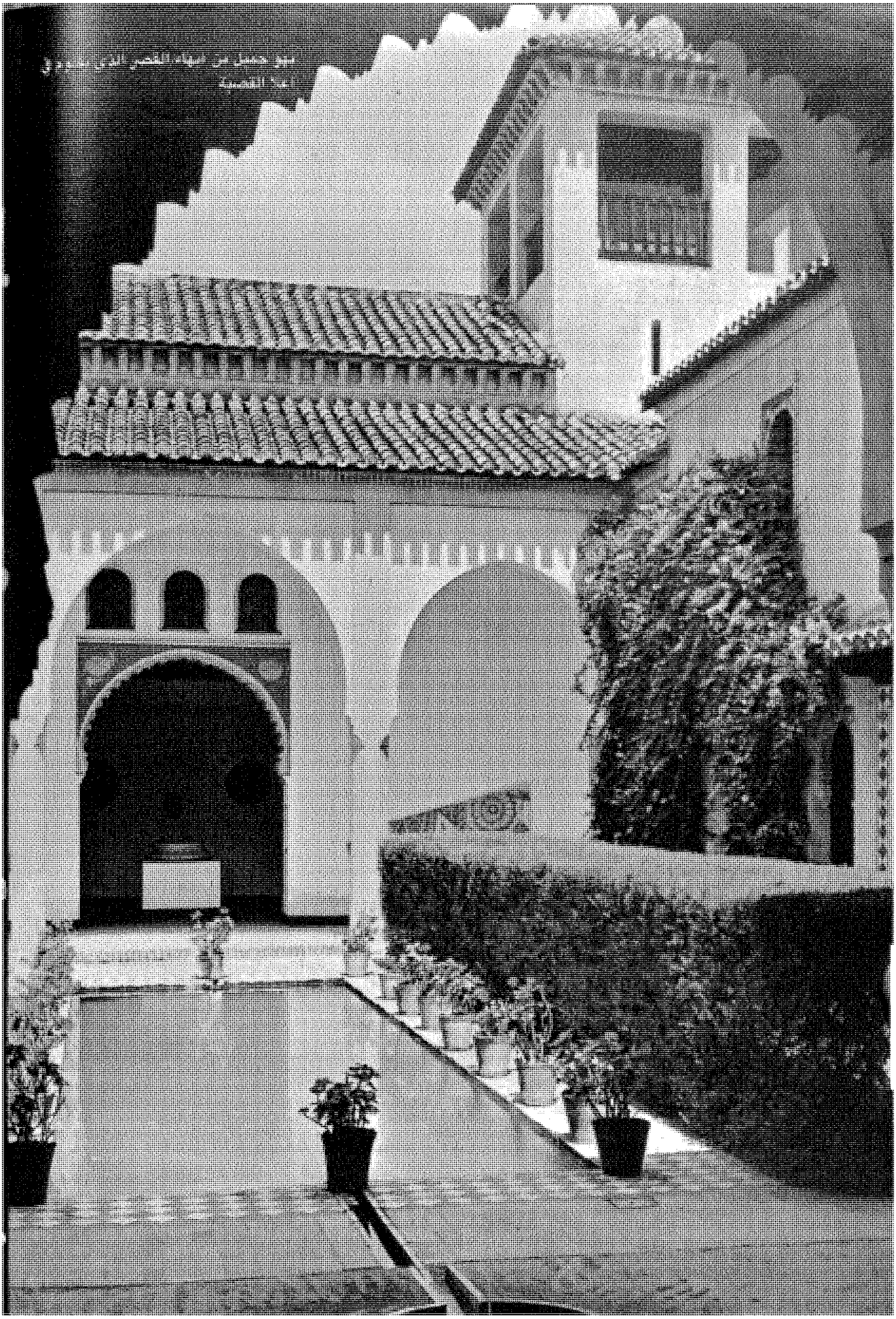
وبعد قليل تصل إلى شَلُوبِينْيَة (يسمونها : سَلُوبْرِينْيا) وهى بلد أبى على الشَّلوبِين من أعاظم النحويين فى تاريخنا ، ومنظر هذا البلد عجب من العجب : بساط من الخضرة الزاهية فى وسطه جبل ، وعلى قمة الجبل وسفحه تقوم البُليدة بيضاءَ ناصعةً تتوجها السقوف الحمراء .

ثم دَلاَيَة (يسمونها : داليِاس) وهو اسم زهرة ذائعة فى الدنيا كلها ، وكنا أول من أدخلها إلى أوربا ، وهى موطن أحمد بن عمر بن أنس العُذْرى الدّلائى من فطاحل جغرافيينا .

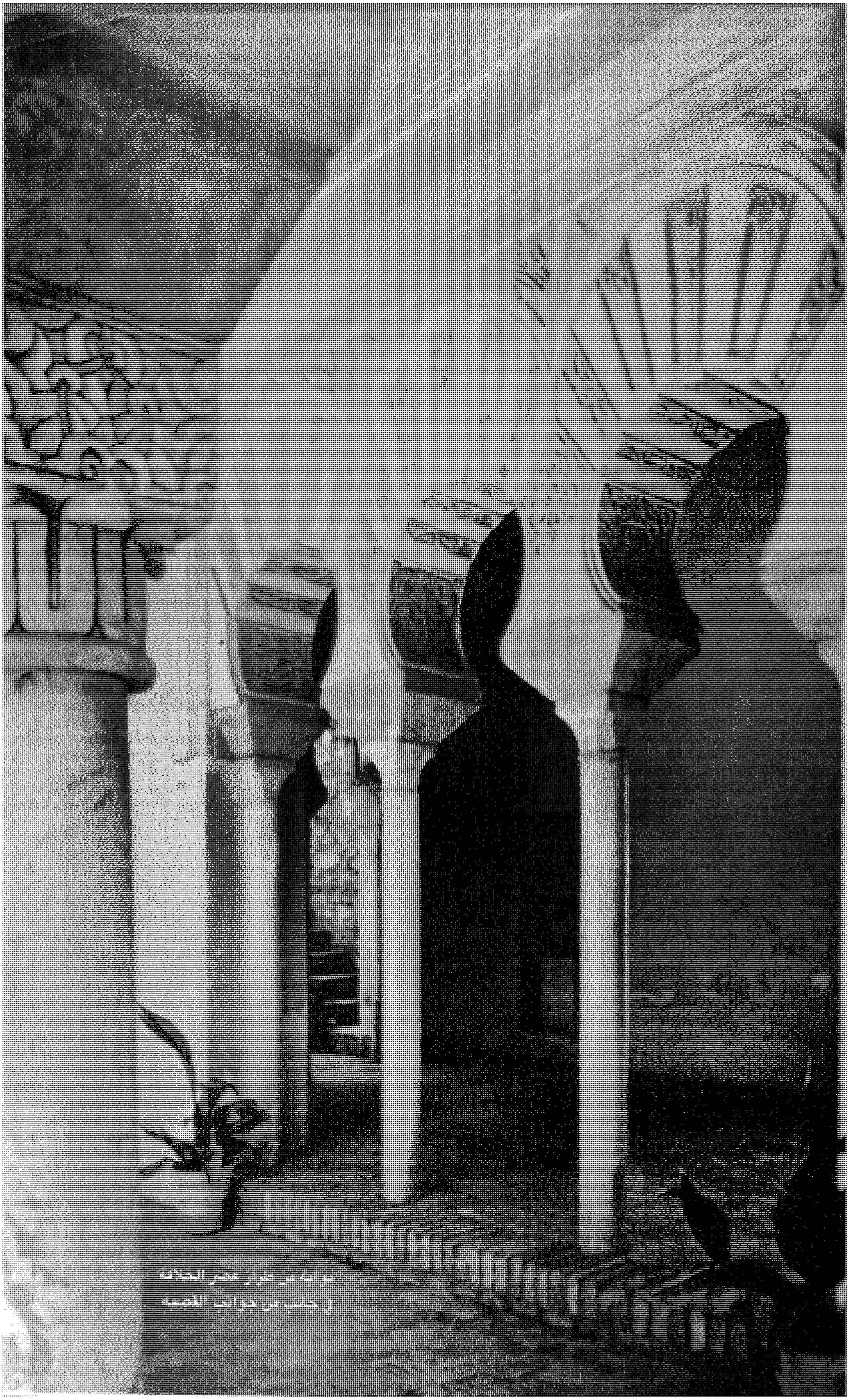
وهكذا حتى المرية ، ومن هذه حتى مرسية وبلنسية : بلاد هى صفحات من تاريخنا ، وهى اليوم روضات ومنتجعات لطلاب الراحة ومتع البحر والهواء والشمس والبُعد عن المشاغل . وهذا الجزء بالذات هو الحقيق بأن يسمى ساحل الشمس ، من كل مكان فيه تطل عليك جبال البُشارات التى حدثتك عنها .

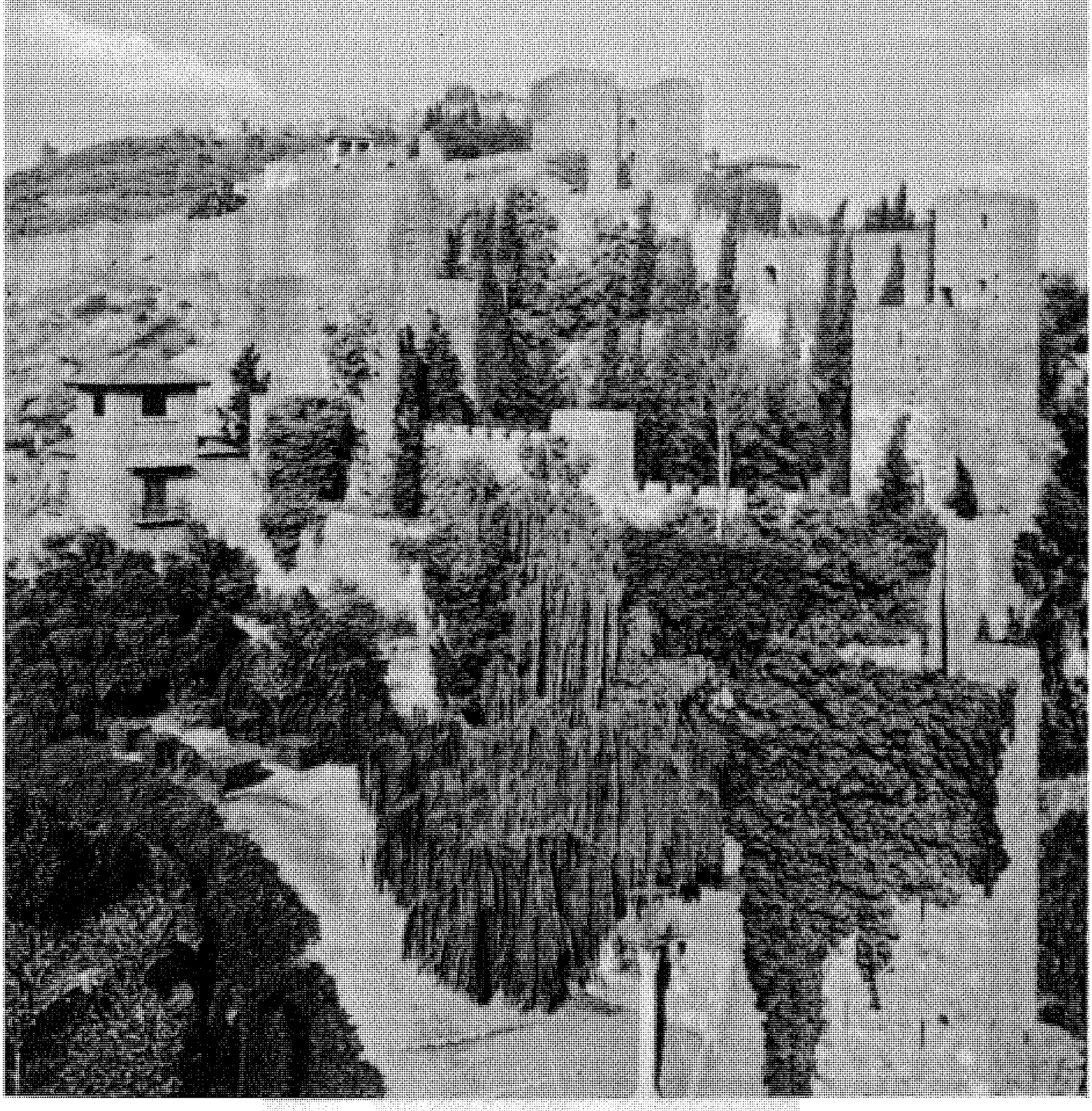


لا تنسى إذا مررت بمالقة أن تزور قصبتها أي حصنها الإسلامي الذي بُنِيَ على سفح جبل الفارو، إنك تصعد على الجبل إلى مرامي القصبة على درج يسير الانحدار كهذا الذي تراه هنا. في أعلى التل يقوم قصر جميل.



منظر جميل من أبهاء القصر الذي يقع في
أعلا القصبة





جبـل الفارو الـذي تقوم عليـه القصبة وقـد انشأوا هنـاك قلعة بعـد
العصور الإسـلامية تسمى حصن جبل الفارو تراها في هذه الصورة.

الجَناح الكَسير : شرق الأندَلُس

بعد أن تفرغ من زيارة الجنوب لا بد لك من جولة فى شرق الأندلس ، أو شرق إسبانيا . هذا الساحل الطويل الذى يطل به شبه الجزيرة على المغرب والبحر الأبيض المتوسط . .

إنه عامر بالمدن والبلاد . عامر بالحياة والمزارع والخيرات ، وهو دون شك أحفل نواحى شبه الجزيرة — بعد الجنوب — بالتاريخ وعبر التاريخ .

هذه المدن التى تراها اليوم تزين ذلك الساحل وما يليه من سهول ومزارع ورياض وحقول كانت مجالات عاش فيها أجدادنا قروناً بعد قرون . ومدائن أشرقت على العالم بنور العلم جيلا بعد جيل . ومسارح لأهل الشعر والنثر ورثنا عن أهلها دواوين بعد دواوين . .

وإذا أحصيت ما كان فيها من عمائر ومساجد وقصور وحصون وقلاع وموان ودور صناعة ، لأربى على ما كان منها فى الجنوب ، لأن الأرض هنا — فى مجموعها — أخصب وأغنى بموارد الأرزاق . ومرافئ الساحل من المَرِيَّة إلى طَرَكُونة كانت مراكز كبرى لتجارة البحر والبر ، وكانت مراسيها عامرة بالسفن من كل نوع ، تقطع البحر الأبيض إلى مرافئ المغرب ومصر والشام وآسية الصغرى وجزائر البحر وبلاد الروم والفرنج ، تروح محملة بمصنوعات الأندلس وحاصلاته وتغدو حافلة بطرف الشرق وخيراته ،

وتنصبُّ ثمرات هذا النشاط التجارى الحافل خيراً عميما على أهل شرق الأندلس وبنى عمومتهم فى نواحيه كلها . .

لا غرابة إذن فى أن تكون مدائن شرق الأندلس على أيامنا أغنى بلاده جميعاً ، وأن يكون تجاره ذوى أموال عريضة وثروات ذهبت فى صفحات الكتب أمثالا ، ومن ذلك أن رجلا من أهل دانية استضاف المنصور بن أبى عامر وجيشه كله ،وكانوا عشرات الألوف ما بين جندى وضابط ومعمارى وصانع وموكل بالسلاح والذخيرة والمؤونة ،أقاموا أربعة عشر يوماً ينفق عليهم هذا الرجل من ماله العريض دون تكلف أو مشقة . .

وكان الناس يضربون المثل بجمال بيوت المرية ودانيـَة ومُرسية وبلنسية ، ويتحدثون عما فيها من فاخر الرياش وبديع التحف ،وما يزين حدائقها من شجر وزهر وريحان . .

وقد اختط العرب الكثير من هذه المدن والموانى ووضعوا لها أسماءها التى تسمى بها إلى اليوم ،فالمرية لفظ عربى صرف معناه الناظور المرتفع الذى يقام على شاطئ البحر ليقيم فيهحراس يرقبون الشواطئ حذراً من غزاة البحر الذين نسميهم القرصان ، وهو لغة فى « المرئية » أى التى تُرى من بعيد .

وشبيه بذلك ميناء صغير إلى جوار مالـَقـَة يسمى اليوم الموخيـِّة ، وهى المـَوْشيـَّة أى المحلاّة أو المزيـَّنة .

ومرسية أيضاً لفظ عربى ، أصله المُرْسيـَّة ، لغة فى المُرساة ، أى التى أرسيت قواعدها ، وهذه الصيغة تشبه قولنا فى مصر : المنشيَّة ، والمراد المنشأة أو المنشاة . . .

وإلى جنوبى بلنسية ميناء نهرى قرب مصب نهر شُقْر (خوكار) يسمى اليوم ألـْثيرَا ، وهى الجزيرة أو جزيرة شقر ،وكانت على أيامنا ميناء عظيماً ومصراً زاهراً ، ومنها شاعرنا المجيد أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة ، ويلقب لهذا بالجزيرى أو الشقرى ، ولا بد أنك قرأت له شيئاً من روضياته التى

تتحدث عن رياض شرق الأندلس وزهوره ومغانيه ، ولا غرابة لهذا فى أن يسمى بالجَنّان . .

وغير ذلك كثير . .

أما بقية بلاد شرق الأندلس، فقد وجدناها حين دخلناه قرى أو مجرد محارس وحصون ، فجعلناها مدناً زاهرة كانت على أيامنا من أزهر مراكز العمران فى الدنيا . فبلنسية كانت فرضة صغيرة تسمى ڤالنثيا ، ودانية لم يكن فيها يوم دخلناها إلا معبد للإلهة ديانا ، ولَقَنْت كانت معسكراً للرومان بعض الوقت ، فانظر كيف جعلنا منها مدناً وموانى عامرة أحيينا بها ذلك الساحل الشرقى ، وكان قبلنا صامتاً خاملا يسميه الإغريق والرومان من بعدهم ساحل الأرانب . .

بل أنشأنا على هذا الساحل أول جمهورية تجارية فى العصور الوسطى . .

فإلى الشمال قليلا من المرية الحالية تجد بلداً صغيراً يسمى اليوم « پِتْشينا » . .

پتشينا هــذه أصلها العربى بَجّانه ، وكان العرب ينطقون مثل هذا الاسم بالإمالة ، فيقولون : بَجّينة ، ومن هنا جاء اسم « پتشينا » . . .

وبجانة اليوم قرية صغيرة على عشرة كيلومترات شمالى المرية ، ولكنها كانت طوال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين شيئاً عظيما فى عالم التجارة والملاحة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، بل كان نشوؤها حدثاً من الأحداث الكبرى فى تاريخ العصور الوسطى ، فقد كانت أول جمهورية تجارية بحرية عرفتها أوربا .

ولعلك تعرف أن الجمهوريات التجارية البحرية أصبحت فيما بعد من مفاخر أوروبا وعمد قوتها ، وكلها أنشأتها جماعات من التجار وأهل البحر : تختار الجماعة موقعاً على الشاطئ يصلح مرفأ ويتفقون مع الملك أو الشريف صاحب السلطان فى الناحية على أن يدعهم ينشئون ميناءً ودار صناعة (ما نسميه نحن اليوم ترسانة ، واللفظ العربى « دار الصناعة » هو الذى دخل فى اللغات

الأوروبية : أرسينال) ويقيمون حول ذلك كله سوراً تأمن وراءه مدينتهم وأموالهم فى مقابل إتاوة معينة يدفعونها للملك أو الشريف . هكذا نشأت البندقية (من اللفظ اللاتينى بِنِدِيكْتا أى المباركة ، ومنه أيضاً جاءاسمها الأوروبى ڤينسيا) وچنوة وبيزا (بالعربية بيشَة ، وإليها تنسب فناجين القهوة المعروفة عندنا بالبيشة) وأمالْفِى وغيرها . .

وهكذا أيضاً نشأت بجانة على الساحل الشرقى للأندلس : جماعة من التجار وأهل البحر ممن كانوا يشتغلون بالتجارة بين إسبانيا وشواطئ المغرب رأوا أن نشاطهم فى حاجة إلى تنظيم وأموالهم فى حاجة إلى حماية ، فأنشأوا من أنفسهم اتحاداً واشتركوا فى إنشاء مدينة صغيرة إلى جانب مدينة تِنِس على شاطئ الجزائر وسموها تنس الجديدة (٢٦٢ / ٨٧٥) ، وبعد بضع سنوات استقرت جماعة أخرى منهم فى مرفأ وهران ومدنته ونظمته وجعلت منه ميناء بحرياً عظيما (٢٩٠ / ٩٠٢) . وفعلوا مثل ذلك فى مواضع أخرى من الشاطئ المغربى ، فظهرت موان عظيمة مثل بجاية وبونة ومرسى الدَّجاج ، وكثر المال فى أيدى أولئك التجار ، واحتاجوا إلى مركزلهم فى وطنهم الأندلس ، فاختاروا الخليج الذى تقع على مقربة منه بلدة بجانة وأنشأوا مرفأ صغيراً أقاموا له ناظوراً على البحر سمى مَرِيَّة بجانةعند مصب نهر صغير يسمى اليوم أنْدَرَش ، وكان إذ ذاك يسمى وادى بجانة، ثم عرف الموقع بعد ذلك باسم المرية فقط .

وكانت هذه الناحية إقطاعاً واسعاً بيد جماعة من العرب اليمنيين ، تركته لهم الإمارة القرطبية على أن يقوموا بحماية السواحل من غزاة البحر ، ولهذا كانت الناحية تعرف بأرْش اليمن أى إقطاعهم.وقدعرف التجاركيف يعقدون اتفاقاً مع أولئك العرب يعطيهم الحق فى إنشاء مدينة مسورة يحكمونها بأنفسهم دون أن يتدخل فى أمرهم أحد ، وأقرت الإمارة القرطبية ذلك ، وأيدت جمهورية التجار وحقوقها ، بل تصدت لحمايتها عندما وقع الخلاف بينها وبين جيرانها الذين طمعوا فى خيراتها .

وأزهرت بجانة ومرية بجانة وتمدنتا وأصبحتا أكبر منطقة تجارية على الشاطئ الأندلسى ، وأنشأ التجار لأنفسهم حكومة محلية جمهورية فعلا ، أى يتولى السلطات فيها مجلس من التجار، وأصحاب السفن وأهل البحر يرأسه واحد منهم ، واشتهر من أولئك الرؤساء عبد الرازق بن عيسى ، توسع البلد فى عهده واشترى التجار ما حول بجانة من أرض وأنشأوا فيها قرى عرفت كلها بوفرة المحاصيل .

وغنى الناس ،وتنبهوا إلى أن إقليمهم يضم عينين ذواتى ماء معدنى يصفه الأطباء للمرضى فيفدون للإقامة إلى جوارهما ، فأنشأوا الفنادق للمستشفين كما تفعل البلديات اليوم ، فتوافد الناس إلى بجانة المركز التجارى السياحى الطبى الكبير ، وأنشأ التجار فى بلدهم مسجداً جامعاً على نمط مسجد قرطبة الجامع ، « بناه عمر بن أسود ، وفيه قبو على قبة فيها أحد عشر حنية ، منصوبة على أربعة عشر عموداً ، فنقش أعاليه بنقوش عجيبة، وبغربى القبو ثلاث بلاطات أوسع من الشرقية على عمد صخر ، وفى الصحن بئر عذبة . وكان بمدينة بجانة أحد عشر حماماً ، وطُرُز حرير ، ومتاجر رابحة . . »(*)

ولم يقتصر نشاط تلك الجمهورية على المتاجرة مع بلاد الإسلام ، بل كانت لها علاقات متصلة بالإمارات النصرانية، لا تنفك السفن رائحة إليها غادية منها . وكان البجّانيون يرسلون مندوبين تجاريين يشبهون القناصل الذين كانت الجمهوريات التجارية الإيطالية ترسلهم إلى شتى البلاد فيقيمون فيها ممثلين لجمهورياتهم ومصالحها.

وبلغ ازدهار بجانة أوجه على أيام الناصر وابنه الحكم المستنصر ،وقد أعجب الناصر بالمرية وعمرانها، فنقل إليها قاعدة كورة المرية وأنشأ فيها عمائر ومنشآت كثيرة، وأصبح البلد من ذلك الحين أكبر موانى الأندلس الشرقية ، وانتقلت الأهمية من بجانة إليها .

هذا قليل يدلك على الكثير ، أردنا أن ندل به على عمران هذا الساحل

(*) الروض المعطار ، ص ٣٨ .

وما كان من ازدهاره على أيامنا ، ولو وقفنا عند كل بلد من بلاده من حصن المُنَكَّب (المونييكار) شمالى مالَقَة إلى طَرْطُوشة على أبواب إمارة قطلونية لاحتجنا إلى فصول طوال ، ولكنى أقف بك عند مظهر آخر من مظاهر التمدين والعمران التى أدخلناها على ذلك الساحل الشرقى .

* * *

تعتبر منطقة بلنسية اليوم أخصب نواحى إسبانيا كلها وأوفرها محصولات ، ومعظم ما تصدره إسبانيا من البرتقال وما يتصل به من الموالح تخرجه أرض مديرية بلنسية وما يجاورها جنوباً مثل مُرْسِية وما يصاقبها شمالا وشرقاً من مديريات قسطليون وتِرْوال وكُونْكَة والبسيط ، فهذه النواحى كلها مزارع متصلة وحقول فسيحة ، كلها تروى بالقنوات ، ومديرية بلنسية نفسها والقسم الشمالى من مرسية والجنوبى من قَسْطَلْيون تغطيها شبكة من القنوات تشبه ما نراه فى دلتا النيل .

وإذا نظرت إلى هذه النواحى فى مصور جغرافى رأيت أنهاراً كثيرة تنبع من سلسلة جبال تمتد من الشمال إلى الجنوب تسمى بالسلسلة الأيبيرية ، تكملها إلى الجنوب جبال تعرف بجبال شقورة .

وهذه الأنهار قصيرة متشابهة وتكاد تكون متوازية ، أولها فى الشمال نهر ميخاريس ، وهو لفظ عربى هو « مجرى » مجموعاً جمعاً إسبانياً بإضافة السين إليه . وعلى مصبه مدينة تسمى اليوم المازورة ، وهو لفظ عربى أيضاً : المعصرة . ويليه إلى الجنوب أكبر هذه الأنهار ويسمى اليوم الثُّورْيا ، وكان على أيامنا يسمى نهر بلنسية ، لأن هذا البلد يقع على مصبه ، وإلى جنوبه يقع نهر خوكار وهو اسم عربى أصله شُقَر ، وهكذا حتى نصل إلى نهر سيجورا وهو عربى كذلك : شَقُورة ، وعليه تقع مرسية .

فلو تأملت أسماء المواضع التى تلقاك هناك لدهشت لعروبتها الباقية إلى اليوم ، ويكفى أن نذكر مما حول بلنسية: بنى قاسم ، بنى قارْلُه ، الكُدْيَة ،

البيضاء ، الديموس ، الزناتة ، الزُّهَيْرة ، الأقواس ، العسكر ، البَعْل ، الوَرِيق ، البُرَيح ، البُرَيد ، أبو إسحاق ، القَصر ، القيسية ، القُلَى ، الضيعة ، العِدْوَة ، الفَخّار ، الخرّاصين ، الغار .. وغير ذلك كثير جداً ، حتى ليخيل إليك أنك فى قطر عربى .

وهذا إن دل على شيء فعلى أن العرب أنشأوا هذه المواضع كلها ، ولو قد كانت موجودة قبلهم لبقيت أسماؤها الأولى ، وإن أخذت صورة عربية ، لأن أسماء الأماكن لا تتغير إلا فى النادر ، وكل ما يمكن أن يحدث لها هو أن تعرَّب هيئتها وجرسها ، كما ترى فى أسماء مديريات الوجه القبلى فى مصر ، فكلها — عدا واحدة — غير عربية ، ولكنها صبت فى القالب العربى ، فألفناها ولم نعد نفكر فى أصولها ، والمهم أنها عربية على لساننا وفى إحساسنا .

وتعزى هذه العروبة الظاهرة فى هذا القسم الشرقى إلى أن العرب هم الذين عمروه ومدنوه ، وقد نزلته منهم قبائل يمنية كثيرة ، واليمنية فى كل بلد نزلوه على أيام الفتح أو بعده كانوا أهل معرفة بالزراعة والرى ؛ ما نزلوا موضعاً سهلا قريب موارد الماء إلا اختلطوا بأهله واندرجوا فى عمارهم وزرعوا وحفروا العيون والقنوات وطبقوا ما توارثوه من أعصر اليمن القديمة من علم بهذه الشؤون وخبرة فيها ، فحفروا فى شرق الأندلس شبكة واسعة من القنوات وأوصلت هذه الأنهر بعضها ببعض ، ونقبوا عن عيون الماء وفجروها .

ومن الظواهر المائية فى هذه المنطقة أن بعض مسايل الماء المنحدرة من الجبال تفيض تحت الأرض وتجرى أنهاراً جوفية ، وقد يطفر الماء على سطح الأرض إذا صادف وادياً منخفض القاع . وقد عمد العرب عندما صادفوا هذه الأنهار الجوفية التى تنفجر فى قيعان الأودية إلى توسيع هذه القيعان حتى تصبح حوضاً فسيحاً يمتلئ بالماء ، فتكون منه بحيرة تغتذى بهذا الماء الجوفى . وإلى جنوبى بلنسية بالذات تجد الآن بحيرة رحبة من هذا النوع تسمى إلى اليوم البُفِيرة (البحيرة) ، أخرج العرب منها القنوات ورفعوا إليها الماء بالنواعير فاستحال ما حولها إلى جنة خضراء وارفة الظلال

ولا زالت كل مصطلحات الري والسقيا في هذه النواحي عربية إلى الآن ، فيقولون للقناة أو الترعة أثيكيا وهي الساقية ، وكذا كان العرب يسمون الترعة ، أما ما نسميه نحن في مصر بالساقية فلا زال يحمل اسم الناعورة العربي محرفاً : لانوريا ، وهم يسمون الترعة الصغيرة لاكانيا وهي القناة ، والضيعة لا زالت تسمى لا ألديا ، وجب الماء لازال يسمى الخيبي ، والقرية تسمى لا ألكبريا .

والعرب هم الذين أدخلوا في الأندلس زراعة الأرز والزيتون والبرتقال والليمون وقصب السكر والقطن واللوبياء والمشمش والخوخ والكمثرى وغيرها كثير . ونستطيع أن نقول إنه باستثناء القمح والعنب ، لا تجد نباتاً رئيسياً إلا وقد دخل الجزيرة على يد العرب ، ولا زالت أسماء معظم هذه المحصولات وما يتفرع منها عربية ، بل لا زالوا يستعملون أسماءها العربية في حين انصرفنا نحن عنها في بعض الحالات ، فنحن مثلا نقول : « برتقالة » وهم يقولون : « نارانخا » .. ونارانخا هي النارنجة ، فارسي معرب ،وهو الاسم الذي كان أجدادنا يطلقونه على تلك الفاكهة . أما لفظ « برتقال » فقد استوردناه نحن فيما بعد ، وهو مشتق من « پورتوس كالوس » وهو الاسم القديم لبلدة پورتو أو أپورتو في البرتغال ، ومنه جاء اسم ذلك القطر والفاكهة التي أتتنا منه .

وعن طريق الأندلس انتقل الكثير من هذه المزروعات بأسمائه إلى أوروبا ، كالبرتقال الذي يسمى هناك بصيغ مختلفة مشتقة من نارنج (أورانج) والقطن والمشمش الذي يسميه الإسبان البرقوق (الباريكوك) ومنه جاء لفظ أپريكوت ، وغير ذلك كثير .

ولم ينهض بلد عربي بالزراعة من حرفة إلى فن بمثل ما فعل أهل الأندلس ، ولا يقتصر هذا على نباتات المحاصيل والشجريات بل شمل الأعشاب وهي النباتات ذات الخواص الطبية والزهور ، وللأندلس في تاريخنا العلمي من النباتيين والعشابين والزهارين من يعدون من مفاخر التاريخ الحضاري كله ، كأبي جعفر أحمد بن محمد بن السيد الغافقي وأبي العباس أحمد بن محمد

الملقب بابن الرومية الإشبيلي وضياء الدين أبي محمد عبدالله بن أحمد بن البيطار المالقي ، وغيرهم كثيرون .

أما الزهور فلم يكن في العصور الوسطى أعرف بها من الأندلسيين ، ولم يقتصر العلم بها وتمييز بعضها عن بعض على أهل العلم والاختصاص ، بل كانت جزءاً من الثقافة العامة للشعب ، وكانوا يسمونها الأنوار ، جمع نَوّار ، وبين أيدى المشتغلين بالأدب كتاب لطيف لأبى الوليد إسماعيل الحميرى سماه « البديع فى وصف الربيع » ألفه فيما قاله شعراء الأندلس فى الزهور ، وذكر فيه أسماء ٣٢ زهرة ، وما أظن أن أحداً منا يستطيع أن يذكر عشرة أسماء عربية لعشر زهرات . .

ومن أغرب ما بقى من نُظم العرب المتصلة بالرى والماء فى بلنسية ما يعرف إلى اليوم بمحكمة الماء (تريبونال دى لاس أجْوَس) وتعقد إلى اليوم على باب الكاتدرائية فى الساعة الثانية عشرة ظهر كل خميس ، فتجلس على باب الكنيسة هيئة هذه المحكمة ، وتتألف من نفر من الخبراء بشؤون الرى ، كل منهم يمثل ناحية من نواحى مديرية بلنسية ، ويرأسها مندوب من الحكومة . فإذا دقت الساعة نهض رجل فى ملابس سوداء خاصة يقوم بمهمة حاجب المحكمة فينادى أصحاب الظلامات أن يتقدموا بظلاماتهم ، فيبدأون بحسب نواحيهم ، فتستمع لهم هيئة المحكمة ، ثم تتداول ، ثم يتلو الرئيس الحكم ، وهو حكم ملزِم واجب النفاذ ولا يقبل المناقشة أو الاستئناف . والقضايا كلها قضايا رى وتوزيع مياه : رجل يقول إن جاره فتح سد ترعته قبل موعده المحدد له فى التقسيم ، وآخر يتهم جاراً له بأنه وسع فتحة السَّدَّة ليحصل على ماء أكثر ، وثالث يقول إن جيرانه فتحوا ترعة صغيرة (يسمونها سارِقة) ليحصل على ماء ليس من حقه ، وهكذا . . .

وزوار بلنسية من السائحين يحرصون أشد الحرص على شهود هذه المحكمة الطريفة ، حاسبين أنها تقليد إسبانى صرف ، وهى فى الواقع تقليد عربى استنه

العرب أول ما نزلوا إقليم بلنسية ، فكان القاضى يجلس لسماع شكاوى الزراع فيما يتصل بالماء وتوزيعه صباح يوم الخميس على باب الجامع ، لأن الكثيرين من المتقاضين كانوا غير مسلمين ممن لا يدخلون المسجد ، فيقعد لهم القاضى على بابه حتى يصلوا إليه ؛ وقد كان مسجد بلنسية الجامع يقوم فى نفس موضع هذه الكنيسة .

* * *

وفى ميناء بلنسية نرى سفناً كثيرة معظمها آت من بلاد شمال أوروبا : السويد والنرويج والدانيمركة وهولاندا وإنجلترا ، كلها مخصصة لحمل البرتقال والليمون . هذه السفن أتت لتنقل إلى بلاد الشمال شيئاً من شمس الجنوب وقد صاغتها قدرة الخالق كرات ذهبية هى البرتقال والليمون . إن بلنسية تصدر منها ملايين الصناديق كل سنة ، وغرفتها التجارية توقع عقوداً تحتكر بها الكثير من أسواق الشمال . لم أر من الغرف التجارية فى الدنيا غرفة هى أنشط من هذه ، ودارها التى أنشأتها وسط البلد ، وتسمى « الأثينيو ميركانتيل » جديرة منك بزيارة . إنها دار ثقافة وتجارة ، دار نشاط وعمل وتسلية ، تضم مقاهى ومطعماً ومعارض للفن وقاعات للمسرح والمحاضرات وغرفاً للاجتماعات ومكتبة عظيمة ..

ومن بلنسية تستطيع أن تعبر البحر إلى مَيُورْقة . إنها أكبر الجزر التى يتألف منها الأرخبيل المسمى بالبَلْيار ، والعرب يسمونها الجزائر الشرقية ، وأكبرها هذه الجزيرة ثم مَنُورَقة ثم يابسة (إيبيثا) . مجموعة من الجزر ساجية بين أمواج البحر وكل منهـا كأنها جنة صغيرة تظفر فيها بما شئت من رياض وجبال وشطآن رائعة الجمال ونسائم تبعث فى النفس الحياة . .

جزيرة ميورقة اليوم متنزه من متنزهات أوروبا ، وحركة السياحة فيها تستوقف النظر ، ومطارها الصغير يكاد يكون من أعمر مطارات أوروبا بالحركة ، والطائرات تقبل إليه من كل عواصم أوروبا مباشرة .

هذه الجزائر كانت لنا فى يوم من الأيام ، أول من غزاها عبدالله بن موسى بن نصير سنة ٩٠ / ٧٠٨ أى قبل فتح الأندلس بثلاث سنوات ، ثم نسيناها زمناً حتى تنبه عبد الرحمن الأوسط إلى أهميتها لحماية شواطئ الأندلس الشرقية ، فأرسل إليها أسطولا من ثلاثمائة سفينة سنة ٢٣٤ / ٨٤٨ — ٨٤٩ ضمها إلى دولته . وبعد ذلك بست وخمسين سنة ، أى سنة ٢٩١ / ٩٠٣ ، مر بجزيرة ميورقة رجل من أهل دانية يسمى عصام الخولانى ، كان فى طريقه إلى الحج ، وألجأته العواصف إلى شواطئها ، فقضى فيها وقتاً أنفقه فى التجول فى نواحيها ، فتبينت له أهميتها وثروتها . ثم مضى فأدى الفريضة ، وعاد إلى الأندلس ، فمضى إلى الأمير عبدالله ، وبسط له الأمر . ثم جمع نفراً من المجاهدين المتطوعين وعبر البحر إلى الجزائر الشرقية وأتم فتحها ، وأنشأ فيها نظاماً إسلامياً ، وأقام المساجد . وأقره الأمير عبد الرحمن على حكمها ، فظل عشر سنوات ، وخلفه ابنه عبدالله بن عصام الخولانى إلى سنة ٣٥٠ ٩٦١ حيث ذهب إلى الحجاز ليحج ، فلما وصل إلى الأراضى المقدسة آثر الاعتزال هناك تاركاً المُلك لمن أراده .

وتوافد المسلمون على تلك الجزر فعمروها ، حتى إذا كانت سنة ٤٠٥ / ١٠١٤ (بعد زوال الخلافة القرطبية) نهض إليها مجاهد العامرى ، وكان أول أمره أميراً صغيراً استبد بناحية دانية ، ومن هناك تطلع إلى تلك الجزر التى كانت أشبه بجناح بعيد منسى من دولة الإسلام فى الأندلس ، فعبر إليها واستقر بها وضمها إلى عمله . واجتذبه البحر وشجعه ما لقى من التوفيق ، فأنشأ أسطولا أصبح من أقوى أساطيل البحر الأبيض خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، وبهذا الأسطول غزا سَرْدانية ، واشتبك فى صراع مرير مع الجمهوريات الإيطالية التى كانت تسيطر على مياه الحوض الغربى لهذا البحر .

وأدى به الصراع إلى أن ينزل بأسطوله على شاطئ إيطاليا قرب روما ، فأغار على ضواحيها ، ثم عاد إلى سردانية وقد تألبت قوى النصرانية كلها

ضده ، ونهضت نحوه ، ودارت بينها وبينه معركة عنيفة هُزم فيها ووقع ابنه علىّ أسيراً . فتخلى عن سردانية ، وعاد إلى ميورقة ، ثم إلى دانية ، ومات بعد قليل . أما ابنه علىّ فقد ظل فى الأسر عشرين سنة ، ثم فلك سراحه ، فعاد وتولى حكم دانية والجزائر الشرقية وتلقب بإقبال الدولة .

وفى أيام المرابطين استقر فى هذه الجزر فارس محارب له فى تاريخ الجهاد صفحات مشرقة ، هو يحيى بن غانيَّة المَسُّوفى ، وخلفه عليها أبناؤه ، وقد اختلفوا مع الموحدين وثار بينهم صراع عنيف لم ينته إلا أواخر القرن الثانى عشر الميلادى أيام محمد الناصر رابع خلفاء الموحدين . ومن أسف أن هذا الصراع شغل بنى غانيَّة عن مَيُورْقة ، فصرفوا جهدهم فى قتال الموحدين فى تونس والجزائر .

وقد سقطت الجزر الشرقية قبل أن تسقط بلنسية ، نهض إليها خايْمـِه الأول ملك أرَغُون ، وكان إذ ذاك شاباً جاوزت سنه العشرين بقليل ، فغزا هذه الجزائر وأخرجها من دار الإسلام ، وتكفل القساوسة وفرسان الاسْبِتارية الذين كانوا معه بمحو ما وجدوه فيها من معالم العروبة والإسلام (٦٣٠ / ١٢٣٢) .

ولكن الجزائر ظلت عربية إلى ما بعد ذلك بزمن طويل ، فإلى القرن الخامس عشر كان معظم أسماء المواضع لا زال عربياً ، وإلى الآن ، ورغم ما اشتهر به القَطَلُونيون الذين استولوا على الجزيرة من عصبية دينية جنسية ، لا زال الكثير من هذه المعالم عربياً . ففى مدينة پالْما قاعدة ميورقة تجد قصر المُدَيْنة ، ولا شك أنه كان حصناً عربياً ، تدل على ذلك أسواره وواجهته وبوابته والعقود العربية بداخله . وهو يقوم مواجهاً للكاتدرائية ، وتقوم فى الموضع الذى كان فيه المسجد الجامع .

وكانت أسوار البلد العربى تتصل بهذا القصر الكبير ، ولا زال جزء منها باقياً على حاله وراء الكاتدرائية من ناحية البحر . وإذا وقفت عند هذا الجزء

الباقى رأيت على مقربة منك ساحة واسعة خلف الكنيسة تسمى اليوم : الميرَادُور أى الناظور ، ومن جانب من هذا الناظور فوق ربوة عالية ترى البلد تحتها وعلى سفحها ، ويتردد فى خاطرك بيتان من الشعر قالهما شاعرنا الأندلسى ابن اللَّبَّانة الدانى يصف ذلك البلد الذى تراه :

بلد أعارته الحمامةُ طوقَها وكساه حلةَ ريشه الطاووسُ
فكأن أزهـــارَ الرياض مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

فإذا أردت أن تستعيد ذكريات ميورقة العربية فامض إلى داخل البلد ، مخلفاً الشارع الرئيسى (شارع بورن) إلى يسارك ، فتفضى إلى شوارع وأزقة لا زالت تحمل طابع العصور الوسطى . ومن بين هذه الشوارع واحد يسمى شارع المُدَيْنة إذا سرت فيه قليلا رأيت عقداً عربياً ضخماً كأنه قنطرة فوق الطريق .

وفى هذا الشارع متحف أثرى سموه باسم رايموندو لُولْيُو الفيلسوف المتصوف المعروف ، وهو ميورقى ، وهو من تلاميذ الثقافة العربية ، وإن كان قد استعمل ما تعلمه منا لمحاربة الإسلام . فقد درس العربية وأتقنها وفتن بالصوفى الأندلسى محيى الدين بن عربى وقرأ كل ما كتبه ، وقبس منه بكلتا يديه ، وألف كتباً فى الرد على الإسلام ، ورحل إلى المغرب ليبشر بالمسيحية ، وهناك خالط العُباد والزُّهاد ، ثم عاد إلى بلده دون أن ينصِّر مسلماً واحداً .

وفى تجوالك فى نواحى الجزيرة ترى ، وأنت فى طريقك إلى بلدة ماناكور ،أشجار زيتون يقال إنها أقدم أشجار زيتون على وجه الأرض ، حتى ليزعمون لك أن بعضها عمره ألف سنة ... لا شك أن بعض هذه الأشجار من غرس أيدينا ، غرسناها ومضينا ، وبقيت شاهداً علينا . . .

وفى طريق العودة يمرون بك بوادى موسى (ڤال دِ موسى) لتصل إلى قصر يحمل ذكريات يعرفها من يدرسون تاريخ الأدب فى القرن الماضى ، ففى هذا القصر عاش بضعة أشهر الموسيقى المعروف فريدريش شوبان .

كان السل قد ثقل عليه ، فنصحوه بأن يسرع إلى ميورقة يلتمس في شمسها دواءً لصدره . وأقبل وفي صحبته الكاتبة چورچ صاند . وكان سيء الحظ ، فما طلعت الشمس طوال الأشهر التي قضاها هناك إلا لماماً ، وتوالى هطول المطر ، فزادت علته ، وظل ينتظر البيانو الذي أرسلوه إليه من باريس ، فلم يصل إلا بعد أن رحل . وقد وصفت چورچ صاند ذلك كله في كتاب لطيف سمته الرحلة الميورقية . .

* * *

ولكنك إذا بحثت عن آثارنا المعمارية في بلنسية لم تجد إلا أطلالا وبقايا ومعالم لا تكاد تستبين ، بل إن الآثار العربية في تلك الناحية التي أنشأ العرب عمرانها أقل بكثير مما نجد في مدن لم يكن لنا فيها مثل ذلك العمل الكبير ، مثل أبِلَه وشَقُوبية وما يليها إلى الشمال . وأنت تدهش لهذا ، وقد يتبادر إلى ذهنك الشك فيما حدثناك به من عروبة شرق الأندلس ، ولكن لذلك أسباباً كثيرة أهمها ثلاثة :

الأول أن شرق الأندلس تعرض ابتداءً من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، لأعنف هجمات الإسبان المنحدرين من الشمال والشمال الغربي . وقبل أن يعبر المرابطون إلى الأندلس سنة ٤٧٨/ ١٠٨٦ عاث في هذه الناحية فارس مغامر من أقسى وأعتى من ابتُلي بهم الأندلس من المحاربين يسمى رودريجو دياث دي بيبار — ويعرف عادة باسم السِّيد القَمبيطور (الكامپيادور) — جمع حوله ألوفاً من قطاع الطرق وشذاذ الآفاق ومضى يعيث في شرق الأندلس فساداً ، وصب عذابه على بلنسية وإقليمها حتى دمرها تدميراً ذريعاً . حاصر بلنسية حصاراً رهيباً ، وقسا على أهلها قسوة لم تعرف الحرب بين الإسلام والنصرانية في أي ناحية لها مثيلا ، حتى كان يحرق الناس أحياءً أو يلقي بهم إلى الكلاب الضارية تنهش لحومهم وهم أحياء ، ثم اقتحم بلنسية وأذاق أهلها من الويل ما تقشعر

له الأبدان ، حتى لقد أحرق قاضي البلد ونفراً من شيوخه أحياء ، ودامت هذه المحنة نحو خمس عشرة سنة ، فلم تخف حدتها إلا بعد موت السيِّد وتمكُّن المرابطين من استرجاع سرقسطة وحماية شرق الأندلس فترة من الزمان . وبعد أن سقطت سرقسطة نهائياً سنة ٥١٢هـ / ١١١٨ تفتحت أبواب شرق الأندلس وأصبح ميداناً للغارات والنهب والحروب ، فتهدمت بلاده وقراه وقتل من أهله ألوف وهرب منهم ألوف . واستمر الحال على ذلك قرناً من الزمان تحولت فيه هذه النواحي ومدائنها إلى خراب ، فلما استولى عليها النصارى كانت حطاماً وأطلالا .

والسبب الثاني هو أن الذين تولوا حرب المسلمين فى هذه النواحي وانتزعوها من أيديهم (عدا مرسية وما يليها جنوباً) كانوا ملوك أرغون وأمراء قطلونية وجماعات كثيرة من الفرنسيين والمغامرين من شتى نواحي أوروبا ، وهؤلاء جميعاً كانوا يحاربون حرب تدمير وإبادة دون رحمة أو هوادة ، وكلما وقع فى يدهم بلد بادروا بإزالة كل أثر للمسلمين فيه ،من مسجد أو قصر أو حمام أو حصن ، فلم يسلم من هذا المصير إلا أطلال لا تكاد تذكر .

والسبب الثالث أنه رغم ذلك بقيت فى هذه النواحي جماعات عربية إسلامية كبيرة فى جميع مدنه من أقصى الشمال عند لاردةووَشْقة إلى أقصى الجنوب عند دانية ، وهؤلاء — كغيرهم ممن استغلب النصارى بلادهم وأخضعوهم لحكمهم — كانوا يسمون بالموريسكيين (جمع موريسكو وهو تصغير مُورو أى مغربى أو عربى أو مسلم عموماً) وكانوا موضعاً لأعنف إجراءات التنصير بالعنف ومحاكم التحقيق ، حتى كان الاشتباه فى أن رجلا يخفى صحيفة مكتوبة بالعربية مبرراً كافياً لإهلاكه هو وأهله ، ثم أخرج من بقى منهم بقرار عام بطرد الموريسكيين من إسبانيا أصدره فيليب الثالث فى ٢٢ سبتمبر ١٦٠٦ ، وكانت نتيجة ذلك أن تلاشى ما كان قد بقى هناك للمسلمين من آثار . . .

* * *

لهذا لن تجد فى شرق الأندلس كله – من المرية فصاعداً – إلا أطلالا خافية كأنها تستحيي من الزمان، وربما كان أكبر ما بقى هناك قصبة المرية، وهى أطلال حصن فسيح يقع شمالى المدينة على حافة جبل عال يسمى جبل غادُر، وهو منسوب إلى خيران العامرى الذى استبد بالمرية بعد انفراط عقد الخلافة وحكمها من سنة ١٠١٢ إلى ١٠٢٨ .

وأطلال هذه القصبة تحدثك عما كانت عليه أيام بانيها . . .

وأنت تراها إذا أقبلت من بعيد، فترى شيئاً هائلا كأنه سور مدينة فسيحة تلاشت مبانيها ولم يبق غير إطارها، وهو منظر يبعث فى النفس حسرة وشيئاً من روع عميق . .

طول كل ضلع من أضلاع هذا السور ٥٣٠ متراً، تقوم على أركانه وفى أثنائه الأبراج، وهو مبنى على ثلاث درجات .

وهذا القسم من القصبة الذى يواجهك وأنت مقبل من المدينة بناء جديد أقامه فرناندو وإيزابيلا ليكون حصناً قائماً بذاته، فهو ليس من آثارنا وإن أشبهها . . .

والشعور الذى يستولى على النفس إذا أفضى الإنسان داخل هذه الأسوار أنه فى عالم الموتى، فقد زرعوا أشجاراً ونسقوا حديقة ذات أزهار تبدو لك فى ظلال الصمت الشامل كأنها وضعت تحية للذاهبين .

وهذه القصبة تذكرك بقصبة مالقة، إلا أن هذه الأخيرة خرائب بالمعنى الصحيح إلا عدة بوابات عربية على هيئة حدوة الحصان .

وفى مُرْسية التى حدثناك عنها لا تكاد تجد شيئاً يذكرك بماضيها العربى، فيما خلا دروبا وشوارع ضيقة تذكرك ببعض قصبات المدن المغربية .

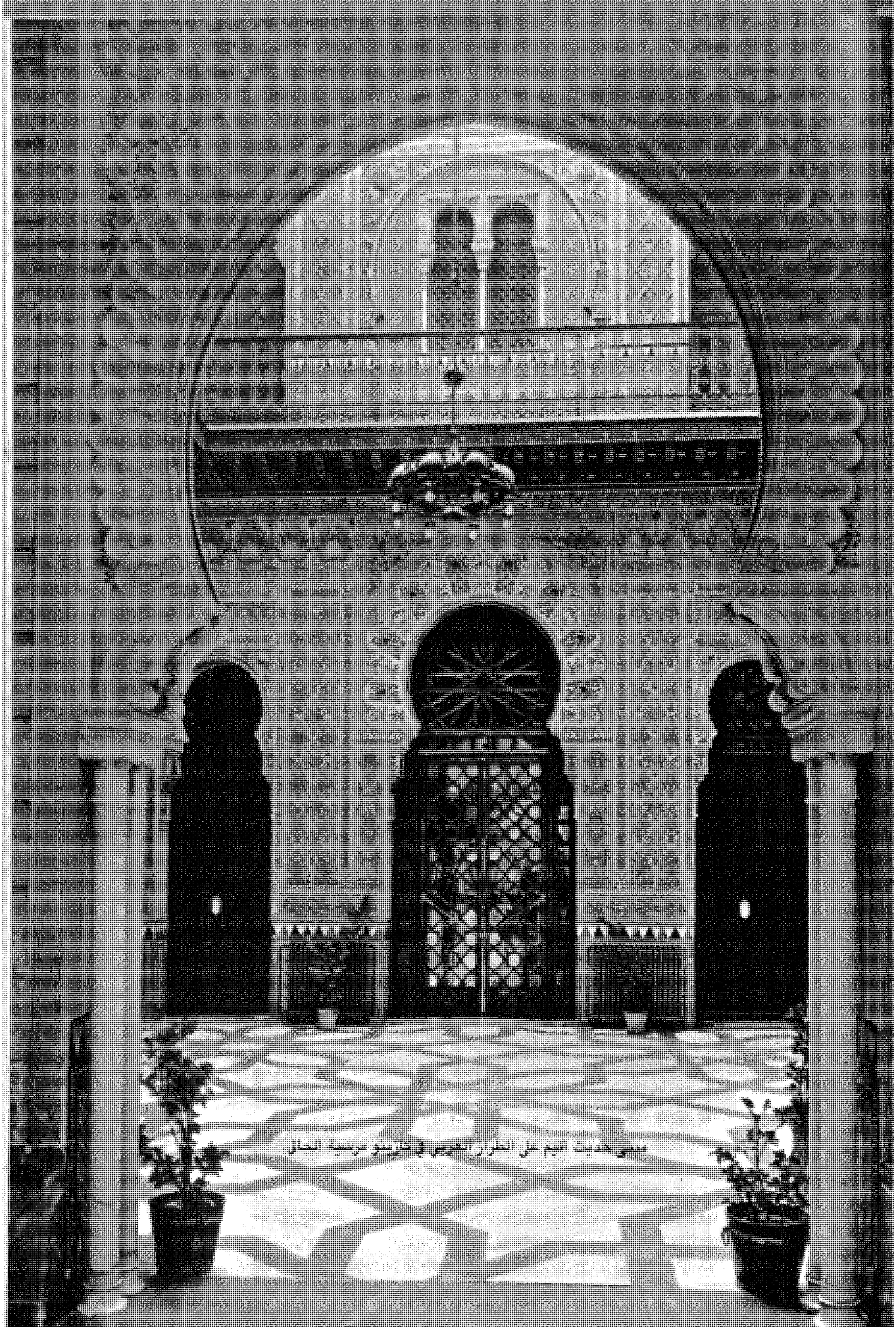
ومن بلنسيتنا لم يبق شيء ذو بال . . أمامك مدينة حديثة تشبه فى مجموعها موانى البحر الأبيض الأوروبية، ولكنك – لأمر ما – تشعر من حين إلى حين أنك فى الإسكندرية . نفس الوجوه والأصوات والشوارع والميادين،

مرسية من المواني البديعة التي انشأها العرب في الأندلس، واسمها العربي يدل على ذلك. وهي مدينة وكورة (محافظة) واسعة في شرق الأندلس تمتد ما بين المرية ولقنت وتعمرها مدن عظام مثل مرسية العاصمة وقرطاجنة الحلفاء وشاطبة وحسولة ولورقا ويكلا وقريسالة. وهي اليوم وحدة سياسية إدارية مستقلة (أوتونوميا) تضمها مع محافظة البسيط وهي محافظة أخرى. وقل ما يزور العرب مرسية رغم أنها من أحفل نواحي الأندلس بآثارهم. والصورة لجانب من بلدة مرسية اليوم والميناء إلى يمينها.





القنطرة القديمة التي كانت تصل ميناء مرسية العربي القديم بالمدينة العربية التي اتسعت ، والآن أصبحت الميناء ضخمة كأنها بلد قائم بذاته، وكذلك المدينة الداخلية.



مبنى حديث أقيم على الطراز العربي في كازينو مرسية الحال.



حتى ليخيل إليك أنك إذا تطلعت إلى البلد وأنت على شاطئ البحر رأيت جامع أبي العباس المرسى . .

كأنما روحه لا زالت تحوم على مسقط رأسه ،وإن ثوى جسده بعيداً على الطرف الثانى من البحر المتوسط . .

ونستمر فى رحلتنا حتى نصل إلى سَرَقُسْطة . .

وسرقسطة فى تاريخنا الفكرى شيء عظيم ،جامعها وضع أساسه الصحابى حنش بن عبدالله الصنعانى ، وقد أخرجت علماء وشعراء وأدباء وفلاسفة أشهرهم أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة . .

وكانت سرقسطة وإقليمها (حوض نهر إبْرُه) من أحفل نواحى الأندلس بالعروبة والإسلام ، وكان أهلها ذوى بسالة وحزم وجرأة ، استطاعوا وهم على أبواب دار الحرب ، بل داخلها ، أن يصونوا قطرهم ويحتفظوا بعاصمتهم ما يزيد على أربعة قرون كلها حروب ووقائع . .

ولم يبق من آثارنا فيها إلا جزء من قصر الجعفرية ، وهو من بناء أبى جعفر أحمد بن هود الملقب بالمقتدر بالله من ملوك الطوائف ، وكان أقوى هؤلاء الملوك وأوسعهم ذكراً بعد المعتمد بن عباد ، وكان أقدرهم على مغالبة شدائد عصره الفياض بالمآسى ، وأجرئهم وأثبتهم فى مواجهة الضغط النصرانى

ولا بد أن هذا القصر كان آية من آيات الجمال المعمارى أيام صاحبه ، فقد كان يسمى بقصر السرور ، وللشعراء فى التغنى بجماله قصائد وقصائد . .

وهو قصر وحصن فى آن واحد ، وربما كان الحصن الوحيد من نوعه فى العالم ، لأنه لا يقوم على جبل أو ربوة وإنما فى طرف البلد من غربيه ، وهو مستطيل الهيئة ، طوله ٨٠ متراً وعرضه ٦٨ .

وقد جددوا القاعة الكبرى فى القصر على النظام الذى ساروا عليه فى تجديد قصر الزهراء ، جمعوا ما عثروا عليه من الأعمدة ورؤوسها وأقواسها وأعادوا بناءه عن علم وفن جديرين بالإعجاب ، فبدت القاعة فى جمالها ورونقها

وأعمدتها وأقواسها كما كانت فى القرن الحادى عشر . والسقف وحده آية من آيات الجمال . . .

وأنت حيثما نظرت وجدت شيئاً ترتاح إليه العين ويشرح الصدر ، أعمدة غاية فى الرقة ذات رؤوس جمعت كل بديع من الحلية والزينة ، وأقواساً جميلة يبدو بوضوح أنها تقليد لأقواس مسجد قرطبة الجامع . .

وفى القصر بقايا مسجد يذكرك محرابه بمحراب مسجد قرطبة أيضاً ، وإن كان الذين زينوه أسرفوا فى زخرفته حتى ليعسر أن تقرأ ما عليه من بقايا كتاباته ، كأنما تعمد الفنان تعقيدها حتى تخفى فحواها عن الناظرين . .

ولا زالت قطع كثيرة من مخلفات هذا القصر فى متحفى سرقسطة ومدريد الأثريين ، وقد أعادوا تركيب بعض هذه القطع فى هذين المتحفين ، والبوابة المثقلة بالزخارف فى متحف مدريد آية من آيات الفن العربى الأصيل .

وكاتدرائية سرقسطة من أشهر كنائس إسبانيا وأعظمها قداسة . إنها كنيسة ضخمة تقوم على ضفة نهر إبْرُه ، قبابها الكثيرة تبدولك من بعيد وكأنها أبراج الكرملين ، وهى معمَّدة باسم عذراء العمود « نويسترا سينيورا دل بيلار » حامية الجنس الإسبانى فى كل مكان . إنها ذات قداسة عظمى فى كل مكان يتكلمون فيه الإسبانية على وجه الأرض . الأعياد الخاصة بعذراء العمود فى سرقسطة فرجة جديرة بأن يُستمتع بها . يقيمون فى صحن الصلاة الأكبر ، وإلى جانب المَصلب المثقل بالزخارف واللوحات وآنية الذهب والفضة شبهَ مسرح صغير ترى فيه تمثالا صغيراً للعذراء محمولا على يدى قس وسط ضوء باهر مسلط عليه ، والناس يمرون واحداً واحداً يقبلون التمثال فى خشوع . . .

مكان هذه الكنيسة كان يقوم مسجد سرقسطة الجامع . المسجد الذى اختطه الصحابى حنش الصنعانى ، ثم توالت عليه الزيادات والتجديدات حتى أصبح من أعظم مساجد الإسلام . لم يبق من هذا المسجد إلا أثر باهت كأنه

بقايا وشم على ظاهر اليد كما يقول الشاعر الجاهلى : قوس مزدوج يقوم على عمود رخام فى الوسط ودعامات حجر فى الجانبين . . تراها إذا شئت فى سرداب الكنيسة ، أو دورها الأسفل .

كانت سرقسطة على أيامنا قاعدة لقطر كبير يضم كُوَراً (مديريات) عديدة ويسمى فى مجموعه بالثغر الأعلى ، ويمتد من سفوح جبال البُرت (البرانس) حتى أحواز طَرْطوشة جنوبى برشلونة الحالية .

خلال أيام الفتح الأولى توافد العرب على هذه الناحية ، اجتذبهم إليها نهر إبْرُه بمجراه الواسع العريض . لم يحب العرب شيئاً كما أحبوا الأنهار الكبيرة المتدفقة بالماء . نوع من الشوق إلى رؤية الماء يجرى إلى غير نهاية كان يجتذب البدوى الذى لم يكن يرى الماء إلا فى قاع بئر أو فى بركة كأنها مرآة غِبَّ المطر . .

اجتذبهم إلى الثغر الأعلى كذلك حب الجهاد والرباط . هنا على أبواب دار الحرب أقامت جماعات من العرب مرابطة مجاهدة ، كأنها درع يقى ما يليها من بلاد العروبة والإسلام .

من هنا أيضاً صدرت الجيوش التى غزت جنوب فرنسا واحتلته قرابة نصف قرن . خلال الخمسين سنة الأولى من تاريخنا فى شبه الجزيرة كان حكام الثغر الأعلى يقيمون فى أربونة (نَرْبُون) ثم انتقلوا إلى طَرَسُونة ، وهى إلى الشمال الغربى من سرقسطة على مقربة من الضفة اليمنى لنهر إبره . من سرقسطة وطرسونة انتشروا فى الناحية كلها وعمروا أرجاءها ، وحولوا ما وجدوه فيها من قرى ومدن صغار إلى مدن كبار ذات رونق وجمال .

أشهر هذه المدن ثلاث : لارِدة (لِيريدا) ووَشْقة (أويسكا) وتُطِيلة (توديلا) . .

المدينتان الأوليان أصبحت كل منهما اليوم قاعدة مديرية تحمل نفس الاسم . .

الثالثة ، وهى تطيلة ، مركز إدارى فى مديرية نَبَرَّة التى نكتبها عادة : ناڤار . .

هذه المدن الثلاث ، وخاصة تطيلة ، لا زالت تحتفظ بطابعها العربى : الشوارع الصغيرة الضيقة المبلطة بالزلط الصغير ، البيوت ذات الوجهات الكبيرة وراءها الأبهاء فيها النافورات ، السمت الجميل وسمة الوقار التى تميز الناس أجمعين . هنا وهناك تلمح عيناك قوساً عربياً أو بوابة بيت تذكرك بأخت لها فى المغرب أو فى القاهرة أو فى دمشق . .

وأسماء القرى والبلاد الصغيرة فى الأرياف حولها تدهشك بعروبة الكثير منها : أبوفاجيج (أبو حجاج) ، أثبريد (السراط) ، ألادْوير (الأدوار)، ألارْبا (الأربعاء) ، الپالاثيثُو (البلاط الصغير) ، الباريدا (البريد) ، البلدة ، الفاخارين (الحجارين) ، الفامبرا (الحمراء) . .

لا أنسى يوم ذهبت للاشتراك فى حفل أقاموه فى تطيلة لذكرى عالم من أبنائها يسمى ميجيل سيرڤيت يقولون إنه أول من اكتشف الدورة الدموية . .

والحقيقة أن سيرڤيت قرأ ما كتبه عنها طبيبنا العربى على بن النَّفَيس ، فزعمه لنفسه وادعاه ، وهى حقيقة يسلم بها أهل المعرفة والعلوم . .

وبعد الحفل لقينى رجل بدين يتحدث مظهره عن ثراء وسَرْو ، ودعانى إلى بيته . .

ودخلت البيت فإذا هو عربى العمارة والأثاث ، وابتسم التطيلى اللطيف وقال لى : إننى عربى ، جدودى كلهم عرب . أحسست أن البر بأولئك الجدود يقضى بأن أعيش كما كانوا يعيشون . كانوا أشرافاً ونبلاء محاربين . إلى القرن السادس عشر ظللنا عرباً مسلمين ، ثم . . . أنت تعرف الباقى . .

هذا الرجل أنفق معظم ماله فى إنشاء هذا البيت . قام برحلة طويلة إلى المغرب ليشترى الأثاث . . الحمام العربى أنشأه له عريف من تطوان . .

وبينما كنا جالسين على وسائد من الجلد وتحت أقدامنا زَرْبِيَّة (سجادة)

مغربية والنوافذ أمامى أقواس عربية يتراءى من ورائها شجر البهو وصوت النافورة فى وسطه ، سبح بى الخيال مئات الأميال ومئات السنين إلى الوراء . .

شعرت بإحساس عميق من العزة بأننى أنتمى إلى هذه الحضارة وأننى خادم من خدامها . .

وحضارة تغالب الدهر هذا الغلاب ، وتثبت لمصائب الزمان والقهر والعنف بهذا العناد ، حضارة أقل ما توصف به هو الخلود . .

نعم ، فإن البقاء والازدهار فى ظلال الدولة والأمن مشكوران ومحمودان ، وقد عجزت عنهما مع ذلك حضارات . . .

فما بالك بحضارة ثبتت لذلك العسف كله ، وقهرت جحافل الزمان كأنها بطل عزيز يرهبه الموت ويخشاه ؟ . . تلك ولا شك حضارة فريدة فى بابها فى التاريخ . .

وكما أثبت هذا الرجل أنه جدير بها ، فكذلك نحن حريون بأن نكون أهلا لتراثها المجيد ، وأهلا لمستقبلها الأمجد بإذن الله . .

كان هذا إحساسى عندما وقفت فى قرية تسمى البَنْية إلى شمالى فيجيراس بقليل على أبواب ممر من الممرات التى تؤدى من إسبانيا إلى فرنسا عبر جبال البُرت . .

خيل إلى أننى أرى جحافل الفاتحين من أجدادى ، يقودهم أبطال من طراز السمح بن مالك الخولانى وعبد الرحمن الغافقى وهم فى طريقهم إلى ما كانوا يسمونه بالأرض الكبيرة لإتمام الرسالة التى وضعها على أكتافهم التاريخ : نشر الإسلام والخير ونور العرفان . .

وترحمت على عبد الرحمن الغافقى ومن استشهد معه يوم بلاط الشهداء فى يوم من أيام رمضان سنة ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢ . .

من هذه القرية التى وقفت فيها إلى موضع موقعة البلاط ، وهو قرية بين مدينتى تور وبواتييه فى فرنسا تسمى مواسيه لاباتاى، ٦٠٠ كيلو متر ، قطعها

أولئك الأبطال بدل المرة مرات ، وإذا كانوا قد توقفوا فلم يكن ذلك بسبب معركة البلاط . . إنما كان هذا هو الحد الذى وضعه القضاء . .

والمسافة من دمشق إلى مواسيه لاباتاى نحو ١٠,٠٠٠ كيلو متر . .

وقوم يسيرون هذه المسافة على أقدامهم أو على ظهور الخيل والإبل جديرون بالإعجاب على مجرد الوصول . . .

فما بالك وقد اخترقوا هذه المهامه المترامية أبطالا مجاهدين يدعون البشر إلى الدخول فى دين الله ؟ . .

رحم الله مؤرخينا ، قالوا إن العرب عندما وصلوا إلى الموضع الذى قرر القدر ألا يتخطوه وجدوا حجراً عليه كتابة تقول : « يا بنى إسماعيل ! انتهيتم فارجعوا . . »

مدريد وما حولها

بقيت علينا بعد هذا التطواف فى جنوب الجزيرة ووسطها وشرقها وشمالها مراحل أخرى كثيرة ، لا بد من قطعها حتى تكتمل فى ذهننا صورة الأندلس المجيد . .

بقى الغرب كله : ما يلى إشبيلية غرباً إلى المحيط ، وبقى الشمال والشمال الشرقى كله ، من منطقة مدريد فصاعداً . .

فأما الغرب — وفيه البرتغال كلها — فقد كان داخلا فى زمام العروبة منذ الفتح إلى أواخر أيام الموحدين ، أى إلى النصف الأول من القرن السادس الهجرى — الثالث عشر الميلادى .

وأما ما يلى مدريد شمالا وشمالا بشرق ، فقد كان بلاداً إسلامية إلى ساحل خليج بِسْكايَه ، ثم انسحب المسلمون إلى شاطئ نهر دُويرُه ، وتخلوا عن بعض ما يليه جنوباً ، فتحول إلى منطقة خلاء — أو « نومانز لاند » كما يقال — إذا قوى المسلمون ضموه إلى بلادهم ، وإذا تراخت أيديهم استغلبه أهل الشمال . .

أى أن هذه المنطقة الواقعة جنوب نهر دويره كانت إلى انتثار الخلافة ميدان صراع بين الإسلام والنصرانية على مصير شبه الجزيرة ، وسنرى آثار ذلك عندما نمر بها بعد قليل . . .

وأما ما يلى نهر الدويره شمالا ، فقد ملكه المسلمون كما قلنا على أول أيام الفتح ، ثم تخلوا عنه لبعده السحيق ووعورة الطريق إليه . وفى نصوصنا القديمة يتردد القول بأن المسلمين زهدوا فيه .

وكان فى قدر الله أن يكون هذا الزهد مصدر البلاء . . .

لأنه — مهما كانت مساحته التى تركها المسلمون — أصبح مهداً ومأوى لمن أبى الخضوع لهم ، وأضحى مركز المقاومة لسلطانهم هناك ، وفى أمن تام وراء الجبال والوهاد نظم المعتصمون أمرهم ، وأقاموا دويلة لم تلبث أن أصبحت دولة أو دولا تناجز المسلمين . .

وعلى طول تاريخ الإسلام فى الأندلس تشعر بأن هناك خطراً فى الشمال ، خطراً كان من الممكن القضاء عليه وهو فى مهده ، فلما اتسع مداه واستقرت دعائمه واشتد عوده أصبح القضاء عليه عسيراً . . ومنذ قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ / ٧٥٦ أصبح وجود إسبانيتين : إسلامية ونصرانيـــة ، حقيقة مقررة يسلم بها أمراء قرطبة وخلفاؤها ، ويجتهدون فى اتقاء الشر وتلافى الخطر قدر الإمكان . .

وفى أيام عبد الرحمن الناصر وصل الجانبان إلى اتفاق معقول ، كان من الممكن أن تستمر الأمور عليه لو أن الذين جاءوا بعد عبد الرحمن حافظوا على تراثه وسننه ، وأدركوا حقيقة وضع الأندلس الإسلامى تجاه الخطر الشمالى الذى غدا أشبه بِيهيار الثلج : يهدد بالانقضاض فى لحظة زمان . .

وستتبين أثناء رحلتك إلى الشمال والشمال الغربى حقيقة غابت عن الكثيرين ممن درسوا تاريخ الأندلس : أن الربع الشمالى الغربى من شبه الجزيرة أغنى نواحيها جميعاً وأوفرها خيرات . .

فأنت إذا سرت إلى الشمال من مدريد اختفت تلك الأراضى القاحلة التى قطعتها فى ساعات بعد ساعات وأنت منحدر نحو الجنوب ، وحلت محلها

خضرة دائمة تقريباً، تمتد على طول طريقك حتى خليج بِسْكايُه . هناك لن تجد غير المراعى والحقول والغابات .

والمطر الشحيح فى بقية شبه الجزيرة تجده هنا وافراً حيثما ذهبت ، وكلما صعدت نحو الشمال زاد المطر ، وزادت الخضرة تبعاً لذلك . حتى إذا وصلت قرب ساحل بسكايه ، أو أفضيت إلى جِلِّيقِيّة (جاليثيا) وجدت نفسك فى بلاد هى أقرب ما تكون إلى سويسرا وألمانيا وهولندا وفرةَ ماء وخضرةَ حقول . . .

وفى العصور التى نتحدث عنها كانت هذه النواحى عامرة بحيوان الصيد : الغزلان من كل صنف والأرانب البرية وما إليها . . .

وسواحل هذه النواحى من أغنى سواحل إسبانيا بالأسماك ، وأهلها لهذا من أمهر صيادى السمك فى العالم كله . . .

وهناك أيضاً توجد أعظم مناجم إسبانيا وأغناها بالحديد والفحم . . .

ومعنى هذا أن ربع الجزيرة هذا يعدل من حيث الثروة وإمكانيات الحياة أكثر مما تعدل المنطقة الشاسعة الممتدة بعرض الجزيرة من خط عرض مدريد إلى خط عرض قرطبة ، باستثناء ناحية بلنسية . .

ومعناه أيضاً أن الذين يملكون هذه النواحى يملكون من ثروة شبه الجزيرة أكثر من الربع بكثير ، بل يملكون حوالى النصف . . .

أضف إلى هذا أن صعوبة الظروف الطبيعية هناك ، والاضطرار إلى العيش فى الجبال وعلى المرتفعات ، فى جو بارد يصل إلى ما تحت الصفر معظم الشتاء فى نواح مثل سورية (سوريا) وبُرْغُش ولُجْرُونْيُو وأبيط ولُك، كل هذا من شأنه أن يشد العضل والعصب ، ويقوى الجسد ويعوده على مصاعب الحياة ومضانك القتال .

لا غرابة إذن أن نجد أهل هذه النواحى — رغم توالى الغزوات عليهم —

لا تنكسر عزيمتهم أو يملون من البدء من جديد : كلما أقبلت جيوش قرطبة هربوا إلى الجبال ، فإذا انصرفت عادوا إلى الوديان . .

وسنرى عند سيرنا فى آثار الفاتحين كيف كانت هذه العوامل كلها إلى جانب خصومهم ، وكيف أعانتهم على الثبات والاستمرار . .

* * *

عرف الناصر — بما وهبه الله من فهم سياسى بعيد وحس إنسانى عظيم — أن أهل هذه البلاد الشمالية يظلون خطراً ماثلا ما دام الخوف من قرطبة ودولتها يملأ قلوبهم ، وأن هذا الخوف لو نزع لأمنوا على أنفسهم وعاشوا مع جيرانهم أهل الوسط والجنوب والشمال الشرقى فى أمان وسلام .

وبالفعل . . أمّنهم وعاهدهم ، وجعلهم يشعرون أن الخلافة القرطبية ليست عدواً لهم بل هى صديق ، وأن رسالتها أن تحفظ السلام والتوازن فى شبه الجزيرة ، وأنهم متى احتاجوا للعالم أو الطبيب أو الناصح وجدوه فى قرطبة . .

وهكذا كان خلال السنوات العشر الأخيرة من حكمه السعيد الطويل . أصبحت قرطبة ملجأهم : ما اختلف اثنان منهم إلا أقبلا إلى عبد الرحمن ليعقد بينهما الصلح ، وما مرض أحد منهم إلا خف إلى قرطبة يلتمس الطب والدواء . .

وعند ما توفى عبد الرحمن الناصر سنة ٩٦١ كان شبه الجزيرة كله يسوده الأمان والسلام .

واستمر هذا على أيام ابنه الحكم المستنصر .

وفى أيام ابن هذا الأخير ، هشام المؤيد ، استبد بالأمر محمد بن أبى عامر المنصور ، وكان رجلا واسع الذكاء بعيد الطموح عنيف الأساليب .

كان من رأيه القضاء النهائى على تلك الممالك جميعاً ، فشن عليها كلها حرباً لا هوادة فيها ، ودرج — خلال قرابة ربع القرن الذى سيطر فيه على

مصائر الخلافة — على القيام بحملتين فى العام ، وبدأ فحوّل منطقة الخلاء جنوبى نهر دويرُه إلى منطقة إسلامية صرفة : ثبت أقدام الإسلام فيما كان بأيدى المسلمين منها مثل شقوبية وأبلَة (أفيلا) وسَلَمَنْقَة ،وأعاد تحصين خط الحدود المعروف بالثغر الأوسط فى الوسط والثغر الأدنى فى الغرب ، وعلى يده تحولت مدينة سالم (مدِينَاثيلى) وبلد الوليد (ڤايادوليد) وسمورة (ثامورا) وفازو (ڤيزيو ، فى البرتغال) إلى حصون إسلامية كبرى مشحونة بالقوات والأسلحة والعتاد .

ونقل جماعات من المسلمين إلى هذه النواحى كلها وأقرهم فيها ، ومنح رجالها معاونات مالية حتى يطمئن بهم المقام . .

ومن هذه المراكز شن الحروب على أرَغُون من ناحية وعلى مملكة لِيُون من ناحية أخرى، فاحتل بَنْبَلُونة (پامپيلونا) وبُرْغُش (بورجوس) وليون ، ووصل بغاراته إلى ساحل خليج بسكايه ، فاحتل أبيط (أوڤييدو) ولُكْ (لوجو) وكُرُنَّة (كورونيا) وشنت ياقب (سنتياجو) .

وفى ناحية الشمال الشرقى غزا قطلونية واحتل برشلونة ، وألغى وجود إمارة قشتالة فاضطر أمراؤها إلى الهرب إلى الشمال .

وعندما توفى المنصور سنة ١٠٠٢ كانت كل هذه الإمارات والممالك فى حالة دفاع عن الرمق الأخير . . كان من بقى من محاربيها قد اعتصموا بالجبال . .

ومثل هذه السياسة لا يمكن أن تؤتى ثمارها إلا إذا استمرت أجيالا بعد أجيال . .

وقد حاول ابنه عبد الملك المظفر أن يسير على آثاره ، ووالى الغزو طوال السنوات السبع التى حكمها .

وبعد عبد الملك المظفر لم يأت رجل يستطيع أن يسير بهذا العمل العسير . .

فلم يكد يخف الضغط حتى وقع الانفجار ، وانحدر الهاربون من جبالهم وانطلقوا نحو الجنوب ينتهزون الفرصة السانحة . فى خلال سنوات قليلة استعادوا كل ما كان قد فتحه المنصور . .

وأتيحت لهم الفرصة للانتقام ، فأخذوا يزحفون نحو الجنوب يحفزهم حقد شديد . .

وأتاح لهم ملوك الطوائف — بما كان بينهم من خلاف — فرصة إدراك الثأر كما يحبون . .

وعندما سقطت طليطلة سنة ١٠٨٥ فى يد ألفونسو السادس تصدع بناء الأندلس كله ، وبدأ الانحسار المستمر على ما وصفناه . .

* * *

هذه النواحى كلها اشترك فى فتحها طارق وموسى وابنه عبد العزيز . .

فإن الحملة الأولى قادها طارق بن زياد ، وقد سارت من الجنوب إلى الشمال فى خط مستقيم تقريباً حتى استولت على طليطلة وأزالت دولة القوط .

وبعد طليطلة استمر طارق فى اتجاه شمالى شرقى حتى بلغ ألكالا دِ إينَارِس — تسميها مراجعنا قلعة عبد السلام — وهناك أتاه أمر من رئيسه موسى بأن يعود إلى طليطلة وينتظره هناك .

وسار موسى من الجنوب إلى إشبيلية ، ثم فتح الغرب ، فاستولى على باجه ويابُرة ثم على مارِدة بعد قتال وحصار طويلين .

وكان لذريق قد نجا من موقعة وادى لَكّه ولجأ إلى حصون قرب ماردة ، وهناك تقدم لقتال موسى ، فانهزم وقتل .

ومن ماردة تقدم موسى فاحتل طَلَبِيرة (تالاڤيرا دى لاريِنا) جنوب غربى طليطلة ، وهناك لقيه طارق وأسلم إليه القياد .

ثم سارا معاً ففتحا سرقسطة ، وسارا شمالا بغرب مع نهر إبرُه ، ففتحا

قَلَهُرَّة ثم بَنْبلُونة ثم أمايه ثم أشترُقة (أستورجا) ، ثم لُكْ (لوجو ، ثم أبيط (أوڤييدو) ثم خيخُون ، فأتما بهذا فتح الجزيرة ، وتركا حامية ترب خيخون وعادا إلى طليطلة ومنها إلى المشرق .

وجاء بعدهما عبد العزيز بن موسى فأتم فتح ما بقى فى شرق الجزيرة وغربها ، واستولى على لَبْلَة (نييبلا) ويابُرة (إيڤورا) وشنْتَرِين (سانتاريم ، فى البرتغال) .

ولهذا فإننا سنقوم برحلتين : تبدأ الأولى من مدريد إلى الشمال والشمال الغربى ، ومن هناك — من إشبيلية — ننحدر إلى البرتغال فنقطعها من شمال لجنوب .

* * *

نبدأ من مدريد من جديد . .

وقد حدثناك فى الصفحات الأولى من هذا الكتاب عن نشأة اسم مدريد وكيف أن العرب عمروا منطقتها وأنشأوا فيها مجارى مياه تأخذ من نهر المنثاناريس الذى ينبع من جبال وادى الرملة شمال شرقى مدريد ، وأنهار مماثلة أخرى مثل وادى الرملة (جوادارّاما) ونهر خاراما ونهر وادى الحجارة (جوادا لاخارا) ونهر البلاعة (البالا) وغيرها . .

واعتبر العرب هذه المنطقة منطقة عسكرية أنشأوا فيها سلسلة من الحصون تقوى قلعة مدريد وتحمى ما وراءها .

ولهذا فأنت تجد فى هذه المنطقة مجموعة كبرى من آثار الحصون العربية ، بعضها يحتفظ بأسمائه العربية محرفة تحريفاً شديداً مثل بوخارّابال (برج الربض) وتورى دى آبن كريسبين (برج ابن كريسبين) وسالْمدينا (فحص المدينة) وتوموشا (تورِّى موسى ، برج موسى) ، وبعضها أخذ أسماء جديدة بعد استيلاء الإسبان على المنطقة مثل تورى كوَادْرادَا (البرج المربع) وتورى ساڤينيان (برج ساڤينيان) وتورى بولينيا وغيرها كثير .

وكان الحصن الكبير فى مجريط نفسها يسمى قصر مدريد . و « القصر »

لفظ لاتيني معرب من « كاسترا » ومعناه القلعة ، وكانت تطلق أيام الرومان على القلعة الكبيرة التي تضم بيت الحاكم العسكرى ومساكن جنده ، فكانت قلعة وقصراً في آن واحد . وقد احتفظ اللفظ في المغرب والأندلس بهذا المعنى المزدوج للفظ ، فإذا قيل « قصر مجريط » أريد به الحصن الواسع الكبير وما يضمه سوره من بيت الحاكم ومساكن الجنود والموظفين ؛ وإذا قيل القصر الكبير (في المغرب) فالمراد الحصن وما يلحق به من مدينة .

وبهذا المعنى دخل اللفظ في اللغة الإسبانية « ألكاثار » .

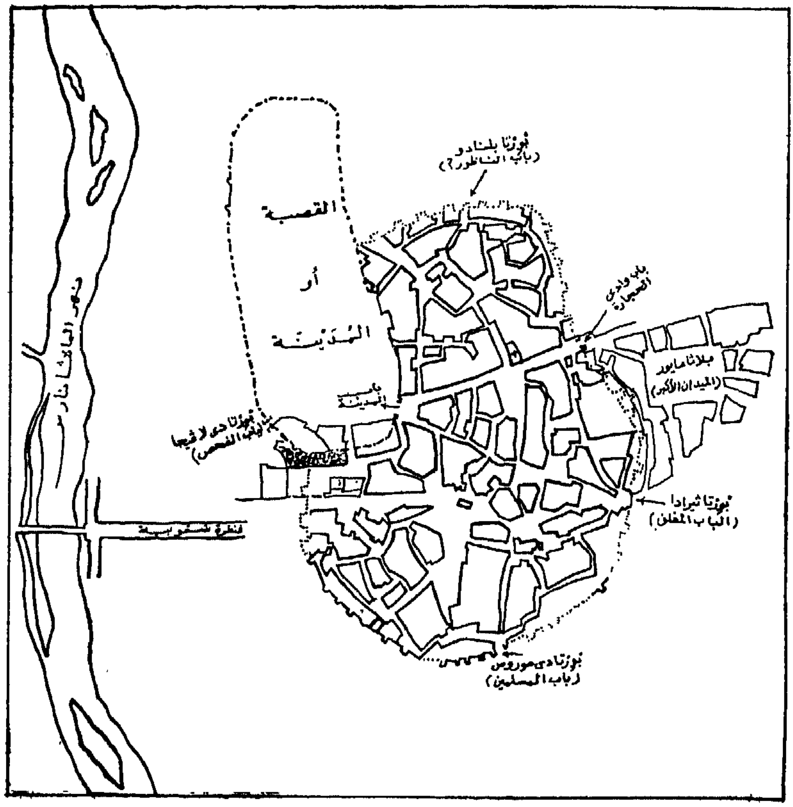
فإذا أردت أن تعرف أين يقع قصر مجريط العربي فهو في جنوب المدينة الحالية ، كان يقع قرب نهر المنثاناريس في مقابل القنطرة التي تسمى اليوم قنطرة شقوبية (پوينتي دى سيجوبيا) وتمتد المباني حوله في شبه دائرة تصل إلى حدود ميدان الأوپرا وميدان پويرتا دل سول الحاليين .

وقد وُجدت آثار سور الحصن العربي في هذه النواحي ، ووجدت أيضاً قطع منه قرب مايعرف الآن بميدان إسبانيا .

وعلى أيام العرب نشأ خارج الأسوار إلى الشمال والشرق ربض — أي ضاحية واسعة — عرفت باسم المُدَيْنة (مصغر مدينة) ، ثم سوروا جزءاً منه وسموه القصبة . وبعد خروج البلد من أيدى المسلمين وسعوا سور مجريط الأصلي حتى جعلوه يشمل المُدينة والقصبة ، ولهذا فقد ظل هذا الجزء من البلد يسمى إلى آخر القرن السابع عشر بالمُدينة أو القصبة . ولدينا خريطة لمدريد رسمها پدرو تيخيرا سنة ١٦٥٦ يظهر عليها السور وأبوابه وبعض أسمائها عربية : ففي الجنوب پويرتا دى موروس (باب العرب) ؛ وفي الشرق پويرتا دى لا ڤيجا (باب البقاع) ، وفي الشرق پويرتا دى لا مودينا (باب المُدينة) وپويرتا دى جواد لاخارا (باب وادى الحجارة) وغيرها .

وكانت مجريط إلى أيام عبد الرحمن الناصر مجرد حصن كبير تحيط به مساكن للحامية ومساكن لمن سكن إلى جوارهم من الناس ، فلما جاء الناصر

وأعاد تنظيم التحصينات التي تقي الأندلس شر الغارات من الشمال ، أعاد بناء كل حصون الثغرين الأعلى والأوسط ، فكان مما بناه حصن مدريد ، وأنشأ



خريطة لمدريد رسمها پدرو تيخيرا سنة ١٦٥٦ أيام كانت معالم مجريط العربية لا زالت باقية . يلاحظ موضع الأسوار العربية وأبوابها وكيف كانت تتصل بالقصبة التي تسمى أيضاً بالمدينة . تستطيع أن تحدد موقع المدينة العربية إذا لاحظت أن الميدان الكبير (پلاثامايور) لا زال في نفس موضعه إلى الآن .

(نقلا عن كتاب « تاريخ اسم مدريد » لخايمه أوليڤر آسين)

السور العظيم الذي ذكرنا حدوده ليضم البلد وسكانه ، ويُظن أيضاً أنه هو الذي بنى قصبة المُدينة . وفي سنة ٩٢٩ نسمع عن أول حاكم عربي للبلد وهو عبدالله بن محمد بن عبيدالله ، من رجال الناصر . ومن أشهر حكام مدريد

بعد ذلك أحمد بن عبدالله بن يحيي الليثي ، وقد تولى حكمها مرتين وتوفى سنة ٩٣٩ ميلادية شهيداً وهو عائد من رد غارة نصرانية ، وهو حفيد الفقيه الأندلسي المعروف يحيي بن يحيي الليثي .

وقد خرجت مدريد من أيدى المسلمين سنة ١٠٨٣ ، إذ استولى عليها ألفونسو السادس قبل أن يستولى على طليطلة بسنتين ، ولكنه لم يصرف إليها أى عناية ، وإنما اكتفى بتعيين حاكم لها نزل فى قصر الحاكم العربى . وفى سنة ١٤٧٧ نزل فيها فرناندو وإيزابيلا وأقاما فى نفس القصر بعد تجديده وتوسيعه .

واعتبرت مدريد بعد ذلك ضاحية ينتجعها الملوك من عاصمتهم القريبة طليطلة للترويح عن النفس والصيد .

وطليطلة كما سترى بلد محدود المساحة ، فهو يقوم فى منحنى شبه دائرى على مجرى نهر تاجُه ، ولا يستطاع الامتداد منه إلى ما يليه إلا إذا أنشئت سلسلة من القناطر على النهر . فلما اتسعت الدولة الإسبانية أيام شارل الخامس (كارلوس الأول فى سلسلة ملوك إسبانيا) ثم أيام ابنه فيليپ الثانى ضاقت العاصمة بمطالب الدولة ، فرأى هذا الأخير أن ينقل العاصمة ومقر الملك إلى مدريد سنة ١٥٦١ ، فهى فى منبسط فسيح من الأرض يسمح بالامتداد والاتساع .

لهذا هُدم القصر القديم ، وأنشئ مكانه قصر جديد ، وقطعت أشجار كثيرة ليخلو المكان للأبنية الجديدة وقصور الأشراف ورجال الدولة ودواوينها . وفى سنة ١٥٧١ أخذت هيئتها التى ظلت عليها إلى آخر القرن الثامن عشر ، فقد احتفل فيليپ الثانى فى تنظيم عاصمته والإسراع ببناء قصورها ليستقبل فيها زوجته الثالثة إيزابيل دى ڤالوا .

وأول ملك إسبانى ولد وتوج فى مدريد هو فيليپ الثالث ابن فيليپ الثانى ، وكان تتويجه سنة ١٥٩٨ .



ميدان اسبانيا (بلاثا داسبانيا) نموذج رائع من نماذج عمارة المدن وتجميلها. في وسط الميدان مجموعة نحتية فريدة من نوعها في أوروبا يتقدمها الدون كيخوته على فرسته روتينانتي وخلفه سانشو بانزا على حماره. المبنى إلى اليسار يسمى برج اسبانيا (توري دي اسبانيا) وفي الصدر فندق البلازا.



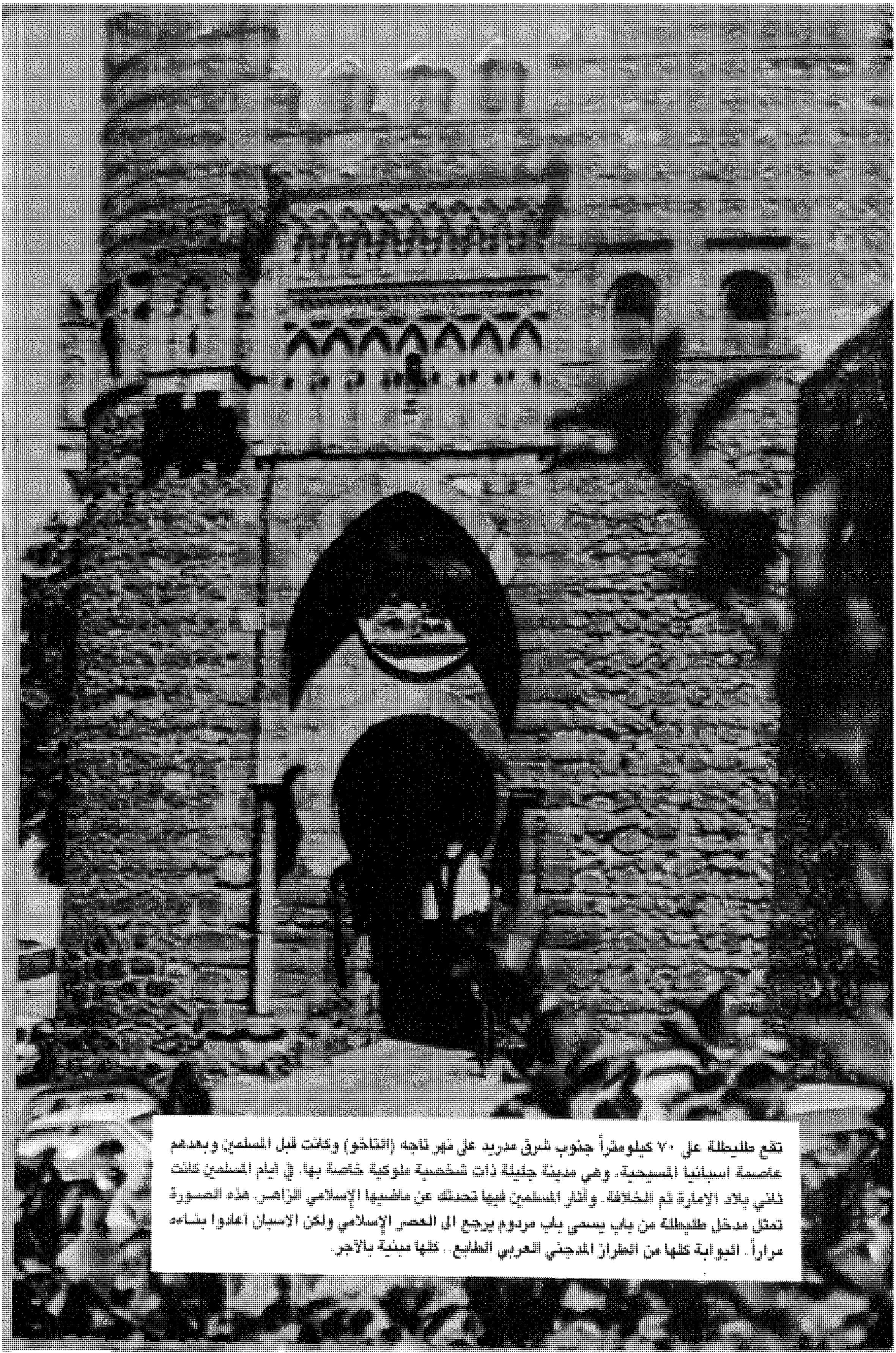
البلازا مايور د مدريد (ميدان مدريد الكبير). لكل مدينة اسبانية ميدان كبير رئيسي مبني على الطراز الذي تراه. المنازل تقام على نفس الشكل والطراز على هيئة مربع او مستطيل وكلها مسكونة واسفلها تقوم المتاجر. في مقدمة الصورة مدخل الميدان من ناحية قوس السكاكيني Arco de los cuchilleros و إلى يسار المدخل مطعم لوس كانديلاس التقليدي. صاحب هذا الاسم كان قاطع طريق مشهور.



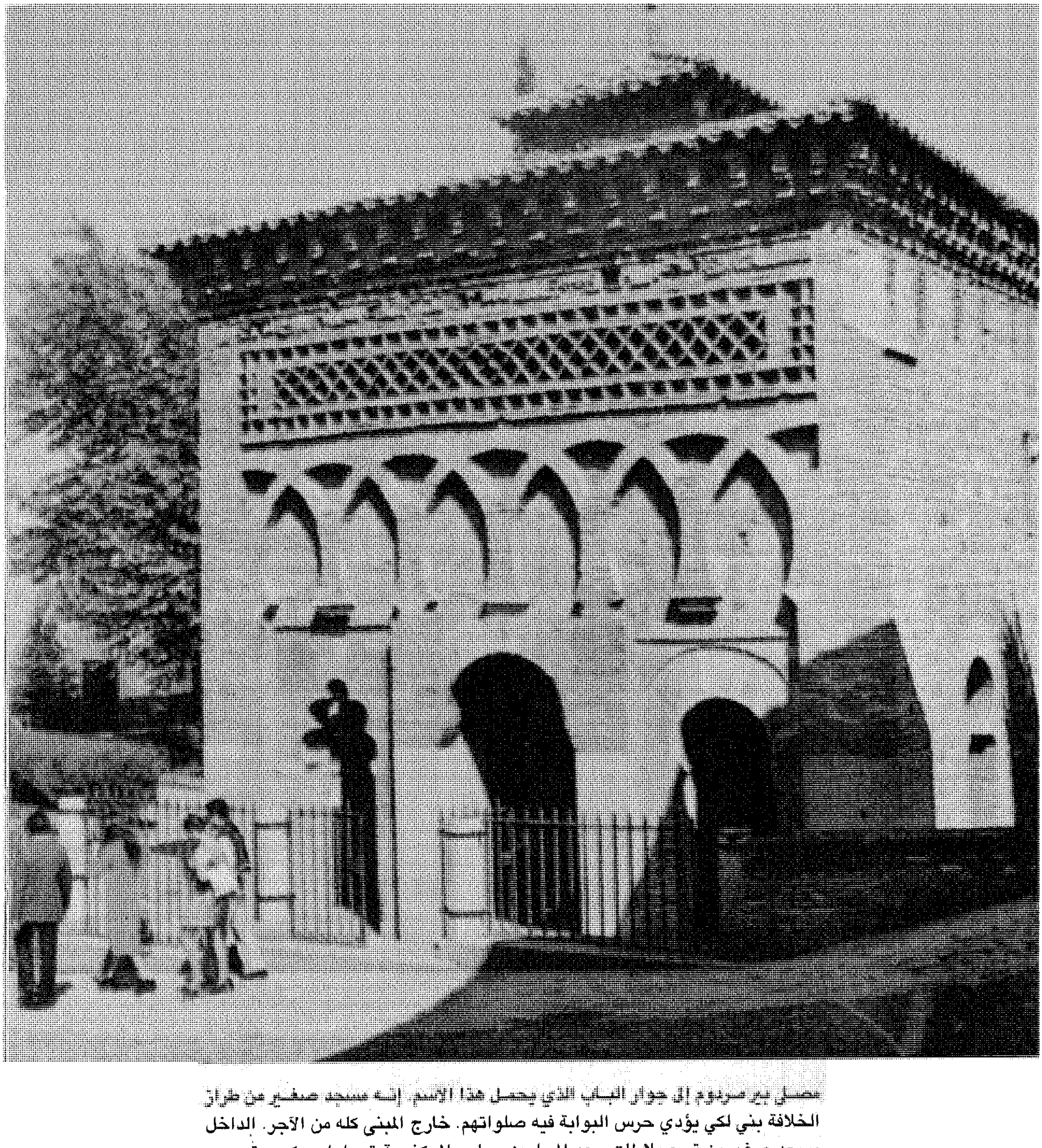
مشهد لا ينساه زائر مدريد. ميدان "سيبيليس" تتوسطه نافورة تصب الماء في حوض واسع وفي وسط
النافورة تمثال الربة الاغريقية "سيبيليس" جالسة في عربة تجرها الخيل. امامك شارع الكالا اي القلعة
وعلى يسارك مبنى بنك اسبانيا والى اليمين مبنى وزارة الحربية بحدائقها. في الصدر يتفرع الشارع
الكبير (الجران بيا) في خوسيه انطونيو



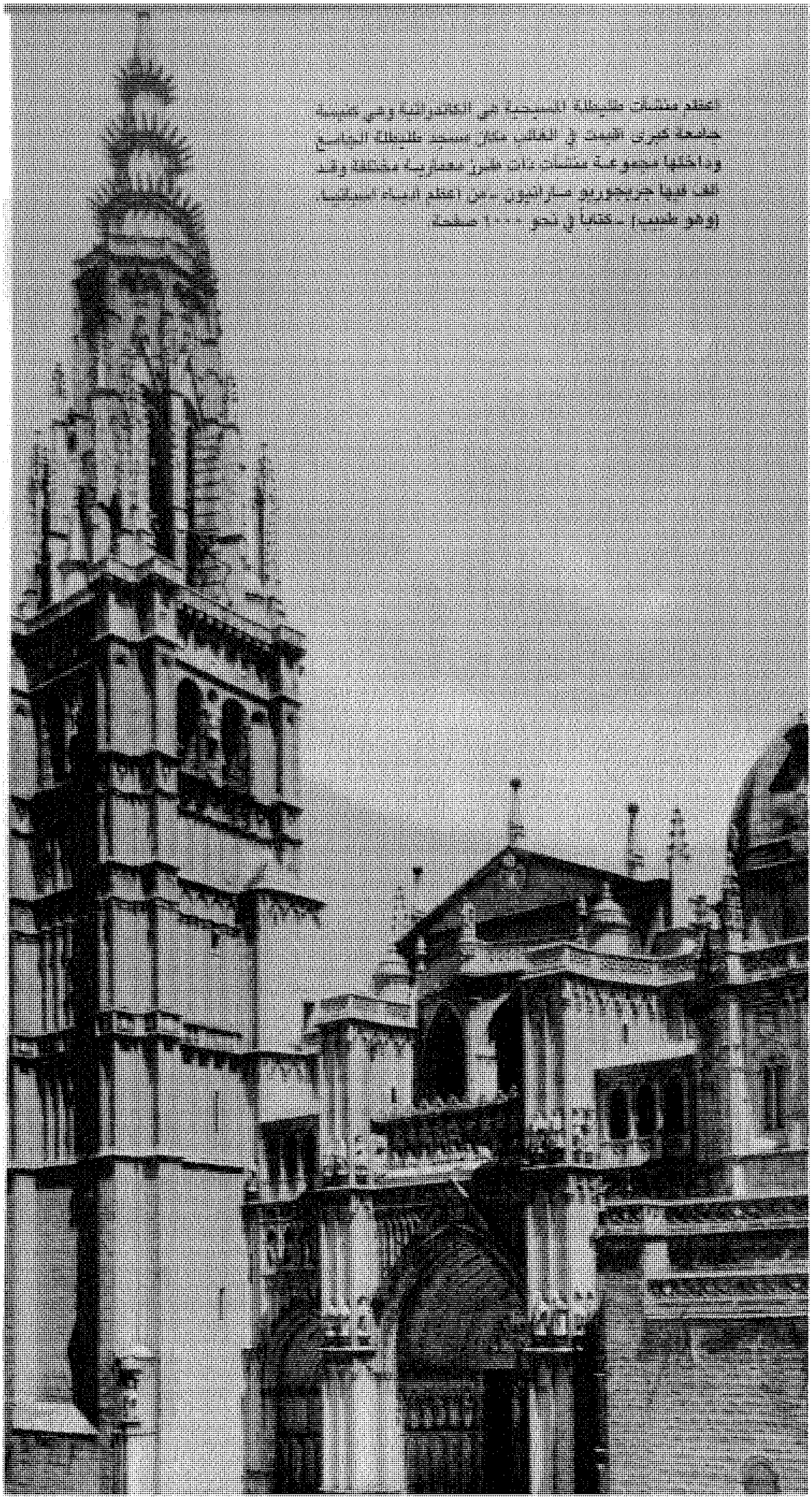
قصر البريد أو قصر المواصلات في ميدان
سيبيليس من أجمل دور البريد في الدنيا



تقع طليطلة على ٧٠ كيلومتراً جنوب شرق مدريد على نهر تاجه (التاخو) وكانت قبل المسلمين وبعدهم عاصمة اسبانيا المسيحية. وهي مدينة جليلة ذات شخصية ملوكية خاصة بها. في أيام المسلمين كانت ثاني بلاد الإمارة ثم الخلافة. وآثار المسلمين فيها تحدثك عن ماضيها الإسلامي الزاهر. هذه الصورة تمثل مدخل طليطلة من باب يسمى باب مردوم يرجع الى العصر الإسلامي ولكن الاسبان أعادوا بناءه مراراً. البوابة كلها من الطراز المدجني العربي الطابع. كلها مبنية بالآجر.



مصلى بيب مردوم إلى جوار الباب الذي يحمل هذا الاسم. إنه مسجد صغير من طراز الخلافة بني لكي يؤدي حرس البوابة فيه صلواتهم. خارج المبنى كله من الآجر. الداخل مسجد صغير من تسع بلاطات. بعد المسلمين حولوه إلى كنيسة تحمل اسم كريستو دي لا لوث (مسيح النور) ثم ترك الآن أثراً خالياً.



أعظم منشآت طليطلة المسيحية هي الكاتدرائية وهي كنيسة جامعة كبرى أقيمت في الغالب مكان مسجد طليطلة الجامع وداخلها مجموعة منشآت ذات طرز معمارية مختلفة وقد ألف فيها جريجوريو مارانيون - من أعظم أدباء إسبانيا (وهو طبيب) - كتابا في نحو ١٠٠٠ صفحة



بيعة يهودية ترجع إلى أيام المسلمين. وهي مبنية على الطراز الإسلامي في عصر الخلافة.
حوّلها النصارى بعد ذلك إلى كنيسة تسمى سانتا ماريا لا بلانكا بسبب بياض داخلها.

وفى عهد فيليپ الثالث هذا أنشئ ميدان مدريد الكبير (پلاثا مايور) غير بعيد من موضع الجانب الغربى للسور العربى ، ومكانه اليوم حيث يمر الشارع التاريخى المعروف بـ « أركو دى كوتشيِّروس » (عقد تجار السلاح) ولم يسكنها فيليپ الثالث بصفة دائمة إلا بعد ١٦٢١ .

وبعد هذا العام بخمس سنوات (١٦٢٦) توفى فى مدريد أعظم أديب أطلعته إسبانيا فى تاريخها : ميجيل ثيرڤانتس ساڤدرا مؤلف القصة الذائعة الصيت « الدون كيِخُوتِه » .

* * *

وعلى ٧٥ كيلو متراً جنوب غربى مدريد تقوم طليطلة على نهر تاجُه .

وتقع طليطلة فى منحنى عنيف من النهر ، فكأنها شبه جزيرة لا تتصل بالأرض إلا من ناحية واحدة . وشبه الجزيرة هذا مجموعة من التلال تسهل حمايتها وإقامة القلاع عليها ، ولهذا فقد اتخذها القوط عاصمة لهم . ولها تاريخ أسطورى طويل حتى ليزعمون أن آدم أبا البشر هو الذى بناها .

وقد فتح طارق بن زياد طليطلة فى ذى القعدة ٩٢ / سبتمبر ٧١١ ، ولم يطل مقامه فيها ، بل مضى فى اتجاه شمالى شرقى حتى وصل قلعة إينارِس ثم عاد إلى طليطلة مع حلول الشتاء لينتظر موسى بن نصير ، الذى أقبل فى صيف العام التالى .

ونظن أن طارقاً أنشأ مسجد طليطلة خلال هذه الشهور ، ويقال إنه اتخذه فى موضع الكنيسة الجامعة القديمة ، وإن كنا نستبعد ذلك . والقول بأن المسلمين كانوا كلما دخلوا بلداً فى الأندلس حولوا كنيسته الجامعة إلى مسجد جامع دعوى لا أساس لها من الصحة ، اخترعها نفر من المؤرخين المحدثين ، لكى يستندوا إلى ذلك الزعم فى تبرير ما فعله الإسبان بعد ذلك من تحويل المساجد الجامعة إلى كاتدرائيات .

نقول هذا لأننا لم نر المسلمين فى الشام أو مصر يفعلون هذا بما وجدوه

من المساجد ، بل إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه تحاشى أن يصلى فى كنيسة بيت المقدس حتى لا يجعل لمن يأتى بعده حجة فى الاستيلاء عليها . ثم ما الذى يحوج المسلمين إلى تحويل الكنائس إلى مساجد ، والفرق بين عمارة هذه وتلك بعيد ، ومساجد الإسلام بسيطة فى تكوينها لا تحتاج إلى جهد كبير فى إقامتها ، والأرض كانت أمامهم فضاء ينشئون فيه ما يريدون ؟

المهم لدينا أن مسجد طليطلة الجامع كان يقوم فى الموضع الذى تقوم فيه اليوم كاتدرائية طليطلة .

وللجغرافيين العرب كلام طويل فى طليطلة على أيامنا ، وكلهم يتحدثون عن بساتينها وأنهارها وحدائقها ووفرة خيراتها ، وحصانة موقعها ، وكلهم يتحدثون عن مناجم الحديد والنحاس القريبة منها ، ولهذا كانت على أيامنا شهيرة بصنع الأسلحة المرهفة ، وما زالت شهرتها بذلك إلى اليوم ، وفى إسبانيا كلها يبيعونك تحفاً من مصنوعات حديد طليطلة ونحاسها .

ولا زالت طليطلة تحتفظ إلى اليوم بالطابع الذى خلفناها عليه أيام خرجت من أيدينا فى صيف سنة ١٠٨٥ : شوارعها الضيقة النظيفة ، أرضها المبلطة بقطع الحجر الصغيرة ، وبواباتها العربية الخالصة ، وأشهرها بوابة الشمس (پويرتا دل سول) ثم قطع كثيرة من سورها القديم .

أما عن آثارنا فيها فهى فى مجموعها أطلال مبان ومساجد ، وبضعة أقواس وعقود وكنيسة صغيرة كان أصلها جامعاً ، وقطع من السور وجزء من القنطرة المشهورة على نهر تاجُه وبعض أقباء تُكتشف بين الحين والحين تحت بيوت قائمة . .

وقنطرة طليطلة التى تعبر عليها وأنت قادم من مدريد قديمة من أيام القوط ، ولكن العرب هم الذين أعادوا بناءها مراراً عديدة ، آخرها أيام المنصور بن أبى عامر فى سنة ٩٩٧ وكان الذى أشرف على بنائها حاكم البلد خلف بن محمد العامرى ، بناها على قوس واحد .

أما الأبواب العربية لسور طليطلة فأبقاها إلى الآن وأحفظها لشكله باب شَقَرة ، ويسمى الآن پويرتا دى بيساجرا ، وهو بوابة رائعة تقوم تحت برج مربع حصين . والبوابة مبنية بالحجر الصلد ، تقوم فى الجانبين على دعامتين من حجر ثم ترتفع دائرية ، وإن كانت هيئتها على شكل حدوة حصان بسبب بروزين من الحجر عند نهاية الدعامتين وأول القوس .

وتشد هذه البوابة بوابة خارجية أوسع وأعلى تقوم على ثلاثة أقواس متجاورة ، الأوسط منها أكبر من الجانبيين ، وهذان بدورهما أصمان — أى مسدودان — ويقوم الأوسط على دعامتين من حجر فوقهما عمودان صغيران من الرخام يرتكز عليهما القوس .

أما البرج فوق البوابة فبناء مربع ضخم ، فيه حجرة واسعة يرى الإنسان نوافذها من خارج ، وكانت تلك الحجرة مقاماً للجند والحرس ، وعلى جانبي البوابة قطع من السور ، وعلى اليمين أحد المحارس التى كانت تتخلله ، والمحارس أبراج صغيرة كانت تقام على مسافات متساوية من السور ، لتزيده قوة ولتأذن للمحاربين بالدفاع .

والأثر العربى الكبير الثانى مسجدٌ حُوِّل إلى كنيسة يحمل اليوم اسم كريستو دى لا لوث (مسيح النور) ، ولا نعرف كيف كان يسمى على أيامنا ، ولكن نقشاً فيه يقول إن بناءه تم فى المحرم سنة ٣٩٠ / ديسمبر ٩٩٩ وأن بانيه يسمى موسى بن على .

ومسجد موسى بن على هذا مسجد صغير لا يزيد طول ضلعه على ثمانية أمتار ، وفى جنوبه بروز المحراب ، وكان مربعاً من خارجه فى الأصل ، فلما حولوا المسجد إلى كنيسة بنوا جداراً مستديراً لينشئوا وراءه ما يحتاجه مَصلب الكنيسة ومذبحها من غرف صغيرة .

والمسجد فى هيئته الأولى مربع تقوم كل من واجهاته على ثلاثة عقود ضخمة عالية من الحجر ، بداخل كل منها باب أصغر على هيئة عقد مستدير .

وهذه العقود تحمل فوقها صفاً من النوافذ العربية على هيئة بوابات زخرفية ، ولا شك أنها كانت مغطاة بالزجاج على أيامنا لتفيض النور داخل المسجد ، وقد سد معظمها الآن .

وكانت للمسجد قبة صغيرة تقوم على أربعة أعمـــدة ضخمة فى وسطه ، وقد أزيلت القبة الآن ، ولكن أجزاء السقف حولها مزينة بدعامات من الحجر المتقاطع ، تدلنا على أن قبته كانت تشبه فى هيئتها القباب الصغيرة التى رأيناها فى جامع قرطبة .

فإذا أفضيت إلى داخل المسجد وجدت صحناً صغيراً فى وسطه الأعمدة الأربعة التى أشرت إليها .

وهذا المسجد ، الذى تفضى إليه الآن عن طريق شوارع ضيقة ، نموذج للمساجد الإسلامية الصغيرة فى الأندلس ، ومن هنا فإن أهميته عظيمة لمؤرخ العمارة الأندلسية ، رغم ما أدخل عليه من تحويرات ليصبح كنيسة مسيحية .

أما بقية المساجد الإسلامية فقد زالت ، ولم يبق ما ينم عليها إلا قطع من نوافذ أو عقود أو أقباء نجدها فى كنائس مثل كنيسة عذراء بيت لحم (نويسترا سنيورا دى بيلين) ودير شَنْتَفِى (سانتافى) ودير القديس لورنزو (سان لورنزو) وكنيسة السلڤادور .

وقصة المسجد الذى تقوم مكانه هذه الكنيسة الأخيرة عبرة جديرة بالذكرى ، ونحن فى هذا الكتاب فى عالم كله عبر وذكريات . .

فقد بُنى هذا المسجد خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر ، إذ أننا وجدنا نقشاً فى الجزء الباقى منه يقول إن بلاطته الوسطى قد تم إنشاؤها سنة ١٠٤١ من أموال الأحباس .

ثم سقطت طُلَيْطِلَة بعد إنشائه بخمسة وأربعين عاماً واستسلم مسلموها لسلطان الغالبين الذين انتزعوا منهم مساجدهم ، فلم يبقوا لهم إلا القليل منها ، ومن بينها ذلك المسجد الصغير . كانوا يسمّون المُدَجَّنين ، أى المسلمين الذين

دُجنّوا ولم يغادروا أوطانهم ، حاسبين أن الغالبين يدعون لهم القليل الذى تركـوه .

ولكن ظنونهم كذبتهم ، فقد مضى هؤلاء يستولون على مساجدهم الصغيرة الباقية ويحيلونها إلى كنائس .

وفى سنة ١١٥٩ أخذوا منهم هذا الجامع الصغير الذى نتحدث عنه وحولوه إلى كنيسة باسم السلڤادور . ويبدو أنه كان قد تهدم فى معظم أجزائه ، فهدموه وبنوا مكانه كنيسة جديدة بنفس الاسم .

ولكنهم أبقوا على قطعة منه كانت أقواسها وأعمدتها سليمة ، ولم يستطيعوا تضمينها الكنيسة ، فتُركت كما هى خارجها ، فأقام عليها بعضهم داراً ملاصقة للكنيسة ، وهذا هو الذى وجدناه .

وهذا الجزء عبارة عن بلاطتين تتألفان من أربعة أقواس على هيئة حدوة الحصان تقوم على أعمدة رومانية الرؤوس .

وقد وجدت هذه البلاطات متداعية ، فعنوا بترميمها والمحافظة عليها .

وقد تبين من دراسة كنيسة السلڤادور أن المسجد الأصلى كان يتألف من خمس بلاطات طول الواحدة منها ١٨ متراً وعرضها أربعة أمتار .

وعندما انتزع من أولئك المسلمين مسجدهم ، اجتهدوا حتى أنشأوا لأنفسهم مسجداً آخر أصغر ، أنشأوه فى حى تجارى كان يسكنه مهاجرون من الفرنسيين استقروا فى البلد بعد سقوطه ، ويبدو أنهم فرغوا من إنشائه سنة ١٢٠٢ ، وظل معروفاً باسم « مسجد المسلمين » حتى القرن السادس عشر ، ثم أخذ منهم ، أو هم تلاشوا نتيجة للتعقب ومحاكم التحقيق ، وتحول إلى مسكن لطائفة من الرهبان الذين يتنذرون أن يعيشوا حياتهم كلها لا يرون أحداً ولا يراهم أحد ، ويوضع لهم الطعام والشراب فى شباك يدور ليُدخل إليهم ما يريدون إدخاله ويخرّج ما يريدون إخراجه . . وهذا الشباك يسمى «تورنُوريـّا» ، ولهذا فقد عرف هذا المبنى باسم « كاسا دى لاس تورنورياس » . .

ولا زال هذا البيت قائماً إلى اليوم . وهو بهو متسع إذا تأملته من داخل تبينت أنه جامع حقاً ، مسجد يتجه نحو القبلة ، يقوم على أقواس واسعة تحمل فوقها – قرب السقف – نوافذ صغيرة فى هيئة الأقواس .

وهذا المسجد أنشئ فى أطلال مسجد آخر قديم من أيام الخلافة ، فإن طرازه يدل بوضوح على أنه أندلسى خليفى .

رحم الله أولئك المساكين الذين استمسكوا بدينهم ، رغم كل شىء ، حتى زالوا من الوجود . .

وفى متحف طليطلة قطع شتى من العمارة الإسلامية ، معظمها رؤوس أعمدة خليفية الطراز . وهناك أيضاً بقايا صهاريج حمامات ، منها واحد إلى جوار ما يعرف بالبئر المر (بوثو أمارجو) هو عبارة عن قبو من الطوب يقوم على أقواس وأعمدة .

ونخرج من القبو إلى النور ، لنأخذ طريقنا مرة أخرى إلى قلب البلد . إنه ميدان متوسط الاتساع يبدو لك وكأنه قائم على نشز من الأرض . اسمه عربى : « ثوكودوڤير » ، تحريف لعبارة « سوق الدواب » . . لم تتغير وظيفته على مر العصور ، فهو يستعمل اليوم موقفاً للحافلات . هنا أيضاً كان الناس يكترون الدواب أو يشترونها . كانت هى وسيلة المواصلات إذ ذاك . كان الأندلسيون يفضلون البغال على غيرها من دواب الحمل والركوب . كانوا يترفعون عن ركوب الحمير . دهش السائح الأندلسى على بن سعيد عندما دخل القاهرة ووجد أن علية القوم من قضاة وعلماء وسراة يركبون الحمير . عندما وصل إلى باب زويلة وجد خارجه مئات من الحمير تنتظر من يؤجرها . اكترى واحداً ليذهب به إلى القلعة . كان يظن أن الحمير دوابُّ كَسْلَى لا تسير إلا على مهل، فما راعه إلا والحمار ينطلق به كأنه فرس أصيل ، فوقع على الأرض – وكان يحسب نفسه فارساً ! – وقام يسب ويلعن . لقد انتقمت منه الحمير وعلمته أن يتهذب فى الحديث عنها . .

من سوق الدواب نمضى فى شارع طويل ينحدر بنا انحداراً شديداً حتى نصل إلى ميدان الكاتدرائية . إنها شيء هائل لا تدرى أوله من آخره . ليست كنيسة واحدة بل كنائس . قد تكون من أضخم كنائس الدنيا ، ولكنها ليست من أجملها . لا تقارَن بكاتدرائيات إيطاليا أو فرنسا أو ألمانيا . تنقصها الوحدة الفنية التى تبهر العين فى كاتدرائية مثل « الدوم » فى كولونيا .

هذا البناء الضخم يقوم مكان مسجد طليطلة الجامع . ظل هذا الجامع قائماً ١٤٢ سنة بعد سقوط البلد سنة ١٠٨٥ . حولوه إلى كنيسة فى ربيع الأول سنة ٤٩٨/نوفمبر ١١٠٤ ، أى بعد استيلائهم عليه باثنتين وعشرين سنة ونيف ، وقد حفظ لنا ابن بسام فى كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » مشهد تحويله ، قال : « . . . وحدثنى من شهد طواغيتَه (أى رجال ألفونسو السادس الذى استولى على طليطلة) تبتدره فى يوم أعمى البصائرَ والأبصارَ منظرُه ، وليس فيه إلا الشيخ الأستاذ المُغَامى آخر من صدر عنه ، واعتمده فى ذلك اليوم ليتزود منه ، وقد أطاف به (أى بالشيخ المغامى) مردةُ عفاريته ، وسَرَعانُ طواغيته ، وبين يديه أحد التلامذة يقرأ ، فكلما قالوا : عَجِّل ! أشار هو إلى تلميذه بأن أكمِلْ ، ثم قام ، فما طاش ولا تهيب ، فسجد به واقترب ، وبكى عليه ملياً وانتحب ، والنصارى يعظمون شانه ، ويهابون مكانه ، لم تمتد إليه يد ، ولا عرض له بمكروه أحد . . . »

وفى سنة ٦٢٥ / ١٢٢٧ أمر الملك فرناندو الثالث بهدم الجامع والشروع فى بناء الكاتدرائية مكانه . ويبدو أنه لم يهدم كله ، بل رمم وعدل ولم يتم البناء إلا سنة ١٤٩٣ .

وقد أضاف الملوك بعد ذلك أجنحة ومصليات إليه ، حتى غدت الكنيسة مجموعة ضخمة من الأبنية تعرض طراز العمارة الإسبانية النصرانية من أواخر القرن الخامس عشر إلى منتصف التاسع عشر . ويعنينا من ذلك كله إفريز يدور حول قاعدة القبة الوسطى رسموا عليه قصة حصار غرناطة والاستيلاء عليها ، وهذا الإفريز عال لا تكاد العين تتبين ما فيه ، خاصة والضوء قليل

داخل هذه الكنائس ، ولكنك لو أنعمت التأمل رأيت مشاهد الحمراء وأبراجها والملكين فرناندو وإيزابيلا على جوادهما ونفراً من فرسان المسلمين على رؤوسهم العمائم . .

وإلى سنة ١٦٩١ كانت تلك الكنيسة محتفظة بهيئة الجامع الذى حلت محله ، فقد زار طليطلة فى ذلك العام محمد بن عبد الوهاب سفير سلطان المغرب للتفاهم مع الإسبان بشأن تبادل الأسرى ، وزار الكنيسة وتحدث عنها حديثه عن مسجد ، وقال : « ومسجدها الجامع من عجائب الدنيا ، إذ هو مسجد كبير كله من الحجارة الصلبة القريبة الشبه بالرخام ، وسقفه مقبوء من الحجارة (يريد أن عليه قبة) وهى فى غاية ارتفاع السمك ، وعلوه فى الجو ، وسواريه فى غاية الضخامة والصناعة العجيبة والنقوش . وقد أحدث النصارى فى هذا المسجد من جوانبه زيادة فى الوسط بشبابيك من نحاس أصفر ، وفيها من تصاويرهم وصلبانهم ، وآلة الموسيقى المسماة عندهم أوركان (أرغن) التى يضربون بها وقت صلواتهم ، مع الكتب التى يقرأونها فى الصلوات ، شىء كثير . . » .

وبعد ذلك بأربع وسبعين سنة (سنة ١٧٦٥) زار طليطلة سفير مغربى آخر هو الغزال الفاسى ، وألم بالكنيسة ووصفها بأنها جامع ، قال إنه من أعظم جوامع الدنيا . وقال أيضاً إنه رأى فى المدينة مقبرة للمسلمين ، وعليها ساريات من الرخام فيها أسماء وتواريخ وفاة بعض أكابر المسلمين . وفى يومنا هذا لم يبق من ذلك كله شىء . .

بقيت علينا زيارة لقصر طليطلة الشهير المعروف باسم « إل الكاثار دى توليدو » . .

التاريخ القديم لهذا القصر غير معروف ، فيقال إنه كان حصناً كبيراً أيام الرومان ، ثم جدده ملوك القوط ، وأعاد بناءه حكام المسلمين ، وهو يقوم على صخرة عالية تطل على نهر تاجُه مقابل القنطرة التى ذكرناها .

وتذكر مراجعنا أن الحكم الربضى ، ثالث أمراء بنى أمية فى الأندلس ،

أنشأ فى وسط طليطلة حصناً عظيما ليطمئن إلى أن أهلها لن يعودوا إلى الثورة عليه ، وقد بنى هذا الحصن سنة ١٨١ / ٧٩٧ ، ولكننا لا نعتقد أنه كان يقوم فى موقع القصر الذى نعنيه هنا .

أما هذا القصر فكان على أيام المسلمين حصناً ومقراً للحاكم ، ثم سكنه ملوك الإسبان بعد استيلائهم على البلد واتخذوه قصراً لهم ، وجدده وتأنق فى زخرفته الملكان فرناندو وإيزابيلا ، وسكنه بعد ذلك كارلوس الأول (شرلكان) وفيليپ الثانى بعده حتى نقل العاصمة ومقر إقامته إلى مدريد .

وفى أيام محنة ديوان التحقيق استعمل هذا القصر سجناً للمتهمين فى عقائدهم . وبعد ذلك تحول إلى معسكر للجنود ، وفى أثناء الحرب الأهلية الإسبانية طار ذكره فى الدنيا ، لأن قائده الجنرال ماسكاردو رفض الاستسلام لقوات الشيوعيين التى كانت تحاصره ، فقبضوا على ابنه ، وهددوه بقتله إذا لم يسلم الحصن . . فطلب أن يتحدث إلى ابنه ، وتحدث معه بالتليفون فودعه ، ثم أعلن أنه لن يستسلم ، وأنهم يستطيعون قتل ولده إذا أرادوا . . وقتلوه ! وظل الحصن صامداً حتى خلصته القوات الوطنية بعد سبعين يوماً .

* * *

وقبل أن نغادر طليطلة وإقليمها لا بد من زيارة إلى ضاحية الإسكوريال وديرها الطائر الصيت .

هذا الدير قرر بناءه فيليپ الثانى ملك إسبانيا فى العاشر من يوليو ١٥٥٧ ، فى اليوم الذى بلغه فيه نبأ انتصار جيوشه على جيوش فرنسا فى موقعة سان كانتان .

ويقال إنه قال يومئذ : أريد أن أبنى قصراً لله وكوخاً لى . .

وكان فيليپ الثانى رجلا متديناً جداً ، عاش حياته كأنه راهب ، يضطهد بقايا المسلمين فى بلاده ويحارب البروتستانت خارجها . كان رجلا حزيناً لا يلبس غير السواد ، ويقال إنه لم يبتسم مرة فى حياته .

استغرق إنشاء هذا المبنى الضخم أربعين سنة ،وقد اختار لإنشائه قرية الإسكوريال ، ضاحية على ٤٥ كيلو متراً شمال غربى مدريد ، تقوم على

سفح جبل وادى الرملة ، على ارتفاع نحو ١٠٠٠ متر ، ولهذا فإن جوها فى الصيف رقيق لطيف ، وهى مصطاف أهل مدريد ، تحيط بها الخضرة ويطل عليها الجبل تغطيه المراعى والأشجار

والدير عبارة عن كنيسة عظيمة ذات صحن بالغ الارتفاع رائع الهندسة ، يمتاز بخطوطه المستقيمة الواضحة ، وبالضوء الباهر الذى ينفذ من شبابيك عالية مزينة بالزجاج الملون . ومذبح هذه الكنيسة فى صدرها ، قطعة فنية بديعة مزينة باللوحات والتحف من كل صنف .

وحول الكنيسة يقوم « الكوخ » . . وهو فى الواقع قصر عظيم يتألف من غرف وقاعات متوالية ، كل منها ذات طراز خاص ، وقد زينت جدرانها بقطع من السجاجيد ذات الرسوم (جوبلان) نُقلت مناظرها من لوحات فنانين إسبان مثل إل جريكو ومُوريُّو وبِلاسْكيث ، وليست كلها من عصر فيليپ الثانى ، وإنما أضافها الملوك فيما بعد .

وأبسط هذه الغرف غرفة نوم فيليپ الثانى ، وهى الجزء الوحيد الذى يذكر الإنسان بالكوخ . غرفة لا ينام فيها إلا رجل متقشف : سرير بسيط جافى الهيئة فى ركن مظلم ، والأرض بلاط أحمر لا يزينه شىء . وتستلفت النظر لعبة كان يتسلى بها : قطعة كبيرة من حديد المغناطيس محفوظة داخل زجاج ، كان يتسلى باختبار قوة جذبها للأشياء ، كما كان أبوه كارلوس الأول (شرلكان) يتسلى بالببغاوات المتكلمة وإصلاح الساعات فى معتزله الذى أوى إليه بعد تنازله عن الملك فى دير يُوسْتِه فى أشد نواحى إسبانيا قحلا وهى أسترامادورا ، أو المفازة كما كان جغرافيونا يسمونها . .

وفى نهاية هذه القاعات دهليز طويل رسموا على جداره منظر موقعة دارت بين المسلمين والنصارى ، وهو أضخم رسم لموقعة من هذا النوع رأيته فى الدنيا ، تستطيع أن تقضى ساعة تتأمل نظام الجيش وملابس الجنود ما بين مسلمين ونصارى ، وهو منظر فريد فى بابه بالنسبة لمن يهمهم أن يروا كيف كانت المعارك بيننا وبينهم تدور . .

والجزء الذى يهمك من هذا المبنى الضخم هو المكتبة . تجد الطريق إليها على يمين المدخل قبل أن تفضى إلى الكنيسة . إنها مكتبة عظيمة تضم آلاف الكتب والمخطوطات ما بين لاتينية ويونانية وإسبانية ولغات أوروبية أخرى ، وفيها كذلك نحو ٢٠٠٠ مخطوط عربى .

هذه المخطوطات ليست من بقايا كتب أهل الأندلس ، فهذه كلها قد أحرقت وقضى عليها . أما هذه المخطوطات فهى جزء من مكتبة مولاى زيدان من سلاطين المغرب . كانت بينه وبين الإسبان حرب ، وكان يريد أن ينقل مكتبته وذخائره من سَلاَ إلى طنجة ، فأرسلها فى سفن فى البحر ، ووقعت السفن فى يد الإسبان فاستولوا على ما فيها ومنها هذه الكتب ، فأودعوها مكتبة دير الإسكوريال . كانت نحو أربعة آلاف مجلد ، ثم قام حريق فأتى على نصفها ، ولم يبق إلا هذه .

ولم تبدأ العناية بهذه المجموعة الفريدة من المخطوطات إلا من أوائل هذا القرن . كان قد اشتغل بفهرستها راهب لبنانى مارونى وفد على إسبانيا وعاش فى دير الإسكوريال فى القرن الثامن عشر ، اسمه ميخائيل الغزيرى، ويكتبونه : ميجيل كازيرى . كان عالماً محققاً ، قام بدراسة هذه المخطوطات وعمل لها فهرساً لاتينياً أورد فى ثناياه قطعاً كثيرة من النصوص . عمله هذا من أحسن الأعمال العلمية التى قام بها إخواننا اللبنانيون ، وفهرسه لا زال مرجعاً محترماً من مراجع تاريخ الأندلس .

وشهرة هذه المخطوطات أعظم من حقيقتها . فهى نحو الألفين ، منها نحو ١٩٠٠ مفهرسة فهرسة حديثة وافية ، والباقى لا زال أوراقاً وقطعاً متناثرة غير مفهرسة ، حفظوها بعناية فى ملفات من الورق المقوى ، وقد درسنا ما فيها دراسة دقيقة .

من هذه المخطوطات نحو ١٥٠٠ فى علوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه والقراءات والأدب والتاريخ ، معظمها نسخ مكررة لمخطوطات توجد فى خزائن أخرى فى الشرق والغرب . الأربعمائة الباقية فى الفلسفة والطب

والرياضيات والجغرافية والنبات وما إليها من العلوم ، تلك هى المجموعة الفريدة حقاً . ولا يكاد يعنى بها علماؤنا ، عنايتهم كلها متجهة إلى ما يسهل نشره من الأدب والتاريخ ، أما كتب العلوم فتحتاج إلى عناية خاصة ومعرفة بموضوعاتها ، وقلما يفرغ علماؤنا لهذه المخطوطات نظراً لما تتطلبه دراستها من مشقــة .

ويدير هذه المكتبة الآباء الأوغسطينيون ، وهم فرقة مسيحية منسوبة إلى القديس أوغسطين . وقد ورث رهبان هذه الفرقة العناية بالعلم والكتب ، ولهذا فإن عنايتهم بمخطوطاتنا طيبة مشكورة ، وهم — كرهبان مكتبة الڤاتيكان — من أكرم الرهبان خلقاً وأكثرهم حرصاً على خدمة العلم وأهله ، وما زار المكتبة عالم عربى إلا لقى منهم كل مودة . وبعضهم يجيدون العربية ، ولهم فى تاريخنا الثقافى مباحث ودراسات ينشرونها فى مجلة دورية يصدرونها باسم « مدينة الله » (ثيُوداد دى ديُوس) . سموها باسم الكتاب المعروف للقديس أوغسطين ، وهى من المراجع العلمية التى يعتمد عليها .

وإلى جوار قاعة المطالعة معرض لنوادر المخطوطات ، ترى فيه نسخاً من القرآن الكريم جميلة الخط والزينة ، ومخطوطاً مصوراً بالألوان فى علم الحيوان ، وآخر من كليلة ودمنة مصوراً تصويراً جميلا .

والدير يقع إلى يمين الكنيسة ، وهو دير عظيم منسوب إلى القديس لورنزو . وهو يطل على الحدائق الواسعة الواقعة خلف القصر ، وفى جانب من هذه الحدائق تجد مدفن الملوك : قبو واسع تحت الأرض تصل إليه عن طريق سلم منحدر طويل ، هناك ترى توابيت الملوك قد رصت فى صفوف بعضها فوق بعض .

وفى طريق عودتك إلى مدريد قد تمر — إذا شئت — بالضريح الهائل المسمى « وادى الشهداء » (ڤاييّى دى لوس كابيدُس) وهو يقوم فى بقعة صخرية جافية تسمى كُويلْجا موروس . هنا دار قتال طويل عنيف أثناء الحرب الأهلية الإسبانية . بعد أن انتهت الحرب قرر رئيس إسبانيا الجنرال

« فرانثيسكو فرانكو باهاموند » أن ينشئ فى ذلك الموضع كنيسة كبرى وضريحاً لشهداء الحرب . استمر بناء الكنيسة والضريح عشرين سنة ، ولم يفرغ إلا سنة ١٩٥٩ . هذا أضخم ضريح بنى فى القرن العشرين . يقوم فى لِحْف صخرة هائلة صماء . نقبوا الصخرة وأنشأوا فيها صحن الكنيسة الذى تصل إليه عن طريق بهو طويل مبطن بالرخام . فوق الصخرة أقاموا صليباً هائلا ارتفاعه فى الجو نحو ١٠٠ متر . الصليب مجوف من داخله تصعد جزءاً منه بمصعد كهربائى . ذراعا الصليب يقال إن فيهما مكتبة ، وليس هذا بصحيح ، فليس هناك كتب أو مكتبة ، حدثنا بذلك صاحبنا الراهب العلامة الفَرَايلِي خوسْتو بيريث دى أوريل ، راعى الكنيسة الملحقة بهذا الضريح واسمها سانتا كْرُوث دى لوس كاييدُس .

وإلى الشمال الشرقى من مدريد — على ٢٥,٥ كيلومتراً منها — تقوم بلدة ألكالا دِ إينارِس ، أى قلعة إينارس التى ذكرناها أكثر من مرة ، وهى بلد صغير لا زال يحتفظ بطابع العصور الوسطى فى الكثير من أجزائه . هذا البلد كان حصناً رومانياً قديماً يسمى كومْپْلُوتُوم ، وهو يقع على ضفة نهر يسمى إينارس ، وعندما استولى العرب على طليطلة فر أسقفها ونفر من كبار القساوسة فى اتجاه سرقسطة ، فأدركهم العرب فى كومپلوتوم هذه ، وكان معهم الكثير من ذخائر كنيسة طليطلة من بينها مذبح الكنيسة ، وكان منضدة ثمينة مزينة بفاخر الجوهر ، حتى خال العرب أنها كلها من الزبرجد الأخضر ، وحسبوها مائدة ، ونسبوها إلى سليمان عليه السلام ، فسُمى الموضع مدينة المائدة . وفى أيام الأمير محمد شرع المسلمون فى إقامة الحصون على الطريق المؤدى من طليطلة إلى وادى نهر إبره ، فعرف الطريق كله باسم وادى الحجارة ، والحجارة هنا جمع حَجَر بمعنى الحصن أو القلعة ، كما يقال حَجَر النَّسر فى شمال المغرب الأقصى والمراد به قلعة النسر . وعلى ٥٥ كيلومتراً فى نفس الطريق أنشأوا حصناً نشأت حوله مدينة عرفت باسم مدينة وادى الحجارة وتسمى اليوم جوادا لاخارا ، ويمتد خط الحصون إلى

سَجُونْسة (سيجْوينْثا) ومدينـــة سالم (ميديناثِلى) ثم دير الحَجر (موناستِرْيو دِ لاس پِيْيدْراس) ثم قلعة أيوب (كالاتايود) ثم سرقسطة .

وقد سميت مدينة المائدة بعد ذلك بقلعة عبد السلام ، وذهب بعضهم إلى أن لفظ إينارس – ويُكتب هِنَارِس – تحريف بالقلب للفظ أنهارِس ، أى أنه جمع غير عربى للجمع العربى لكلمة نهر ، ولكننا لا نطمئن إلى مثل هذا التخريج . ومثل ذلك ما يقال من أن إقليم نَبَرَّة محرف من نَهَرَّة بمعنى إقليم الأنهار ، وهو فرض ظاهر التكلف .

وقلعة إينارس بلد صغير سكانه حوالى ١٨٠٠٠ نسمة معظم أبنيته الجديرة بالرؤية كنائس ، ومبانى الجامعة القديمة التى أنشأها الكاردينال ثيسنيروس فى القرن الخامس عشر ، ولا زالت قائمة إلى اليوم ، تعطلت الدراسة فيها زمناً ، ولكنها عادت فانتظمت فى سلك الجامعات الكنسية . وقد زرنا من كلياتها كلية الفلسفة وكلية اللاهوت ، وأنشئ من بعض مبانيها معهد من معاهد الإدارة . وأمام المبنى الرئيسى للجامعة القديمة يقوم تمثال ميجيل دى ثيرڤانتس ساڤدرا . وواجهة المبنى قطعة فنية جديرة بالتأمل ، فهى مزينة بتماثيل غاية فى الرقة والجمال ، ويرى فى أعلاها رَنْك شرلكان .

ولعل أطرف ما فى قلعة إينارس نُزُل طلاب الجامعة القديم ، فقد حافظوا على رسمه ورمومه ، وقاعة الطعام فيه مطعم فريد فى هيئته ونظامه ، إذ لا زال محافظاً على طابع مطاعم الطلاب فى جامعات العصور الوسطى ويسمونه اليوم «لا أوستيريّا دل إستوديانتِ» .

ومن أقدم كنائس البلد وأجملها كنيسة القديس إلِنْدِفُونْسو ، وهذه الصيغة من اسم ألفونسو هى القديمة التى أخذ العرب عنها الصورة التقليدية للاسم عندهم : الاذفونش .

* * *

طال بنا الوقوف عند مدريد وما حولها . .

فلنرجئ رحلتنا إلى الشمال والغرب إلى الفصل التالى . .

الشمال: أرض الجبال والأشجار والأساطير

والآن أمامنا المرحلتان الأخيرتان : رحلة الشمال والشمال الغربى ، ثم رحلة الغرب .

الأولى نبدأها من مدريد حتى نصل إلى المحيط الأطلسى فى الطرف الشمالي الغربي من شبه الجزيرة عند رأس فِينِيسِتِرِّى أي رأس الظلام أو الظلمات ـ وكان العرب يسمونه رأس كنيسة الغراب ـ ثم ننحدر إلى الجنوب فنقطع البرتغال من شمال لجنوب، وندخل إسبانيا مرة أخرى عند وَلْبَة (أويلْبا) قرب إشبيلية . .

كان ينبغى أن نفصل عن مدريد ونتجه شمالا بشرق ، فى نفس الطريق الذى سار فيه موسى وطارق مارّين بقلعة إنَارِس فوادى الحجارة (جوادا لاخارا) فحَمَّة أرَغُون (لا ألامَه دِ أرجون) فقلعة أيوب (كالاتايود) فمُنية دونيا جودينا (لا ألمونيا دِ دونيا جودينا) فسَرَقُسْطة، ثم نسير مع نهر إبْرُه فى اتجاه منابعه ، ثم ندخل أرغون ونمر ببَنْبَلُونة (پامپيلونا) فلُوجْرُونْيُو حتى نصل إلى بُرْغُش ؛ ولكن أحداً لا يسير فى هذا الطريق اليوم .

كان العرب يسيرون فيه فى الماضى ليتحاشوا سلسلة الجبال الوسطى التى تقسم شبه الجزيرة فى خط مائل من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ابتداءً

من حوض إبره حتى بَطَلْيَوْس (باداخوس) قرب حدود البرتغال . أما اليوم وقد شقت الممرات والأنفاق فى هذه الجبال فإن سكة الحديد وطرق السيارات تخترق هذه الجبال وتتجه فى خط عمودى تقريباً إلى برغش ، أو تسير شمالا بغرب عبر جبال وادى الرملة حتى تصل إلى شَقُوبْيَة (سيجوبيا). وسنسلك نحن هذا الطريق الثانى حتى نرى بلاداً لها أهمية تاريخية بالنسبة لنا ، ونحن فى آثار موسى وطارق دائماً ، لأننا سنلتقى بالجيش العربى الفاتح عند ليون آتياً من الشرق .

المنطقة التى نقطعها من مدريد إلى شَقُوبْيَة من أجمل مناطق إسبانيا . إنها منطقة جبال خضراء . منطقة عسيرة لكثرة مرتفعاتها ، ولكننا نمضى فى طريق سيارات جميل معبد يأذن لنا فى الاستمتاع بجمال الطبيعة دون أن نقاسى وعث الطريق .

إذا تأملت الجبال المتهيلة عن يمين وشمال، والمضايق التى نجتازها، تصورت الصعوبة التى كان العرب يقاسونها فى المرات القليلة التى أخذوا فيها هذا الطريق إلى دار الحرب .

لتذكر كذلك أن هذه المنطقة كلها كانت أيام العرب مغطاة بالغابات . والعرب لم يستريحوا لمناطق الغابات أبداً ، لا هم سكنوها ولا اطمأنوا إلى المسير فيها . كانوا يخشون الكمائن التى تترصدهم مستكنة خلف الشجر ، والعرب كانوا ينفرون من العدو المستتر . كانوا يرحبون بالعدو الذى يواجههم بصدره فى الأرض المكشوفة حتى يكون لهم مجال للكر والفر ، أى الانقضاض على العدو فى قطع صغيرة من الخيل تخرق صفوفه وتدور ثم تعود إلى مواقعها الأولى لتهجم مرة أخرى . هذه الضربات المتلاحقة كانت تحطم صفوف العدو وتفتح الثغرات للرَّجّالة .

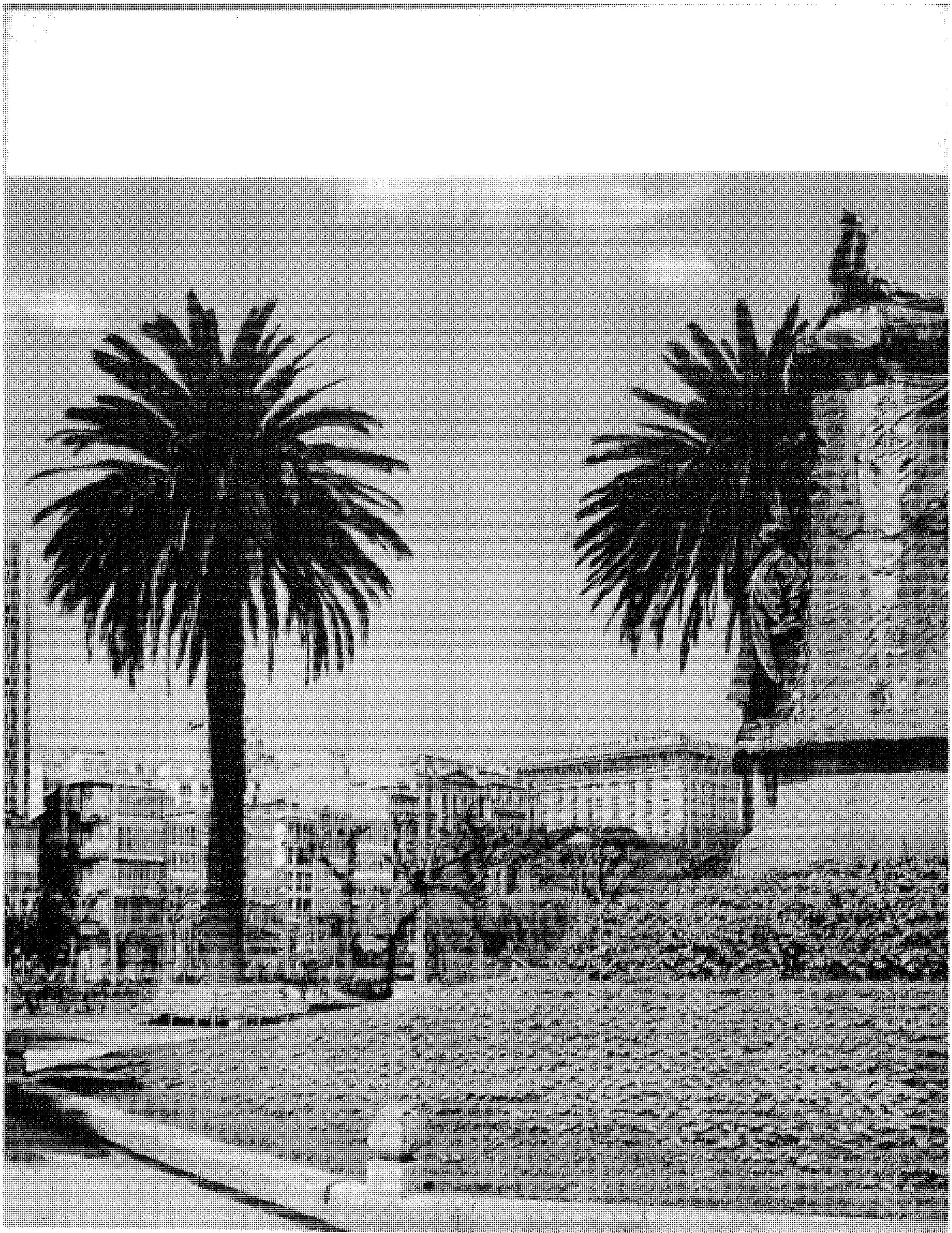
فى طريقنا إلى شقوبية نمر ببلد يسمى ڤالْد جِلْيسْيَاس (وادى الكنائس) . هذا هو حد إقليم قَشْتالة الجديدة (كاسْتِيَا لانُويڤا) . إن إسبانيا مقسمة



جليقية الأرض الصخرية البعيدة التي
أنجبت الملوك والنساء الجميلات



هذا الطراز من البيوت ذات الواجهات المغطاة بالشبابيك الزجاجية التي تدخل منها الشمس لتدفئة الجو البارد هو طراز العمارة المدنية التقليدي في جيليقيا أو Galicia



ومع ذلك فقد زحفت إلى هنا نخلاتنا العربية وقامت وحدها
في بلاد البرد والمطر وواحدة منها تحتمي بتمثال في الروض.



الخلجان الواغلة في داخل الأرض Las Rias Bajas إحدى الظواهر الطبيعية التي اشتهرت بها خليقية . هذا الخليج يسمى خليج بيبيرو .

إلى أقاليم واسعة، كل إقليم يضم عدداً من المديريات كما نقول نحن فى مصر: الوجه البحرى والوجه القبلى .

بعد ذلك ندخل فى قشتالة القديمة (كاسْتيّا لاڤْييخا) وهى إقليم واسع يضم مديريات بُرْغُش وسُوريَّة وشَقُوبْية وأبِلَة .

قشتالة القديمة هى مهد مملكة قشتالة القديمة . نشأت إمارة صغيرة أيام عبد الرحمن الناصر ، أنشأها أمير صغير مغامر يسمى فرنان جنذالث ، ثم تطورت حتى صارت مملكة عاصمتها برغش .

فى أيام المنصور بن أبى عامر كان العداء شديداً بين قشتالة القديمة هذه ومملكة ليون ، فدخلت قشتالة فى طاعة المنصور لتستطيع مقاومة ليون . كان المنصور يعرف أنها تهادنه خداعاً ، فقضى عليها كما قضى على ليون . بعد موت المنصور قام فرناندو الأول ملك ليون بتوحيدهما ، أصبحت المملكة تسمى مملكة قشتالة وليون معاً . عندما استولى ألفونسو السادس على طليطلة وملك أراضيها الواسعة التى كانت تصل إلى حدود بلنسية سميت المنطقة الجديدة قشتالة الجديدة ، وأصبحت أغنى مناطق المملكة ، وانتقلت العاصمة من ليون إلى طليطلة .

قشتالة لفظ لاتينى : كاسْتِلاّ ، معناه القلعة . كان العرب يسمون قشتالة القديمة « القلاع » ، يسمونها أيضاً قَشْتِيلة وربما سموها قَصْطَلَة .

من بعيد تتراءى لنا شقوبية (سيجوبيا) وكأنها حصن كبير فوق جبل مرتفع . عندما نقترب منها نتبين أنها مدينتان ، اليمنى منهما أعلى من اليسرى ، بينهما واد متسع هو اليوم الميدان الرئيسى للبلد .

بين المدينتين سقاية ماء هائلة تذكرك بسقاية « السبع سواقى » فى مدخل « مصر القديمة » جنوبى القاهرة . هذه السقايات تُنشأ لتحمل الماء إلى البلاد والقلاع العالية ، تبدأ عند شط النهر ، حيث يرفع الناس الماء إلى أعلاها بالسواقى أو بالدِّلاء ويصبونه فى مجرى فوق السقاية فيجرى إلى البلد .

سقاية « السبع سواقى » أنشئت لتوصل ماء النيل إلى القلعة – أو قلعة الجبل كما كانت تسمى أيام المماليك – وسقاية شقوبية أنشئت لتحمل الماء من النهر البارد (رِيُو فْرِيُو) أحد فروع نهر دُويِرُه، إلى مدينة شقوبية . إنها سقاية رومانية هائلة . أضخم عمل هندسى رومانى من نوعه فى الدنيا . أنشأها الإمبراطور تراجان . قناطرها حجرية ضخمة مزدوجة ، صف فوق صف . يقال إن مهندس مسجد قرطبة الجامع استوحاها لإقامة العقود المزدوجة فى الجامع ، وقد سبق أن استبعدنا إمكان ذلك .

شقوبية كانت دائماً فى منطقة الفراغ بين إسبانيا الشمالية وإسبانيا الإسلامية . تداولتها أيدى المسلمين والنصارى أكثر من مرة ، ولكنها كانت دائماً مستقراً لجالية إسلامية عظيمة . تجد بقايا سورها إذا وقفت فى الميدان ونظرت إلى المدينة اليمنى على المرتفع . تستطيع الصعود إلى هذا السور بواسطة سلم حجرى ضخم . المنازل ملاصقة للقطع الباقية من السور حتى لتكاد تخفيها .

وجود قطع السور فى هذا الموضع يدل على أن شقوبية العربية قامت فوق الجبل مكان شقوبية الرومانية. ذلك طبيعى ، فقد كانت شقوبية حتى العصر الحديث حصناً .

نصعد إلى البلد بواسطة طريق صاعد كأنه سفح جبل . عندما نصل إليه نرى السهول التى تلى وادى الرملة شمالا بغرب منبسطة أمامنا مروجاً خضراء . هنا ندرك الأهمية العسكرية لهذا البلد .

آخر من ثبت أقدام المسلمين فى شقوبية كان المنصور بن أبى عامر . بعد موته استولى عليها النصارى . رغم ذلك ظلت الجماعة الإسلامية فيها قوية متماسكة حتى آخر القرن السادس عشر . كان أفرادها قد نسوا اللغة العربية لطول انقطاعهم عن بلاد المسلمين ، وأصبحوا يتكلمون لغة إسبانية تخالطها ألفاظ عربية . آخر شيخ لمسجد شقوبية سمعنا عنه اسمه عيسى دِ جابر أى عيسى بن جابر ، وقد ألف لإخوانه المسلمين مختصراً فى الفقه جعل عنوانه

« بْرِبْيَرْيُه سُنّى » أى مختصر فى السنة . إنه باللغة الإسبانية مكتوبة بحروف عربية ، ويعرف بـ « الكتاب الشقوبى » . إنه ألطف كتاب فى الفقه الإسلامى، تجد حديثاً وافياً عنه فى كتابنا « تاريخ الفكر الأندلسى » .

إذا سرت فى طريقك حتى نهاية البلد وجدت أمامك حصناً ضخماً يسمونه قصر شقوبية (ألكاثار دى سيجوبيا) نعتقد أن هذا هو مكان الحصن العربى القديم . البناء الذى تراه حديث يرجع إلى القرن السابع عشر ، وذلك ظاهر . إنه نموذج لقلاع هذا العصر فى إسبانيا . يستخدمونه الآن كلية عسكرية .

إلى جنوب غربى شقوبية نجد أبِلَه (أفيلا) وهى تشبهها إلى حد بعيد إنها مدينة متوسطة الحجم تشتهر بأسوارها الضخمة التى تعتبر أجمل ما بقى من نوعها فى إسبانيا . هذه الأسوار التى تراها حديثة ولكنها قامت على آثار الأسوار العربية .

غير هذه الأسوار لا تجد فى أبله شيئاً عربياً . المسجد الجامع لم يكن فى الموضع الذى تقوم فيه اليوم الكاتدرائية ، وإنما مكان دير سانتا ماريا دى جراثيـــا .

إلى غرب شقوبية، على ٩٩ كيلو متراً منها، نجد سَلَمَنْقَة . مدينة فريدة فى بابها تقوم على ضفة نهر تُورْمِس العريض . لا يوصف هذا البلد إلا بأنه مدينة ثقافة ، الجامعة هى مركز الحياة فى هذا البلد . كلياتها ومعاهدها تملأ البلد كله . الشوارع غاصة بالطلاب جماعات جماعات . الطلاب يأتون إليها من نواحى العالم كله ، فهنا يتعلم الناس الإسبانية على أصولها . يرتبط اسم البلد من أوائل هذا القرن باسم ميجيل أونامونو الفيلسوف المعروف . تمثاله نجده قرب الكاتدرائية .

أجمل ما فى البلد ميدانه الكبير (بلاثا مايور) . ميدان فسيح مربع تقوم حوله مبان من هيئة واحدة . فى كل بلد إسبانى تجد ميداناً كبيراً تحيط به

البواكى من كل ناحية ، أجمل هذه الميادين ميدان سَلَمَنْقَة . بعد المغرب ترى الناس يتنزهون تحت البواكى . .

الكنائس فى سلمنقة لا حصر لها ، حيثما نظرت رأيت كنيسة .

* * *

ونعود إلى شَقَوبْية لنواصل السير إلى الشمال . .

على ٦٦ كيلو متراً شمالها فى خط مستقيم نجد بلد الوليد (ڤايا دوليد) .

لا نعرف من هو الوليد الذى سمى البلد باسمه ، يغلب أن الاسم منسوب إلى قبيلة كانت تسمى بنى الوليد كما نسبت مدينة سالم إلى بنى سالم .

وبلد الوليد مدينة عامرة واسعة تقع وسط سهل فسيح ، لهذا اختارها ملوك إسبانيا عاصمة لمدة قصيرة قبل استقرارهم فى مدريد .

لم تمكث بلد الوليد فى يد المسلمين طويلا . كان آخر من استردها المنصور بن أبى عامر ، ثم ضاعت بعد وفاته .

بعد بلد الوليد يتفرع الطريق فرعين : أحدهما يذهب إلى بُرْغُش وڤيتوريا وسان سباستيان وسانتاندر ، والآخر يتجه نحو ليون .

وليون اليوم بلدة صغيرة ، بل ربما كانت أصغر عواصم المديريات فى إسبانيا الآن ، والداخل إليها لا يشعر أنه فى عاصمة ، فالبلدة صغيرة ريفية الطابع لا يستوقف النظر فيها إلا كنيستها الجميلة ، خاصة وأن الإنسان يصل إليها عن طريق بلد الوليد أو برغش ، وكلتاهما عاصمتان كبيرتان ، وهما أحدث منها ، ولكن ظروفهما خطت بهما إلى الأمام بقدر ما تأخرت الظروف بليون .

فأما بلد الوليد فقد كانت العاصمة الفعلية لملوك إسبانيا عندما ضاقت بهم طليطلة وتطلعوا إلى بلد يسمح وضعه الجغرافى بالاتساع لمطالب عاصمة كبيرة .

وأما بُرْغُش فقد كانت عاصمة إسبانيا خلال الحرب الأهلية الأخيرة

(١٩٣٣ – ١٩٣٦) حتى تمكنت قوات الخنيراليسمو (القاعد الأعلى) فرانثيسكو فرانكو باهاموند من الاستيلاء على مدريد فى ١٨ يونيو ١٩٣٦ .

وهذان البلدان هما عاصمتا السهل الفسيح المحصور بين سلسلة جبال وادى الرملة (جوادارّاما) من الجنوب وسلسلة الجبال الكنتبرية (كورديير كانتابريكا) من الشمال ، وهو سهل فسيح يضم معظم إقليم قشتالة القديمة الذى ذكرناه .

منذ أن غادرنا بلد الوليد ونحن شمال نهر دُويرُه . المسافة من مدريد إلى ليون ٣٠٠ كيلو متر ، ومن قرطبة إلى هنا ٧٥٤ . لقد عبرنا الهضبة الوسطى كلها بجبالها التى لا تنتهى . الأرض من حولك سهل منبسط متموج كأنه مياه بحر ، ولكن ارتفاع هذا السهل عن سطح البحر يتراوح بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ متر . هذه أعلى سهول فى أوروبا كلها . الأنهار ومجارى المياه كثيرة .

نحن نعبرها الآن دون أن نحس بفضل القناطر الحديثة ، ولكن جيوش العرب كانت تقطعها على القدم أو على الخيل والبغال ، وكلما وصلوا نهراً أو مجرى ماء كان لا بد أن يبحثوا عن مخاضة ، أى مكان ضحل من مجرى النهر لتعبر الدواب خوضاً فى الماء . عند هذه المخاضات كان الأعداء ينتظرون دائماً ، كانوا يستترون بأشجار الغابات لينقضوا إذا سنحت فرصة . كانت هناك دائماً فى جيوش المسلمين فرق متخصصة فى فتح الطرق وتوسيع مخارم الجبال بالمعاول .

فكر الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط – لكى يتحاشى ذلك الطريق الوعر – فى أن يخرج الجيش كله على مراكب الأسطول من لشبونة ، ويبحر شمالا ثم شرقاً حتى يرسو عند خيخُون . وجرب ذلك مرة ، ولكن العواصف ووعورة السواحل حطمت الأسطول قبل وصوله .

لكى يسيطر العرب على هذه النواحى كان لا بد أن تكون عاصمتهم طليطلة ، أما قرطبة فبعيدة جداً . لكى يقطع الجيش الغازى نحو ٨٠٠ كيلو

متر كان لا بد له من شهرين ونصف شهر على الأقل . كانوا ينهضون للغزو من أوائل مايو فلا يصلون إلى نواحى ليون إلا فى منتصف يوليو . كانوا يحسبون حساب العودة أيضاً ، لأنهم إذا تأخروا إلى أواخر سبتمبر سقطت الثلوج وانسدت مخارم الجبال وأصبحت العودة شقاء عظيما .

لهذا كان لا بد أن يشرعوا فى العودة من منتصف أغسطس ، أى أن مُقامهم فى هذه النواحى كان لا يمكن أن يزيد عن شهر . وماذا يمكن أن يصنعوا فى شهر ؟

ضربات سريعة هنا وهناك . .

وكان الأهالى يعرفون ذلك ، فكانوا يزرعون شعيرهم مبكراً ، ويحصدونه قبل منتصف يوليو ، ويرتفعون بماشيتهم ومحاصيلهم إلى أعالى الجبال حيث لا يدركهم أحد .

لم يكن العرب ليجدوا فى المدن إلا حاميات تعتصم بالحصون ومعها مؤونة الشهر والشهرين ، والوقت لا يتسع لحصارها ، ثم يعود الجيش أدراجه فى خط طويل يسير على مهل ، الطليعة تسبق الجيش بحوالى كيلو متر ، والساقة — أى مؤخرة الجيش ، وفيها المؤن وأدوات الحرب — تتأخر عن القلب كيلو متراً آخر .

ليس أسهل من الانقضاض على أجزاء الجيش المتفرقة المتباعدة . كان الأعداء يهجمون فى قطع صغيرة من الخيل تضرب وتفر مسرعة إلى المخابئ ، هذا ما نسميه نحن بحرب العصابات . الإسبان والروس هم الذين ابتكروا هذا الأسلوب من الحرب، اسمه في اللغات كلها إسباني: «جِيرِيلاّ وتُنطَق جِرِّياّ» (الحرب الصغيرة) . .

فى أيام الفتح الأولى خلف العرب حاميات وجماعات مستوطنة فى هذه النواحى كلها ، إلى الآن يوجد حتى فى أقصى الشمال والشمال الغربى قرى تحمل أسماء عربية . بعد أن عادت الجيوش شعرت الجماعات الإسلامية هناك

أنها منقطعة عن أخواتها تماماً . كان لا بد أن تعتمد على نفسها إذا أرادت أن تعيش ، فإن الموت يطرق بأسرع مما تأتى النجدات .

هذه الجماعات انسحب الكثير منها قبل قيام الإمارة القرطبية سنة ١٣٨ / ٧٥٦ ، الباقى منها كان لا بد أن يختلط بالناس هناك ويجد وسيلة للعيش معهم ، والكثرة تذيب القلة فى كيانها . ظلت هذه الجماعات مسلمة ، ولكنها تكلمت الإسبانية واندرجت فى الغمار . حدث مثل هذا أيضاً فى الطرف الشرقى الأقصى لمملكة الإسلام : على أوائل أيام الإسلام كانت الجماعات العربية التى استقرت فى أقصى شرق فارس عربية اللسان ، على أيام المعتصم كانت تتكلم الفارسية والتركية .

* * *

ونعود إلى ليون . .

تقع ليون عند ممر فى سلسلة الجبال الكنتبرية ، وإلى وقوعها هناك ترجع أهميتها التاريخية ، فقد كانت أول بلد كبير احتله ملوك أشتُريس (أستورياس) عندما اجتمعت قواهم وتشجعوا وعبروا هذه الجبال منتهزين فرصة انسحاب الكثيرين من المسلمين من هذه النواحى قبيل قيام الإمارة القرطبية على يد عبد الرحمن الداخل سنة ٧٥٦ .

وبعد أن تغادر ليون تلمس بنفسك الصعوبة التى تحملها الفاتحون العرب فى اجتياز هذه النواحى . وصل موسى بن نصير وطارق بن زياد معاً إلى قرب ليُون حوالى شوال سنة ٩٥ / يوليو ٧١٤ . ليس للمدينة ذكر فى أخبار الفتوح ، لأن الأهمية كانت إذ ذاك لبلد آخر إلى غربه اسمه أشْتُرْقَة (أستورجا) . ولا بد أن ليون كانت قائمة ، لأن تاريخها واسمها يرجعان إلى أيام الرومان ، ولكن يبدو أنها لم تكن إذ ذاك إلا معسكراً قديماً مهجوراً . ومن أشترقة اتجه موسى بن نصير وحده شمالا بغرب فاخترق الممر المعروف اليوم بممر بِخَارِس حتى وصل إلى أبيط (أوڤْيِيدو) .

وهذا الممر هو أطول ممرات الجبال فى إسبانيا وأعسرها على العبور ، ولا زالت السيارات إلى اليوم تعانى من مسلكه الضيق وارتفاعه ، فإنها لا بد أن تصعد إلى ارتفاع ١٣٦٤ متراً ثم تنحدر مرة أخرى لتفضى إلى السهل الشمالى ، ولا يخفف من متاعب هذا العبور إلا جمال مناظر الطبيعة التى تمر بها ، فهذه كلها جبال خضراء تغطيها الحشائش والأشجار من كل صنف ، وعلى سفوح الجبال وبين الأشجار ترى القرى الصغيرة كأنها معلقة بين الأشجار .

وفى انحدارك من الجبل خارجاً من الممر تمر بمدينة ما أظن أنك شهدت مثلها فى تجوالك داخل إسبانيا وخارجها ، هى مدينة مْييِرِسْ . تقوم على شريط ضيق على جانبى الممر : صف أو صفان من البيوت من كل ناحية على امتداد بضعة كيلومترات ، وعندما يضيق الممر حتى ينعدم الشريط الأرضى تتوقف المدينة، ثم تعود إلى الاتصال من جديد بعد أن تظن أنك قد خلفتها وراءك . وبعد منعرج بين الجبال تعبر قنطرة لتجد المدينة قد انتقلت بجملتها من اليسار إلى اليمين ، ويتسع لها المجال قليلا فيتسع عرضها ، ثم تضيق مرة أخرى ولا تعود إلا صفاً من البيوت .

وعلى طول هذه المدينة الغريبة ترى أكوام الفحم كأنها التلال ، وترى السيارات الضخمة غادية رائحة ، لأن هذه المنطقة من أغنى نواحى إسبانيا بالفحم ، ومناجمه هى التى أنشأت مدينة ميرس ، وهى التى نهضت بأبيط (أوڤييدو) — التى تلقاها عندما تفرغ من الجبال — من قرية صغيرة إلى مدينة صناعية كبرى .

وفى أوڤييدو تشعر وكأنك انتقلت إلى بلد آخر : تنتهى الأراضى الجدباء والوعور والجبال وتفضى إلى سهل منفسح كله خضرة وأشجار ، ولا يكاد المطر يتوقف فيه . هنا مهد إسبانيا النصرانية ، فإن الفاتح العربى بعد أن اخترق هذه الجبال واحتل أوڤييدو اتجه إلى أقصى المدن التى كانت قائمة هناك ،

وهى مدينة خِيخُون ، وهناك خلف حامية عسكرية أقام عليها قائداً وعاد أدراجــه .

وقد كان فى هذه الحامية كفاية لو أن حوادث التاريخ تجرى على ما يقدر الناس ، فإن هذه الناحية بدت للعرب إذ ذاك وكأنها آخر الدنيا ، وخاصة بعد العناء الذى تحملوه فى الوصول إليها .

وقد كان العرب يعلمون أن فلولا من القوط وأهل البلاد قد اعتصموا فى هذه البطاح ، ولكن أولئك المعتصمين بدوا لهم إذ ذاك أقل من أن يثيروا خوفاً ، حتى قدروهم بثلاثين رجلا وامرأة، ثم إن خوف هؤلاء من العرب دفعهم إلى الإيغال فى الهرب منهم ، فأبعدوا فى التراجع ناحية الشرق حتى وصلوا إلى جبال عالية كلها مضايق ومخانق ومغارات ، وهى الجبال المعروفة باسم قمم أوروبا (پيكوس دى أويروپا) وهى مجموعة من المرتفعات العالية تطل عليها ثلاث قمم عالية ترتفع ناهضة فى الجو كأنها رؤوس أبراج .

فى هذا الركن القصى اطمأنوا ، وتجمعوا حول بلدة صغيرة تعرف باسم كَنْجاس دى أونيس جعلوها عاصمة لهم ، فإذا تقدم العرب نحوهم أسرعوا إلى الجبال فلم يدركهم أحد . وتقع كنجاس على ٦٦ كيلو متراً شرقى أوڤييدو ، وهى اليوم بلد سياحى صغير يذكرك ببلاد ألمانيا وسويسرا ، والطريق إليه جميل تقطعه السيارة فى رفق ، ولكنه كان خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادى مغطى بغابات وأحراش ، ولم يكن الناس يقطعونه إلا على خوف ومشقة .

وابتداء من كنجاس دى أونيس تبدأ منطقة الجبال التى حدثناك عنها ، فتمر فى طرق جبلية كثيرة المنعرجات حتى تنتهى إلى نقطة التقاء جبال قمم أوروبا ، فتجد نفسك وكأنك داخل حصن ، فالجبال تحيط بك من كل جانب كأنها أسوار ، وقمم أوروبا الثلاث تطل عليك كأنها أبراج .

وفى حضن هذه الجبال تجد منفسحاً صغيراً كأنه ركن منعزل فى روضة

يانعة ، فالخضرة على يمينك وشمالك ، والأشجار قائمة زاهرة فى حيثما نظرت ، والماء ينحدر من الجبال فى شلالات صغيرة ، وعشرات من الناس رجالا ونساءً يسيرون فى اتجاه الجبل فى خشوع وهيبة ، شأن المقبل على حرم مقدس ، وترفع بصرك إلى حيث تتجه أنظارهم فترى مغارة واسعة المدخل قد أنشأوا فيها كنيسة معلقة على الجبل . .

تلك هى كنيسة كوڤادونجا ، قدس من أقداس إسبانيا ومزار من أجل مزاراتها ، وهؤلاء الذين يسيرون نحوها حجاج أقبلوا من بعيد للزيارة أو للوفاء بنذور ، ومن ثم فإن الكثيرين منهم يقبلون من كنجاس سائرين على أقدامهم حفاة ، فإذا وقعت أبصارهم على الكنيسة ركع بعضهم وسار على ركبتيه وفاءً بنذره حتى يصل إلى السلم المؤدى إلى الكنيسة .

وتصعد السلم فإذا أنت فى مدخل المغارة الواسع ، وقد أقاموا مصلى صغيراً فى الفسحة الصغيرة التى يفضى إليها الصاعد ، ثم تمر بفجوة فى الصخر أقاموا فيها ضريحاً لأول أمرائهم « پلايو » — والعرب يسمونه بلاى — فإذا انتهيت من الممر وجدت فسحة أخرى أقاموا فى ركنها مذبحاً للصلاة ومدوا المقاعد للمصلين ، وإلى يسار المذبح بنوا دويرة صغيرة لسكنى القس الموكل بهذين المصلّيين . وفى أقصى اليمين ، فيما بقى من المغارة ، أنشأوا ديراً صغيراً (إرْمِيتَا) حفروا الصخر لكى يستوفوه عمقاً . وخلف ذلك كله ، فى قاع الغار ، جدول يجرى ماؤه ثم ينحدر من شلال صغير إلى بركة عند قاعدة الجبـــل . .

هذه المغارة والموضع المحيط بها يسميان كوڤادونجا ، وهو اسم مركب من لفظين : كوڤا — أو كويڤا — أى مغارة ، وأونجا وهو اسم الموضع فى القديم . وسر قداسة مغارة أونجا هذه أسطورة قديمة تقول إن الجماعة النصرانية التى اعتصمت فى تلك الناحية جهدت فى أن تحافظ على استقلالها ورد الحامية العربية عن دخول أراضيها ، فلما أراد أحد قواد هذه الحامية — تسميه المراجع

النصرانية ألْكَامَا (والغالب أنه تحريف لعلقمة)ـ اقتحام تلك الناحية تصدى له زعيم الجماعة النصرانية ، ويسمى بلاى ، فهزمه عند هذه المغارة .

ولم يهزمه – زعموا – إلا بمعجزة ، إذ أن السيدة العذراء ظهرت من الغار وجعلت ترد سهام العرب عليهم ، فهلك معظمهم ، وأما الباقون فأسرعوا يدورون حول الصخرة . فلما صاروا فى الناحية الأخرى ، عند قرية تسمى لْيِيبَانَا ، ظهرت العذراء مرة أخرى وأهالت عليهم الصخر فهلكوا .

وتلك هى معركة كوڤادونجو التى تعتبر فى كتب التاريخ الإسبانى بدءاً لما يسمى بحركة إعادة الفتح (الريكونكيستا) أى استرداد أراضى شبه الجزيرة من العرب . ويذهبون إلى أن الموقعة كانت سنة ٧٥٠ أو ٧٥١ ميلادية (١٣٣ هجرية) . وبعدها تقدم بلاى فأخرج العرب من خِيخُون وردهم إلى ما وراء الجبال ، وحصَّن الناحية ، وجعلها إمارة تحمل اسم الإقليم ، أى إمارة أشتُرِيس (أستورياس) التى أصبحت مملكة فيما بعد .

ثم خلفه ابنه « فافِلة » ، حتى إذا كانت أيام أميرها ألفونسو الأول استطاع أن يستولى على ليون ويتخذ لقب الملك ويمد حدود مملكة أشتريس إلى الأراضى الواقعة بين نهرى المِنْيُو والدُّوِيرُه .

وقد ذكر مؤرخونا العرب « بلاى » وقيامه على العرب ، ولكنهم لم يذكروا له نصراً عليهم ، وإنما قالوا إنه أول من نهض بأمر نصارى أشتريس وثبت قواعد دولتهم وأنشأ ملكهم ، وهذه حقيقة مقررة فى كتب التاريخ جميعاً . ونسب إليه العرب صخرة كوڤادونجا ، فسموها صخرة بلاى .

وأنت إذا وقفت عند قاعدة الصخرة وتأملت المغارة وما حولها تبينتَ أنه ليس من الضرورى أن تكون قد وقعت هناك موقعة أصلا ، لأن الجو هناك خليق بأن يبعث الخيال وينشئ الأساطير . ولا بد أنه كان هناك قتال كثير بين العرب وأهل هذه الناحية ، ومن خلال هذا القتال نشأت أسطورة كوڤادونجا وجرت بها ألسنة الناس ، وأثبتها مؤرخو تلك المملكة على أنها

تاريخ . وفى تلك العصور — بل وإلى أيامنا هذه — لا زال الحد الفاصل بين الأسطورة والتاريخ غير واضح ، ولا يخفى أن لفظ « أسطورة » العربى إنما هو معرب عن لفظ إستوريا اليونانى ، وأصل معناه الحكاية أو القصة ، ثم أصبح معناه التاريخ . . .

وليس فى الدنيا هيئة كالكنيسة الكاثوليكية « تُخْرِج » الأماكن وتنسقها حتى تبدو وكأنها لوحات . فما من موضع فى بلاد الكاثوليكية يصلح لإنشاء كنيسة أو مصلى أو لنصب صليب إلا عرف الأحبار كيف يهندسون ما ينشئون على نحو يتفق تماماً مع البيئة المحيطة به والغرض المقصود منه .

وقد رأيت ما صنعوا من هذه المغارة ، وبعد قليل سترى ما صنعوا بأسطورة شنت ياقب وما أنشأوا هناك من كنيسة هائلة تجتذب قلوب الكاثوليك اجتذاباً ، وسترى أيضاً ، عندما ننتقل إلى البرتغال ، كيف انتفعوا بأسطورة « عذراء فاطمة » وأنشأوا فى قريتها محجاً عجيب الهندسة والتنسيق . ولهم من هذه المنشآت أمثلة بعد أمثلة فى نواحى أوروبا كلها ، ولست بحاجة إلى الإشارة إلى هندسة كنيسة القديس بطرس وساحة الأعمدة أمامها فى روما ، أو كنيسة القديس مرقس وساحتها فى البندقية ، وروائع الكنائس فى فلورنسا ، وغير ذلك كثير .

ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية تدرك ما للمظاهر والشكليات من أثر فى النفوس ، ومن ثم فإن رجالها لا ينشئون كنائس ومصليات وإنما « يُخْرِجون » مناظر وأشكالا ، ويستعملون كل عناصر الإخراج الفنى من عمارة وألوان وأشكال وملابس ذات ألوان وموسيقى وأنغام وطقوس مرسومة بإتقان صادرة عن تفكير وتصور وخيال بعيد المطارح ، وربما كان ذلك ضرورة من ضروراتها ، فإن أساس العقيدة فيها الإيمان بالمعجزات والخوارق والأسرار (ميستيريوس) ، وهذه كلها فى حاجة إلى تجسيم وتجسيد حتى تقرب من النفوس والأرواح .

* * *

وهذه الناحية كلها تسمى أشْتُرِيس أو أستورياس ، وهى مديرية واسعة عاصمتها أوڤْييدو ، وإلى شرقها تقوم مديرية سنتاندر وعاصمتها تحمل نفس الاسم ، وإلى الشرق من سنتاندر يقع إقليم الباسْك أو الباسْكو ، والعرب يسمونه البَشْكُونس ،ويضم حالياً ثلاث مديريات : بِشْكَايَة وقاعدتها بلباو ، وجِنْوِيبُوثْكَوا وقاعدتها سان سباستيان ، وألبَه وقاعدتها ڤيتوريا ، وتسمى الولايات الثلاث بإقليم الڤاسكونجاداس ، وهو يمتد إلى فرنسا وراء حدود إسبانيا شمالى جبال البُرت فيما يعرف بإقليم الباسْك الفرنسى .

وأنت تشعر فى هذه المديريات كلها كأنك فى سويسرا أو ألمانيا : مناظر الطبيعة والخضرة ووفرة المياه والأنهار وأشكال القرى وطرز البيوت وعمارة الكنائس ، كل ذلك يبدو لك وكأنه امتداد لأوروبا عبر جبال البرت ثم على طول ساحل كنتبرية حتى تصل إلى جليقية فى أقصى الغرب .

والسبب فى ذلك — علاوة على تشابه الظروف الطبيعية — أن هذه الناحية الشمالية من إسبانيا تحصرها من الجنوب جبال كنتبرية وتكاد تعزلها عن بقية شبه الجزيرة ، ثم تصلها ممرات جبال البُرت بجنوب أوروبا .

وخلال عصور سيطرة الإسلام على بقية شبه الجزيرة تلفتت هذه النواحى إلى بلاد النصرانية تقتبس منها مظاهر حضارتها وقوام عمرانها ، وبينما كان بقية شبه الجزيرة — عدا إقليم برشلونة — يولى وجهه شطر الشرق العربى ويدخل فى نطاقه الحضارى ، اتجهت هذه النواحى شطر أوروبا ودخلت فى نطاقها الحضارى ، فكأن الجبال الكنتبرية فاصل حضارى وجغرافى فى آن واحد .

أضف إلى ذلك أن الناحية كلها تكاد تكون أغنى نواحى شبه الجزيرة ، فالأرض خصبة وافرة الزروع ، والأمطار غزيرة على مدار العام ، وأشجار الأخشاب لا يخلو منها موضع . وهذه الجبال غنية بالفحم ، وقد رأيت بعضها

عند مَيِيرس ، والكثير منها حول سنتاندر وبلباو ، وهناك أيضاً مناجم الحديد شمالى خِيخُون عند بلدة أبِلِيس . والفحم والحديد إذا اجتمعا فى موضع كهذا نشأت الصناعة ونبت معها الرخاء والتقدم ، ومن هنا فإننا نجد هذه المناطق أعظم مناطق الصناعة الإسبانية ، والمصانع تمتد على مرمى البصر من سان سباستيان إلى حدود إقليم جليقية فى أقصى الغرب . وفى أبِلِيس ، شمالى خِيخُون ، أقام الإسبان أعظم مصاهر الحديد والصلب ومصانعهما ، وهى مصانع جديرة بالزيارة .

وكل ما تراه فى هذه المدن جميعاً ينم عن تقدم بعيد ورخاء وارف : مدن ذات مبان سامقة شاهقة ، وقرى عامرة تتحدث بيوتها بالخير والنعمة ، وطرق كثيرة متقنة التخطيط والتنسيق ، وسكك حديدية تجرى فى السهل حيناً وعلى قناطر تروع النفس بعلوها حيناً آخر . حتى الجرائد التى تصدر هناك ضخمة غزيرة المادة مثل صحف أى بلد أوروبى غنى ، وإنه لما يستوقف نظرك أنك تخرج من بلد كأنه قرية صغيرة هو ليون ، تصدر فيه جريدة صغيرة إقليمية الهيئة والمادة هى « إلْ دْيَارْيُودِلِيُون » فلا تعبر ممر بَخارِس حتى تجد نفسك فى أوفييدو فى بلد صناعى حديث كأنه فى ألمانيا أو سويسرا ، تصدر فيه جريدة ضخمة من عشرين ورقة هى « رِخيُون » ، تحمل إليك أخبار الدنيا ومادة ثقافية غزيرة .

ويسايرك هذا الجو المشرق فى اتجاهك إلى الغرب فى إقليم جليقية (جاليثيا) ، وهو الركن الشمالى من شبه الجزيرة ، وهو يضم أربع مديريات تحمل كل منها اسم عاصمتها ، وهى : لوجو (يسميها العرب لُك) ، وكورونيا (يسميها العرب كُرُنّة) ، وأورينسى وپونتڤيدرا ، وليس لهما اسمان فى جغرافيتنا العربية .

وهى فى مجموعها ولايات بحرية شواطئها كثيرة الفُرَض والخلجان العميقة التى تشبه فيوردات النرويج ، وأهلها يعيشون على الزراعة وتربية الماشية

وصيد السمك وبناء السفن . وأكبر دور صناعة السفن هناك فى بلدة الفرُّول إلى شمال كورونيا، وهي مسقط رأس الخنراليسيمو (أي القائد الأعلى) فرانثيسكو فرانكو باهاموندِ قائد الثورة على الشيوعية في اسبانيا فيها بين سنتي ١٩٣٣و١٩٣٦ وهو دون شك من أكبر بناة اسبانيا في العصور الحديثة، ولهذا فهي تسمى اليوم فيرُّول دل كاودِيُّو (فيرول الزعيم)، وكان أبوه ضابطاً بحرياً.

وتستوقف نظرك هناك كثرة الأنهار ومجاري المياه، والأنهار هناك ـ على صغرها ـ ليست وديان حجارة أو رمل كما في وسط إسبانيا وجنوبها وإنما هي أنهار متدفقة بالماء والخير. ومدينة كورونيا عاصمة مديرية كورونيا نموذج لبلاد جليقية كلها، فهي قائمة على رأس ممتد في البحر والماء يحيط بها من ثلاث جهات، تسترعى نظرك فيها واجهات البيوت المطلة على البحر وخلجانه، تبدو لك من بعيد وكأنها رخام أبيض.

وإلى جنوبي مديرية كورونيا تقع مديرية ڤيجو وتمتد إلى حدود البرتغال، والفاصل بين إسبانيا والبرتغال هناك مجرى نهر المِنْيو، والمدخل إلى البرتغال من هناك عند مدينة تُوىْ، وهي مشهورة في تاريخنا باسم راهب كتب مدونة صغيرة عن تاريخ إسبانيا على أيامنا سماها «تاريخ العالم» هو لوقا التُّودِي، طالما أضعنا الوقت في تحقيق دعاواه. وبعد تُوىْ بقليل تعبر قنطرة حديدية جميلة، في وسطها تماماً تقرأ لافتة صغيرة تنبهك إلى أنك تنتقل عندها من إسبانيا إلى البرتغال.

بيد أن أشهر بلاد جليقية في الدنيا هي سنتياجو دي كومپوستيلا في مديرية كورونيا.

تناقل أهل هذه الناحية من قديم الزمن أسطورة تقول إن يعقوب الحواري كان جوّالاً مبشراً بالمسيحية لا يكل عن المسير: كان قد نذر لله أن يسير في تجواله إلى أقصى المعمور، فيقال إنه دخل إسبانيا قادماً من غالة ـ وهي فرنسا ـ وسار حتى بلغ ساحل المحيط، وهناك مات ودفن في موضع لم يعرف.

وهناك من يقول إن هيرود ملك اليهود قتله فى فلسطين ، فحمل تلاميذه جثته وعبروا البحر ، وتقاذفت الرياح سفينتهم حتى خرجت بها إلى المحيط ، ثم انحرفت بها حتى استقرت عند شاطئ جليقية عند كُرُنَّة (كورونيا) وهناك دفن فى موضع قريب منها . وفى سنة ٨٣٥ زعم أحد القسس أن نجماً ظهر له فى السماء وأن هاتفاً هتف به فى نومه أن قبر يعقوب عند موقع هذا النجم على الأرض ، فحفر فعثر على رفات الشهيد ، فاحتفل الناس بذلك احتفالا عظيما ، وسمى الموضع مرج النجم (كامْپُو سْتِيلِّى) وأنشأوا كنيسة قامت حولها مدينة ، وتلك هى شنت ياقُب (سنتياجو) دِكامپوستيلا أو كومپوستيلا ، قدس من الأقداس المعروفة فى عالم المسيحية .

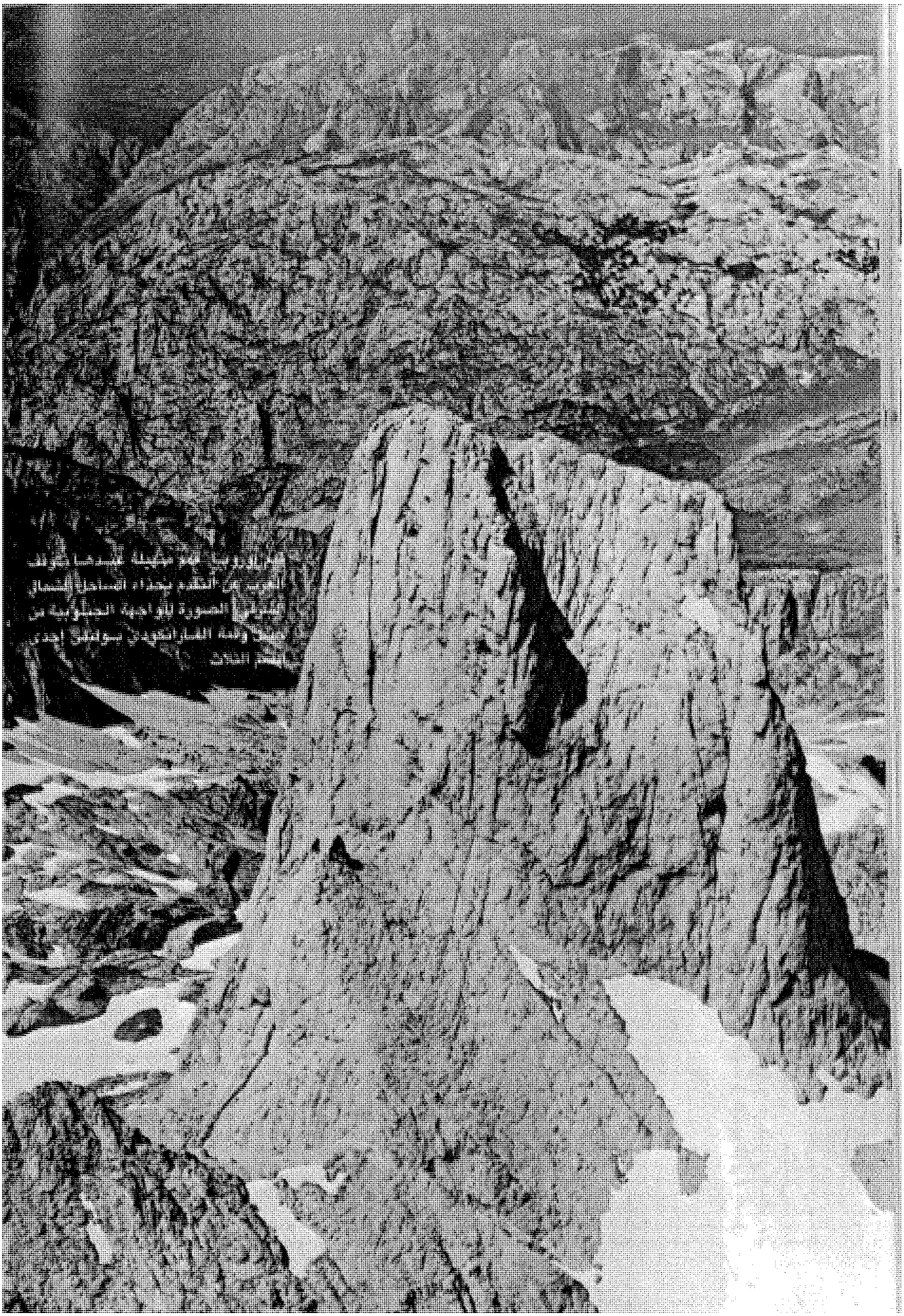
إلى قبر يعقوب فى شَنت ياقُب وإلى كنيسته بها أخذ الناس طريق الحج من شتى نواحى المسيحية ، ومن جنوب فرَنسا بصفة خاصة ، ونشأ طريق حج لم يلبث أن أصبح طريق تجارة وحضارة . وهو يمر من ممرات البُرت (البرانس) الغربية إلى بلدة جاقة (اليوم : خاكا) ، ويسير محاذياً شاطئ بِسْكايُه حتى يصل إلى سنتياجو ، وكان على طول العصور الوسطى من أعمر الطرق بالسُّفّار .

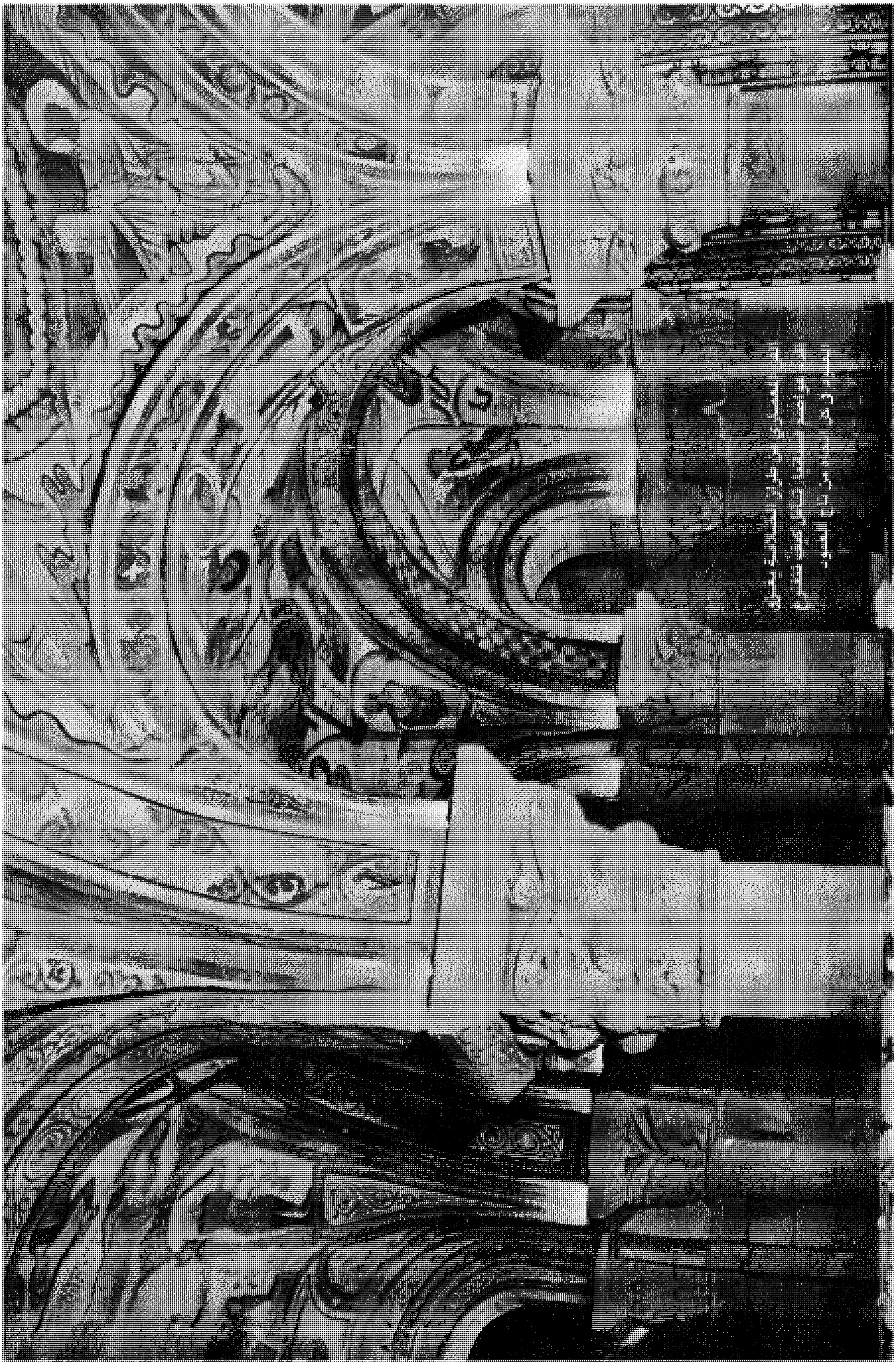
هذه الناحية القاصية كانت فى الواقع من أكثر النواحى صلة بأوروبا وعالم المسيحية ، ذلك يفسر لنا اتجاه أهلها إلى أوروبا والغرب ، واعتبارهما أقرب إليهم من قرطبة وعالم الإسلام الأندلسى .

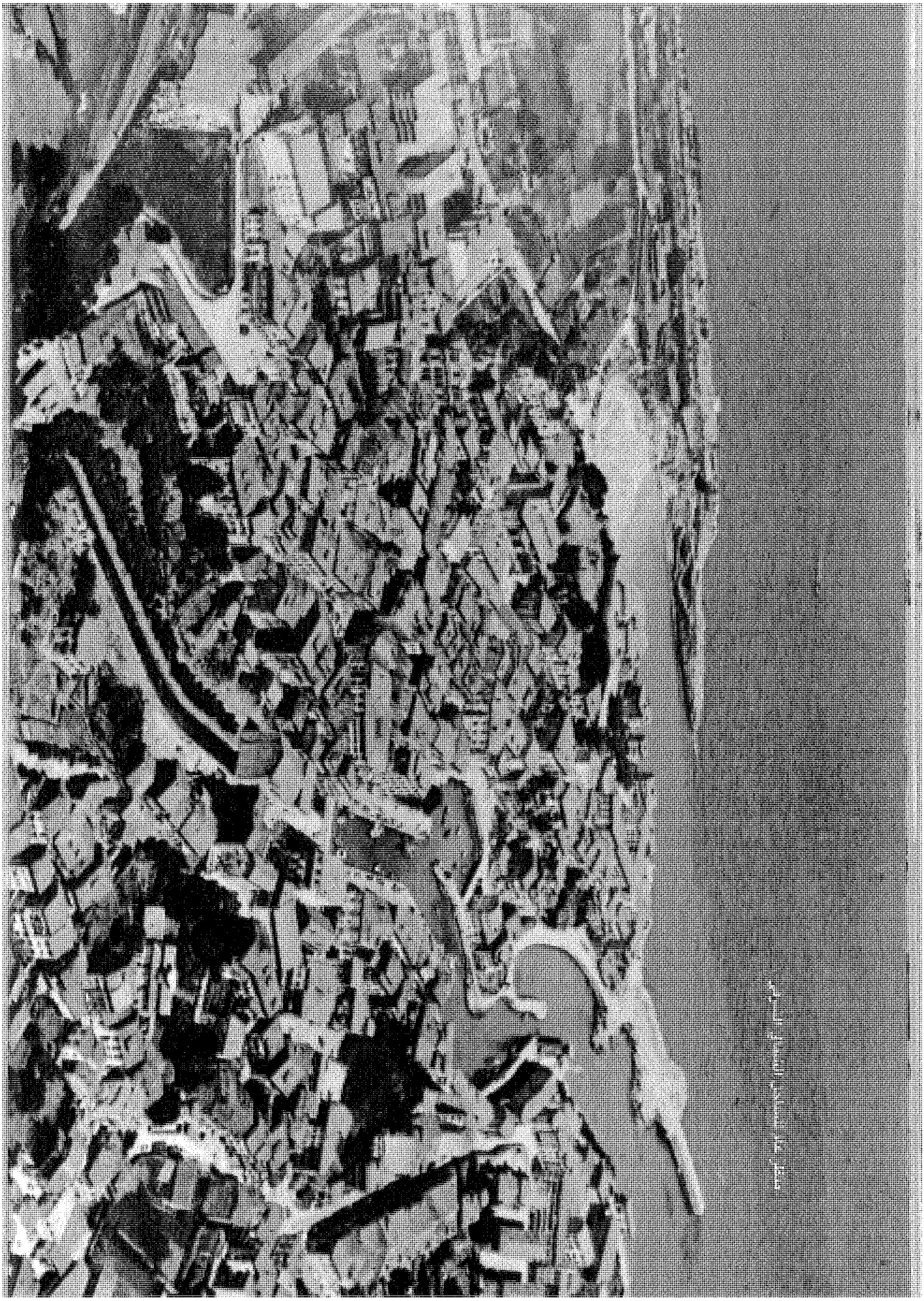
فإذا أضفنـــا إلى ذلك أن الحرب الدائمة بينهم وبين المسلمين أيقظت إحساسهم الدينى باستمرار ، وزادتهم تعلقاً بالمسيحية وغرب أوروبا ، اكتملت لنا الأسباب التى نهضت بإمارة أشتريس وبعثت فيها الحياة ، وجعلتها أكثر من ركن سحيق فى شبه الجزيرة . وفى أيام أحد أمراء أشتريس — المسمى أرْدُنيو الأول — بلغت من القوة والاستقرار ما مكن لها من الانتقال إلى ليون واتخاذها عاصمة لها ، وتلقب أُردنيو بلقب الملك ، وقد سميت المملكة أولا مملكة أشتريس وجِلِّيقِيَّة وليون ، ثم مملكة ليون فحسب .



عندما عبر العرب سلسلة الجبال الكنتبرية واقتربوا من سواحل
شبه الجزيرة الشمالي عند بسكاية شعروا أن هذا آخر الرحلة
وعندما عبروا هذه القنطرة الرومانية في طريقهم إلى قنجاس دي
أونيس كانت تلك آخر قنطرة عبروها في تقدمهم الذي لا يصدق.


الصورة الواجهة الجليدية من





ذلك هو تاريخ نشوء هذه المملكة ، التى استطاعت بعد تطورات كثيرة أن تتوسع حتى تستولى على قشتالة القديمة فسميت مملكة قشتالة وليون ، ثم مملكة قشتالة فقط ، ثم اتحدت مع مملكة أرغون ، ثم وحدت أجزاء شبه الجزيرة كلها — عدا البرتغال — بعد حرب طويلة مع جيرانها ومع المسلمين .

* * *

وها أنت الآن فى هذه المنطقة الحافلة بالتاريخ وعِبَره . إنها الآن منطقة عامرة بالمدن القديمة اسماً الحديثة شكلا . فقد تجددت كلها ونفضت عن نفسها غبار التاريخ ، فلم تبق من معالم الماضى إلا الكنائس والآثار ومواضع الذكريات ، وأنت لن تجد فيها الآن من آثار العرب شيئاً ، فقد زالت وأزيلت ، وسواء أكنت فى ليون أو أشْتُرْقة أو لُكْ أو خِيخُون أو سنتياجو ، فأنت فى بلاد أوروبية زاهرة .

وفى طريق العودة إلى أُبيط (أوڤييدو) تستوقف نظرك خضرة المراعى والمروج وكثرة الأشجار . هنا تشعر أن هذه المنطقة ليست ماحلة كما تزعم النصوص ، وأنها فى الواقع جنة وارفة الظلال . فإذا وصلنا إلى البلد وجدناه بلداً حديثاً باسماً تزينه الحدائق والأشجــار ، وهو — ككل بلاد هذه الناحية — كثير الكنائس والمزارات ، وكاتدرائيته عظيمة ضخمة من الطراز القوطى المتأخر ، فقد بنيت فى القرن الرابع عشر . وإلى شمال أوڤييدو على ساحل البحر تجد أكبر وأحدث مصانع الحديد ومصاهره فى إسبانيا : مصانع أبِلِس .

ومن أبيط نتجه غرباً حتى نصل إلى لوجو (لُكْ) قاعدة مديرية غنية ، ومنها إلى شَنت ياقُب (سانتياجو) فى مديرية كورونيا ، وقد حدثناك عن قداسة كنيستها ومقامها . لم يصل إلى هذا الركن من الفاتحين المسلمين إلا المنصور بن أبى عامر ، وصل إليها فى غزوته المشهورة فى كتبنا باسم غزاة شنت ياقب فى جمادى الثانية ٣٨٧ / يوليه ٩٩٧ واقتحمها وهدم أسوارها ،

ووصل إلى قبر الحوارى ،فلم يجد إلا راهباً جاثياً يصلى ، فسأله لماذا لم يفر مع الفارين ، فقال : أونس ياقب ! فرق له الفاتح الكبير وتركه وأمر رجاله بألا يتعرضوا له ، وأخذ أبواب الكنيسة وحملها معه إلى قرطبة حيث جعلها أبواباً للزيادة التى أضافها إلى مسجدها الجامع .

ولعل أجمل فندق تنزله بإسبانيا هو المعروف بنزل الملكين الكاثوليكيين (أوستال دِ لوس رِييس كاتوليكوس) فى شنت ياقب . كان أصله منزلا لفرناندو وإيزابيلا ، ثم أصبح ديراً ، ثم عادوا إليه الآن فجعلوا منه فندقاً سياحياً لا ينزل به أحد إلا تحدث عنه .

وكنائس شنت ياقب كثيرة متنوعة الطراز ، وأعظمها الكاتدرائية. وهى صرح هائل يعتبر من أضخم الكنائس المسيحية فى الدنيا ، وهى من طراز النهضة ذات برجين عظيمين ، بينهما المدخل وهو فى ذاته عال كأنه برج ثالث ، وفى سرداب تحت الكنيسة تجد قبر شنت ياقب .

وفى طريق العودة جنوباً نقف قليلا عند پُنْتَـْفيدْرا ، وهى ميناء كبير ، ثم نتجه شرقاً فنمر بأورِنْسى ، قاعدة المديرية المنسوبة إليها. ومن هنا يمكن أن نأخذ الطريق إلى البرتغال ، ولكننا نفضل أن نتجه شرقاً بجنوب حتى نزور بلدة ثامورا ، وهى بلد عتيق مشهور فى النصوص العربية باسم سَمُّورة ، وقد تداولته أيدى المسلمين والنصارى زمناً طويلا حتى سماه العرب سمورة الخراب لكثرة ما خربه هؤلاء وأولئك ، وآخر من غزاه من المسلمين المنصور بن أبى عامر ، فقد استولى عليه سنة ٣٧١ / ٩٨١ . وسمورة على نهر دُوِيرُه ،وتبعد عن حدود البرتغال بستة وستين كيلومتراً .

البرتغال : خاتمة المطاف

البرتغال من أصغر بلاد أوروبا ، ولكن أهلها من أعنف الأوروبيين وأشدهم ضراوة وقدرة على ركوب البحر . وخلال القرن السادس عشر ، عندما قبس الأوروبيون صناعة البارود من الصين وصنعوا أسلحته ، كان البرتغاليون ، وهذا السلاح الرهيب بأيديهم ، بلاءً مسلطاً على ما وصلوا إليه من بلاد إفريقية وآسيا ، ما نزلوا موضعاً إلا عَنُفوا بأهله ونهبوهم وأحرقوا مدنهم ، وخاصة إذا كان هذا البلد إسلامياً .

وتاريخ الحرب بين البرتغال والمغرب تاريخ طويل حافل بالمآسى ، ولم يوقف أذاهم عنه ويقطع رجلهم منه إلا هزيمتهم الساحقة فى موقعة وادى المخازن على مقربة من العرايش فى شمال المغرب فى ٤ أغسطس ١٥٧٨ ، فقد قتل منهم فى هذه المعركة ٨٠٠٠ رجل من بينهم مَلِكهم سباستيان . نعم بقيت لهم بضعة مراكز على شاطئ المغرب ، ولكن خطرهم على هذا القطر العربى تلاشى من ذلك الحين .

وقد نشأت البرتغال على أيام المسلمين ، كان الساحل الغربى من شبه الجزيرة يسمى عند الرومان لُوزيتانيا (لُشْدانية فى النصوص العربية) وقد استولى عليه المسلمون أول أيام الفتح ، فتح بعضه موسى بن نصير وأتم الفتح ابنه عبد العزيز بن موسى . ثم خرج ما يلى نهر الدُّوِيرُه شمالا من أيديهم

خلال السنوات التى تلت الفتح كما ذكرنا ، ولكن المسلمين ثبتوا هناك عند نهر دويره . وقد قسموا ما يعرف بالبرتغال إلى كُوَر (مديريات)هى ، من الشمال إلى الجنوب : قُلُمْرِيَة (كُويِمْبْرَا) وشَنْتَرِين (سانتارِم) والأشبونة (لِشْبُوَا) وباجة (بيجا) وأكْشُونُبَة فى أقصى الجنوب . وكانت عناية الأمراء والخلفاء عظيمة بالأشبونة وميناءها ودار الصناعة بها ، فقد كانت مركز الأسطول العربى الذى يحمى سواحلهم الغربية .

وقد ضعف الحكم الإسلامى فى هذه النواحى عقب زوال الخلافة القرطبية وقيام ملوك الطوائف ، وكانت هذه الناحية الغربية من أضعف جبهات الأندلس الإسلامى نظراً لأن الإمارتين الأندلسيتين اللتين قامتا هناك — وهما بَطَلْيَوْس وإشبيلية — صرفتا جهدهما فى الحرب بين بعضهما البعض بدلا من جمع الكلمة لحرب العدو المشترك . وكانت النتيجة أن زحف العدو جنوباً حتى وصل إلى نهر تاجُه ، وهدد بلاداً إسلامية كبرى مثل شَنْتَرِين والأشبونة وقُلُمْرِيَة . ويصور لنا أبو الحسن على بن بسام الشنترينى (وهو من البرتغال) فى كتابه « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » أحوال هذه الناحية فى هذه الفترة (النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) أصدق تصوير .

ولولا أن المرابطين تداركوا الأمر بعبورهم إلى الأندلس والتصدى للزحف النصرانى لضاعت هذه البلاد من زمن مبكر . وقد أوقف يوسف بن تاشفين هذا الزحف بانتصاره فى معركة الزّلاّقة قرب بطليوس عند حدود البرتغال سنة ٤٧٨ / ١٠٨٦ . وكانت للموحدين عناية خاصة بهذا الجناح الغربى للأندلس ، وقد قضى خليفتهم الثانى أبو يعقوب يوسف وابنه وخليفته أبو يوسف يعقوب المنصور خير سنى حياتهم محاولين إنقاذ غرب الأندلس ، وبعد أيام يعقوب المنصور بدأت قواعد الغرب تسقط فى شبه تصفية سريعة ابتداءً من سنة ١٢٢٠ .

وقد نشأت البرتغال ولايةً تابعة لمملكة لِيُون وقَشْتالة فى النواحى الشمالية

الغربية التى استغلبت من زمن مبكر ، وكانت تلك النواحى تعرف باسم تيرّاى پورتوكاليس ، نسبة إلى ميناء پورتوس كالى المعروف اليوم باسم أپورتو ، وكان هذا الاسم يطلق على المنطقة الواقعة بين نهرى المنْيُو ودويره (يسمى فى البرتغال : دورو) ، ثم اختصر الاسم إلى پورتوكال أو پورتوجال. وامتد الاسم حتى شمل المنطقة الواقعة بين نهرى دورو وتاجُه ، ثم من تاجه إلى البحر الأبيض تبعاً لسير الحرب بين المسلمين والنصارى فى إسبانيا .

كانت البرتغال من أول القرن العاشر الميلادى كونتية وراثية تابعة لمملكة ليون . ومن أوائل القرن الثانى عشر طمح أكناد البرتغال إلى الاستقلال عن إسبانيا ، وتولى ذلك منهم ألفونسو إنريكى المعروف فى نصوصنا العربية باسم ابن الرِّيق (وهو تحريف لابن إنريكى) فقد انتصر على الإسبان وردهم عن بلاده ، وأخذ يتقدم إلى الجنوب موسعاً رقعة بلاده على حساب المسلمين . وفى سنة ١١٤٠ نادى بنفسه ملكاً ، واعترف له ملك ليون وقشتالة بهذا الاستقلال سنة ١١٤٣ . ومن ذلك الحين ، وخلال حروب طويلة مع الإسبان والمسلمين ، استمرت البرتغال فى طريقها وحافظت على حدودها الحالية تقريباً ، رغم نجاح إسبانيا فى القضاء على استقلالها وضمها إلى أراضيها أكثر من مرة .

وقد يحسب الإنسان أن البرتغال لم تكن إسلامية بالقدر الذى كانت به إسبانيا ، وذلك بسبب قلة الآثار المعمارية التى نجدها هناك . والحقيقة أن المسلمين ظلوا فى جنوب البرتغال حتى أواخر القرن الثالث عشر ، ولكن البرتغاليين ، بعنفهم المعروف ، كانوا لا يستولون على بلد إلا محوا آثار المسلمين منه محواً . بيد أن زائر البرتغال اليوم يرى من آثار الفترة الإسلامية شيئاً كثيراً فى عادات الناس وملابسهم وتقاليدهم ، وخاصة فى الجنوب .

* * *

وقفنا بالرحلة عند حدود البرتغال مقبلين من سَمُّورة . .

فلنعبر الحدود عند بلدة ميراندا على نهر دورو . النهر هنا يجرى فى سهل ضيق بين المرتفعات ، ونفضى إلى مديرية تْرَاسْ اُوسْ مُونْتِس (خلف الجبال) ونسير بحذاء نهر دويره حتى مصبه عند بلدة پورتو ، وهنا نلقى أول بلد فيه شىء من الآثار الإسلامية ، فبعض قطع من سوره عربية .

ثم ننحدر إلى الجنوب مخترقين مديرية بِيرا ألْتا حتى نصل إلى مصب نهر صغير يسمى الموندجو ، ويسميه العرب مُنْدِيق ، وعلى مصبه قُلُمْرِيَة (كويمْبرا) ، وكانت بلدة إسلامية عظيمة تحدث عنها ياقوت والإدريسى ، ولم يبق فيها من آثارنا شىء .

وبعد قلمرية بسبعين كيلومتراً تلقاك بلدة لِيرْيَة ، بلدة جميلة ظاهرة الغنى ككل بلاد البرتغال الواقعة على هذا الطريق ، الذى يشبه أن يكون عموداً فقرياً ينتظم أهم ما فيها من مدن وموان ومظاهر عمران . ولكن ليرية لا زالت تحمل طابع العصور الوسطى فى قلعتها وحصونها ، مثلها فى ذلك مثل قلمرية .

والناحية كلها حافلة بذكريات التاريخ ، فإلى جانب ما خلفه العرب فيها من آثار ، لا زال الكثير من أسماء البلاد يحمل اسمه العربى ، مثل : الناصرة (نازارِ)، البَيَازِرَة (القَيَازِرِ)، الحَيْزَرُون (الفايزايرو)، بَرْزِيَّة (ڤارزيا) القُلَيعة أو قلعة باصة (الكوباثا) ، الجُبَيْرات (الجوباريتّا) ، فاطمة (فاتِما) . .

وقد شهدت الجبيرات أعظم المعارك أثراً فى تاريخ البرتغال ، ففى ١٥ أغسطس سنة ١٣٨٥ التقت جيوش إسبانيا التى أرسلها الملك خوان الأول لتقضى على استقلال البرتغال ، بجيش برتغالى يؤيده مدد إنجليزى كبير ، وانهزم الإسبان هزيمة ردت مطامعهم عن البرتغال من ذلك الحين ، فثبت استقلال البرتغال بفضل ذلك التأييد الإنجليزى .

ومن ذلك الحين أيضاً أصبحت البرتغال أشبه بحماية إنجليزية ، تسير فى ركاب إنجلترا وتخضع لمشيئتها وتفتح موانيها للأسطول الإنجليزى كأنها موان إنجليزية.

وعندما بدأ التسابق بين إسبانيا والبرتغال فى ميدان الكشف الجغرافى — بعد ذلك بقرن ونصف قرن تقريباً — وقفت إنجلترا تؤيد البرتغال ، وأيدتها أيضاً فى دعواها فيما يعرف اليوم بالبرازيل من بلاد أمريكا الجنوبية . وقد حافظت البرتغال على مستعمرتى أنجولا وموزمبيق ، وهما فى الحقيقة مستعمرتان إنجليزيتان ، أبقتهما إنجلترا فى يد البرتغال اسماً لتحمى لها مستعمراتها فى جنوب إفريقية ووسطها ، حتى تم استقلالهما عن البرتغال في اوائل السبعينات .

وقد خلد البرتغاليون هذا النصر بكنيسة ضخمة قوطية الطراز أقاموها فى بلدة باتايّا (الموقعة) جنوبى لبرية ، وهى ليست بكنيسة على الحقيقة ولكنها ضريح هائل فى هيئة كنيسة ، فى إحدى قاعاته يقوم قبر الجندى البرتغالى المجهول .

وإلى شرق باتايا ببضعة كيلومترات تقع قرية فاطمة ، ولم تكن إلى أوائل هذا القرن إلا إحدى القرى الصغيرة فى مديرية شنترين (سانتارم) ، ولكن الحظ أراد لها أن تصبح من أشهر مدن الدنيا ومزاراتها الدينية . ففى يوم من أيام سبتمبر سنة ١٩١٧ كان ثلاثة أطفال يلعبون فى موضع قرب البلد يعرف باسم كوڤا دى إيريا ، وكان أحدهم مريضاً ، فظهرت لهم السيدة العذراء — فيما قالوا — وباركتهم ودعت للمريض بالشفاء ، فشفى فى الحال .

وأسرع الأطفال إلى القرية يحملون النبأ ، ودهش الناس لهذه العجيبة ، وتسارعوا إلى الموضع الذى ظهرت فيه السيدة العذراء ، وأخذ المرضى منهم يبتهلون إليها أن تظهر وتمنحهم الشفاء والبركة ، فظهرت لبعضهم فى المنام ومنحته الشفاء . واستطار الخبر فى نواحى البرتغال ، ثم فى نواحى العالم ، فتقاطر الناس إلى « فاطمة » يلتمسون بركات عذرائها كما يتقاطرون على قرية لُورْد فى جنوب فرنسا .

وأيدت كنيسة البرتغال ذلك ، وما أسرع ما اجتمع الأحبار وأخذوا يدرسون أمثل السبل لتحويل هذا الموضع إلى مزار كاثوليكى . فاعتبروا

المكان الذى قال الأولاد إن السيدة العذراء ظهرت فيه حرماً ، وأقاموا فيه تمثالا للسيدة العذراء من الذهب الخالص نصبوه على قاعدة عالية ، وبنوا كنيسة عظيمة فى صدر الموضع ، وأحاطوا مساحة شاسعة حوله بمصليات وأعمدة ، حتى أصبح المكان كأنه حرم واسع . وفى الثالث عشر من كل شهر يتجمع الألوف فى الحرم الفسيح حول تمثال السيدة العذراء ، ويقام قداس وتُمنح البركة للمصلين . ثم نشأت إلى غرب الميدان مدينة سياحية لطيفة ، فيها فنادق ومقاه ونُزّه شتى .

وإن الإنسان ليملكه العجب حين يتأمل النظام الذى وضعته الكنيسة لحفلات القداس ومنح البركة والشفاء التى تقام فى « فاطمة » فى الثالث عشر من كل شهر ، وخاصة شهرى مايو وأكتوبر .

إنه إخراج فنى كامل لا تنقصه إلا عدسة الكاميرا ليصبح فيلما مشوقاً : فى صدر الكنيسة منصة ذات درجات فرشت بالبسط الحمراء ، ومن خلفها ستائر من المخمل الأحمر والأزرق ، وعلى كراسى مذهبة مخملُها أحمر رُمّانى يجلس أساقفة يرفلون فى طيالس حمراء وعلى رؤوسهم قلانس صغيرة حمراء فى هيئة التيجان ، وفى وسطهم يجلس المطران وفوقه مظلة حمراء أطرافها مزركشة بالذهب . .

وتعزف الأراغن أنغاماً كنسية تخفت شيئاً فشيئاً ليرتفع صوت المطران بالصلاة وقد غمره ضوء مسلط من مصابيح كهربائية ضخمة ، وصوته ينتقل بمكبرات غير منظورة إلى خارج الكنيسة ، ويتردد فى آذان الألوف الذين يغص بهم الميدان الفسيح وأنظارهم مثبتة فى التمثال الذهبى للسيدة البتول .

وعلى يسار الميدان — أمام مصلى صغير — يجلس ١٨ قساً فى طيالس بيضاء مزركشة بالذهب وعلى رؤوسهم تيجان تشبه تاج الوجهين الذى يزين رؤوس الفراعنة ، وهم يقومون ويقعدون ويقولون أشياء وفق نظام مرسوم .

وبعد هذا المشهد العجيب يبدأ الناس فى الانصراف وكل عليل يتحسس

موضع العلة ليرى إذا كانت قد زالت ، ومن أتى ليدعو لمريض أقعده المرض يسرع إليه ليسأل إن كانت بركة الصلاة قد حلت به وجاءه الشفاء . .

واعترفت الكنيسة الكاثوليكية بمعجزة عذراء فاطمة فى خطاب وجهه البابا إلى البرتغاليين سنة ١٩٤٢ . وصنع الأحبار صوراً لتمثال عذراء فاطمة ومضوا يطوفون بها فى نواحى العالم يمنحون الناس البركة ويجمعون التبرعات باسمها .

وما أغرب أمر التاريخ ! قرية خافية من قرى البرتغال ، تحمل اسم المباركة فاطمة الزهراء عترة سلالة المصطفى صلوات الله عليه ، تتحول ببركة الاسم الشريف إلى مَحَجٍّ ومَشْفًى للناس ! ويصبح أبرك على البرتغال وأشهر فى نواحى الدنيا من أى مكان فى ذلك البلد الذى يزعم أهله أن المسلمين لم يخلفوا فيه أثراً !

والبرتغال في مجموعها بلد فقير، رغم ما يملك من كان يملك مستعمرات وما يتسغل من خيرات الآخرين، وكانت قبل أن يتولى أمرها ألفيرو سالازار أفقر بلاد أوروبا وأشدها تأخراً. وقد تقدمت وتلاشت معظم آثار الفقر فيها خلال السنوات الأخيرة، ولكنك تلمح آثاره في كثرة المتسولين، وتراه رأى العين إذا تجولت في نواحي شرق البرتغال وخاصة ما يعرف منه باسم أستريموث، وهي مديرية تعتبر استمراراً لمنطقة أستريما دورا في إسبانيا، هذا على رغم ما ترى على طول الطريق من الشمال إلى الجنوب من أراض خضراء عامرة بالزرع وغابات متشابكة تمتد على اليمين والشمال. وقد تغير كل شيء في البرتغال بعد موت الطاغية سالازار، فبعد موته بقليل قامت الثورة على الطغيان والاستبداد، ومال الكثيرون من البرتغاليين إلى الشيوعية. ولكن الأمور اعتدلت وقامت دولة الديموقراطية في البلاد.

وليس في أوروبا شعب مغلق على نفسه، تستبد به الأنانية، كشعب البرتغال. حتى لغتهم ثقيلة على اللسان لا يستطيع نطقها على صحتها إلا أهلها وسلائلهم في البرازيل. ومن أظهر نتائج ذلك الانطواء تزاوج

البرتغاليين فيما بينهم دون أن يختلطوا بأحد، ولحرصهم على ذلك ضعف النسل وشاهت الوجوه، وإنك لتقطع البرتغال من شمال لجنوب فما تصادف عيناك وجهاً يشرق فيه شيء من وسامة أو جمال إلا في النادر، وليست هذه بملاحظة من عندي، ولكنها متواردة في كتابات كل من زار هذا البلد.

ونواصل سيرنا حتى شَنْتَرِين (سانتارم) البلد الذى أنجب لنا ابن بسام الشنترينى الكاتب المؤرخ المعروف ، وشنترين حصن منيع خرج من أيدينا سنة ٥٤٢ / ١١٤٧ وحاولنا استرداده على يد أبى يعقوب يوسف ثانى خلفاء الموحدين ، ولكنه مرض أثناء حصارها ، واضطر إلى العودة إلى إشبيلية ، فمات فى الطريق ، وقد بقيت من آثارنا هناك قطع من السور القديم .

وقبل أن نصل إلى لشبونة (الأشبونة ، لِسْبُوَا) نلتقى بضاحية من ضواحيها تسمى سِينْتْرَا (شِنْتَرَة)على سفح جبل مرتفع ، وكانت حصونها مشهورة بمناعتها على أيامنا ، ولا زال فيها حصن عربى أندلسى الطراز معروف باسم الحصن العربى (كاستيلّو مورو) إلى الآن ، وهو يشرف على البلد من أعلى الجبل ، ونظن أنه يرجع إلى العصر الموحدى ، ولم نر فى أطلاله شيئاً ينبئ عن تاريخه ، حتى مسجده لم تبق منه إلا خرائب .

وعند قاعدة الجبل مبنى يسمى قصر الحراسة الوطنى (پلاثيو ناثونال دى ڤيلا) أنشأوه بعد أيامنا على الطراز العربىالمُدَجَّنى ، ومن هنا مشابهته الواضحة لقصر إشبيلية فى بعض أجزائه .

فإذا وصلنا إلى الأشبونة وجدنا بلداً لا زال قسمه الشرقى يسمى باسم عربى : ألْفَاما محرف للفظ الحامَّة أوالحَمَّة ، وهو الموضع الذى توجدفيه عين ماء حارة .

وهذا الحى كما ترى وتشعر عربى صرف .

ولا شك أن أهله كانوا فى أوائل القرن الخامس عشر لا يزالون عرباً ، وبين ظهرانيهم عاش ڤاسكو دا جاما أكبر ملاح فى تاريخ البرتغال . .

إنه هو الذى وصل إلى رأس الرجاء الصالح ، ودار حوله وصعد إلى موزمبيق ثم إلى دار السلام . .

ومن هناك قاده بحارنا العربى أحمد بن ماجد إلى الهند . .

فيما مر بك بينّا فضلنا على كريستوف كولومبوس . .

وهنا ترى فضلنا على ڤاسكو دا جاما . .

من ناحية أخذنا بيد ملاح إيطالى دخل فى خدمة ملوك إسبانيا ومضينا به إلى العالم الجديد . .

ومن ناحية أخرى أخذنا بيد ملاح برتغالى ، هو دون شك من سلالتنا ، ووصلنا به إلى الهند . .

بعِلمنا رُفعت رايات العصر الحديث ، وعلى نورنا فُتحت أبواب الكشف الجغرافى العظيم . .

ولعلك وأنت تسلك فى شوارع ألفاما الصغيرة تسمع نغماً من ذلك الغناء البرتغالى الذى اشتهرت به البرتغال فى العالم أجمع . .

إنه غناء حزين هادئ ، يخيل إليك أن منشده يهمس به إلى نفسه وقد انحنى على القيثارة يبثها أشجانه . .

يسمونه الفادُو . .

والفادو تحريف للفظ عربى أنت تعرفه : الحَدْو ، أى الحداء . .

هذا هو حداء بدونا ، عبر البحار والعصور ووصل إلينا فى غلاف برتغـــالى . .

فى إسبانيا لا يزالون يتغنون بأنغامنا ، وكل ما تسمعه هناك من الغناء الأندلسى الذى يسمونه الفلامنكو — بشتّى أنواعه — إنما هو غناء أجدادنا فى أيام مضت كما تمضى كل الأيام . .

وعلى ساحل الأطلسى يرددون حداء أهل بَوادينا . .

ثم يتعجبون إذا تحدث متحدثنا عن عالمنا الذى يمتد من الخليج إلى المحيط !

ويقوم حى الفاما على ربوة عالية ، وهو يشبه قصبات المدن المغربية بشوارعه الصغيرة الصاعدة الهابطة ، وبيوته ذات الرحبات . وعلى قمة الربوة أطلال الحصن الأندلسى الذى كان يقوم وسط القصبة ، إذا توسطتها خيل إليك أنك بين بعض أبراج الحمراء ، وقد رمموا هذه الأطلال وزرعوا أرضها بالخضرة ، فبدت فى بعض أجزائها وكأنها جديدة لم تمض عليها هذه الأحقاب .

ومن أسف أن البرتغاليين لم يدرسوا هذه الآثار العربية القائمة فى بلادهم — على قلتها — أو لم ينشروا ما درسوه ، إذا كانوا قد فعلوا . ولهذا فإننا لا نستطيع القطع بتاريخ هذا الأثر ، وإن كنت أرجح أنه يرجع إلى عصر الخلافة ، ثم رمم وجدد فى العصور التالية على نفس الأسس . فإن العقود مستديرة كعقود طراز الخلافة ، والجدران مصمتة عارية من الزينة ، والبناء كله فيه فحولة وبساطة اختفتا بعد عصر الخلافة ، ولم تظهر ملامح منهما إلا على أيام الموحدين ، وربما كان الترميم الباقى إلى اليوم من عمل أولئك الأخـــرين .

ومن هذا الحصن ترى أجمل منظر للأشبونة ، ولا شك أن الذين أنشأوه على قمة تل الحامّة (الفاما) راعوا ذلك ، فهو حصن وناظور يكشف البحر إلى مسافة بعيدة . وقد كان السور العربى ينحدر من هذا الحصن على سفح الجبل ويستمر فى السهل حتى يصل إلى ساحل البحر ، قال ابن عبد المنعم الحميرى فى « الروض المعطار » : « . . . وهى مدينة قديمة على سيف البحر ، تنكسر أمواجه على سورها ، واسمه قُودِيَة . وسورها رائق البنيان بديع الشان ، وبابها الغربى قد عقدت عليه حنايا فوق حنايا على عُمد رخام مثبتة على حجارة من رخام ، وهو أكبر أبوابها . ولها باب غربى أيضاً يسمى باب الخوخة ، مشرف على سَرْح فسيح يشقه جدولا ماء يصبان فى البحر ، ولها

باب قبلي يسمى باب البحر ، تدخل أمواج البحر فيه عند مَدّه ، وترتفع في سوره ثلاث قيَم (أى قامات) ، وباب شرقى يعرف بباب الحَمَّة (الفاما) ، والحمة — على مقربة منه ومن البحر — دَيْماس (أى صهريج) ماء حار وماء بارد ، فإذا مد البحر واراهما ، وباب شرقى أيضاً يعرف بباب المقبرة » .

وكانت الأشبونة أيام المسلمين قاعدة كورة عسكرية بحرية يتبعها عدد كبير من المدن مثل المعدن (حالياً : ألمادا) وشِنْتَرَة ، وبعد عصر الخلافة سميت منطقتها كلها إقليم البَلالِطة ، والغالب أن المراد بذلك إقليم البَلّوط ، وعلى مقربة منها — على نهر تاجُه — كان يقوم حصن عظيم يسمى بقصر أبى دانِس (الكاثر دو سال) وهو منسوب إلى قائد مَصمودى يسمى عَوسجة بن أبى دانس .

وقد كان لهذا الحصن دور عظيم فى الدفاع عن هذه الجبهة الغربية أيام الموحدين وبعدهم ، وارتبط اسمه باسم أسرة أندلسية من رجال الحرب والسياسة هى أسرة بنى وزير ، وقد تغلب عليها وأخرجها من يد المسلمين نهائياً ألفونسو إنريكى سنة ٥٤٢ / ١١٤٧ ، ولم يستطع التغلب عليها إلا بمعاونة طائفة من الصليبيين كانت عائدة من بيت المقدس يقودها فارس يسمى أرنولد ديرشوط ، وقد حاول الموحدون استردادها سنة ١١٨٤/٥٨٠ فحاصروها طويلا ثم ارتدوا عنها .

ومن الأشبونة نتجه إلى يابُرَه (إيبورا) ، مدينة كبيرة وقاعدة مديرية تحمل نفس الاسم . كانت على أيامنا تابعة لكورة باجة (بيجا) من مدن الغرب الأندلسى إذ ذاك ، وهى اليوم قاعدة مديرية ألينتيخو فى البرتغال .

إذا ذكرنا يابره ذكرنا أبا محمد عبد المجيد بن عبدون اليابُرى شاعرها الكبير ، وهو صاحب المرثية الطائرة الصيت التى تسمى بالقصيدة العبدونية أو رائية ابن عبدون ، ومطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثرِ   فما البكاءُ على الأطلالِ والصوَرِ

وهى مرثية طويلة ألف الناس عندنا الكتب فى شرحها والتعليق عليها ، وكل دارس للأدب العربى يعرف كتاب « سَرْح العيون فى شرح قصيدة ابن عبدون » لابن نُبَاتة . فى كتب تاريخ الأدب البرتغالى نجد اسم ابن عبدون كعلم من أعلام ذلك التاريخ .

ولعل صدى هذه القصيدة وذكرى ابن عبدون هما السبب فيما أشعر به إذا أقبلت على يابرة ، إننى أقبل عليها عادة من بَطَلْيَوْس (باداخوذ) فى إسبانيا . وبطليوس بلد كان عربياً لحماً ودماً ، نحن بنيناه ومدّنّاه وعشنا فيه قروناً كثيرة ، وقد زال أهله وزالت مساجده وحماماته وقصوره العربية ، ولكن الروح العربى يحوِّم فوقه ، كأنه هامة تحوم على قبر عزيز ، لم تبق منه إلا أطلال قصبته ومعالم قليلة أخرى . هذه المدن المتجاورة كلها : بطليوس وماردة وباجة ويابرة تحمل إلى الآن روح العصر الموحدى . كان عصراً حزيناً قصيراً فى الأندلس ، ما طلعت شمسه حتى غربت . بدأ بدءاً رائعاً بانتصار الأرْك على يد أبى يوسف يعقوب المنصور فى ١٥ جمادى الثانية ٥٩١ / ٢٧ مايو ١١٩٥ ، وآذنت شمسه بالمغيب بعد ١٧ عاماً قصيرة .

ففى العشرين من المحرم ٦٠٩ / ٢٢ يونيو ١٢١٢ خسر ابنُه محمد الناصر يوم العِقَاب (لاس ناڤاس دى تولوزا) . بعد ذلك مباشرة بدأت تصفية خط الوادى الكبير . كانت مدائن الغرب أول ما سقط ، اجتمع عليها ألفونسو إنريكى ملك البرتغال ، ثم فرناندو الثالث ملك قَشْتالة ولِيُون ، وألوف من الصليبيين الذين انهزموا فى المشرق وحملتهم السفن مع الهزيمة القاصمة إلى بلادهم . وفى طريقهم تسامعوا بالفرائس السهلة فى الأندلس ، فانقضوا فى حنق الهزيم الذى ذل أمام القوى ثم وجد فرصة ليعز أمام الضعيف . .

وعندما يخطر بالبال أن صلاح الدين العظيم كان معاصراً لأبى يوسف يعقوب المنصور كبير خلفاء الموحدين ، وأن هذين الاثنين كانا يستطيعان أن يتحدا على العدو المشترك . . عندما يذكر الإنسان ذلك يشعر بحسرة تملأ

النفس على الفرصة التي سنحت وتركناها تطير . لقد سعى لذلك صلاح الدين ، وأرسل سفيراً إلى المنصور يعرض عليه الاشتراك فى العمل ، وفتح المنصور خطاب صلاح الدين وقرأه . . ثم طواه ورده إلى السفير معتذراً عن عدم الاستجابة وقد بان فى وجهه الغضب : لقد أخطأ كاتب الخطاب فلم يخاطبه بأمير المؤمنين !

وضاعت فرصة الأبد . . .

هذا كله يدور فى ذهنى فى الطريق من بطليوس إلى يابرة ، وتلازمنى صور هذه القصبة الموحدية الباقية فى بطليوس ، ببرجها الذى يخيِّل إليك كأنك فى المغرب . إنها بناء واسع تفرقت أجزاؤه كأنما نثرتها يد الزمان ، وأظهر ما يبقى فى الذهن منها ذلك البرج الذى يشبه أن يكون نصباً أقيم للذكرى . وعندما أصل إلى يابرة ألتمس أخاه فلا أجده ، فإننى أعرف أن الموحدين أنشأوا فى بطليوس وباجه ويابرة ثلاث قصبات متشابهة ، أبراجها على طراز برج الذهب القائم على ضفة الوادى الكبير فى إشبيلية . لم يبق فى يابرة من آثار القصبة العظيمة إلا قطع من السور خافية بين المنازل ، ويزيد فى خفائها أنهم طلوها بالجير الأبيض حتى تأخذ هيئة مبانى المدينة ، وكلها بيضـــاء .

* * *

ومن يابرة نمضى إلى أختها باجة (بيجا) . أول ما يخطر على الذكر ونحن داخلون إليها ذكريات ما جرى فيها فى فترة القلق أثناء انتقال الغرب الإسلامى من أيدى المرابطين إلى أيدى الموحدين : هرج وخوف من اقتراب العدو ولا مدافع ، ونَفَرٌ من نهازى الفرص يجمع كل منهم عدداً من الفرسان حوله ويمضون يذرعون هذه النواحى ، وكل منهم يزعم أنه الأمير ، ولا أمير سواه : مشعبذون يدعون أنهم صوفية مريدون ، بغاث يزعمون أنهم نسور ، وقطاع طريق فى ملابس حماة الأمن والقانون . وفى أثناء ذلك يدخل العدو

شنترين ، ثم الأشبونة . ويزداد الروع . ثم يعبر أبو يعقوب بجيوشه ، فتقر القلوب فى مواضعها ، وعلى أبواب باجه يخرج الشيخ الجليل أبو القاسم ابن الجدّ يجر سبعين سنة من العلم والجلال ، فيعانق الخليفة الشاب الذى كان فى طريقه ليستخلص شنترين ، ويقول : أهلا بحبيبى وحبيب المسلمين . .

وها نحن فى باجه ، بلد الفقيه الجليل أبى الوليد الباجى ، هذا الرجل الطيب الذى ذهب إلى المشرق ليدرس دون أن يملك درهماً ، فكان يؤجر نفسه بواباً للبيوت ليعيش ويدرس ، ثم عاد إلى الأندلس وقد حمل فى صدره العلم كله ، فإذا الأندلس شعلة نار ، وقد انفرد بكل ناحية أمير . فندب نفسه لإصلاح ما بينهم ، فكان لا يحدث أحداً منهم فى الوحدة وضم الصفوف إلا استثقله واستبرد نزعته ! وعكف الرجل آيساً فى جامعه يقرئ تلاميذه ويتحسر على ذلك العالم الذى أصابه الجنون . .

وباجه ليست إلا حصناً ، موقعها على الربوة العالية يؤكد ذلك بأفصح بيان . إنها ليست مدينة ، بل قصبة مدينة . شوارعها منحدرات ومصاعد ، ممراتها أزقة ، والجو كله جو حرب ودفاع . وقد بقى من معالم القصبة الأندلسية حصن منيع لا شك أنه جدد مراراً بعدنا . إنه يتربع فوق الربوة العالية كأنه تاج ، من هذا الحصن الذى يحمل اليوم من طابع البرتغاليين أكثر مما يحمل من طابع العرب ترى المدينة كلها ومن حولها مروج خضراء عامرة بالخير ، وهنا وهناك تلمح عيناك نخلات تتطلع فى شيء من استحياء .

ومن باجه جنوباً إلى البحر تمضى فى إقليم أندلسى صرف : القرى الصغيرة البيضاء ذات سقوف من القرميد الأحمر ، ووجوه الناس سمراء طيبة كوجوه أبناء عمومتنا فى العدوة المغربية ، النساء يأتزرن بالسواد وعلى رؤوسهن شيء كأنه الخمار الأسود ، وأشجار الزيتون الفضية توشى التربة الحمراء كأنها جواهر ، وهنا وهناك يطفر جحش لطيف كأن شعره قطن أبيض . ذلك هو بلاتيرو ، الجحش الفضى الذى حصل على جائزة نوبل

للآداب . . فهو بطل القصيدة المنثورة الذائعة الصيت التي كتبها خوان رامون خيمنيث ، ونحن الآن في إقليمه ، فقد نشأ وعاش أوائل سنواته في بالُوس دي مُوجِير على مقربة من وَلْبَة في إسبانيا ، ونحن منها الآن على خطوات ..

وننتهي إلى شِلْب (سِيلْفِش) آخر مراحل هذا المرور السريع بالبرتغال . إنها مدينة تبدو لك من بعيد وكأنها جوهرة بيضاء في زرقة البحر . على مقربة من ذلك البلد ، في قرية تدعى شَنَّبُوس نشأت أسرة بني عباد التي أنجبت المعتمد محمداً أمير إشبيلية الشاعر .

رجل خُلق من الشعر .. وعاش به وله كأنه كان يتنفسه ، ثم وجد نفسه حاكماً عليه أن ينظم ويدبر ويسوس في ظروف تحتاج إلى عبقرية الرشيد لينجو ببلده من المهالك ، فما بالك وقد كان المعتمد أبعد ما يكون عن السياسة وفنون الرياسة؟ .. ما سيَّر جيشاً إلا عاد إليه هزيماً ،وما أقام والياً إلا أخطأ الاختيار ، والعدو يشتد عليه من الشمال ويطالبه بالأموال ..

ولكنه عرف كيف يختم حياته ، وفي موقعة الزَّلاّقة ، إلى جانب يوسف ابن تاشفين حارب واستبسل ، وجرح وسال دمه مكفراً عن ذنوبه ، ثم رأى يوسف بن تاشفين أن يريحه من ذلك العناء كله فنقله وآله إلى أغمات جنوب غربي مراكش ، وهناك عاش سنوات من الشعر الحزين حتى وافاه القدر المكتوب . .

ولكن ابن شلب الحقيقي هو أبو بكر محمد بن عمار ، شاعر فحل آخر تغنت بقصائده إشبيلية . . رفعه الشعر من معلم صبيان إلى وزير ، فصدح وأنشد ، ثم طمحت نفسه إلى الإمارة – ولم لا ، وقد أصبح الكل أمراء ؟ – فكان في ذلك حتفه . ووقع أخيراً في قبضة صديقه القديم المعتمد ، وسيق مكبولا على بغل من أقصى شرق الأندلس عند مُرْسِيَة حتى إشبيلية .

وتصورْ هذا الرجل محمولا على هذه الصورة السوداء ، والموت ينتظره في آخر المطاف ، ثم يقول شعراً تعجز عن مثله الأذهان الشاعرة الصافية !

رحمك الله وغفر لك أبا بكر ! كلفت نفسك شططاً وحملتها ما لا تطيق ولعب بك الشيطان ، فسالت نفسك على ظبي المطامع !

كانت شلب على أيام الخلافة قاعدة كورة أكْشُونُبَة ، وهي اليوم من قواعد مديرية الغرب (إل ألجارب) في البرتغال ، ولا زال حصنها المنيع باقياً إلى اليوم . إنه قلعة هائلة ذات أسوار وبروج تتطاول في السماء كأنها تحاول أن ترى المغرب ، والبلد عتيق هادئ يبدو عليه الفقر .

ومن شلب نعود أدراجنا إلى إسبانيا . نمضي مُساحلين ، فنمر ببلدة فارو ، كانوا يسمونها على أيامنا شَنْتَمَرِيَّة الغرب ، ثم نمر ببلد عربي آخر هو طَبِيرَة ، ثم ندخل إسبانيا عند أيامونتي ، ومن أيامونتي نصل إلى ولبة (أويلْبَا) ، من هنا تهب علينا نسمات إشبيلية . على تسعة كيلومترات من ولبة تقوم بلدة الرابطة التي حدثناك عنها .

هنا ، عند مشهد من أعظم مشاهد التاريخ ، أحب أن نقف بهذا الحديث . . .

إن شئت أن تمضي إلى إشبيلية فأنت وشأنك ، أما أنا فسأقف هنا يوماً وبعض يوم ، وفي هذا الفندق الصغير المطل على البحر سألتمس شيئاً من راحة ، فإن صور التاريخ تجري في ذهني بأسرع مما تمضي عجلات هذه السيارة . وليس في الدنيا أمتع ولا أعود بالفائدة من ساعة نسترجع ذكريات الماضي خلالها لنتملى عبرها ، وليس أصلح لهذا الاعتبار من ركن هادئ كهذا الذي نقف عنده . .

لقد قمنا بهذه الرحلة الطويلة لنتأمل ونستذكر ونستبصر . .

وهذا الفردوس مفقود إذا لم يكن مجالا للعبرة والموعظة ، وموعود أيّ موعود لمن يذكر أن التاريخ كتاب اليوم والغد . .

والماضي — كما قلنا — لا يموت إلا بالنسبة إلى الأموات !

كشاف

«ب»

«ح»

«خ»

«غ»

«ف»

«ق»

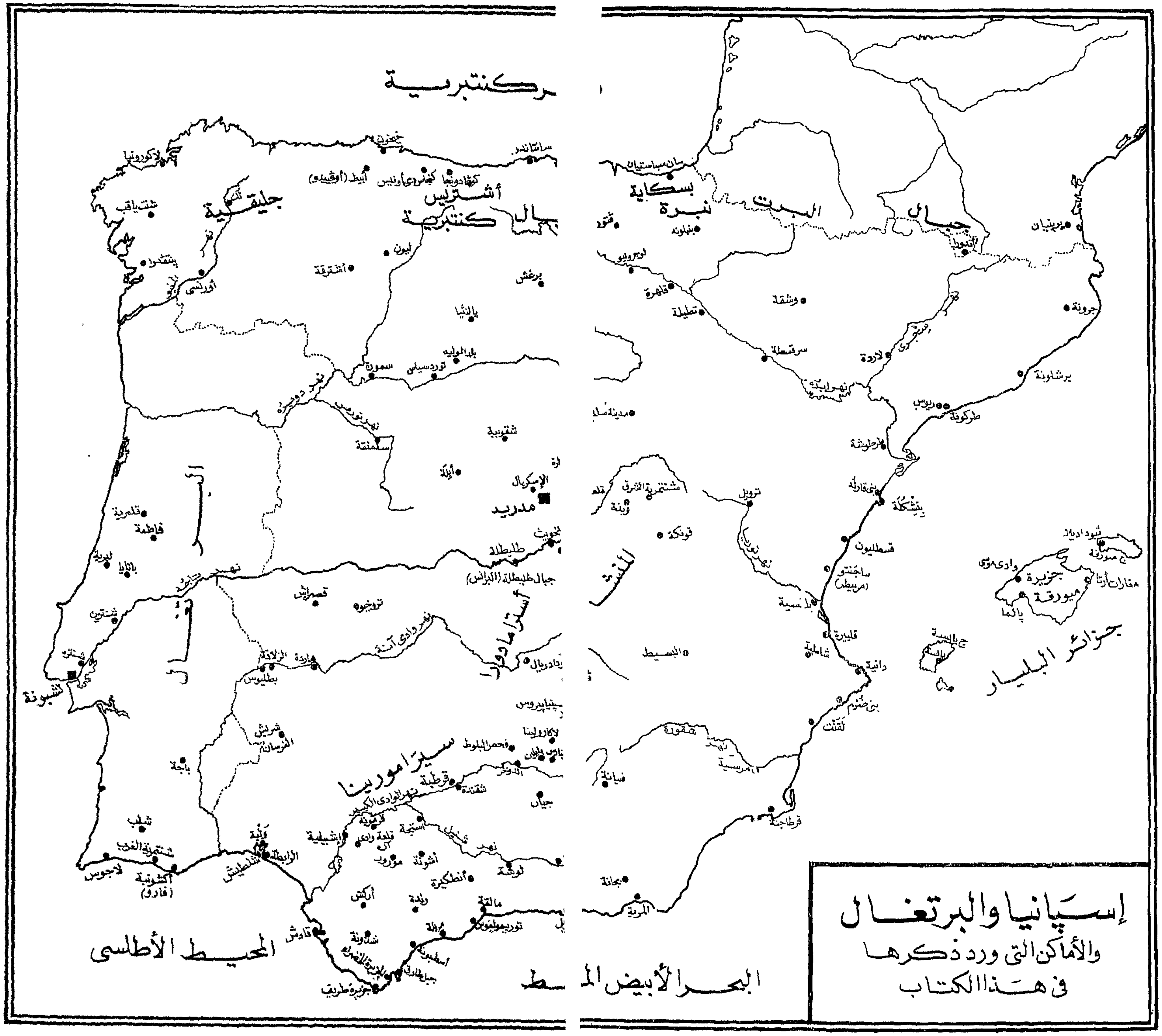
«ك»

«ل»

«ن»

«هـ»

«و»



إسپانيا والبرتغال

والأماكن التي ورد ذكرها

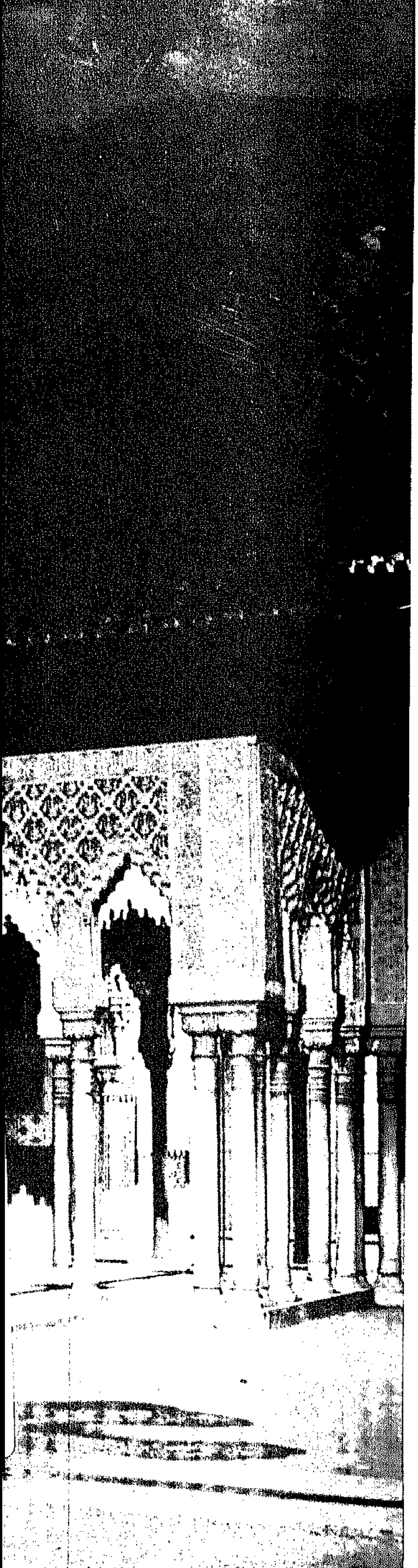
في هذا الكتاب

محتويات الكتاب

VIAJE POR ESPANA

BY
HUSSAIN MONÉS
Professor at the university of Cairo

SAUDI PUBLISHING
&DISTRIBUTING HOUSE
1985



رحلة الأندلس

حديث الفردوس الموعود

الكتب كالناس: لها حياة وحظوظ ومقادير.

وهذا الكتاب صادف محبة وحسن قبول من قارئه لأول ظهوره، ربما لأن موضوعه يمسّ عاطفة المسلم ووجدان العربي، فهناك في قرطبة تلاقت أشعار أحمد شوقي ومحمد إقبال وشعراء عرب كثيرين مجيدين، ولا عجب في ذلك فإن الأندلس من أحب أرض الله إلى عباد الله ما بين عرب ومسلمين حتى لقد درجوا على أن يسمّوه: الفردوس المفقود.

وقد سميته الفردوس الموعود لأخفف بكلامي من شجن المسلم ولوعة العربي. فإن الأندلس لا يكون قد ضاع إذا كنا قد انتفعنا بعبرته أو تعلمنا مما جرى عليه كيف تحصن بقية أوطاننا من أن تكون أندلسات.

الدار السعودية
للنشر والتوزيع